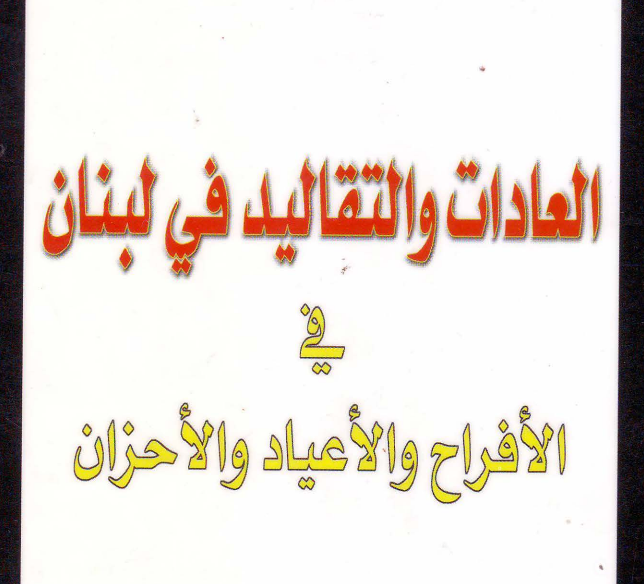
د. حسن أمين البعيني



العادات والتقاليد في لبنان

في

الأفراح والأعياد والأحزان



د. حسن أمين البعيني

العادات والتقاليد في لبنان

في

الأفراح والأعياد والأحزان

* اسم الكتاب: العادات والتقاليد في لبنان.

* تأليف: د. حسن أمين البعيني.

* الطبعة الأولى : شباط (فبراير) 2001 م.

* الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والاعلام

■ ص. ب 13-5261 بيروت ـ لبنان

■ هاتف: 01-351291 ـ فاكس 961-1-747089

الاهداء

إلى من أجد فيها ذاتي.

من فازت بالمرتبة الأولى على صعيد لبنان في شهادة العلوم الاختبارية سنة ٢٠٠٠.

إلى ابنتي شادية أهدي هذا الكتاب في عيد نجاحها وتفوقها.

حسن

محتويات الكتاب

المقدمة

من سنن الحياة وجود الشيء ونقيضه، وتبعاً لذلك وجود الفرح ونقيضه الحزن، والفرح في اللغة هو المسرة والسرور والسرّاء، والعيد هو الأوقات التي يعود فيها الفرح. والحزن هو الغم والكدر والضرّاء.

والانسان بطبعه يحب الفرح وينتظر مناسباته ويعمل على ايجاد المزيد منها، ويكره الحزن، ويسعى إلى إزالة أسبابه وعوامله والتخفيف من أضراره، ويتعاطى مع حالاته على أنها أمر واقع مفروض لا بد منه. ولقد نشأت عنده منذ ان وجد مظاهر لحالات فرحه وحزنه البدائية تطورت مع الزمن، كما نشأت عنده في مراحل وثنيته طقوس كلامية يستجير بها، ويقيمّ على القوى الغامضة التي يخشاها ويستدعي الخير والبركة ليتجنب ما تسببه له من خوف وقلق وأضرار وأحزان.

وكما ان الإنسان بحاجة إلى من يشاركه فرحه ليتفاعل هذا الفرح ويزداد ويتوسع اطاره ويأخذ مداه الاجتماعي، هكذا هو بحاجة إلى من يقف الى جانبه في حالات حزنه ليواسيه ويعزيه ويبلسم جراحه ويخفف آلامه ويقوي عزمه المنهار في مرحلة ضعفه وتحطمه ويأسه وغمه وتكدره، ويجبر خاطره المكسور بأحد الأحزان والنوائب والنكبات.

ان الناس، أياً كانوا، شركاء بعضهم دوماً في السراء والضراء، وعلاقاتهم مبنية على قواعد التعاضد والمؤازرة والمواساة والمشاركة وتبادل الخدمات والمنافع. وحياتهم أخذ وعطاء، تسليف ووفاء، وتزاور وتبادل تهاني وهدايا، وجميع هذه الأمور تتم وفق عادات وتقاليد هي وليدة القيم والمفاهيم التي تحدد الواجبات ازاء الفرحين والمحزونين، وتعزز التعاطف الاجتماعي، وتمتن أواصر العلاقات.

العادات والتقاليد في لبنان في الأفراح والأعياد والأحزان هي عادات الشعوب التي توطنته أو احتلته عبر الأزمنة، وتفاعل بعضها مع بعض ومع عادات الجوار، وتطورت بتطور الأوضاع الفكرية والاقتصادية والاجتماعية، وارتبطت في كثير من النواحي بالمعتقدات الدينية، وخضعت لأحكامها كلياً أو جزئياً، وما خالف هذه الأحكام عُدَّ في نظر رجال الدين بدعاً وان كان مقبولاً من الأكثرية. وهي كسواها من العادات والتقاليد أحد جوانب التراث المشترك بين لبنان ومحيطه، وطابعها الغالب هو الطابع العربي والطابع الاسلامي والمسيحي اضافة الى رواسب من الوثنية كبعض عادات المأتم والأعياد والمواسم الدينية. وأوجه التشابه فيها بين المناطق اللبنانية أكثر من أوجه الاختلاف نظراً لمقتضيات العيش الواحد، ولوحدة التراث، وللتفاعل بين الناس والتأثير المتبادل.

ان دراستنا لهذه العادات تجمع بين العرض والنقد، وتعالجها بأوجه تشابهها واختلافها، وتتابعها منذ نشوئها وفي مراحل تطورها تعديلاً والغاء واقتباساً مع إدراج الكثير من التعابير الشعبية بما في ذلك الركيك منها الذي يدل على العفوية والبساطة؛ لأن الركيك هو كالبليغ جانب من الأدب الشعبي جزيل الفائدة في مجال التعبير عن المفاهيم الاجتماعية.

هذه الدراسة هي الثانية عن العادات والتقاليد في لبنان بعد دراستنا الأولى التي صدرت في سنة ١٩٩٨ وتناولت عادات الزواج. وهي كالأولى حصيلة مشاهدات ودراسة ميدانية كما هي حصيلة معلومات مستقاة من بطون المصادر والمراجع المكتوبة. فعسى أن يجد فيها القارىء الكريم الفائدة المرجوة، وان تلقى عنده استحساناً بقدر ما بذل فيها من مجهود. والى من ساعدني وسهّل مهمتي وزوّدني بالمعلومات كل الشكر.

والله من وراء القصد.

د . حسن أمين البعيني

الباب الأول:

الأفراح والأعياد

الفصل الأول:

مناسبات الأفراح الشخصية

مناسبات الأفراح عند اللبنانيين تشمل كل موضوع يجمع فريقاً صغيراً أو كبيراً منهم ويسرهم سواء كان موضوعاً فردياً أو عاماً، سياسياً أو اجتماعياً ناشئاً من العلاقات السياسية والاجتماعية وظروف العمل. وهي كثيرة ومتنوعة بتنوع مصادر الفرح وأسبابه.

من مناسبات الأفراح المناسبات الشخصية التي تعود إلى شخص ما وتقترن باسمه كالولادة، والختان، والعماد، وذكرى الولادة، والخطبة، والعرس، والشفاء من المرض، والنجاة من حادثة أو قطوع، والعودة من سفر أو حج، ووفاء النذر، والنجاح في أمر ما، وإنجاز عمل كبناء بيت، والوليمة أو الاحتفال الذي يقام على شرف أحد الأشخاص إلى ما هنالك. وهذه المناسبات، وان سميت بـ «الشخصية»، ذات طابع عام وصبغة اجتماعية في الوقت نفسه؛ إذ ان الفرح بها لا يقتصر على صاحبها، بل يشمل أيضاً الأهل والأقارب والجيران والاصدقاء، كما يشمل في بعض المناسبات العارفين والمساكنين، وعندها يزداد فرحه بوجود الجماعة، ويتفاعل مع فرحها ومشاركتها التي كلما كبرت أخذ الفرح مداه وأبعاده.

ومن مناسبات الأفراح المناسبات الناتجة من ظروف العمل كالاحتفالات التي كانت ترافق موسم القز والعونات في القرية اللبنانية. ومنها المناسبات الاجتماعية العامة كالأعياد والمواسم الدينية، والمناسبات السياسية التي هي الذكر القومية والوطنية والفئوية، وذكر رموز الوطن والجماعات، ومهرجانات الاستقبال أو التأييد للقيادات السياسية والرئاسات الروحية، واحتفالات النجاح في تسلم المناصب، وسائر المناسبات المحبوبة والمتجذرة في ذاكرة الناس.

كثرة الولادات: انجاب الأولاد احدى غايات الزواج الأساسية؛ فبهم يستمر الجنس البشري، وبهم وبالمال تجمل الحياة «المال والبنون زينة الحياة الدنيا»[1]. والبيت المشتمل عليهم يوصف بـ «المضيء»، والخالي منهم يوصف بـ «المعتم». ونظراً لأهميتهم وضرورتهم يعمد الكثيرون من الرجال إلى طلاق زوجاتهم العاقرات بالرغم من المحبة التي تجمع بينهم.

كانوا في السابق يكثرون من الأولاد ويعدّونهم هبة من الله ونعمة وبركة «طعمة الله»، ويحمدونه على إنعامه عليهم منهم معتبرين اياهم منه وله؛ لأنهم إذا ما سئلوا عن عدد ابنائهم أجابوا ان عندهم كذا وكذا ولداً لله. وما كان عندهم كما اليوم عقاقير ووسائل لمنع الحمل واسقاطه (الاجهاض)، بل كان عندهم على العكس من ذلك رغبة في كثرة الانجاب وإيمان بالمقدّر لهم من عدد الأولاد.

لقد دعا الرسولﷺ قومه إلى أن يتزوجوا ويتكاثروا، وقال لهم: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة». وكثرة الأولاد في الماضي مدعاة للفخر، وفيها تعويض عن ضخامة عدد الوفيات بسبب كثرة الأوبئة والحروب وقلة الاطباء والدواء، وزيادة في قوة المرء وسلطته؛ لأنها تكبّر «عزوته» أو «لفيفه» الذي يشمل، بالإضافة إلى ذريته وأقاربه العصبيين «اللزم»، اصهاره. فالصهر «سندة الظهر». و«العزوة» تقف إلى جانب الإنسان في السّراء والضّراء، وعند الخصومات التي يحتاج فيها إلى عون وحماية. وعن محبة الابناء مهما كثروا يقولون «ان كانوا ميّة أعز من عيني»، وعن قلتهم يقولون «بنت وصبي شهوة النبي».

والتعجيل في الزواج سيؤدي حتماً إلى التعجيل في الانجاب، لذا كانوا يقولون: زوّج الولد يجيب ولد ـ تزوجوا على جهلكم وربوا أولادكم على مهلكم ـ جيبوا الأولاد على جهلكم وربّوهم على مهلكم». ولم يكن يساورهم القلق من صعوبة اعالة الكثرة من الأولاد لإيمانهم بأن رزقة الولد تأتي معه «كل ولد بيجي بتجي رزقته معه». وما كان الابناء يشكلون عبئاً على الأهل، أو يرتبون تكاليف معيشة وتعليم وطبابة، كما هو الحال اليوم، بل كانوا طاقة انتاجية ابتداءً من سن الخامسة، لذا كان يقال في الأرياف: «نيّال الذي فدانه من بقرته وأجيره من مرته». ويُعنى بذلك هنيئاً لمن له فدان من ولادة بقرته لا بالشراء، وعمال من ولادة امرأته لا بالاجرة.

---

(١) سورة الكهف، الآية ٤٦.

التحضير للولادة: تبدأ مرحلة الولادة بالحمل. وتسمى الحامل «مستقيمة». وفترته الأولى تسمى «الوحام». وهو، ولا سيما الأول منه، مرحلة دلال للمرأة تُعطى فيها ما تشتهي من الأكل سواء من بيتها، أو شراء ومهاداة من الآخرين. ويقدم لها الأكل المغذي واللحم والقصبة السوداء (المعلاق) والكلي، حتى إنهم كانوا يذبحون خصوصاً لإطعامها (المعلاق). ويقدم لها بواكير الفواكه والخضار وأي غريب من الأطعمة من الممكن تأمينه تجنباً لانطباع ما تشتهيه وتحرم منه «شهوة» في جسم الجنين ترافقه طوال حياته كما نرى في أجسام كثيرة. ولتلافي ارتسام «الشهوة» في مكان ظاهر من جسم الجنين تعمد الوحمى إلى حك مكان خفي من جسمها. وبما أن الجميل والقبيح من المناظر يؤثران في نفسها، وينعكسان على جنينها، تُوصى بتجنب رؤية القبيح من الناس والحيوانات والمخيف من المناظر، وبإطالة النظر إلى الوجوه الجميلة. ويحمّص لها القمح وتعلّق عوذة في رقبتها اسمها «الماسكة» لوقايتها من الاجهاض أو الاسقاط المعروف بـ «الترويح» إذا حصل ما ينذر به.

وابتداءً من الشهر الخامس أو السادس يبدأ تحضير «جهاز الطفل» أي ملابسه ولوازمه، فتشترى الأقمشة اللازمة، ويعين يوم لتفصيلها وخياطتها يُفضّل أن يكون الخميس «الخميس فصّل لحبيبك قميص» ولا يكون ثلاثاء وسبت لأنهما يومان مضران. ففي اعتقادهم ان الثلاثاء وراثة والسبت حريق. وفي الموعد المحدد تجتمع الحامل وحماتها ووالدتها واخواتها وأخوات زوجها وعماتهما وخالاتهما. ويفصّلن الثياب فرادى تفاؤلاً بمجيء الصبي. ففي اعتقادهم أن الفرد دلالة على الذكر، والمجوز أي الزوج دلالة على الأنثى.

وفي اعتقادهم أن أول قادم عليهم عند البدء بالتفصيل ينبىء بجنس المولود. فإن كان ذكراً توقّعوا ولادة صبي، وان كان أنثى تشاءموا واعتقدوا أن المولود القادم أنثى. ثم إنهم يعمدون إلى رمي قطع الثياب المفصّلة في الهواء، فإذا سقطت على قفاها كان المولود انثى، وإذا سقطت على وجهها كان ذكراً. ولألوان ثياب الطفل دلالات، فالأزرق يوحي بالصبي، والزهر بالبنت، والأبيض للجنسين. ويخصص اللون الأزرق للصبي؛ لأنه في اعتقاد الناس يردّ العين الشريرة عنه. والخرزة الزرقاء ترد العين الشريرة.

ويكثر التكهن عن جنس الجنين اعتماداً على معارف أولية ومعطيات تبنى عليها الأحكام وتصح في معظم الحالات. فارتفاع البطن باتجاه الصدر، وتبشع وجه الحامل نسبياً، وخفة حركتها، وعدم احساسها بالعجز المسمى «الغلب»، واقبالها على مأكولات معينة، وفرحتها بولادة الصبيان عند الآخرين، وانزعاجها من ولادة البنات، أمور توحي

بأن معها صبياً، بينما يوحي عكس ذلك بأن معها بنتاً، ولا سيما إذا بدت جميلة؛ لأن «أم العروس عروس». وعند عدم القدرة على التكهن ووجود ما يحيّر يقولون: «من كتب غلب - المكان الذي يقعد فيه الصبي تقعد البنت».

ويحضّر للمولود ارجوحة لوقاية جسمه وتوفير الراحة له، تعلّق بالحبال في سقف البيت أو في «مدوده» المصنوعة من الجذوع الخشبية لتتحرك بسهولة عند هزّها لتنويم الطفل؛ ثم باتت سريراً معلقاً بركيزة خشبية تابعة له مرتكزة على الأرض. ويجهّز السرير بفرشة كاملة هي فراش ولحاف ومخدات صغيرة «خديديات» محشوة جميعها بالصوف أو الريش أو القطن، وشراشف بيضاء رمزاً إلى الطهارة، وأغطية صوف (حرامات). ويُثقب الفراش لمرور افرازات الطفل في انبوب واسع (قسطل) يسمى «النقير» أو «الاصيص» أو «القارورة»، ويتصل بوعاء مخصص لجمع الافرازات يسمى «الأرضية» أو «القسرية». وبهذه الطريقة يبقى الفراش نظيفاً.

ويحضّر الريحان، وهو نبات مطهر ومعطر يمزج دقيقه بالزيت ويمسح به جسم الطفل. وبما أن دقه وغربلته يتطلبان مجهوداً ووقتاً، يتطوع لهما الأهل والجيران والاصدقاء والأقارب. لذا يقال المثل التالي في كل من يقسو على انسان ولا يشفق عليه: «مش (غير) تعبان بدق ريحانه». ومن عادات المقاطعجيين تكريم أتباعهم باهداء الريحان إلى ابنائهم.

ولا بد من تحضير لوازم الوالدة بعد وضعها، وبعض الاطعمة الضرورية لنفاسها مثل البيوض وصغار الدجاج المعروفة بـ الفراخ (الفراريج)، ولوازم «المغلي» التي هي اليانسون وأنواع البهارات التالية: القرفة والكراوية والخولنجان والزنجبيل وجوزة الطيب والسكر. وسُمي المغلي بهذا الاسم لأن مواده المذكورة تغلى مع الماء وتشرب ساخنة في فناجين يعلوهاالجوز واللوز والصنوبر. وقد حلّ مكانه في الفترة الأخيرة «المغلي بالارز» المصنوع من كسر الارز والمعد بالطريقة نفسها، والذي يضاف اليه فتات (برش) جوز الهند الأبيض، ويؤكل بارداً.

الوضع: كانت الحامل لا تخضع لرقابة صحية، فعلى بركات الله والنية تسير الأمور في اثناء الحمل والوضع، وبدون انقطاع عن العمل في الحقول عند المزارعين، وهذا ما يسبّب الاجهاض وتشويه الجنين أحياناً، مع الاشارة إلى أن الحركة تسهّل الولادة. فبعض الحاملات ولدن بسهولة في الحقول وتحت اشجار الزيتون والتوت خلال موسم الحصاد والزيتون والقز. وبعد تقدم الطب وتوفر الاطباء ظلت الكثيرات من النساء يحجمن عن الكشف الطبي والمعالجة بسبب الايمان بالله وبقدرية الامور وطبيعتها، والحياء الذي يمنع الكشف عن الاجساد أمام الطبيب، وضيق ذات اليد.

حين تحسّ الحامل بالمخاض تكون أمها وحماتها أول المسارعين اليها، وتُستدعى قريباتها والداية، أي القابلة التقليدية التي لها دور القابلة القانونية اليوم، والتي تتمرس على يد والدتها او يد داية اخرى. والداية كلمة فارسية معناها المرضع. وفي بعض القرى كان جميع من يولدون على يدها ينادونها «ياستي» تقديراً وعرفاناً بالجميل.

والداية في القرى لاتحضر معها شيئاً، بل تستعمل ما تراه ضرورياً من مقتنيات البيت. والداية في المدينة تحضر معها كرسياً خاصاً بالتوليد له ظهر عن جانبيه مسندان، وهو مفرغ من وسطه لتلقي المولود. ولم يكن عمل بعض الدايات في القرى يقتصر على التوليد فقط، بل كان يشمل الاعتناء بالأم والطفل لأسابيع وغسل ثيابهما، وغسل ثياب سائر أفراد العائلة التي تكرمها. ويعطى للداية أجرها المحدد عند ولادة البنات، ويُعطى لها اكرامية «بخشيش» زيادةً على ذلك عند ولادة الصبيان.

توضع الحامل على الكرسي، أو على مسند. وتلتف حولها قريباتها ليشجعنها ويقدمن للداية ما تحتاج إليه. ولم يكن آنذاك من مساعدة لها سوى بعض الارشادات الأولية من الداية، وعبارة «عيني ولدك» عند اشتداد الطلق. وإذا ما تعسرت الولادة يُلجأ إلى الذخائر والعوذ والنذور للأنبياء والأولياء، وتُلبس المرأة طربوش زوجها، ويُطلب إلى الزوج أن يقف خلف ظهرها لعل وجوده يشجعها ويفيدها، وان يدحل السطح بالمدحلة ويركض عليه ويقفز[1]. وحضور الزوج ولادة زوجته طريقة معتمدة حالياً في بعض المستشفيات المهمة، وذلك لتخفيف آلام الزوجة.

فور حصول الولادة يصرخ الطفل وكأنه يعلم الناس بقدومه. انها صرخة الحياة المقابلة لصرخة الموت. الا أن بعض الأطفال يبطئون للحظة أو لحظات، فتعمد الداية إلى النفخ في وجوههم وأنوفهم أو التلويح لهم بشيء ما يهز أجسادهم ويحدث الرعشة فيهم ليصرخوا. وتقطع الداية صرّة الولد وتربطها بخيط ثخين ليّن من القطن تطهّره بتغميسه بالماء الساخن المملح. وبعد مضي عدة أيام تقع الصرّة، فيحرص عليها الأهل، ويضعونها فوق عتبة البيت كي لا يمرَّ أحد فوقها ويسبب «كبسة» الطفل. ومنهم من يحتفظ بها ويخبئها أو يرميها في البحر.

بعد ذلك تعمد الداية إلى «تمليح» المولود أي تطهير جسده بالماء الفاتر المملح، و«تحنيكه» بإدخال سبابتها المبلولة بماء الملح في فمه وادارتها في سقف الحنك وتحت اللسان والضغط على لوزتيه لتوسيع غلصمته. وتنظف أنفه وأذنيه، وتلبسه قميصاً من

---

(١) للمزيد من المعلومات انظر فؤاد الخوري، من مشارف المئة، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٨٧ ص ٤٥ - ٤٧.

الشاش، فقميصاً أخرى من الباتستا فوقها، فقنبازاً من الباتستا أيضاً، وتشد القنباز عند الوسط بزنار. ثم تلبسه جاكيت من الفانلا أو فستاناً، وتلفه بقطعة من النسيج تُسمى «الملفة» أو «الكافولة» أو «القماط». وتشد رأسه بعصبة وتضع عليه قبعة من صوف تسمى «طربوش» لوقايته من البرد. وإذا لم تغطِ القبعة عينيه تضع عليهما القطن كي لا يتلفحا.

وبعد أن تري الداية الطفل للحاضرين مسمية بالله عليه، واصفة إياه بأنه مثل القمر، تريه لوالدته وللحاضرات. وإذا كان ذكراً تريه لأبيه ولجده، فتأخذ الحلوان أو النقوط، ثم تضعه إلى جانب والدته. «وبعض اللبنانيين يركبونه على فرس كحيلان أو على كتف عذراء تفاؤلاً بالخير»[1]. وقد يؤتى بالكاهن عند النصارى ليصلي على الباب تبركاً، أو يصلي على رأس الطفل في الكنيسة. وكان من المفضل خروج الطفل النصراني أولاً إلى الكنيسة، وخروج الطفل المسلم إلى مزار البلدة أو أي مزار قريب.

ومن تقاليد المسلمين الراجعة إلى السنّة النبوية القاء الاذان الشرعي في اذن المولود اليمنى، وكلمات الاقامة في أذنه اليسرى. فالمسلم يستقبل بالآذان عند ولادته ويودّع به عند احتضاره. والأمران يدلان على بداية حياته وانتهائها بالإسلام فضلاً عن معايشته ديناً ودنيا. وكان الرسول ﷺ، يدير حبة التمر في فم بعض من رآهم من أطفال حديثي الولادة معبراً بذلك عن الاكرام للنخلة نظراً لعراقتها في تاريخ العرب ولأهميتها الاقتصادية والغذائية. وفي القرآن الكريم آيات كما في السيرة النبويّة أحاديث تعبر عن إكرام هذه الشجرة المباركة. وقد ظل التحنيك طريقة متبعة عند الدايات في مرحلة طفولة الأولاد لما فيه من فائدة صحية.

ومثل هذا يحصل للنصراني إذ يحضر الكاهن يوم ولادته، ويباركه بصلوات خاصة، ثم يعمّده في الاسبوع الأول من ولادته، ويصلّي على رأسه بعد مرور أربعين يوماً، وهذه أمور تدل على استقباله بدينه النصراني وتنصيره، كما تدل صلاة الكاهن عليه عند الاحتضار بتوديعه به. وهكذا تبدأ حياته وتنتهي بالنصرانية.

الفرح بولادة الصبي: ولادة الصبي كما حمله أسهل على الأم عموماً من ولادة البنت وحملها. لذا تستدل اللواتي يحضرنها على جنس المولود من سهولة الولادة أو صعوبتها. وإذا لم يستطعن رؤية المولود بعد الوضع مباشرة يعرفن أنه ذكر من فرحة الداية وابتسامتها، ومن قولها عند المسلمين: «صلّوا على النبي»، ومن قولها عند

---

(١) لبنان. مباحث علمية واجتماعية. كتاب نشرته لجنة من الادباء بهمة اسماعيل حقي بك، متصرف جبل لبنان، سنة ١٩١٨، واعادت طبعه الجامعة اللبنانية، بيروت سنة ١٩٦٩، ص ١٦٨.

النصارى: «محبة بالمسيح». ويعرفن أنه أنثى من وجوم وجهها أو عدم ظهور الانشراح عليه، ومن قولها عند النصارى: «محبة بالعذراء». وكن يجبنها أحياناً بالغناء مثل:

بتستاهلي يا دايه	قفّه ملانه رمّان
ريتك تزوري النبي	يامبشّرة بالصبيان

كان الناس يفرحون بولادة الذكور مهما كثروا، ويقولون: «الله يبارك بخلقتهم». وفرحتهم بولادة الأبكار هي الفرحة الكبيرة، باستثناء بعض تقاة الدروز الذين لا يفرحون بالولادة ولا يحزنون بالوفاة انطلاقاً من ايمانهم بعقيدة التقمص. فإذا ما ولد لهم صبي قالوا: «الله يعين أهله»، ففي اعتقادهم أنه قد يكون شاباً في جيله السابق أو ممن هم أهلهم بحاجة إليهم. وكان الناس يغتمون بولادة الاناث مهما قللن، ولا يفرح بهن إلا القلة، وفي حال إذا كن الابكار، أو جاءت ولادتهن بعد العديد من الصبيان، حتى ان عتبة البيت، بحسب ما كانوا يعتقدون، تحزن لمدة أربعين يوماً عند ولادتهن.

فالذكر يحمل اسم والده ويرثه، ويؤمن تسلسل نسب العائلة. فمن خلّف الذكور لا يموت «مين خلف ما مات». فبيت الذكور عمار، وبيت الاناث خراب، بحسب التعابير الشعبية. والذكر حمّال السيف، ونقّال البندقية، وحامي الحمى، ومعيل المرأة، لذا كان يقول الدروز وعشائر الهرمل عند ولادته: «زدنا بواردي»، أي زدنا مقاتلاً. بينما البنت الملقبة من قبيل «التحقير» بـ «توهه» تعتبر عند الجميع عبئاً مادياً ومعنوياً، ومن المحتمل أن تجلب العار لأهلها في المستقبل. لذا يقال: «هم البنات للممات». فهن عرض الرجل، أي شرفه الذي يحرص عليه، وانتهاكه عار لا تغسله الا الدماء.

وخبر الصبي يشيع بسرعة. ولمبشّر الاهل به، وخصوصاً لمبشّر الوالد، هدية معروفة بـ«الحلوينة» أو «شوفة الخاطر». وخبر البنت، بحسب ما يقال، «منطفىء» إذ لا يبشر بها أحد، ويحجم العارفون بولادتها عن الاجابة مكتفين بالغمز وتقليب الشفاه، متكلمين بعبارات فيها تعزية للأهل وكأنهم أمام مصيبة، أو على الأقل أمام أمر مكروه، حتى إن بعض الآباء لا يرون طفلتهم، بل يرون طفلهم عند الولادة. ومنهم من يترك البيت طوال النهار هروباً من الغم، لكن الغم يلاحقه انّى ذهب إذ يتعرض أحياناً لضربات الكف المعروفة بـ «الصكّة» على رقبته من رفاقه الذين ولدوا صبياناً. ومنهم من يقول عن قناعة أو عن تظاهر: «البنت خلقة الله ـ البنت مثل الصبي ـ لولا البنت لا يأتي الصبي ـ المهم الخلقة الكاملة والخلاص بخير ـ خلقة كاملة نعمة شاملة ـ المهم الخلاص وخلقة مثل الناس ـ ما أحلى البنات بوجود البيّات».

اسماء الاعلام صفات واشتقاقات من الأفعال. منها العربي، ومنها الأعجمي الذي توارثه الناس عن الشعوب التي استوطنت بلادنا أو التي استعمرتها وعن الشعوب الأخرى بسبب المخالطة. ولم يكن في السابق ضرورة ملحة لقيد الطفل في دوائر الدولة، وبعضهم كان يرجىء ذلك عدة سنوات. إلا أن هذا لم يكن يؤخر على الاطلاق اعطاء اسم للمولود لمناداته به. ولم يكن الاسم يطلق جزافاً عليه، بل كانت التسمية ولا تزال تخضع لعوامل ومؤثرات عديدة.

ومن العادات المعمول بها عند الكثيرين أن يسمي الأب الصبي وتسمي الأم البنت، وأحياناً يترك الوالدان الأمر لجد الولد وجدته أو لأحد اخوته واخواته والأقارب. منهم من يستعرض الاسماء ويعوّل كثيراً على ضرورة اختيار أجملها وأفضلها. ومنهم من لا يعير ذلك أي اهتمام قائلاً: «الاسم علامة ـ والإنسان لا يزينه اسمه بل تزينه صفاته وأعماله». ومن مرويّات الناس في هذا المجال أن شخصاً سمى ابنه اسماً قبيحاً وكان يقول لمستهجني ذلك: «ان طلع زين يزيّن حاله».

وكان هناك الكثيرون الذين يعتمدون على «شرح طالع» الصبي قبل اعتماد اسمه. فمن الاسماء ما لا يلائم في نظرهم، إذ لا غرو بجماله بل بملاءمته. والمختصون بشرح الطالع قليلون، وهم يجرون حساباً معيناً على أساس برج الصبي الذي يفيدهم عنه كتاب خاص بالابراج، وعلى أساس اسمه واسم أمه. فإن جاءت خلاصة الحساب ملائمة سمي بالاسم المقترح له، وإلاّ سمي باسم آخر يلائمه. وكثيراً ما اضطر الناس إلى تبديل اسماء ابنائهم على كبر عند عدم توفيقهم في أعمالهم أو في صحتهم اعتقاداً منهم ان اسماءهم لم تلائمهم.

وأول اسم يُطرح كنية الوالد قبل الزواج؛ إذ تطلق غالباً على الابن البكر. كما تُطرح اسماء الاعزّاء، ولا سيما الاعزاء من اسرة الوالد كأسماء المتوفين محبة بهم وعلى سبيل تذكرهم الدائم واستمراريتهم في الابناء، أي «لبقائهم في البيت» كما يقولون. وهذا ما يؤدي غالباً إلى سلسلة طويلة من الاسماء نفسها ممتدة من السلف إلى الخلف. الا أنهم كانوا يتحاشون التسمية بأسماء الآباء والجدود الاحياء «كي لا يفوّلوا عليهم بالموت». وقد تجاوز الكثيرون هذه الأوهام، وباتوا يسمون اسماء الاحياء من ابائهم وجدودهم اعتماداً على مفهوم يقول: «الاسم محبة».

من الاسماء المحببة في الماضي كما اليوم الاسماء المركّبة من لفظتين، الثانية منهما

لفظة الله أو أحد اسمائه الحسنى أو لفظة الدين مثل عبدالله، عبد الرحيم، صلاح الدين، وقد تكون الثانية منهما اسم أحد الأجداد مثل سليم جميل. يضاف إلى ذلك اسماء مركبة للنساء مثل ست الحسن، ست الكل، زهر الدار، نور العين، زاد الخير.

وأكثر ما كان يُسمى الأولاد على اسماء الرسل والأنبياء والأولياء والرموز الدينية تبركاً. فعند المسلمين محمد وأحمد وعلي وحسن وحسين وعمر وعثمان وفاطمة وعائشة. وعند النصارى بطرس وبولس وانطونيوس ونقولا ومارون ومريم وتقلا، وعندهم أيضاً اسمان للولد: اسم لمناداته به، واسم لعماده هو اسم أحد القديسين.

ومن الاسماء أيضاً اسماء الحيوانات والطيور التي هي مضرب مثل في القوة والبطش والرشاقة والجمال مثل أسد، فهد، نمر، حسّون، عقاب، صقر، غزالة، مهى، حجلة. والبعض كانوا يسمون ابناءهم بأسماء الحيوانات بعد عدة ابناء توفوا اعتقاداً منهم أن ذلك مدعاة لسلامتهم وطول أعمارهم.

وكثيراً ما تنسحب الظروف والمناسبات التي حصلت فيها ولادة الطفل على اسمه. فمنهم من يسمي ولده اسماً يدل على رغبته في عدم الانجاب بعده مثل «حاتم - ختوم - منتهى». ومن يولد في الحرب يسمى «حرب»، وعند الهجيج يسمى «هجيجة». وإذا ولد بعد انتصار يسمى «كايد - ناصر - نصر - فوّاز». وإذا ولد في مناسبة صلح عشائري يسمى «صلح». وإذا ولد المسلم في مناسبة صبر فيها الأهل، يسمى «صابر» أو «أيوب». كما يسمى «أيوب» إذا ولد بعد فترة طويلة من انتظار الصبيان. وإذا ولد في عرس يُسمّى «فرح»، وفي الثلج «ثلجه»، وفي موسم الورد «ورده»، وبعد صعوبة في ولادته أو في الأحوال «صعب». ويسميه النصارى في يوم وفاة أبيه «لعازر» رمزاً إلى احيائه والده كاحياء المسيح «لعازر» بعد موته.

واذا ولد المسلم في عيد المولد النبوي سمي «محمد»، وفي سائر الأعياد سمي «عيّاد». وإذا ولد المسيحي في عيد الميلاد سمي «ميلاد»، وفي الصوم سمي «صوما»، وفي عيد الغطاس سمي «غطّاس»، وفي عيد الشعنينة سمي «شعيا»، وفي ذكرى بشارة العذراء «بشارة»، كما يسمى باسم القديس الذي يولد في تذكاره أو يسمى باسم «عيد».

الاحتفالات بالمولود

المهنئون بولادة الصبي هم الاقارب والاصدقاء والعارفون في المدينة، وفي القرية جميع رجالها ونسائها. ويبدأ توافدهم منذ الأيام الأولى للولادة تبعاً لدرجة القرابة ومقدار المحبة، فيهنئون الوالد بالقول: «ان شاء الله يكون من أولاد السلامة - ان شاء

الله يسلم ـ ان شاء الله تشوف أولاد أولاده ـ ان شاء الله يربى بدلالك». ويقولون للوالدة: «الحمد لله على خلاصك بخير ـ الحمد لله على قيامك بالسلامة ـ أنت جبت وأنت تربي». وإذا قيل لهم اسم الصبي بعد السؤال عنه، قالوا: «ان شاء الله يعيش باسمه».

وكان يقدّم للمهنئين المغلي بالماء، قبل اعتماد المغلي بالأرز، في فناجين كبيرة معروفة بـ «الجناطيس» للدلالة على الكرم والابتهاج بالصبي. أما الأولاد الذين يتوافدون مع أهلهم أو بدونهم، فلهم ما يجبر خاطرهم من الجوز واللوز والملبّس، والقضامة المالحة أو الصفراء. ومن العادات في بيروت وبعض قرى اقليم الخرّوب تقديم مغلي القرفة بدون قلوبات وهو مسمى «اينار».

وينقّط المهنئون المولود بهدايا هي فراريج وأكياس من البيض والسكر والبن قبل ان تصبح بذلات كما هي اليوم. كما كانوا ينقطونه نقوداً أو حلى ذهبية. ومنهم من يضع المال في صحن فنجان المغلي بعد الانتهاء من احتسائه، أو تحت مخدة الطفل، أو على مسند موضوع إلى جانب والدة الطفل. ويجمع النقوط أحياناً في «قجّة» ليصرف فيما بعد على تجهيز الطفل وشراء لوازمه، أو ليكون نواة ادخار له مع ما قدّم من أهله إذ كثيراً ما ينقّطه هؤلاء بمبلغ كبير من المال أو قطعة أرض. ومما كان يهدى للطفل الحروزة، وقطع ذهبية مكتوب عليها البسملة أو آيات من القرآن الكريم، فتعلق مع الخرزة الزرقاء بدبوس في ثيابه، والتأريخ لولادته من أحد الشعراء.

ان التهاني بالبنت وتنقيطها والضيافة للمهنئين بها هي اليوم تقريباً كما للصبي، الا انها لم تكن كذلك في الماضي. فولادتها اذّاك أمر مكروه، وعلى الاخص عند من رزقهم الله عدّة بنات ولم يرزقهم الصبيان. ويقتصر الحضور في هذه الحالة على الاقارب والجيران والاصدقاء الذين لا يهنئون بالبنت بل يهنئون الأم على سلامتها قائلين: «الحمد لله على سلامتك ـ الحمدلله على خلاصك بخير». ويهنئون الوالد بسلامة زوجته وبالدعاء إلى الله أن يرزقه الصبيان ويريه اخوة للمولودة ويرزقه على وجهها قائلين: «ان شاء الله ترى لها الاخوة ـ البنت رزقتها معها». ومنهم من يتوسع في مواساة الأهل بالقول: «التي تجيب البنت تجيب الصبي ـ البنت تساعد أمها أكثر ـ الله يخلي أبوها ـ الله يخلّي اخوتها».

كان الأهل يفرحون بولادة الصبيان ويعبّرون عن فرحهم بسلسلة من الاحتفالات والتكريم بينما لا تستأهل البنات شيئاً من هذا، حتى إن ولادتهن مدعاة للحزن والغم. والاحتفالات تبدأ عند ولادة الذكر بزغردة النساء، وإطلاق النار من قبل والده وبعض الأقارب، وإشعال النار في المساء، وإعداد وليمة اسمها «لقمة الخلاص» نسبة إلى

خلاص المرأة بخير، واسمها عند بعضهم «ستي نفيسة» نسبة إلى بدء نفاس المرأة على الأرجح، وكان اسمها عند العرب الاقدمين «الخرس»، وهي على العموم ذبيحة. و«لقمة الخلاص» كانت تقدم للنساء في غرفة الوالدة، وللرجال في غرفة أخرى، وهي لا تزال معتمدة عند الكثيرين ولكن في غير يوم الولادة. ومنهم من كان يتفاءل خيراً بتركيب الصبي على كتف عذراء أو على فرس كحلاء. وفي حين اختفت عادة اشعال النار ليلاً، لا تزال عادة اطلاق النار متبعة من بعض الناس الذين يعبّرون عن ابتهاجهم بهذه الطريقة. ومن الزغاريد عند ولادة الصبي:

اويها.. خلّفت وقامت	اويها.. وع فراش الهنا نامت
اويها.. والحمد لله يا ربي	اويها.. ما تشمّت فيها شامت

من عادات النوَر (الفجر) المخيمين في خراج قرية ما ان يحضروا الى البيت الذي يولد فيه صبي، فيضربون على الطبل ويرقصون أمام البيت، فيعطون مقابل ذلك مبلغاً من المال أو هدايا. ومن العادات في المدن أن تعلم الداية الزمّار والطبّال فيحضران الى بيت الوالدة فيعزف الأول بمزماره، ويضرب الثاني على طبله رافعاً عقيرته بالتصحيف بعد كل ايقاع للوالد ولولده ولكل من ينقده بالمال أو يتوقع ذلك منه قائلاً: «بالصحايف (لفلان) أو لعيون (فلان)، ولكل من يحب (فلان). خلف الله عليك يا (فلان). محبة بالمولود ووالد المولود».

ويحضر تلاميذ الكتاتيب في المدن، أي تلاميذ المدارس الابتدائية، لاداء صلاة خاصة بالمناسبة أمام بيت المولود. وكان تلاميذ كل كتّاب يأتون في صفوف منتظمة يتقدمهم العريف، فيعطون بعد ادائهم الصلاة الهدايا من أهل المولود[1].

وكانت الاحتفالات تتواصل خصوصاً عند الاغنياء وآباء الابكار. وتحييها في المدن «المغاني» أي المغنيات مقابل بدل مالي. ويحييها في القرى المدعوون الى الولائم، كما يحييها أحياناً أصحاب المواهب الفنية وشعراء الزجل إما تطوعاً وإما لقاء بدل مادي أو هدايا، فتعمر حلقات الدبكة، ويرتفع الحداء والغناء والزغاريد، وينشد شعراء الزجل قصائد التهنئة والمديح، وكأنهم في حفلة عرس.

ولمعظم احتفالات الولادة جذور دينية مثل «الخرس» أو وليمة الخلاص التي وردت الاشارة اليها، واحتفالات «العقيقة» والختان عند المسلمين، والعماد عن النصارى، التي سنتكلم عنها. وبعضها تذكارات للولادة في أيام محددة هي «الثالث» و«الاسبوع»

---

(١) انظر مجلة «الحداثة»، العدد ٥ ـ ٦، مقالة لطه الولي بعنوان: «عادات وتقاليد بيروتية»، ص ١٦٠.

و«الاربعين» شبيهة بتذكارات الموت. فللأعداد أهمية كبيرة عند الناس منذ عهد فيثاغورس الذي أرسى مفاهيمها وأعطاها أبعادها، حتى إنه غدا لبعضها دلالات دينية، وقد دخلت في عادات وتقاليد كثيرة غير عادات الموت والحياة.

درج المسلمون على عادة ذبح خروف أو أكثر عند حلق شعر رأس المولود تسمى «العقيقة». وهي تعني في الأصل الشعر الذي على المولود، ثم باتت تطلق على الذبيحة بمناسبة حلقه. وفي السنّة النبوية انها مشروعة مطلوبة من الوالد ومقدارها ذبيحتان عن الذكر، وذبيحة عن الأنثى. ومناسبتها بعد اسبوع أو بضعة أسابيع أو عند «الأربعين». وان ذبحت في الرابع عشر قدمت كلها قسماً واحداً، وان ذبحت قبله وبعده جزّئت.

ودرج الناس في اطار نذورهم ان ينذروا قص شعر الطفل في مزار أو مكان عبادة، وان يتصدقوا بمقدار وزنه من الذهب والفضة، وتعود جذور ذلك إلى فجر الإسلام إذ يُروى «ان فاطمة بنت رسول الله ﷺ وزنت شعر حسن وحسين وزينب وأم كلثوم فتصدقت بزنة ذلك فضة»[1].

ومن حلقات الاحتفال بالولادة الاحتفال بطلوع أول سن للمولود. وطلوع الأسنان مرحلة مرضية للولد تبدأ بالشهر الرابع، يصاب فيها بالحمى والاسهال ويتوجع ويعذب أهله، لذا قيل: «أول فرح الولد مشيه وأول أحزانه طلوع أسنانه». وكانوا يعتقدون أن التأخير في طلوع الأسنان وكثرة آلامها من الدلائل على قوتها.

وظهور أول سن للولد نهاية مرحلية لآلامه ومناسبة لفرح الأهل ولاحتفالهم التقليدي المتوارث به إذ يسلقون قمحاً ويوزعونه على الاقارب والجيران والاصدقاء في صحون مغطاة بالسكر والجوز واللوز والصنوبر والملبّس والقضامة الحلوة. ويسمى هذا «سنيّنية» نسبة إلى طلوع السن، أو «قمحيّة» نسبة إلى القمح المسلوق الذي يرمز إلى ان الولد صار مؤهلاً لأن يأكل الخبز، ومن الاغنيات في هذه المناسبة الاغنية التالية التي تدل على البساطة والعفوية، وعلى ما يوحي به طلوع السن للأهل:

طلعت سنّو فرحت امّو
زعل بيّو عَ الخبزات

ومن المناسبات التي كانت تراعى قص أظافر الولد لأول مرة. وعادة بعض الفئات في هذا المجال اهداء الزوج لزوجته وزن قلامات الأظافر ذهباً. ولعل ذلك منشأ المثل الذي يقول عن ثمن أي شيء، مهما غلا، قياساً على معزة انسان ما «لا يوازي ظفره».

---

(١) مالك بن انس، الموطأ، دار احياء العلوم، بيروت، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤م، ص ٣٧٦.

واضافة الى هذه الاحتفالات القديمة المتوارثة هناك احتفالان مستحدثان مقتبسان عن الغربيين هما الاحتفال بذكرى ولادة الطفل، الذي اعتمده النصارى أولاً ثم عمّ عند الجميع وبات يشمل الكبار، والاحتفال بأول قربانة عند النصارى.

يدعى إلى تذكار ولادة الطفل المسمى عيد الميلاد الأهل والأقارب والجيران والاصدقاء، وقد يكتفى بدعوة الاطفال. ويحضر المدعوون ومعهم الهدايا المختلفة وأبرزها الألعاب والحلي. وتضاء شموع على قدر سنوات عمر الطفل، وتوضع على قالب حلوى، فيطفئها بمساعدة أمه على أنغام أغنية مألوفة في هذه المناسبة يطغى عليها الطابع الغربي. وبعد ذلك يغمر المدعوون الطفل بالقبلات والتهاني. ويسبق ذلك ويعقبه رقص وغناء على أنغام الموسيقى. وتقدّم قطع من قالب الحلوى وحلويات أخرى ومرطبات وبعض الأطعمة.

أما الاحتفال بأول قربانة، فهو احتفال تقيمه المدارس المسيحية لتلاميذها المسيحيين عند بلوغهم التاسعة أو العاشرة بعد أن تأخذ تكاليفه، فتجري قداساً على نيتهم يعقبه توزيع مسابح للصلاة وصور للمسيح وتناول حلويات ومرطبات.

ومن حلقات احتفالات الولادة الاحتفال باستحمام الوالدة. ففي طرابلس مثلاً كانت تؤخذ النفساء إلى الحمام الكبير في اليوم الحادي عشر، وهناك تُصمد كالعروس في برزتها، ويؤتى لها بجوقة من المغنيات (المغاني) يغنين لها ويرقصن حتى الفجر، ثم يطاف بها سبع مرات حول البركة القائمة في وسط المبنى قبل أن تدخل إلى الحمام. وتُقدم في هذه المناسبة الحلويات للمدعوات.

ومن العادات التي كانت سائدة في جميع المناطق ادخال النفساء إلى الحمام بعد أربعين يوماً من ولادتها، أو عند ما يسمى «طباق الأربعين»، في احتفال تحضره قريباتها وصديقاتها وجاراتها، وتقدم فيه الضيافة. وبعد الاستحمام تأكل من الدجاجة التي لا بد من اعدادها لها في هذا اليوم اسوة بسائر أيام النفاس، وتنام، وتعود بعدها إلى سابق حياتها الزوجية والعملية والاجتماعية.

الختان

معنى الختن لغوياً «القطع». والاختتان والختن بكسر الخاء اسم لفعل الخاتن ولموضع الختان. وختن الذكر هو قطع الجلدة التي تغطي الخشفة. وختن الأنثى هو قطع جلدة في أعلى فرجها هي كالنواة أو عرف الديك. ويسمى ختان الرجل «اعذاراً»، وختان المرأة «خفضاً».

عُرف الختان عند غير المسلمين، فقد أقرت به شريعة موسى، ووضعت له الشروط وتشددت فيها وفرضت ختان المولود الذكر في اليوم الثامن لولادته، فسميت «شريعة الختان»؛ لأن الختان علامة الانتساب إلى ابراهيم وشعب موسى، وهو عهد بين الله واليهود كما جاء في سفر التكوين «وأنت فاحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك مدى أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يُختن كل ذكر منكم فتختتنون في لحم قلفتكم، ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم»[١].

اجازت المسيحية ترك الختان، واعتمدت العماد بدلاً منه معتبرة ان الختان الجسدي لا يجدي نفعاً الا إذا كان مقروناً بختان القلب. ان يوحنا المعمدان ويسوع ختنا في اليوم الثامن بعد مولدهما. لكن الرسل الذين بشروا الوثنيين بالانجيل عمّدوا المهتدين من غير ان يفرضوا عليهم الختان. هكذا فعل بطرس بوحي من السماء. وأعلن بولس في رسالتيه إلى أهل غلاطية وأهل رومه ان ابراهيم نال البر بالايمان وحصل على وعد الله قبل الختان، فكذلك ينال المرء البر بالايمان ولا حاجة به إلى الختان ليخلص «ففي المسيح يسوع لا قيمة للختان ولا للقلف، وإنما القيمة للإيمان العامل بالمحبة»[٢]. وقد ساعد اعتماد العماد بدلاً من الختان على انتشار المسيحية بين الرومان؛ لأن هؤلاء كانوا يكرهون الختان ويهزأون بالمختونين.

اعتمد المسلمون الختان، واعتبروه واجباً على الرجال ومكرمة في حق النساء. ومن علمائهم من قال بان على الولي ختن الصغير قبل بلوغه. ومنهم من اعتمد على ختن الرسول ﷺ للحسن والحسين (عليهما السلام) يوم السابع من ولادتهما. لكن جمهور علماء المسلمين لا يحدّد للختان وقتاً معيناً، فعن أبي هريرة ان النبي ﷺ قال: «اختتن ابراهيم خليل الرحمن بعدما أتت عليه ثمانون سنة، واختتن بالقدوم»[٣]. وكانوا لا يختنون الرجل حتى يدرك، أي حتى يبلغ. وقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال لرجل أسلم: «الق عنك شعر الكفر واختتن»[٤].

وكما ان الختان غير مخصص بوقت محدد، فهو أيضاً غير ملزم بشرع أو أمر ديني، الا أنه سنّة مطبقة من أكثرية المسلمين. وهو يُعرف عند الأتراك باسم «سنّت»،

---

(١) سفر التكوين ١٧/٩ ـ ١٤.

(٢) رسالة بولس إلى أهل غلاطية، ٢٨/٤ ـ ١٢/٥، الكتاب المقدس، العهد الجديد ص ٥٨١.

(٣) الشيخ الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، نيل الأوطار، شرح منتقى الأخبار من احاديث سيد الأخيار، دار الجيل، بيروت، لبنان، لا تاريخ جـ ١ ص ١١١.

(٤) رواه أحمد وأبو داود.

ويُعرف عندنا باسم «الطهور» أو «التطهر»؛ لأنه أحد شروط الطهارة، ففيه طهارة العضو التناسلي مما ترسب تحت القلفة الزائدة من أوضار وأوساخ.

الطهور عند المسلمين كان يحصل في البيوت، ويقوم به أناس مختصون يدعى واحدهم «الختّان» ويدعى عند معظم الناس «المطهّر»، يدورون في القرى برفقة أحد ابنائها الذي يدلهم على المنازل ويساعدهم، آخرهم في الشوف، وعلى سبيل المثال، عزت زهنان من المختارة، وعبد الفتاح شحاذة من مزبود الذي ورث المهنة عن أبيه وهذا ورثها عن أبيه أيضاً. واشتهر بالتطهير في بيروت أسرة يهودية كان معظم المطهرين منها، وأبرزهم في الفترة الأخيرة المطهر سلمون الذي عرف بـ «سلمون اليهودي». وكان الحجّام الذي يقوم بفصد الناس يمارس غالباً مهنة التطهير التي لم تكن ذات شأن في المجتمع قديماً.

تتم عملية الطهور بالباس الطفل عباءة اسمها في بيروت «السركس»، وتمديده على مسند، ثم يعمد رجل قوي إلى تثبيت يديه ورجليه بحيث لا يعود بوسعه أن يقوم بأية حركة تعيق المطهر أو تسبب له نفسه جرحاً من الموسى التي يكون المطهر قد أعدها وأكمل شحذها لتصبح صقيلة جارحة تقطع الجلدة التي تغطي الخشفة بسهولة وسرعة، فيما يضع أحدهم يده أو منديلاً على عيني الطفل كي لا يرى الموسى والمطهر في اثناء عمله. وكلما عجل الاهل في طهور ابنائهم، كلما خففوا من آلامهم، لذا يعمد الكثيرون منهم إلى طهور ابنائهم في نهاية الاسبوع الاول، أو في اثناء الاسابيع الأولى من الولادة.

عمليات طهور ابناء المدن والقرى التي يقيم فيها المطهر، وابناء الاعيان والأغنياء في سواها من الأماكن، افرادية. وحفلاتها تبعاً لذلك افرادية ومتواصلة على مدار أيام السنة بنسبة عدد الأطفال المختونين. وهي، أي العمليات، جماعية في حالتين: أولاهما حين يريد أهل حي من المدينة ختان أولادهم معاً وتقاسم نفقات الاحتفال به. وثانيتهما حين يريد نبيل أو موسر الاحسان على نية ابنه وتكريمه بختان ابناء الحي أو القرية أو العشيرة معه، ودفع النفقات من جيبه. كما أنها شبه جماعية في القرى التي تخلو من المطهر أو تبعد عن مركز سكنه؛ لأن المطهر كان يزور القرية مرة أو مرتين على الأكثر في السنة، وكان يطهّر أطفالها في يوم واحد.

كان للختان عند عامة الشيعة والدروز احتفال بسيط تقدم فيه ضيافة عادية، أو تعد وليمة اسمها «الاعذار»، وهو اسم لغوي تعني لفظته قطع ذكر الغلام. وكان الاقرباء والاصدقاء والجيران يقدمون النقوط للطفل ويهنئون أهله. لكن اغنياء الطائفتين ومقاطعجييهما كانوا يعيرون الختان أهمية كبيرة، فيقيمون الحفلات في قصورهم دون طواف بالطفل.

أما عند السنّة، فللختان احتفال شبيه باحتفال العرس؛ لأنه معتبر عندهم فرحة أولى كبيرة تسبق فرحة الزفاف. ومن أسباب اقامتهم لمظاهر الفرح التخفيف عن الطفل آلامه وإشغاله عنها بما يدور حوله. وحفلات الختان كحفلات الأعراس تختلف تبعاً لاختلاف الطبقات والمراكز والثروات. وهي تبعاً لذلك ذات كلفة عالية. وقد يشارك في تحمل نفقاتها أو يتحملها كلها الجد ولا سيما إذا كان الطفل يحمل اسمه. ومن الحفلات ما يستمر اسبوعاً قبل الختان وأسبوعاً بعده إذا كان الولد بكراً أو وحيداً.

يُضاء المنزل في المساء بالشموع والسرج وقناديل الزيت. وتعد المآدب السخية التي تسمى في بعض الأماكن «العزيزة»، وهو الاسم العامي الذي يُطلق على العضو التناسلي للذكر، كما تقدم الضيافة على صدور نحاسية، والشرابات في دسوت وبراميل. ويجري في احتفالات ختان ابناء المقاطعجيين العاب فروسية في ميادين قصورهم كسباق الخيل وضرب الجريد واللعب بالسيف والترس. ومثل هذا يجري في حرج بيروت في احتفالات ختان ابناء الأعيان والأغنياء.

وفي ما يلي وصف للاحتفال بالختان في شحيم، أكبر بلدات اقليم الخرّوب التابع لقضاء الشوف، وهو نموذج عن الاحتفالات بعمليات الختان في اقليم الخرّوب بشكل خاص، وفي الأرياف المأهولة بالسنّة بشكل عام.

يحضّر للطفل قبل ختانه عدة عباءات بألوان مختلفة: الأبيض، والأزرق، والزهر، والفستقي. ويدعو أهله اقرباءهم وجيرانهم وأصدقاءهم ووجهاء شحيم والقرى المجاورة، كما يدعون اصدقاءهم وأقرباءهم في القرى البعيدة[1]. فيصل هؤلاء شحيم بالحداء ويلاقيهم الداعون إلى أولها، ويعودون جميعاً بالحداء والرقص على ضرب الطبل والدربكة ودق المزاهر.

في صباح اليوم المحدد للختان يحنّون الطفل ويلبسونه أجمل ثيابه. وإذا كان عمره بضع سنوات يضعون على رأسه طربوشاً مزيناً أيام كان الطربوش غطاء رأس الرجل، ففي تشبيهه بالرجال اكرام له. ثم يركبونه على فرس مزينة، ويمسك به وبها رجلان قويان كي لا يقع وكي لا تجمح به. ومن العادات الطواف بالطفل في طرقات شحيم الرئيسة. وكلما مروا أمام بيت وجيه توقفوا لقراءة الفاتحة إكراماً له، فيبادر هو أو أحد أفراد عائلته إلى تنقيط الطفل. ويكملون طريقهم إلى المقامين الموجودين في شحيم (الشيخ أبو الوفاء والشيخ محمد أبو الزرد المعروف بأبو زردية)، ثم إلى مقام الشيخ عثمان في عانوت، عند نذر الطفل لهم. ويعودون إلى البيت سالكين حيث أمكن طريقاً

(١) كان آل عويدات يدعون اصدقاءهم من آل البعيني في مزرعة الشوف لحضور حفلات ختان اولادهم.

مختلفة عن تلك التي سلكوها في الذهاب، ولا ينقطعون في طوافهم الطويل عن الغناء والزغردة والرقص ولعب السيف والترس على ايقاع الطبل والدربكة والدفوف. ومن الزغاريد ما يلي:

اويـهـا... وطـبـخـنـا رز بـفـول	**اويـهـا... وعـلـيـه السَمـن هـَ الـطـول**
اويـهـا... وحـلـقـنـا الـحـلاقـه	**اويـهـا... وعـقـبـال الـطـهـور**

وعند وصولهم إلى البيت يُلبس الطفل عباءة، ويدخل إلى إحدى الغرف حيث يطهره المطهر وسط ضجيج الغناء وضرب الطبل الذي يطغى على صراخه وقد ينسيه أوجاعه ويسليه. وينقّطه المشاركون في الاحتفال بأنواع العملة المتداولة (بشلك، مجيدي، برغوث أبو المية، برغوث أبو الخمسين)، وفي بعض الأحيان يوضع النقوط في جيب معلقة بالعباءة. وينقطه بعض ابناء شحيم بـ «جبلية» زيت وهي وعاء يتسع لألف غرام. ثم يُدعى الجميع إلى تناول الطعام الذي يختتم بأكل الحلوى الأساسية (الرز بحليب)، اضافة إلى بعض الفواكه المجففة. وقد يتواصل الاحتفال حتى الليل فيما يكون الطفل نائماً في سريره، أو محمولا على ذراعي والدته وهي تهدهده، وتحاول تسكين آلامه.

والاحتفالات التي تقام في المدن لا تختلف عما وصفنا إلا في بعض الأمور مثل اقامة الحفلات في البيوت المستعارة أو في الفسحات الواسعة التي تستوعب المدعوين، واستئجار الكراسي، ودعوة الكركوزاتي لإضحاك الناس بألعابه وتمثيله، واستقدام المغنيات اللواتي يرفعن عقيرتهن بالتصحيف لمنقطي المختون ولمن يرغبون بالتصحيف لهم عند خروجهم مقابل مبلغ من المال يدفعونه للمطبل المصحّف أو يضعونه في الدف المقلوب للمغنية المصحِّفة.

ان تطهير الأولاد اليوم في المستشفى بعد ولادتهم بأيام وفّر عليهم الآلام، وعلى أهلهم النفقات، الا أنه كان أهم العوامل التي ساعدت على الغاء احدى العادات المميزة في تراثنا.

العماد

العماد في اللغة هو ما يقوم عليه البيت. و«ذات العماد» أي ذات البناء الرفيع المعْمَد. والعمْد معناه القصد والاتكال والدعم. وللعماد أو المعمودية في النصرانية المعاني التي توحي بالخير والايمان والارادة والتوجه، وهي المعاني الروحية والرمزية لفعل التغطيس بالماء الذي هو باليونانية Baptisma.

تعود جذور التغطيس بالماء أو الاغتسال به إلى الأزمنة الغابرة وإلى أتباع الديانات

الوثنية الذين كانوا يستحمون في مياه الأنهار بعد تلاوة صلوات من رجال الدين بغية التبرك والتطهر. فالغطس في مياه نهر الغانج المقدس، او الاستحمام فيه، على صلوات دينية معينة، يزيل في اعتقاد الهندوس الخطايا، ويطهّر من اللعنات والآثام والأرجاس، ويبعث على التحرر. لذا كان ملايين الحجاج منهم يأتون إلى باناريس Banaris، المدينة المقدسة الواقعة على نهر الغانج «ليستحموا في النهر حتى يستقبلوا الموت براء من كل اثم، اطهاراً من كل رجس»[1]. ولا يزال الهندوس حتى اليوم يغطسون في مياه نهر الغانج ثلاث مرات مع بداية عيد كومب ميلا. وقد قُدّر عدد الغاطسين منهم في سنة ١٩٩٧ بثلاثة ملايين.

اعتمدت الديانات السماوية الغطس بالماء أو الاغتسال فيه للتطهر. فاليهود استعملوا الماء لتطهير أجسادهم من الدنس، وكان الكهنة يغتسلون به قبل دخول خيمة الاجتماع. والمسيحيون اعتمدوه في العماد. والمسلمون اعتمدوه في الوضوء. وتعود جذور العماد في المسيحية إلى يوحنا المعمدان الذي قال للفريسيين والصدوقيين الآتين للاعتماد في نهر الاردن: «أنا اعتمدكم بماء التوبة. ولكن الذي يأتي بعدي أقوى مني ولست أهلاً أن أحمل حذاءه. هو سيعمدكم بالروح القدس والنار ورفشه في يده فسينقي بيدره، ويجمع قمحه في المخزن، وأما التبن فيحرقه بنار لا تُطفأ»[2].

لقد بدأت المعمودية إذاً بيوحنا، وتبناها المسيح فقال: «من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يُدَن»[3]. وقال لتلاميذه: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم الأب والابن والروح القدس»[4]. وبهذا تصبح المعمودية تعميداً بالروح القدس وبالنار التي لا تطفأ الا بماء التوبة بحسب ما أشار يوحنا، أي أنها تصبح فعل ايمان بالمسيح ورفض للشيطان، وهذا ما يطلق عليه «التنصير».

المعمودية في عهود النصرانية الأولى تختلف عما هي عليه الآن إذ كانت تحصل في ليلة الفصح حيث يُدفن المعمَّدون مع المسيح بالمعمودية ويحيون مع الفصح. فكما الفصح رمز إلى العبور، هكذا المعمودية أو الفصح الشخصي سر عبور من حياة قديمة إلى حياة جديدة. وكانت مراحل المعمودية تستغرق سنوات تقام فيها طقوس غنية مختلفة يتم بعدها تقبل المرشحين للانتساب إلى المسيحية الذين يكونون من الراشدين.

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة. الهند وجيرانها، الشرق الأقصى، الصين، جـ ٣ ـ ٤. ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة، مصر ١٩٦٨، ص ٢٢٧.

(٢) انجيل متى ١١/٣ ـ ١٢ ومرقص ٧/١ ـ ٨ ولوقا ١٦/٣ ـ ١٧ ويوحنا ٢٦/١ ـ ٢٧.

(٣) انجيل مرقص ١٦/١٦.

(٤) انجيل متى ٢٩/٢٨.

اقتصرت المعمودية مع الأيام على الأطفال الصغار الذين ينصَّرون بمنحهم سر العماد. ومن لم يُعمّد في أيام طفولته الأولى، وفي حياته، يُعمّد من الكاهن عند احتضاره كي يواجه ربه وهو على دينه المسيحي. الا ان النصارى على العموم يعمّدون ابناءهم في الأيام الثمانية الأولى التي تلي الولادة إذا لم يكن هناك مانع صحي أو غيره، وذلك بناءً على وصية جديدة. وكان القرويون يسرعون في عمادة ابنائهم تجنباً لاحتمال موتهم وثنيين.

من الممكن اجراء العماد في البيت. الا ان اجراءه مفضل في الكنيسة. ومن مقتضياته اختيار عرَّاب وعرابة للذكر، وعرابة للأنثى، والعراب كلمة سريانة (عربا) وتعني الكفيل. فهو كفيل الطفل وأبوه الروحي الذي يجيب عن رغبته في قبول سر العماد، أي التنصر. والطفل المعمّد يسمى «فليون»، وهذه لفظة ايطالية Figliolo معناها «المكفول».

للأسرة عراب واحد، الروابط الاجتماعية بينها وبينه متينة للغاية وتمتد إلى اسرته، يُختار من بين اشابين الزواج الذين هم من الأقارب والأصدقاء ومن ذوي السيرة الحسنة، وممن يؤمل أن يعيش الولد على يدهم. وهو عادة ممن عمّدوا في السابق أطفالاً لا يزالون احياء. ولا يُختار العراب للمرة الأولى الا عند تعميد البنات اللواتي لا يؤبه لحياتهن أو لموتهن. ولا يُستحسن تغييره إلا لأسباب وجيهة وبرضاه؛ لأن في تغييره دون موافقته، بحسب ما يُعتقد، خطراً على المولود. وبما أن العماد معروف عند العامة باسم «الشيل» نشأ التعبير الشعبي التالي الذي يقال في عرّاب الأسرة: «اللي بيشيل الواحد بيشيل الكل».

لم يكن يُقام احتفال للبنت المعمّدة الاعند الأعيان والأغنياء، فمعظم البنات كن يعمّدن سراً، ودون دق جرس، ويُكتفى في عمادهن بالرتبة الكنسية. بينما يقام للصبي احتفال يُدعى إليه الاقرباء والجيران والاصدقاء اضافة إلى العرابين. يحضر المدعوون إلى بيت والد الطفل، ثم ينتقلون برفقة أهله إلى الكنيسة حيث يكون الكاهن قد وافاهم اليها. وهناك يعمّد الطفل بالماء الفاتر المضاف إليه الميرون، وهو زيت الزيتون المقدس الممزوج بالعطور (المر - البخور - المستكي - الريحان - ماء الورد - البلسم - الزهور). وسمي هذا الزيت بالميرون تيمناً بالمر الذي هو أجود أنواع العطور رائحة وأشدها مرارة، وقد استعمله العبرانيون.

يُعمّد الطفل بالرش عند الموارنة، وبالتغطيس عند الارثوذكس والكاثوليك بحسب الطريقة القديمة للعماد منذ إتّباعه. ويجب أن يخرج احد أبوي المعمود عند رشه أو تغطيسه؛ إذ لا يجوز اجتماعهما خلال ذلك.

تضاء الشموع أمام الهيكل. ويقف الحاضرون حاملين الشموع يتوسطهم الكاهن واقفاً أمام جرن المعمودية، لابساً حلة بيضاء، وبيده المبخرة التي يتناوب على حملها مع القندلفت، فيبارك الماء بتلاوة الطلبات الخاصة بتقديسه، ويرسم عليه، بتغطيس أصابع يده اليمنى ثلاث مرات، شكل الصليب، وينفخ فيه ثلاث مرات مردداً صلاة خاصة. ثم يتقدم نحو وعاء الزيت الذي يحمله الشماس فينفخ فيه أيضاً ثلاث مرات، ويرسم شكل الصليب ثلاث مرات كما فعل في الماء، ويردد صلاة خاصة. ثم يسكب بعض الزيت على الماء بشكل صليب مرتلاً مع الحاضرين «هللويا» ثلاث مرات، وهي كلمة يونانية معناها «المجد لك يا الله».

عندها يقدم الطفل إلى الكاهن، فيمسح جبهته بالزيت راسماً عليها شكل الصليب وهو يقول: «يمسح عبدالله بزيت الابتهاج على اسم الأب والابن والروح القدس. آمين». ثم يمسح صدره وظهره بالزيت قائلاً: «لشفاء النفس والجسد». ويمسح اذنه قائلاً: «لسماع الايمان». ويمسح يديه قائلاً: «يداك صنعتاني وجبلتاني». ويمسح رجليه قائلاً: «ليسلك في سبلك يارب».

بعد هذا المسح بالزيت لأقسام الجسم وأعضائه المذكورة يأخذ الكاهن الطفل من عرابه، ويوجهه بيده مستقيماً نحو الشرق، ويسكب عليه الماء ثلاث مرات عند الموارنة، ويغطسه في الجرن ثلاث مرات عند الارثوذكس والكاثوليك، قائلاً في المرة الأولى: «يعمد عبد الله باسم الاب. آمين» وفي المرة الثانية «والابن. آمين» وفي المرة الثالثة «والروح القدس. آمين».

ثم يضع الكاهن حلة بيضاء على الطفل قائلاً: «يلبس عبد الله سربال البر باسم الأب والابن والروح القدس. آمين». وأخيراً يختم الكاهن الطفل بالميرون المقدس، ويطوف به مع عرابه بزياح دائري حول جرن المعمودية وسط ترتيل بعض رسالة القديس بولس إلى أهل غلاطية، وترديد مايلي: «أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم ـ المسيح قد لبستم. هللويا». ثم يغسل الكاهنُ الميرون المقدس عن جسد الطفل قائلاً: «قد تبررت. قد استنرت. قد تقدست. قد اغتسلت باسم ربنا يسوع المسيح وبروح الهنا». ويختتم العماد بقص خصلة شعر من رأس الطفل رمزاً إلى الطاعة والتسليم لله، وبقرع الجرس دقات الفرح المعهودة.

ومما يجدر ذكره ان الألحان والتراتيل التي ترافق اجراءات العماد قد تختلف من طائفة إلى أخرى، فالأرثوذكس والكاثوليك مثلاً يعتمدون الألحان البيزنطية بينما يعتمد الموارنة الألحان السريانية الشرقية، والبروتستانت الألحان الغربية.

وكانوا يأملون خيراً ببكاء الطفل وصراخه عند العماد، ويعتقدون أن الماء المبارك فعل فعله وأثاره، ويتشاءمون من بقائه هادئاً. لذا كانت احدى قريباته تعمد إلى اثارته بالقرص والنخز ليصرخ ويبكي[1]. ومن العادات أن يعطى اسمين: اسمه الذي سينادى به، واسم العماد الذي هو اسم أحد القديسين كمارون وافرام عند الموارنة ونقولا وبطرس عند الارثوذكس والكاثوليك.

ويقيم أهل الطفل في بيتهم حفلة للمدعوين يترأسها الكاهن، ويقدَّم فيها الطعام والضيافة، ويتخللها ويعقبها عزف ورقص وغناء. وبما أن العرّاب أب روحي للمعمّد يقيم على الغالب الاحتفال على حسابه، ويدفع اجرة الكاهن، وثمن البخور والشمع للكنيسة والحلوان لخدامها. ومما تكرم العرّابة به الكاهن لوح صابون يغسل به يديه ويحتفظ به. ويُنقّط الطفل بالمال والهدايا ولا سيما من عرّابه الذي ينقط بالذهب أو الفضة أو المال أو الثياب بحسب درجة غناه. ومن الهدايا ايقونة تحمل صورة العذراء وصليباً من ذهب.

ان اصابة الطفل بمرض خطير تعدّل في طريقة تعميده التي وردت الاشارة اليها. وفي هذه الحال ينذر والده بأن يحصل تعميده في مكان يتعذر الوصول إليه في حينه. ويُكتفى عندها برشم الكاهن للطفل بدون احتفال إذ يؤجل هذا إلى حين شفائه ووفاء النذر. وقد جرت العادة أن يرسل شعر الطفل المنذور ولا يقص الا عند شفائه ووفاء النذر، ومنهم من يؤدي مقدار الشعر المقصوص ذهباً للمعبد المنذور إليه. لكن الاحتفال بوفاء النذر يجب أن يخلو من العماد؛ لأنه لا يجوز اعطاء سرّه مرتين.

الزواج[2]

الزواج سنّة الله في خلقه. وهو في لبنان، ماضياً وحاضراً، زواج ديني له أحكامه وشروطه ومراسمه المستمدة من الشرائع والأعراف، المدرجة أخيراً في قوانين الأحوال الشخصية. وله مرحلتان: أولاهما الخطبة المعتبرة من الناحية الشرعية واجبة عند المسيحيين، وغير واجبة عند المسلمين لكنها معتمدة لضرورتها من الناحية الاجتماعية. وهي تعاهد شفهي أو خطي يمكن الرجوع عنه إلا في الخطبة الدينية عند النصارى،

---

(١) العميد الركن سامي ريحانا، موسوعة التراث القروي. العادات والتقاليد والطقوس. الجزء الثاني. دار نوبليس ١٩٩٣، ص ١٢٦.

(٢) توسعنا في الحديث عن الزواج في كتابنا، عادات الزواج وتقاليده في لبنان. الاصول الشرعية - القوانين التنظيمية - الخطبة والعرس، بيسان، بيروت، لبنان ١٩٩٨. لذا سنتكلم عنه بإيجاز كلي إذ لا يمكن تجاوزه في بحث يتناول الافراح ومناسباتها الشخصية.

التي كان فسخها مستحيلاً قبل انعقاد المجمع اللبناني في اللويزة سنة ١٧٣٦. وثانيتهما عقد الزواج الذي يوجد رابطة شرعية محللة بين الرجل والمرأة.

يجري الزواج في اطار مفاهيم وعادات وتقاليد ومراسم كثيرة. فإدخال عروسين إلى الحياة الزوجية لا يقتصر على اجراء العقد، بل يتم باحتفال اسمه العرس الغرض منه على صعيد الشرع اشهار الزواج، وعلى الصعيد الاجتماعي قيام أهل العروسين بالواجبات ازاء الاقارب والاصدقاء والمساكنين، وقيام هؤلاء بواجباتهم ازاء العروسين وأهلهما في إطار التعاطف الاجتماعي المبني على المحبة والتعاضد والمشاركة المتبادلة والتسليف والوفاء.

التبكير في الزواج وإتمامه بين الأهل: كان الشباب على العموم يتزوجون بين الخامسة عشرة والعشرين، والفتيات يتزوجن بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة. ومعظمهم كانوا يتزوجون عند البلوغ الجسدي. ومن أسباب التبكير في الزواج اعتباره سترة للفتى، وسترة أكثر للفتاة، في مجتمع يراعي التقاليد ويحرص على الفضائل ويتجنب احتمالات الشذوذ والانحراف. ومن أسبابه أيضاً اعتباره حاجة وضرورة، ونمط المعيشة الزراعي، وصغر السن المعتمد شرعاً للأهلية، والاعتماد على النضوج الجنسي في تحديد الأهلية، وعدم وجود ما يؤخر الزواج كالوظيفة أو التحصيل العلمي والغلو في المهر وكثرة تكاليف تأسيس البيوت نظراً لاعتماد البساطة والقناعة في العيش.

من نتائج التبكير في الزواج تسلم أزواج فتيان، وغير ناضجين فكرياً، وغير مؤهلين للقيام بدور الاباء والأمهات، مسؤولية تربية الابناء واعالتهم. ومما كان يخفف من هذه النتائج السلبية سكن أكثر الابناء المتزوجين مع آبائهم، ومساعدة الأم لابنتها المتزوجة، وأخذ الحماة لدور الأم. ومن النتائج أيضاً كثرة الولادات، ورؤية البعض لأحفاد الأحفاد.

كان الزواج يتم بين الأهل مع مراعاة التسلسل في تزويج الابناء بحسب أعمارهم بدءاً بالكبير والكبرى. وكان زواج الغرام قليلاً، وكذلك زواج الخطيفة الناتج عن معارضة الأهل واصطدام العاشقين بقاعدة المزاويج. ان أهل الفتى هم الذين يختارون له الفتاة. وأهل الفتاة هم الذين يوافقون على الفتى دون أخذ رأيها. واجتماع الخطبة كان يخلو منهما الا في الخطبة الدينية عند النصارى.

وكان لا يسمح للخطيبين بالاجتماع والتحدث، بل تكون أم الخطيب عينه في رؤية خطيبته، وتكون أم الخطيبة عينها في رؤية خطيبها. وكان والد العريس، أو من يحل مكانه في حال مرضه أو وفاته، هو الذي يتسلم العروس من أهلها. وكانت العروس

الدرزية لا تجيب عن سؤال الشاهدين موافقتها على الزواج، بل تجيب عنها نساء أهلها وقريباتها بالقول: «بنت الرجال ما بتتشاور ـ ما عنا بنات بتقول لا».

وأسباب اتمام الزواج بين الأهل هي سيادة المفاهيم التي تعطي للوالدين حق التقرير والتصرف عن ابنائهم وترتب على الابناء واجب الطاعة، وتبعية الابناء اقتصادياً للآباء، وعدم السماح بالاختلاط بين الرجال والنساء، ومركزة قرار الأسرة في الأب. وبما أن الأهل هم الذين يقررون زواج الابناء نيابة عنهم، وبما أنه غير مسموح للخطيبين برؤية بعضهما، كانت تحصل حالات غش في زواج الساذجين إذ يُرى أحدهم شخصاً ويزوج من شخص آخر.

الخطبة: ما يُسمى «حطة عين» الفتى على فتاة، حين صار أمر الزواج يعود إليه، كان «حطة عين» أهله. فمهمة اختيار العروس ملقاة على والدته، وهي تقوم بها غالباً وحدها أو بمساعدة احدى القريبات والصديقات. وتقوم بها نيابة عنها أحياناً سمسارة العرايس المعروفة بـ «أم لحاف».

وتتم المفاضلة بين الفتيات للوصول الى اختيار احداهن، كما تتم موافقة أهل الفتاة على الفتى، على أساس اعتبارات عديدة أولها التوافق والتلاؤم بين الفتى والفتاة في أمور عدة أهمها المزاويج وتلفظ في العامية «المجاويز»، وهم ابناء الملة الواحدة وأبناء الأسر المتشابهة في الحسب والنسب والمركز الديني والثروة. وكان لكل عشيرة مزاويج، أي عشائر يصح التزاوج معها. ومن الاعتبارات تفضيل الاقارب على غيرهم، وتفضيل ابن القرية على الغريب، والتركيز على الأصل والجمال بنوعيه الجسدي والنفسي، ودراسة الفتاة من الناحية الجسدية والمهارات والتصرفات، أي النقد، من قبل دارسة اسمها «الناقدة»، ودراسة أوضاع الفتى ليكون عند أهل الفتاة ضمانة لمستقبل ابنتهم اعتماداً على التعبير الذي يقول: «اخطب لبنتك قبل أن تخطب لابنك».

كان هناك مرحلة تمهيدية للخطبة هي مكاشفة أهل الفتى لأهل الفتاة بالأمر بالمداورة أو بالواسطة. وتسمى هذه الطريقة «المساررة» و«التسميع» و«التلسين»، ويسمى الرسل القائمون بها نيابة عن أهل الفتى «الفرّاشة». والقصد من ذلك جس نبض أهل الفتاة والتأكد من قبولهم لتجنب ما يسمى «الكسفة» للوفد المولج بطلب يد الفتاة رسمياً من أهلها. وقد يتطلب الأمر واسطة لإقناع أهل الفتاة أو لتقديم المزيد من الاكرام لهم، وهذا يسمى «الكدة» أو «الجاهة».

ان الانفراد بتقرير الزواج بمعزل عن الاقارب كان خطأ اجتماعياً كبيراً. لذا على كل من أهل الفتى وأهل الفتاة مشورة أقاربهم اللزم، ومشورة وجيه الجب (الفخذ) أو

وجيه العشيرة، قبل البت بأمر الخطبة. وهذه المشورة تحرر أهل الفتاة من قيود حقوق الاقارب بابنتهم بدءاً بحقوق ابن العم الذي كان يمكنه، في حال عدم اسقاط حقه بابنة عمه، أن ينزلها عن ظهر الفرس.

يطلب أهل الفتى يد الفتاة من أهلها في اجتماع ليلي موسع يُدعى إليه أقارب الفريقين ووجوه العشيرة أو القرية. ويكلف كل منهما أفصحهم أو أكبرهم سناً أو منزلة لينوب عنه في الكلام في اطار أصول وعادات حافلة بالمجاملات واللياقات التي لا بد منها لتكريم أهل الفتاة ولتقريب القلوب إلى بعضها البعض. وكانت الخطبة تقتصر على العموم على أخذ الوعد ومباركة رجال الدين، فلا يجري فيها رقص وغناء، باستثناء الخطبة الدينية عند بعض النصارى والخطبة في مناطق عكار. وكان يُقدم في نهاية السهرة ضيافة من أهل العروس فقط اسمها في الشوف «النعمانية» لاشتقاقها من لفظة «نعم»، واسمها في وادي التيم «الحلوى». وقد عُرفت الخطبة في الشوف بـ «النعمانية»، وفي وادي التيم بـ «أكل الحلوى». وكانت الضيافة لا تقدم في بعض الأوساط الا بعد اخذ الوعد.

ان الخطبة الاجتماعية عند النصارى كالخطبة عند سائر الطوائف لا تشترط حضور الفتى والفتاة، لكن الخطبة الدينية تشترط ذلك؛ إذ لها رتبة خاصة يقوم بها مرجع ديني يتأكد من تبادل وقوع الوعد بالزواج، ويدوّن ذلك في سجل رسمي، ويبارك الخطبة بصلاة طقسية رافعاً الصليب فوق رأسي الخطيبين.

كان عند الدروز أسلوب يعتمده الأقارب والأصدقاء أحياناً هو طلب يد الفتاة من أهلها بالرموز والكناية، أي باستعمال كلمات لها دلالات تفي بالمراد مثل آية قرآنية كريمة أو حديث نبوي شريف يشيران إلى الزواج، واستعمال مصطلحات متفق عليها. كما كان قبول الفتاة والأرملة أو رفضهما يتمان أحياناً بواسطة الرموز والحركات في الأوقات التي يُتاح لهما التعبير عن رأيهما مثل امساك الفتاة ضفيرة من شعرها بأصبعين في حال الموافقة، وبأصبع في حال الرفض، وحفر المطلقة والأرملة الأرض بعود في حال الموافقة وعدم اتيانها بأية حركة في حال الرفض[1].

ويتم الاتفاق على المهر في اجتماع الخطبة أو بعده، بدون أن يكون أية مغالاة فيه. وكان المعجّل منه يشتمل على الدارج والمألوف من الحلي والثياب بدون تحديد له في عقود الزواج، ويقتصر على البسيط الذي هو كسوة للرأس والبدن والذي يؤتى به من

---

(١) للمزيد من المعلومات انظر كتابنا، عادات الزواج... مرجع مذكور سابقاً، ص ٧٢ ـ ٧٥.

القصبات والمدن المجاورة. ثم صار يتضخم كمية ونوعاً، ويُدرج في العقود. وكان المؤجّل للفتاة ضعف ما للأرملة بسبب أهمية الصبا والعذرية. ومن المهر ما يقدم لوالد الخطيبة واسمه «النقد» و«الفيد»، وهو لم يكن معتمداً من الجميع، حتى إن بعض معتمديه اعفوا القريب وابن القرية منه، وطلبوه من الغريب فقط.

كانت فترة الخطبة في الماضي أقصر مما هي اليوم؛ إذ ما كان هناك أسباب تضطر الناس لإطالتها كحاجتهم إلى وقت طويل لتأثيث البيت وتجهيز العروس. كما لم يكن هناك ضرورة للإطالة إذ لا مجال فيها لاجتماع الخطيبين وتعارفهما. وكان المسيحيون أسبق من المسلمين، وأهل المدن أسبق من أهل الأرياف، في اعطاء الفتى والفتاة حق التعارف الذي توسع اطاره مع الزمن قبل الخطبة واثناءها.

اجراء عقد الزواج: اسم عقد الزواج عند النصارى «الاكليل»، واسم اجرائه «التكليل»؛ لأن الكاهن يضع على رأسي العروسين اكليلاً عند مباركة العقد. وزمانه كان في أي يوم مع تفضيل يوم الأحد لأنه يوم مبارك، وتجنب يوم الاثنين باعتباره شؤماً ينذر بفشل الزواج. والمناسبة التي تكثر فيها عقود الزواج هي أيام المرفع. أما المكان، فهو بيت العروس، أو كنيسة احدى قريتي العروسين. ويسبق العقد حضور العريس مع اشابينه ورفاقه إلى الكنيسة لسماع القداس المقام على نيته ونية عروسه ولتناول القربان المقدس.

تتفق جميع الطوائف النصرانية في المراسم الرئيسة لرتبة الاكليل. وتختلف فيما بينها، كما تختلف الابرشيات ضمن الطائفة الواحدة، في بعض المراسم. والمراسم الرئيسة التي يقوم بها الكاهن هي تلاوة صلوات خاصة، ونصائح وأدعية للعروسين، وسؤالهما عن موافقتهما على الزواج، ومباركة المحبسين والاكليل، ووضع الاكليل على رأسي العروسين ثم على رؤوس الاشابين مع تقديم العريس على العروس في اجراء هذه المراسم بناءً على تقديم الشرع المسيحي للرجل على المرأة؛ فالرجل رأس المرأة كما ان المسيح رأس الكنيسة. ثم يمنح الكاهن العروسين البركة الأخيرة، وتوقع العروس شهادة اكليلها على السجل الكنسي ويتبعها العريس فالاشبينة فالاشبين، ويصدق الكاهن تواقيعهم جميعاً. وبعد ذلك يصير زيّاح بالعروسين مع الاشبينين، ثم يتم تقبل التهاني عند مدخل الكنيسة.

ومما يميز رتبة الاكليل عند الروم الارثوذكس تقليدٌ مأخوذ عن الطقس البيزنطي هو سقي العروسين والاشبينين جرعات من كأس نبيذ واحدة مع مباركة الكاهن لإكليل العروسين تتويجاً لهما ملكين في ملكوت الله. ويضع الكاهن عند تكليل العروسين

الارمنيين سيفاً بينهما ويسلمه للعريس الذي يستعمله فيما بعد لرفع الحجاب الأحمر عن عروسه عندما يقدم اليها. ويعمد كل من العروسين في خلال الاحتفال بالاكليل إلى دوس رجل الآخر. ومن يسبق في ذلك بز شريكه في علو الكلمة ونفاذ الرأي.

اسم العقد عند المسلمين «الكتاب» بسبب ادراج ارادة الزوجين وقبولهما وحقوقهما في نص مكتوب. واسمه أيضاً «الصداق» ، ولفظته مأخوذة من الأحاديث النبوية الشريفة، وتعني ما تصادق عليه الزوجان. واسم اجرائه «كتابة الكتاب أو الصداق» مع صحة اجرائه بطريقة شفهية كما كان شأن العقود العرفية في الماضي؛ لأن شرطه الأساسي هو تبادل الايجاب والقبول. أما زمان العقد، فكان على العموم أحد أيام الاحتفالات بالعرس، ومكانه بيت العروس، ومجريه إمام القرية أو شيخ متفق عليه، ثم صار شيخاً مأذوناً له بذلك من المراجع الروحية العليا، ثم غدا قاضي المحكمة المذهبية.

ولكتابة الكتاب مراسم وعادات متشابهة في جوهرها ومراحلها عند جميع الطوائف الاسلامية، وهي تبادل الايجاب والقبول بين الزوجين ممثلين أحياناً، وبخاصة الزوجة، بالوكيل، وكتابة المأذون للعقد، وتلاوة خطبة الزواج المسماة أيضاً «افتتاحية الزواج»، وتلاوة الفاتحة، وتلاوة آيات قرآنية كريمة بالاضافة إلى الفاتحة عند البعض، وتوقيع العقد من الوكيلين، وحالياً من الزوج أو الزوجين، وتوقيعه من أكثر الحاضرين وفي مقدمتهم الوجوه باعتبارهم شهوداً وذلك من قبيل اكرامهم، ثم يوقع المأذون العقد، ويعطيه لوكيل الزوج الذي يسلمه إلى وكيل الزوجة ليحفظ كمستند رسمي.

كانت العروس عند السنّة والشيعة تتباطأ وتتردد في اعطاء جوابها للمأذون حين يأخذ موافقتها، أو وكالتها، لتدلل على مدى تعلقها بأهلها. وكانت العروس الدرزية تفعل ذلك حين تسأل من الشاهدين لا من المأذون مع اعتبار تبسم البكر أو سكوتها دليل موافقة كقولها «نعم»، وسكوت الثيّب (الارملة) دليل رفض. وعند بعض الدروز ما كانت العروس تجيب، بل تجيب عنها احدى نساء أهلها أو قريباتها. وكان من المتعارف عليه عند بعض الدروز أيضاً اعطاء وكيل الزوجة موافقته للمأذون بلفظة «نعم»، واعطاء وكيل الزوج موافقته بلفظتي «نعم. نعم» وتلفظ «نعم نعمين». وكلا العروسين عند بعض الشيعة يجب أن يجيب على اسئلة المأذون الثلاثة: «زوجتك ـ انكحتك ـ متعتك».

وكان من العادات عند البعض أن يتصافح الوكيلان، ويشبك كل منهما يده اليسرى بيد الآخر بحيث تتلاصق ابهاماهما في اثناء مباركة العقد رمزاً إلى الاتحاد والمحبة بين الزوجين. ومن العادات التي لها دلالات ورموز تفضيل احاطة ابهامي الوكيلين بسوار فضي على السوار الذهبي؛ لأن اللون الأبيض رمز إلى الطهارة، ووضع منديل مهدى من

أم العروس على سوار العروس، أو وضعه بين الوكيلين في اثناء مباركة العقد باعتبار ذلك مباركة للغطاء الزوجي، ووضع شمعة مضاءة أمام المأذون الدرزي رمزاً إلى التوحيد، وتفاؤلاً بأن يشع نوره في قلبي الزوجين.

من الآداب المفروضة على حاضري الاكليل والكتاب الاستواء في جلوسهم، وسبل الايادي والانامل، وعدم وضع الارجل بعضها فوق بعض. وكانوا يعتقدون ان ربط وعقد الخيوط والاثواب وما شابه، وقلب الاحذية، وبغض الاعداء، وصيبة عين الحساد، تسبب «ربطة العريس» أو «عقدة العريس»، أي حصول المانع الجنسي الذي يحول دون اثبات رجولته. لذا كانوا يحتاطون لمنع حصول هذه الامور. وكان النصارى يضعون خنجراً تحت زنار العريس، ورغيفاً تحت ابطه. وكانت احدى قريبات العروس تربط ثوبي العروسين عند التكليل بخيط غير معقود تيمناً بالتوفيق، ووقاية من العين الشريرة.

العرس: اسم العرس «الفرح» لأنه أهم مناسبة مفرحة عند الاكثرية الساحقة، ولأنه يحفل بمظاهر الفرح التالية أو بعضها، ومنها ما هو معتمد اليوم: الاغاني، الزغاريد، الحداء، الحوربة، الرقص بالخنجر، الرقص بالسيف والترس، الدبكة على ايقاع الطبل والدف والطبلة عند البعض وعلى أنغام المجوز والناي عند البعض الآخر الذي يعتبر الطبل للنوَر، المناظرات الزجلية، المباريات في العاب الفروسية ورمي الأهداف والكباش ورفع القيمة، المساخر والمقالب والتمثيليات المضحكة، طواف المساخر على البيوت، وإطلاق النيران.

والعرس احتفال بادخال شخصين إلى الحياة الزوجية، فهو احتفال عام مفرح بمناسبة شخصية ذات طابع اجتماعي، لذا سمي «الفرحة الكبرى» و«الفرحة الكاملة» التي تتمم فرحة الخطبة المعتبرة فرحة صغرى أو فرحة ناقصة لا تكتمل الا بالزواج. فالعرس ليس فرح العروسين وأهلهما فقط، بل فرح جميع أهل القرية الذين لا يكتفون بالحضور والتهنئة وتقديم الهدايا، بل يشاركون في احيائه بمظاهره الآنفة الذكر، وفي تقديم العون والمساعدة لأصحابه كاعداد الوليمة وسائر المتطلبات، فيخففون عنهم ما يسمى بـ «المهمة» التي يعجز أصحابها عن القيام بها وحدهم.

كان العرس في القرية لا يجري بمظاهره المفرحة المعهودة إلا بعد فك حداد المحزونين. وكان يُتخذ مناسبة لفك الحداد، وذلك بسماح المحزونين باجرائه أو بحضورهم له أو بمباشرتهم مظاهره بالحوربة. وكانت الدعوة اليه تتم شخصياً، فيدعو والدا العروسين اقاربهم وجيرانهم واصدقاءهم الخلّص، وهذه تُسمى دعوة خاصة يليها بعد أيام دعوة عامة لأهل القرية يقوم بها مشتركين: داعٍ من قبل أهل العريس وداع من

قبل أهل العروس، أو يقوم بها في بعض القرى الحوّاط أو الناطور. ويدعو اشابين العريس الشباب الى سهرة العرس، وتدعو اشبينات العروس الصبايا الى سهرة العروس. ومن وجوه الدعوة دعوة أهل العريس لأقاربهم اللزم ولوجوه عشائر القرية الى اجتماع يسمى «المشورة» يعقد قبل تحديد موعد العرس، الهدف منه اكرام الوجوه والبحث معهم في كيفية تنقية اجواء القرية من رواسب النزاعات تمهيداً لإقامة عرس جميل بمشاركة الجميع. وفي بعض الأوساط كانت دعوة وجيه الفخذ معتبرة دعوة لجميع ابناء هذا الفخذ.

وفي الوقت الذي كانت الخطبة تقتصر عند الأكثرية على الاجتماع الهادىء الهادف فقط إلى أخذ الوعد، كان العرس، باستثناء أعراس رجال الدين والأرامل والمطلقين، يشهد احتفالات كثيرة تمتد إلى ثلاثة أيام في حدها الأدنى عند الفقراء، وتزيد عن ذلك في سائر الأعراس حتى تتجاوز الثلاثين يوماً عند الأعيان والأغنياء. وكان لكل مرحلة، ولو بسيطة، احتفال يجري فيه ما يلائمه وما يسمح به وقته من مظاهر الفرح، حتى إن المدعوين كانوا يحضرون لتهنئة العريس بالحداء والحوربة وإطلاق النيران، فيلاقيهم شباب العريس بمثل هذا.

كانت مساهمة الرجال في احياء إحتفالات العرس الأساسية أكثر من مساهمة النساء. وكان أهل العروس، بعكس أهل العريس، لا يشاركون في الرقص والغناء والزغردة كي لا يقال عنهم إنهم فرحون لترك ابنتهم البيت. ومع الزمن، ومع تطور حرية المرأة وتعدل المفاهيم، ازدادت مشاركة النساء، وبدأ أهل العروس يشاركون، وصارت العروس ايضاً تتكلم وتتحرك وترقص وتظهر الفرح والابتسام بدلاً من الصمت والسكون وإغماض العينين والبكاء، وهذه أمور كانت مطلوبة منها كي لا يقال انها فرحة لترك بيت أهلها.

تُزين العروس في ثلاثة احتفالات تمتد على ثلاثة أيام. أولها تحميمها المسمى «غسلة العروس»، ونزع صغار الشعر (الزغب) عن جسمها. وثانيها تحنيتها، أي تجميلها بالحناء. وثالثها برزتها، أي الباسها حلاها وأجمل ثيابها. ويُنقل جهازها المسمى «طلعة العروس» بالرقص والغناء والزغردة، ويتصدر موكبه في بعض القرى فتى يحمل دجاجة ترمز إلى العروس وإلى التفاؤل بأن تلد الكثير من الأولاد كما تضع الدجاجة الكثير من البيض.

ان عدم جواز الاختلاط بين الرجال والنساء قضى بأن يكون هناك سهرتان في اليوم السابق ليوم العرس: سهرة عند العروس اسمها «سهرة العروس» وتحييها النساء،

وتجري في نهايتها جلوة العروس، أي تنقلها في الغرفة أو الدار على انشاد إحدى أغاني الجلوة المشهورة. وسهرة عند العريس اسمها «سهرة العرس» ويحييها الرجال، وهي أهم الاحتفالات لأنها تستمر إلى ما بعد منتصف الليل، وتشهد جميع مظاهر الفرح أو معظمها. وفي هذه السهرة يتحنى العريس ويُرسل من حنائه إلى العروس لتتحنى به، كما تتحنى العروس ويرسل من حنائها إلى العريس ليتحنى به. فالحناء هو للتبرك والتفاؤل كما هو للتجميل، وفي الفترة الأخيرة من استعماله اقتصر على التبرك والتفاؤل. ومن الاحتفالات عند العريس التي كانت تسبق سهرة العرس وتعقبها سهرات مماثلة لها وصورة مصغرة عنها اسمها «التعليلات».

كان العريس يُحضّر في بيته أو في ساحة العين، أو في أي مكان متسع، أو في بيت مضيفه الذي يدعى إليه أو يخطف بخطة لبقة يحسن تنفيذها بغية اكرامه وتقديم الفطور له، وبغية الاستحصال على هدية له او لخاطفه. وكان أبوه واخوته يفتتحون احتفال تحضيره بالغناء والرقص والحوربة. ثم يجري تحميمه، وتطييبه، وقص أظافره وشعره، وتهذيب شواربه، وحلق ذقنه، وتكحيله في بعض الأوساط، وإلباسه بذلة العرس قطعة قطعة، وسط الغناء والرقص والحوربة والزغاريد. وكان الكهنة والشمامسة يباركون ثياب العريس خلال تلبيسه إياها بصلوات خاصة وهم يحملون الشموع المضاءة. ويعاد موكب العريس إلى بيته كما أخذ منه بالحداء والحوربة والرقص. ويتقدم موكبه في بعض القرى شاب يحمل ديكاً مزهّراً مزيناً بالخرز يرمز إليه.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه لا ضير في استعارة العروسين الفقيرين لبعض ما يلبسانه يوم العرس. كما أن كليهما كان يلبس قبل هذا اليوم ثياباً عتيقة غير بيضاء، أو داكنة اللون، باعتبارها خاتمة حياة غير فرحة فيما ترمز ثياب العرس الزاهية إلى الفرح والتفاؤل بالسعادة والهناء.

من العادات اعداد وليمة في كل عرس، أشارت إليها الأحاديث النبوية الشريفة بالقول: «أولم ولو بشاة»، وحثت على اتيانها. وأشهر أطعمتها الهريسة أو القمحية نظراً لتفاؤل الناس بحبة القمح المباركة. ومعظم مواد الوليمة مقدمة هدايا إلى العريس من أقاربه والمدعوين. أما الضيافة، فأشهر أنواعها القهوة والشرابات.

من مشاهد العرس القروي الجميلة واللوحات الفولكلورية الرائعة ذهاب العرسية لجلب العروس ووصولهم بالرقص والحداء والحوربة والزغاريد، ومواصلتهم ذلك في دار العروس حتى تسلمها، وعودتهم بالعروس على هذه الصورة. الا ان والد العروس وأقاربه ما كانوا يسلمون العروس لأهل العريس، ويباركون لهم، إلا بعد اثبات أهل

العريس جدارتهم في امتحان يخضعهم له أهل العروس كان في البداية قتالاً وهمياً، ثم تحول إلى رمي أهداف ورفع أثقال أشهرها «القَيّمة». فإذا نجح أهل العريس في هذا الامتحان حق لهم أخذ العروس بمظاهر الفرح. لذا يصطحبون معهم المؤهلين لذلك.

كان من العادات عند البعض أخذ العرسية لشيء من بيت العروس من قبيل التفاؤل بأن العروس ستحمل إلى بيت عريسها الخير والغنى والبحبوحة. ومن العادات في جبل عامل حمل احدى نساء العروس صحن لبن وصحن عسل عند خروج العروس من بيت أهلها تفاؤلاً بأن تكون حياتها الزوجية بيضاء كاللبن، حلوة كالعسل.

تُركب العروس على فرس مزينة مهما كانت المسافة قصيرة. ويسير موكبها هازجاً مفتخراً بفوزه بها، لكنه يتجنب العودة على الطريق التي سلكها في ذهابه لأن فيه بحسب المزاعم شؤماً ينبىء بعودتها القريبة إلى بيت أهلها. كما أنه يتجنب ايصالها من طريق أعلى من بيت العريس لأنها أدنى منزلة منه. وقبل ان تصل إلى بيت العريس كان العريس يخرج منه كي لا تكبسه، ثم يقف في مكان مرتفع أعلى من مكانها لأنه أعلى منزلة منها.

كان التنقيط، ولا سيما تنقيط العروس، يجري بطريقة الشوبشة، وذلك بمدح المنقِّط واشهار اسمه ومقدار نقوطه الذي يزاد فيه أحياناً لفتح عين المنقِّط وأهل العروسين. ويُسلم النقوط للعروس اكراماً لها. وقبل أن تنزل العروس عن ظهر الفرس كان والد العريس أو والدته ينقِّطها بهدية مالية ذهبية اسمها «خلعة باب الدار»، و«عبرة الدار». ويتم ذلك وسط الحاح محبب من العرسية هو في الجنوب اللبناني البيتان التاليان:

العروس ما بتعدّي	الا بعبرة الدار
مجيدي ما بتقبض	الا ذهب أصفر

تلصق العروس خميرة معطاة لها من أهلها على عتبة بيتها الجديد تفاؤلاً بأن تثمّر وتخمّر فيه. وهي تفعل ذلك واقفة على بصلة أو رمانة. فالبصلة ترمز إلى كيد الحساد، والرمانة ترمز إلى التفاؤل بإنجاب الكثير من الأولاد. كما من العادات في بعض الأوساط دوس العروس على صحن وكسره رمزاً إلى كسر الشر وكسر الأعداء وإبعاد الحساد. والعروس النصرانية تدوس على بيضة وتكسرها؛ لأن البيض في المسيحية رمز إلى الخصب والنمو والحياة. وتدخل العروس إلى البيت بالمقلوب كي يكون دخولها إليه «دخلة بلا ظهرة»، وإذا ظهرت منه تظهر على قفاها، أي ميتة. والعروس الدرزية تدخل بالمقلوب وفوق رأسها المصحف الكريم الذي ترفعه حماتها.

كانت دخلة العريس على عروسه تأخذ شأناً مهماً وتتم عند البعض بمرافقة الشباب له بالغناء حتى الباب. والقصد من دخول العريس على عروسه ليس الاستمتاع، وإنما اتمام مهمة محددة هي افتراعها وإعلان النتيجة بتسليم منديل العروس الى والدتها. ومن العادات اطلاق العريس للنار ابتهاجاً بذلك، واحتفال العرسية به كحلقة من حلقات الاحتفال بالعرس. ومن العادات عند البعض نشر المنديل على حائط لدحض اشاعة كاذبة وإزالة شك. وإذا لم تكن العروس عذراء رفضت مع ما في ذلك من القتل المعنوي لها ولأهلها ومن جواز القتل الجسدي لها الذي كان يحصل عند الأكثرية[١].

تنتهي مراحل العرس واحتفالاته بقيام أهل العروس بزيارة العروسين ومعهم طعام أهم أنواعه دجاجة محشوة. وهذه الزيارة اسمها «صبحية» أو «صباحية» إذا كان العروسان من قرية واحدة، واسمها «زيارة الفقدة» إذا كان العريس من قرية أخرى. وهناك زيارة عند النصارى تتم بعد قداس يوم الأحد التالي لأحد العرس حيث يخرج أهل العروسين من الكنيسة إلى بيت العريس. ويقوم أهل العريس برفقة العروسين برد الزيارة إلى أهل العروس، لذا تسمى زيارتهم «ردة الاجر».

تسلطن العروسين: بالرغم من حرمان العروسين في الماضي حق اختيار شريك الحياة والاجتماع به والتحدث إليه للتعارف، كانا يعطيان زيادة كبيرة عن حقهما في العرس. فهما سيدا القوم وأميرا الحسن. وهذا يظهر في خدمة الأهل وسواهم لهما، وفي تسلطنهما وظهورهما بمظهر العظماء طوال فترة العرس وبعده بأيام، وفي الأغاني والزغاريد والحوروبات التي تمتدحهما بمبالغة متناهية، وتصفهما في معظم الأحيان بما ليس فيهما.

يظهر تسلطن العروس ومعاملتها كأميرة في تزيين النساء لها خلال ثلاثة أيام، وفي صمدتها على مرتبة عالية، وفي اجابة النساء عنها ومساعدتها في أمورها ووقوفهن إلى جانبها يحملن الشموع المضاءة أو القصب الملفوف بقماش مغمس بالزيت، وكأنهن حراس لها. ويظهر أيضاً في جلواتها وحملها السيف في اثناء صمدتها، وعدم نزولها عن ظهر الفرس الا بعد اهدائها «خلعة باب الدار» أو تلبية طلبها بأن يحضر شخص ممتنع عن حضور العرس أو تركه له غاضباً لسبب من الأسباب. كما يظهر في اعطائها النقود والملبَّس والكوم، عند وصولها إلى دار العريس، لتنثرها على الحاضرين.

ويظهر تسلطن العريس في تحضير الشباب له، وحمله على الأكتاف، ووقوفه

---

(١) للمزيد من المعلومات انظر كتابنا، عادات الزواج... مرجع مذكور سابقاً، ص ١٦٣ ـ ١٦٧.

«معرّماً» وسط القوم، وتوجيه المدعوين التهاني اليه أولاً، ومباشرة شبابه أي أمر بالقول: «عن أمر العريس»، وهتاف لاعبي السيف والترس له بما يهتفون به لأعيان القوم «بالصحايف للعريس» و«لعيون العريس»، وجلوسه إلى المائدة قبل الجميع وتصدرها وبقائه حتى انتهاء آخر مدعو من تناول الطعام تشبهاً بالامراء. كما يظهر تسلطنه في انقسام الشباب إلى فريقين: فريق مولج بحمايته وحماية أغراضه من السرقة كما يُحمى الامراء، وفريق يظهر العداء، مهمته التعليم على الفريق الأول واختبار مدى نجاحه في مهمته.

وإذا كان كل من العروسين يتسلطن في عرسه، فإن العريس يتسلطن على العروس اعتماداً على مبدأ تفضيل الذكر على الأنثى والمفاهيم التي انبثقت منه. فهو «لا يكسر نفسه»، بحسب ما يزعمون، كي يحضرها إلى بيته. وهي توصل إلى بيته عن الطريق الادنى لا الأعلى منه. ويقف عند وصولها في مكان مرتفع للدلالة على أنه أعلى منها، ويشهر السيف عند دخولها إلى الباب للدلالة على أنه أصبح سيدها وحاميها. وفي جبل عامل تقبِّل العروس يد العريس من قبيل الاحترام والاستعداد للطاعة والاعتراف بالسيادة، فيضع عند قدميها ليرة ذهبية أو أكثر للدلالة على أن الغالي يرخص لها. والعريس النصراني يفشخ فوق عروسه، التي تتمدد في الغرفة بعد وصولها إلى بيته، ثلاث مرات.

ان شأن العروسين إذاً كان يعظم أكثر من اليوم، وكانا يعطيان لبضعة أيام وضعاً مميزاً لا يجود عليهما الزمان بمثله، إذا ما استثنينا أعيان القوم، لذا قيل: «اللي بدّو يسلي نفسو يتذكر أيام عرسو».

أفراح مختلفة

بالإضافة إلى ما ذكر من مناسبات أفراح شخصية، هناك مناسبات أخرى أهمها شفاء المريض، وعودة المسافر والحاج، والاحتفال بالنجاح في الشهادة، ووفاء النذر.

يفرح الأهل بشفاء مريضهم، ويعظم فرحهم عند شفائه من مرض مستعص أو بعد عملية جراحية خطيرة، ويشاركهم فيه الأقارب والمحبون. وإذا كان من ذوي المكانة المرموقة في قومه، ومن الأشخاص المحبوبين، يقيمون له تكريماً فيذبحون له خروفاً على عتبة الدار عند وصوله، أو يقيمون حفلة على شرفه قد تكون نذراً لصالحه من أحد أفراد عائلته وأحبائه، وفي هذه الحال تقام في المكان المحدد للنذر الذي يكون عادة معبداً أو مزاراً.

ومنهم من ينذر أن يحسن بمبلغ من المال إلى أحد الأوقاف والمشاريع الخيرية، أو يضيء أمكنة العبادة والمزارات بالشموع والسرج. وينذر المسلمون اقامة مولد في المنزل أو الجامع على نية المنذور حيث تقام الصلوات، وترتل الاناشيد الدينية، وتقدم الحلويات، ويوزع الخروف المذبوح على المحتاجين والجيران. وتتخذ النذور أحياناً طابعاً آخر هو المشي بأقدام حافية إلى المزار، أو الصوم لفترة معينة.

ان عودة الغائبين اليوم أمر اعتيادي، وبخاصة عودة من كثرت اسفارهم، بينما كانت في الماضي ذات أهمية كبيرة بسبب ضعف المواصلات وانقطاع أخبار المهاجرين لفترة طويلة، وطول غيابهم، وبقاء الكثيرين منهم في المهجر، وموت بعضهم هناك بالأوبئة وفي الأدغال وعلى يد المجرمين واللصوص. لذا كانت عودة الغائب فرحة كبيرة هي بمثابة عيد بالنسبة إلى أهله وأقربائه، وعلى الأخص عندما يطول غيابه، فيستقبل بحفاوة بالغة، ويحضر الناس للسلام عليه وتهنئته بالسلامة.

كان أهل القرية يلاقون المغترب العائد إلى أول القرية، ويعودون به إلى بيته بالحوربة والحداء وأمامهم لاعبو السيف والترس، وتلاقيه النساء بالزغاريد، فكأنما عودته عرس أو احتفال بقدوم زعيم. وكانت أغراضه وأمتعته تنقل على ظهور الخيل والبغال والحمير، ثم على العربات قبل استعمال وسائل النقل الآلية.

وكان أهل الغائب يعدون وليمة يدعون إليها جمعاً غفيراً. وهذا من العادات العربية المتوارثة، وفيه دلالة على الكرم اضافة الى الفرح بالمناسبة. وتستمر الاحتفالات بقدوم الغائب، والعزائم على شرفه، أسابيع، ولا سيما إذا كان من الوجهاء والموسرين. وكان يوزع الهدايا على أهله وأقربائه وأصدقائه (ساعة اميركية توضع في الجيب، بذلة جوخ انكليزي، ماكينة حلاقة، مسبحة).

ان الاحتفال بالنجاح في الشهادة مناسبة حديثة بدأت مع انتشار العلم ونيل الشهادات الرسمية. فعند نيل انسان لشهادة ما يتوافد الاقارب والاحباء لتهنئته ويقدمون الهدايا له، ويقيم أهله احتفالاً ويدعون إلى حضوره. وكان يحصل في الماضي احتفال بالنجاح في الشهادة الابتدائية (السرتيفيكا) يقدَّم فيه الطعام والحلويات والمرطبات، ويتخلله غناء ورقص؛ لأن من ينالون هذه الشهادة كانوا في الماضي قلة، وكان شأنهم شأن من ينال أعلى الشهادات اليوم.

الفصل الثاني:

الأعياد والمواسم الدينية المسيحية

العيد في اللغة الوقت الذي يعود فيه الفرح، وسمي «عيداً» لأنه يعود كل سنة بفرح جديد. والأعياد قديمة في تاريخ الشعوب، وتعود إلى العصور الوثنية. وهي بنوعيها، الديني والزمني، ذكر للأحداث والرموز، ومناسبات راحة وتوقف عن العمل، وتجديد للنشاط، وكسر لرتابة الحياة اليومية، وتعزيز للعلاقات الاجتماعية والروابط الوطنية والشعور القومي. وأكثريتها الساحقة مناسبات مفرحة حافلة بالمباهج والغبطة والسرور، ويحييها الناس بمظاهر الفرح المعهودة.

الأعياد والمواسم الدينية المسيحية هي ذكر من بشروا بتعاليم المسيحية، وذكر سائر رموزها وأعلامها وأحداثها. بعضها يقتصر على القداس، وبعضها الآخر يقتصر على القداس وعلى البطالة الرسمية دون أن يُحتفل به بعادات وتقاليد شعبية. لذا لن نتناول منها إلا الأعياد والمواسم ذات العادات والتقاليد الشعبية، حتى لو لم تكن أيام بطالة. وسنتناولها بحسب مواقعها الزمنية المعتمدة أخيراً، وليس بحسب أهميتها. وبناءً على ذلك يصبح عيد الميلاد في نهايتها لأن موقعه في ٢٥ كانون الأول، بالرغم من أنه باكورة الأعياد المسيحية، وان موقعه كان لفترة معينة في أول السنة الشمسية، وان السيد المسيح هو المبشر بالديانة المسيحية.

مميزات الأعياد والمواسم الدينية المسيحية

من مميزات الأعياد والمواسم الدينية المسيحية ما يلي:

١ ـ الكثرة: انها كثيرة للغاية، وتمتد على مدار السنة، وقلما يخلو منها اسبوع. وكثرتها عائدة إلى الرموز والحوادث الدينية عند النصارى، وإلى تبني الكنيسة للعديد من الأعياد والمواسم التي كانت قائمة في العهد الوثني؛ إذ إنها لم تستطع عند نشوئها

التخلص كلياً منها. وقد شكلت كثرتها أحد أهم موارد الكنيسة، والكهنة الذين يعيشون من خدمة المذبح، «فابن المذبح من المذبح يعيش».

الأعياد والمواسم هي يوم الأحد الذي هو يوم مبارك، والأعياد والمواسم التي تستوجب حضور القداس فقط، والأعياد والمواسم التي تستوجب حضور القداس والتوقف عن العمل، وكثيراً ما يشار إليها باسم «بطالة». ومن الأعياد أعياد متنقلة تبعاً لانتقال عيد الفصح الذي يقع في أول أحد يلي اكتمال قمر نيسان، وأعياد ثابتة. ونظراً لكثرة أعياد البطالة وما أدت إليه من تعطيل عن العمل وضعف في الانتاج، نُقل بعضها إلى يوم الأحد الذي هو عطلة اسبوعية.

٢ ـ كثرة المظاهر والعادات والتقاليد: ان الأعياد والمواسم الدينية المسيحية لا تمتاز بالكثرة فقط، بل تمتاز بكثرة مظاهرها وعاداتها وتقاليدها ورموزها. فعلى سبيل المثال يؤتى بذبيحة المرفع باحتفال يقوم به الذين سيذبحونها، وينتهي المرفع باحتفال اسمه «دفن المرفع»، ويلاقى الراهب المرسل من الدير لإتمام المراسم الدينية في العيد ويُوصل إلى القرية باحتفال.

بعض العادات وثني توارثته الأجيال، واستمر اعتماده بعد أن طُهّر مما يشوبه من أدناس. ومن بقايا الوثنية، على سبيل المثال، اعتبار السكر في يوم خميس السكارى حلال في نظر البعض، والاحتفال الذي يُقام في بيت مري في كنيسة مار سركيس المبنية بالقرب من دير القلعة الذي كان في الأصل معبداً فينيقياً للآله مرقود، اله الرقص والغناء عند الفينيقيين، «ففيه يسترسل المحتفلون في الفرح والمرح إلى حد يخرجهم عن نطاق الكنيسة ويدخلهم في عداد الوثنيين الفينيقيين»[1].

٣ ـ تبدل أنظمة ومواعيد بعض الأعياد مرات عديدة.

٤ ـ تخصيص الطفولة بعيد: ان معظم الأعياد عند الطوائف هي للجميع. وفرح الأطفال بها أكثر من غيرهم، إلا أن عند النصارى عيداً يخص الأطفال هو عيد الشعانين.

٥ ـ وجود أعياد خاصة إلى جانب الأعياد العامة التي يعيّد فيها جميع المسيحيين؛ إذ لكل منطقة، أو بلدة، قديس تعتبره شفيعها وتجعل له عيداً. وهناك أيضاً مسك المسيحي لعيد يقام فيه قداس على نيته يذكره فيه الكاهن ويدعو له ولعائلته بالتوفيق، ولموتاه بالراحة. فيعد ماسك العيد مأدبة لخدمة القداس، ولأقربائه، يباركها الكاهن. ويقيم الماسكون الاغنياء والنافذون حفلات تقدم لهم فيها التهاني. ولكي تستمر العائلة

---

(١) انيس فريحة، القرية اللبنانية، حضارة في طريق الزوال، جروس برس، طرابلس، لبنان ١٩٨٩، ص ٢٦٦.

في مسك العيد يجب أن يستمر توارث اسم القديس المحتفل بذكراه في ابنائها. لذا يحتفظ الكهنة بلائحة تتضمن اسماء القديسين والعائلات التي تتبنى أعيادهم.

٦ ـ رمزية العادات: كثيرة هي العادات التي ترمز إلى أمور معينة، منها على سبيل المثال البيض الذي يُسلق ويلوّن في عيد الفصح لأنه رمز عودة المسيح إلى الحياة.

٧ ـ تمثيل الأشخاص والحوادث: مثل تمثيل المسيح في درب الآلام وحمله في تابوت ودفنه في ما يشبه القبر، والاحتفال بقيامته في زيّاح أو هجمة. وتمثيل احياء المسيح للعازر. وصنع المذود وشجرة الميلاد. وتمثيل شخصية القديس جرجس بركوب فارس على ظهر جواد في دار الكنيسة. ودفن المرفع. وتمثيل شخصية يوضاص. وغسل الكاهن أرجل اثني عشر شخصاً في خميس الغسل تشبهاً بالمسيح الذي غسل أرجل تلاميذه. وتمثيل الكهنة سابقاً لدور بابا نويل فيما يمثله اليوم أحد الأشخاص.

٨ ـ الطواف: مثل الطواف بايقونة القيامة ثلاثا حول الكنيسة، وطواف الفتيان في سبت اللعازر وفي عيد البربارة وفي الاستسقاء.

٩ ـ اهتمام منطقة بعيد معين أكثر من غيرها: مثل احتفال بلدات بشري وزغرتا ـ الزاوية بعيدي السيدة ومار الياس، واحتفال بلدتي دير القمر وصغبين بعيد السيدة، واحتفال مدينة زحلة بعيد الجسد.

عيد رأس السنة

لم يكن لعيد رأس السنة موعد ثابت في الماضي. وأخيراً غدا موقعه في أول العام الميلادي. وهو تذكار ختانة المسيح. وله اسماء عديدة أخرى هي «عيد صباح الخير» نسبة إلى الهدية الصباحية التي يقدمها المرء لمن يعايده ويسبقه بقول «صباح الخير». و«عيد البسترينة»، وبسترينة هي كلمة لاتينية واسم الهة القوة عند الرومان (Strena)، وقد أخذها اليونان وجعلوها اسماً للعيد وللهدية التي تقدم فيه رمزاً إلى التبرك بالعام الجديد. و«عيد القلندس»، وهو اسم انتحله الآراميون من كلمة «قلندس» اللاتينية، ومعناها بدء العام، ومنها كلمة «كالاندرية» التي تعني الروزنامة أو التقويم. ومن التعابير الشعبية «بين المواليد والقلندس عند جارك لا تقرفص، وان قرفصت لا تبات، بيصبح الثلج عليك قامات». والمقصود بذلك وجوب التزام المرء بيته وعدم تركه إلى أي بيت، حتى إلى بيت جاره، بين عيدي الميلاد ورأس السنة نظراً لوقوعهما في أقسى أيام الشتاء التي يتساقط فيها الثلج على العموم.

كان رأس السنة تذكاراً له عادات وتقاليد عند الفراعنة والفرس والرومان مع وجود

اختلاف فيما بينها. وغدا له عند النصارى بتذكاريه: المدني الذي هو بداية العام، والديني الذي هو ختانة المسيح، عادات كثيرة. وقد أشار المسعودي إلى عادات النصارى في بلاد الشام فقال: «كانون الثاني أحد وثلاثون يوماً، وأول يوم منه القلندس، فيكون فيه بالشام لأهله عيد يوقدون في ليلته النيران، ويظهرون الأفراح، لا سيما بمدينة انطاكية، وما يكون في كنيسة القسيان بها من القداس عندهم، وكذلك بسائر الشام وبيت المقدس ومصر وأرض النصرانية كلها، وما يظهر أهل دين النصرانية بانطاكية من الفرح والسرور، وايقاد النيران والمآكل والمشارب»[1]. ان عيد رأس السنة هو نفسه عيد الغطاس عند المسعودي. وعلى نحو ما وصفه استمر الاحتفال به عند النصارى في بلاد الشام.

ان الاحتفال برأس السنة الميلادية لم يعد يقتصر على النصارى فقط، بل شمل الكثيرين من مساكنيهم من سائر الطوائف، الذين يشاركونهم في الابتهاج بقدوم سنة جديدة، وفي اعطاء الصباحية لأبنائهم، وفي تجريب المقامرين لحظهم بلعب القمار. ويمكن ادراج عادات رأس السنة تحت عناوين رئيسة أربعة هي استقبال السنة بالفرح والتجمع، التفاؤل، المهاداة، اختبار الحظ.

استقبال السنة: يستقبل الناس رأس السنة بالجديد من الثياب، وتنظيف البيوت وتزيينها، وصنع المآكل الفاخرة والحلويات المتعددة، وإقامة سهرات وحفلات في البيوت والملاهي، حافلة بالسمر والطرب والغناء والموسيقى، وإطلاق النيران ابتهاجاً. وحالياً يحصل طواف في الشوارع مشياً أو بالسيارات مع إطلاق زماميرها.

التفاؤل: من العادات اطفاء الناس للأنوار واضاءتها عند حلول الساعة الثانية عشرة ليلاً. والمقصود بذلك نهاية سنة وتوديعها باطفاء الضوء، واستقبال سنة جديدة بانارته متوقعين أن تكون خيّرة ومضيئة. وفي بعض القرى يكسرون شيئاً من أواني البيت توديعاً للسنة المنصرمة، وتفاؤلاً بالخير في السنة المقبلة. فمن المفاهيم السائدة أن في كسر انية كسراً للشر، ومدعاة للتفاؤل. لذا يقولون عند كسر أية آنية: «انكسر الشر». ومن هنا عادة كسر صحن أو أكثر عند وصول العروس إلى بيت العريس رمزاً إلى انتفاء الشؤم وتفاؤلاً بالخير والسعادة.

وبما ان «السنة المليحة تُعرف من أولها» كان الناس يظهرون الفرح في أول العام تيمناً، ويتجنبون المقت والكدر والعبوس والخصومات كي يخلو العام المقبل من كل هذا.

---

(١) المسعودي، ابي الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب، دار الاندلس ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م جـ ٢ ص ١٨٢.

ويظهر التفاؤل في عبارة المعايدة المعتادة «كل عام وأنتم بخير» مرفقة بالتمنيات التي منها زواج العازب، وعودة الغائب قبل السنة التالية للسنة التي يحتفلون بقدومها.

المهاداة: من العادات تقديم الأهل للابناء، والكبار للصغار، والاصدقاء بعضهم إلى بعض، والأغنياء للمحتاجين، وأرباب العمل للعمال، والزعماء للأنصار، هدية مالية اسمها «صباحية»، أو «بسترينة»، مع المراعاة في أكثر الأحوال لقاعدة أساسية هي أن من يسبق في اداء التحية للآخر، أي «تصبيحه» بقول «صباح الخير»، يستحق منه «الصباحية».

كان الاولاد يبكّرون في النهوض من اجل معايدة اهلهم ليأخذوا «صباحية العيد»، ثم يعايدون أقاربهم. وهم في كل حال يسبقون الكبار من أهلهم، وسائر الكبار، بالتحية تمشياً مع قواعد الآداب المعمول بها سابقاً. أما اليوم، فإن «صباحيتهم» محفوظة سواء صبّحوا أهلهم أم لم يصبّحوهم. وكان للصباحية أهمية إذ ما كان الأولاد يأخذون النقود من أهلهم، على العموم، إلا في الأعياد، وكانوا ينفقون منها لشراء ما يحتاجون إليه في يوم العيد من مفرقعات وحلويات، ويضعون الباقي في «قجة»[1]، أو يودعونه عند أمهم أو جدتهم، للانفاق منه مستقبلاً.

كان الرفاق والاصدقاء، وبخاصة الأتراب، يحاولون سبق بعضهم بعضاً لأخذ مبلغ رمزي من قبيل التداعب والتفاكه ومجاراة العادات. ويعمد الفلاحون والعمال إلى تصبيح أرباب العمل لأخذ الهدية المتوقعة منهم في عيد رأس السنة. وكان من عادات النصرانيات اداء «الصباحية» للعين عند ارتيادها في مطلع رأس السنة، فيضعن في جرنها بعض قطع الفواكه الطازجة والمجففة، والحلويات ، اعتقاداً منهن أن ذلك يحلّل ماء العين أكثر، ويطهرها من الجراثيم، ويبعد عنها الجان.

اختبار الحظ: درج الناس على اختبار حظهم ليلة العيد بوسائل عديدة لمعرفة ما سيكون عليه وضعهم في العام المقبل. لقد كانوا يعتبرون أول يوم من العام مقياساً للعام كله «السنة المليحة تُعرف من أولها»، وكذلك «سنة النحس». ويسمون اختبار الحظ «شوفة الحظ» و«تجريب الحظ» و«كشف الزهر» و«كشف البخت». وكان تجريب الحظ سابقاً يتم باللعب على بعض أنواع النقل أو الضيافة حيث لا يتأثر المغلوب بالخسارة، وحيث يطغى على الجميع جو الفرح والبهجة. ثم تطور عند الكثيرين إلى المقامرة بالمال، التي تسبب للبعض النكبات والمآسي، وتؤدي بمعظم اللاعبين إلى الفقر.

---

(١) قجة: كلمة عامية يقابلها في الفصحى حقة.

عيد الغطاس

عيد الغطاس هو تذكار اعتماد السيد المسيح من يوحنا المعمدان في نهر الشريعة (نهر الاردن)، وحلول الروح عليه بشكل حمامة معلناً ولادة الدعوة. لذا يُغطَّس المعمودون بالماء عند اجراء حفل العماد في اطار مفهوم ديني للعماد ينصرن المعمّد. ولذا ظل من عادات النصارى الأساسية في عيد الغطاس الغطس في الماء تشبهاً بتغطيس المسيح وتذكّراً له وتبركاً. وبعضهم استعاض عن ذلك بالاستحمام بالماء أو برش الماء عليه تبركاً.

سمي عيد الغطاس في الغرب «عيد الظهور» ترجمة للفظة اليونانية épiphanie التي تعني الظهور، وذلك لظهور المسيح وتجليه للعالم باعتماده في نهر الاردن. ويسمى في السريانية «عيد الدنح» (دَ نَحا) بمعنى الظهور والاشراق، ومنهم من سماه «الميلاد الاصغر».

وبما ان هناك ترابطاً بين ولادة يسوع وتجليه أمام المجوس الزرادشتيين أولاً بوساطة نجم ظهر في المشرق، وبين اعتماد المسيح، جمع المسيحيون الاقدمون عيدي الغطاس والميلاد في يوم واحد، أي في ٦ كانون الثاني، وظلوا كذلك الى سنة ٥٦٢ م حين نقل الامبراطور يوستنيانوس الأول عيد الميلاد إلى ٢٥ كانون الأول، وأبقى عيد الغطاس في موعده، فاعتمد النصارى ذلك ما عدا الروم الارثوذكس.

ان الجمع بين أعياد الميلاد ورأس السنة والغطاس لفترة من الزمن، أي الجمع بين ولادة يسوع وولادة الدعوة ورأس السنة، أبقى على التشابه في بعض عادات هذه الأعياد بعد ان تم تحديد موقع لكل منها. فنصارى بلاد الشام ومصر كانوا في العصور الوسطى يحتفلون بعيد الغطاس بلبس الجديد من الثياب، واضاءة الشموع والمشاعل والسير بها، وإقامة الصلوات في الكنائس، وإقامة الحفلات، وإظهار الأفراح، وانشاد الأناشيد، وعزف الموسيقى، والاكثار من المآكل والمشارب وتوزيع أصحاب السلطة منها على المعيدين[١].

أبرز عادات النصارى في المناطق اللبنانية هي السهر في ليلة الغطاس، انتظار مرور المسيح، الغطس، تجديد الخميرة. وجميعها تدور حول التبرك بليلة الغطاس المباركة.

السهرة: يعتبر النصارى ليلة الغطاس «ليلة القدر والتقدير»، فهم يسهرون فيها طوال الليل منتظرين مرور المسيح، متسامرين بالقصص والفكاهات والحزازير، تصنع

---

(١) انظر عن الاحتفالات في مصر في عيد الغطاس، مروج الذهب، مصدر مذكور سابقاً، جـ ٢ ص ٣٨٠.

نساؤهم الحلويات المقلية، وتمتشط تبركاً، ويلهو بعض فتيانهم باللعب بالنار. والجميع ينتظرون مرور المسيح، ويتوجهون الى الله بطلباتهم ورغباتهم. وفي بعض القرى كانوا يسهرون في بيت الكاهن، أو يتجمع الاقارب والجيران في بيت أحدهم بالرغم من حذر الجبليين من الانتقال في ليالي كانون الأول والثاني، أو السفر في أيامهما؛ إذ من التعابير الشعبية: «بين الغطاس والميلادي اياك تسافر يا غادي».

يعتقد النصارى ان جميع الاشجار تسجد في ليلة الغطاس ما عدا التوت لأنه «جبيّر» أي جبّار، والتين لأن المسيح لعن شجرته، حين نظر إليها ولم يجد فيها الا الورق، وكان جائعاً في مسيرته من بيت عنيا إلى اورشليم، فقال لها: «لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد. فيبست التينة في الحال»[1]. وفيما يفضل القرويون اشعال حطب السنديان والملول والزيتون والبطم وسائر النباتات الصلبة؛ لأن القليل منها يغني عن الكثير من سواها ويعطي دفئاً أكثر ولا يزعج بدخانه القليل، يشعلون في ليلة الغطاس حطب التوت والتين تشفياً. فحطب التوت متوسط الجودة في الاشتعال، ويُحدث عند اشتعاله فرقعة مزعجة، ويستفاد منه في اعداد سقوف البيوت الترابية. وحطب التين اردأ أنواع الحطب اشتعالاً وعطاءً للدفء، لذا يتجنبون اشعاله، ويقولون عنه «هب طف»، أي أنه يهب وينطفيء بسرعة، والأخضر منه بطيء الاشتعال ويرشح ماءً.

وبما ان ليلة الغطاس ليلة مباركة تستجاب فيها الدعوات، يتوجه الكبار والصغار فيها بالدعاء إلى الأله، والطلبات لهم ولمحبيهم. ويتوجه الفتيان بذلك خلال لعبهم بالنار وضربهم لوقيدها بقضبان الحديد (الاشياش) وتطاير الشرر منها. ويتخلل ذلك طلبات للرجال والفتيان، مضحكة وساخرة[2].

تُصنع في ليلة الغطاس القلبة، وهي قمح مسلوق محلّى بالدبس أو السكر، مطعَّم بالجوز واللوز والصنوبر، ممزوج أحياناً مع الطحينة. ويُسلق في بعض القرى الحمص، ويؤكل مسلوقاً أو مشوياً. وتُصنع «البخوت» المعروفة أيضاً بـ «المعجنات» أو «الفطاير»، وهي عجين محشو بالقورما أي باللحم المفروم الممزوج مع قليل من الدهن، مطيَّب بالبهارات وحبوب الرمان الحامض. وليلة الغطاس هي احدى «ليالي القلاية» المشهورة. وفيها تقلى الزلابية والعوّام والمعكرون بالزيت. وكانت تطفأ بالدبس قبل استعمال معقود السكر (العقيدة). والزلابية مع السمسم أشهر الحلويات المقليّة المصنعة في ليلة

---

(١) انجيل متى.

(٢) وصف مارون عبود سهرة ليلة الغطاس في بيت خوري القرية، واورد معظم العادات، واورد أمثلة من طلبات الرجال والفتيان المضحكة. انظر مارون عبود، وجوه وحكايات، دار المكشوف، بيروت، لبنان ١٩٦٢، ص ٥٢ - ٥٣.

الغطاس[1]، وهي تقترن به، ويستحيل عجينها بيد القرويات الماهرات «شبابيك من الذهب»، كما وصفها ابن الرومي الذي قال فيها وفي صانعها ما يلي:

شاهدته سحراً يقلي زلابيةً   في رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقي العجين لجيناً من انامله   فيستحيل شبابيكاً من الذهب

ان عادة صنع الحلويات المقلية في ليلة عيد الغطاس سرت عند بعض الدروز من مساكني النصارى، وهذا من التأثير المتبادل الناتج من العيش المشترك.

تنتهي السهرة بحضور المؤمنين قداس نصف الليل. فعند سماعهم قرع الجرس يتوافدون إلى الكنيسة حيث يحتفلون برتبة الغطاس، ويقيم الخوري قداسه، في مدة لا تقل عن ساعة.

مرور المسيح: ينتظر الساهرون في ليلة الغطاس مرور المسيح عليهم عند منتصف الليل وقوله لهم: «دايم. دايم»[2]. لذا يتركون أبواب بيوتهم مفتوحة حتى يمر المسيح، ويدخل اليها ويباركها، ويدعو لها بأن تظل مفتوحة، أي عامرة بالسكان، مفتوحة الأبواب للضيوف. كما يتركون جميع الكواير، وسائر الأوعية المخصصة لحفظ الحبوب والزيت وبقية أصناف المؤونة، مفتوحة ليباركها المسيح. وتحرك النساء المؤن، وتهز خوابي الزيت لتزيد من التبرك، قائلة: «دايم. دايم.»، كما تضع فيها قطع العجين، المصنوعة بشكل صليب، للتبرك.

ان توقع مرور المسيح هو من فعل الايمان، والرغبة في قدومه ورؤيته، ومن قبيل التبرك. فالمسيح في قلوب المؤمنين به وفي ذاكرتهم وفي خيالهم، لذا يتخيلون مروره عليهم في ليلة الغطاس، المعتبرة ليلة القدر والتقدير، ليباركهم ويبارك مؤونتهم، وليلبي طلباتهم، ويبقي بيوتهم عامرة.

الغطس: نظراً لأن عيد الغطاس تذكار لاعتماد المسيح، يعتقد النصارى أن من يستحم، أو يغطس في الماء، أو يبتل، يتبرك ويطول عمره، ويشفى من مرضه، ويقوى جسمه. كما يعتقدون أن المأكولات أو الاشياء تتبرك أيضاً بالغطس أو برش الماء المصلى عليها. ولعل هذا من أسباب تفضيل الحلويات المقلية في ليلة الغطاس؛ لأنها تقلى بتغطيسها بالزيت، وتغطَّس بعد ذلك بالدبس أو بمعقود السكر.

---

(١) انظر مذكرات عن لبنان المتصرفية في عهود الباشاوات الأولين: داود وفرنكو وواصه. نشرها وعلق عليها يوسف ابراهيم يزبك. وفي الصفحة ٦١ يرد عن حلويات دير القمر في عيد الغطاس.

(٢) دايم: لفظة عامية تحريف لكلمة «دائم».

كان النصارى يستحمون في مياه الأنهار والينابيع. ومن لا يقدرون على ذلك يستحمون بمائها في البيوت. وكانوا يحتفلون بالقداس في بعض القرى صباح العيد على العيون، معتقدين ان الصلوات عليها تطرد منها الجان، وتبارك ماءها فيشفي من الأمراض ويسهّل وضع الوالدات. ثم صاروا حديثاً يحملون الماء في أوعية إلى الكنيسة لمباركته في حفلة طقسية مفضلين الصلاة عليه من أكبر الكهنة منزلة أو من أكثرهم تديناً، ويستحمون به في البيوت، ويرشون منه على الغرف ليبعدوا عنها الحشرات، وليقوها من أذى الفئران.

وكان كاهن القرية يطوف على بيوتها لمباركتها بماء مصلى عليه، موضوع في سطل، يحمله أحد أبناء القرية، الذي يرافقه في جولته، فيُعطى الكاهن بعض الدراهم ليعتاش منها. وهذا يسمى «التكريس». وكان الكاهن يمسك بعض قصلات القصعين ويغمسها في الماء المقدس ويرش كل غرف البيت.

ويفضل النصارى عماد ابنائهم في عيد الغطاس. ومن معتقداتهم ان عطسة الطفل فيه مفيدة وتزيد في عمره، لذا تقول الأم عند عطسة طفلها: «صحة» أو «نشو».

تجديد الخميرة: من المعتقدات ان العجين في ليلة الغطاس غني عن التخمير. لذا كان النصارى يجددون الخميرة فيها، وذلك بلف قطعة عجين بشكل قرص مرسوم عليه شارة الصليب في قماش جديد أبيض، بيد عذراء بكر، وتعليقها مع بعض قصلات من الحنطة ومع نبات القويسة والبخور، في شجر غير التوت المتجبر والتين الملعون من المسيح، مدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي؛ لأن العدد ثلاث مقدس عند النصارى، وبعد ذلك يغطَّس قرص العجين في عين ماء كل صباح قبل الشمس بيد بكر غريب، فيتحول الفطر إلى خمير يستعمل طوال العام الجديد. ومنهم من كان يكتفي بتعليق العجين في ليلة الغطاس فقط. ومنهم من يضع في الخميرة نقوداً لتحل البركة في النقود، فيضعها في كمره للتبرك، وكي لا تسرق أو تضيع.

المرفع

تنقل موقع المرفع مراراً إذ كانت بدايته في الحادي عشر من تشرين الثاني، فانتقلت إلى موقع يُحدد بين الخامس والعشرين من كانون الأول الواقع فيه عيد الميلاد، والصوم، ثم حددت أخيراً مع عيد الغطاس في السادس من كانون الثاني بعد نقل عيد الغطاس إلى هذا التاريخ.

أصل المرفع وثني. فهو عند الرومان فترة مبالغة في الاكل والشراب والملذات، تسبق

مباشرةً فترة للتكفير عن الخطايا محددةً في شباط من كل سنة اسمها اعياد التطهير. وقد اعتمدته النصرانية فترة تهيؤ للصوم بعد ان هذبت عاداته.

للموارنة والسريان والكلدان مرفع واحد هو مرفع اللحم، وبدايته في الاسبوع الذي يسبق مدخل الصوم. وللروم الكاثوليك والارثوذكس مرفعان: مرفع اللحم الشبيه بمرفع اللحم عند الموارنة والسريان والكلدان في موقعه ومسموحاته، ومرفع الجبن الذي يُسمح فيه بأكل البيض والألبان (البياض) على ان يصام فيه يومي الاربعاء والجمعة. أما موقع مرفع طائفة اللاتين، فهو في الأيام الثلاثة السابقة لمدخل الصوم. ويُسمح في المرفع بالراحة وإقامة الولائم وشرب الخمرة، وبأكل اللحم في يومي الاربعاء والجمعة، والاكثار من الزيجات. وأهم عادات المرفع الاكثار من أكل اللحم، الاكثار من اجراء عقود الزواج، اقامة الحفلات.

الاكثار من أكل اللحم: يكثر النصارى، في المرفع، من أكل اللحم المسمى «المرفّعية». لذا كان المرفّعون يعدون الذبائح أو يتشاركون فيها، فيما يشتري سواهم اللحم من دكاكين اللحامين الموجودة في المدن والقصبات المجاورة، ومن الذبيحة الكبيرة التي كانت تُعلّق في أحد دكاكين القرية، أو في شجرة احدى ساحاتها (ميسة ـ سنديانة ـ توتة).

كان النصارى القرويون، كسائر القرويين، يأكلون اللحم المقورم مع الدهن معظم أيام السنة. لكنهم لا يأكلون اللحم الطازج النيء والمشوي والمطبوخ بمأكولات متنوعة الا في مناسبات محددة هي الاعياد والأعراس والولائم، أو عند ذبح حيوان لفلاح لسبب معين. لذا كانت ذبيحة المرفع، الكبيرة، تسير مزينة في ازقة القرية، وسط رقص اصحابها بالسكاكين وبسائر الآلات المستعملة من اللحام، كوجه من وجوه الاحتفال بالمرفع يراد به اعلام أهل القرية بأن ذبيحة أعدت لهم لتأمين مرفعيتهم.

ان اقبال النصارى على الاكثار من أكل اللحم قبل فترة الصوم عائد إلى نظرة الناس إلى هذه المادة الغذائية الأساسية. فاللحم كان، ولا يزال، من الذ المأكولات، ومن أكثرها غذاءً. وهو في الماضي أكثر جودة وأقل كمية، إذ كانت الحيوانات والطيور تتغذى من مراعيها الطبيعية وتعيش في بيئة غير ملوثة. وكان عند القرويين المقولة التالية: «لا يغذي الروح الا الروح»، أي لا يتغذى الانسان جيداً الا من لحم الطير وبيضه، ومن لحم الحيوان وحليبه.

وكما كان النصارى يكثرون من أكل اللحم، كانوا يكثرون من سائر المأكولات اللذيذة والمغذية، ومن الحلويات. ومن العادات في بعض القرى صنع حلويات معينة مثل «الفروشية» بالنشاء والسكر والسمن الحموي. وكان النصارى يسرفون من الشرب ومن

أكل اللحم (الزفر) في الليلة الأخيرة من المرفع. ففي هذه الليلة المسماة «ليلة قطع الزفر» يتأنقون في المأكل والمشرب لأنها عشية مدخل الصوم، ويلحون على ابنائهم بالأكل حتى التخمة. لذا تسمى هذه الليلة أيضاً «ليلة الزركة». وبهذا يُتخم الكبار والصغار كي يتداركوا ما يمكن ان يسببه لهم الصوم من وهن.

الاكثار من اجراء عقود الزواج: كانت بعض الأعياد مناسبات مؤاتية لاجراء عقود الزواج ولإقامة الأعراس؛ لأنها مناسبات عطلة وفرح. وكان اسبوع المرفع ملائماً بسبب هذا، وبسبب آخر هو عدم سماح الكنيسة باجراء عقود الزواج في أيام الصوم، التي تلي انتهاء المرفع، الا لأسباب موجبة واضطرارية. لذا كان المحتاجون إلى زواج يحاذرون أن ينقضي المرفع بدون أن يتزوجوا. وكان الناس يمازحون من تجاوزهم المرفع من المحتاجين إلى الزواج، والذين طالت فترة عزوبتهم، بالقول: «لبطك المرفع». وكلمة «لبط» تستعمل في مجالات أخرى عديدة، فتقال مثلاً في عجوز ينتظر موتها، ولم تمت في شباط، عدو العجائز ومميتها: «لبطت شباط»، أي تجاوزته. وتقال في مريض ينتظر موته لمرض عضال ألم به: «لبط المرض»، أي شفي منه.

وكان من العادات في بعض القرى أن يلبسوا الشاب سترته مقلوبة، ويزينوا صدره بنبات كريه الرائحة، ويدوروا حوله مازحين، قائلين: «لبطك المرفع». وتزيين صدره بالنبات الكريه الرائحة اشارة إلى تنفيره من فترة العزوبة التي طالت عنده. وإلباسه سترته مقلوبة رمز إلى التفاؤل بالسعد. وعند جميع اللبنانيين اعتقاد بأن من يلبس أحد أثوابه مقلوباً، بدون علم منه، سيسعد، ولا يزال هذا الاعتقاد راسخاً في أذهان الكثيرين، ولا سيما النساء.

احتفالات المرفع: كان المرفع في الماضي أطول مدة مما هو عليه اليوم. لذا كانت احتفالاته أكثر. وقد حُدد أخيراً باسبوع واحد. ومن العادات الاحتفال بخميس المرفع بالتجمع بعد ظهره في ساحات القرى، وإطلاق النار، وإقامة حلقات الرقص والغناء، والقيام بألعاب القوى والفروسية، وتمثيل المساخر للأدوار الهزلية والمضحكة وتناولهم بالنقد للآخرين، ولا سيما لأصحاب نقاط الضعف ولمن يسهل التندر عنهم. وكان من أعراف بعض القرويين ان شرب الخمرة حتى السكر مباح وحلال في خميس المرفع للجميع بمن في ذلك الصغار والنسوة بحجة التبرك، وهذا من بقايا الوثنية، لذا سمي «خميس السكارى». وقد اعتمدوا في تحليل الخمرة على قول السيد المسيح: «قليل من الخمر يفرح قلب الانسان».

من العادات انهاء المرفع باحتفال. فيطوف شباب القرية في الشوارع بتمثال هزلي

يمثل المرفع، محشو بالحشيش أو التبن أو النخالة، هازجين راقصين. ثم يحرقونه، أو يدفنونه اشارة إلى انتهاء المرفع، وهذا ما يسمى «دفن المرفع»، وبعد ذلك يعودون إلى بيوتهم صامتين لامضاء ليلة «قطع الزفر» التي يحتفل بها أفراد كل عائلة عند كبيرهم بمن في ذلك الغائبون الذين يحضرون خصوصاً لتمضية ليلة المرفع مع أهلهم. ومما يقال عند انتهاء المرفع: «مثل ما رفّعتوا بخير، تصوموا وتعيّدوا بخير».

الصوم

الصوم فريضة على النصراني لمدة محددة ينقطع فيها عن المأكل والمشرب، ويمتنع عن تناول مأكولات معينة. وهو يبدأ يوم الاثنين الذي يلي «ليلة قطع الزفر»، ويستمر سبعة أسابيع بكاملها، أي ٤٩ يوماً.

من العادات الاحتفال بعد ظهر يوم الاثنين بملاقاة الراهب في أول القرية، يوم كانت الأديرة ترسل رهباناً لوعظ الناس وحثهم على التقيد بأصول الصوم، والقيام بالأعمال الصالحة، والتحلي بالفضائل، والابتعاد عن المعاصي. وكان ملاقو الراهب يعودون به في احتفال. وقد بطلت هذه العادة تدريجاً، وترافق إبطالها في كل قرية مع وجود كاهن فيها. ومن بقاياها في دير القمر حتى أواخر القرن التاسع عشر «مشي صبيان البلدة خلف راهب مزيّف يركب حماراً وهم ينادون: جبنا الراهب وجينا من دير بزمّار. فيمر موكبهم بالأسواق على هذه الصورة ثم يرجعون من حيث أتوا. عادة قديمة لا تزال في دير القمر»[1].

يبدأ الصوم بصلوات خاصة يُحيا بعضها بحضور كبار الرؤساء الروحيين. ويرافقها عند الموارنة ذر الرماد، المبارك بالصلوات، على الرؤوس، ويسمى هذا «رش الرماد». وتقام الصلوات المسائية عند الساعة الرابعة، وتطول كل يوم جمعة حيث تكثر التراتيل المسماة «المدايح». ويحتفل بعض النصارى برتبة «درب الصليب» وهي أربع عشرة مرحلة، كما يحتفلون بزيّاح المصلوب الذي يُختتم عند الموارنة بصلوات يسجدون فيها تسمى «السواغيث».

كانت فترة الصوم في الماضي أطول من اليوم. وكانت أسابيعه وأيامه تلقب بـ «صوما»، وبها يسمى من يولد في فترة الصوم أي «صوما». وكان التشدد في الصوم أكثر مما هو اليوم، ولا سيما عند المؤمنين الذين لا يكتفون بصوم الأوقات المحددة، بل يصومون أكثر منها وينقطعون عن المآكل الشهية. وكان من مفاهيمهم: «الصلاة عادة

---

(١) شكري البستاني، دير القمر في آخر القرن التاسع عشر، بيروت، لبنان ١٩٩٤ ص ١٢٢ .

والصوم جلادة ـ صوموا تصحّوا». والتعبير الأول يعني أن كل شيء عادة حتى الصلاة، وان الصوم نوع من التجلد على تحمل الجوع. والتعبير الثاني يعني ان الصوم ينقّي الأجسام والنفوس ويشفيها ويحصّنها ويزيدها مناعة.

كان الصوم يُفرض على الأولاد، ويُحرص على حفظه واتمامه بحسب الأصول والقواعد، فيكتفى بوجبة واحدة متقشفة في المساء طوال أيام الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس، ويُمتنع عن أكل الطعام يومي الجمعة وسبت النور الذي يتوجب صيامه، ويقال فيه: «مين[1] صام سبت النور زكّى صيامو. واللي[2] ما صامو شو نفع صيامو ـ اللي ما بيصوم سبت النور بيكون ملعون ابن ملعون ـ اللي ما بيصوم سبت النور ان شاء الله يحترق بالتنور».

وكانوا يدقّقون في الصوم أو فيما يسمى «القطاعة». والقطاعة هي الامتناع عن أكل كل ما ينتجه الحيوان، أي اللحم والسمك والبيض واللبن والسمن، وتشمل عند البعض الزيت. فهي إذاً الامتناع عن «أكل الزفر» لحماً وبياضاً، وأضيف إلى ذلك التدخين اليوم. وكانت كل محاولة لتخفيف القطاعة مرفوضة. وفي هذا المجال يذكر البطريرك اسطفان الدويهي «ان البطريرك يوسف الرزي كان يحب التغيير فحلل أكل اللحم لرؤساء الكهنة، وأكل السمك وشرب الخمر في صوم الأربعين، ورفع جمعة نينوى، وقصّر قطاعة الرسل التي تسبق عيد الميلاد وغيرهم حتى يدخل عوايد للكنيسة الرومانية. لكن البابا بولص الخامس أرسل مكتوب إلى البطرك يوحنا الذي تخلف بعده بتبطيل هذه الأمور كلها»[3].

وكان الكهنة يفطرون على البصل والثوم، ولا يذوقون طعاماً ادامه الزيت. وكان عليهم أن يعززوا صيامهم الجسدي بالرياضة الروحية. وعليهم وعلى سواهم تعزيزه بالصيام النفسي والتنزه، ومن وجوههما عدم حضور أي نوع من أنواع التسلية والترفيه، والتزام المتزوجين العفة، وعدم اقامة الأعراس، والتوقف عن متابعة الدعاوى الجنائية.

أُختصرت اليوم مدة الصوم فأصبحت من نصف الليل إلى نصف النهار، وخف التشدد والتدقيق فيه، وأجيز الافطار في أعياد البطالة وأيام الآحاد والسبوت عدا سبت النور الذي هو سبت الاسبوع المقدس. وأضحت أيام الصوم عند الكثيرين كغيرها

---

(١) مين: كلمة عامية تحريف لكلمة مَن.

(٢) اللي: الذي.

(٣) البطريرك اسطفان الدويهي، تاريخ الازمنة، نظر فيها وحققها الاباتي بطرس فهد، دار لحد خاطر، بيروت، لبنان ١٩٨٣، ص ٤٦١ .

من الأيام. ولم يعد هناك حاجة لقص الاثواب في الاسبوع الرابع المسمى «اسبوع النص» بحسب ما كان متبعاً «بأسبوع النص فصّل وقص» بسبب كثرة المحال التجارية والألبسة الجاهزة التي تشترى في أي وقت كان، وبسبب تعدل المفاهيم والتطور.

سبت اللعازر

سبت اللعازر معروف باسم آخر هو «اللعازرية». موقعه في اليوم الذي يسبق أحد الشعانين. وهو تذكار اقامة السيد المسيح للعازر، شقيق مرتا ومريم المعروفة بـ «المجدلية»، من القبر في بيت عنيا بعد أربعة أيام من موته ودفنه انبثقت في نهايتها رائحة كريهة من جثته. وهذه أعظم أعجوبة قام بها السيد المسيح. ويحتفل الأحداث، وبخاصة تلاميذ المدارس، بتذكارها استمراراً لتقليد قديم.

يمسرح الأحداث هذه الذكرى، فينطلقون من المدرسة او الكنيسة بعد قداس السبت في موكب يتقدمه الصليب لابسين أثواب الشعنينة، ومن بينهم مجموعة من الفتيان مدربة على احياء الذكرى، فيمثل أحدهم لعازر ويلبس قميصاً أبيض طويلاً ويضع على رأسه نقاباً أبيض مثبتاً بعصابة بيضاء، ويمثل اثنان من الفتيان مرتا ومريم، فيتزيان بزي النساء، ويلبسان السواد ويعصبان منديليهما بعصبة سوداء رمزاً إلى الحزن والحداد. ويحمل اثنان طرساً طويلاً مبطناً بقماش كي لا يتمزق بالاستعمال، عليه صور تمثل مراحل موت لعازر وندب اختيه له وإقامة المسيح له من الموت، وقصيدة اسمها «مديحة لعازر» كانت على العموم شعراً ركيكا مختل الوزن والقافية أحياناً، يختلف نصه من منطقة إلى منطقة، ومن زمن إلى آخر. وهذا الطرس يودع عند كاهن الرعية الملقب بـ «المحترم» أو في انطش القرية.

وكلما دخل الموكب الى بيت يستلقي لعازر في أرض الغرفة على شكل ميت، مغمضاً عينيه لا يتحرك، وتجلس أختاه فوق رأسه تبكيان وتندبان، أو تجلس أحداهما فوق رأسه والأخرى عند قدميه في وضع الصلاة. وهنا يتقدم حاملا الطرس ويضعانه فوق رأس لعازر وأختيه وهما ينشدان الانشودة التقليدية (مديحة لعازر) بصوت شجي مؤثر وبتلحين، أو ينقسم الأحداث إلى فرقتين يتناوبان انشاد المديحة.

وعندما يصل المنشدون إلى ما يتضمن معنى العبارة التي قالها المسيح للعازر حين انهضه من الموت «لعازر. لعازر قم»، ينهض ممثل لعازر، ويخرج مسرعاً إلى الخارج، ويتابع المنشدون الغناء متوجهين إلى أختي لعازر، فتنهضان وتتبعان لعازر. ثم يتبعهما الموكب بعد ان يعطيه صاحب البيت نقوداً، فيتقاسمها أفراده أو يعطونها كلها أو بعضها

لمعلمهم، كما يعطي صاحب البيت للموكب بيضاً او زيتاً يؤخذ إلى الكنيسة بالإضافة إلى الحلويات التي هي «بركة العيد». ويعاد قرطاس لعازر إلى صندوق الخوري ليحفظ إلى عيد اللعازر في السنة التالية.

وضعت في المدة الأخيرة أناشيد متلائمة مع التطور الثقافي بمعنى المدائح القديمة، لكنها أصح وزناً وقافية منها. بيد ان هذا التقليد كاد يختفي من المدن، واختفى في الكثير من القرى بسبب ترك المدارس له، وتوسع القرى، والمعاصرة التي عدلت في معظم المفاهيم والعادات.

أحد أناشيد لعازر:

الجوقة:

بيت عنيا بددي عنك الغيوم	واطرحي ثوب الأسى وأنسي الهموم
أنشدي ربا قديرا ورحوم	فبك الآيات فعلاً ستدوم
مريم ناحت ومرتا نحبت	ودموع الحزن منها انسكبت
لطمت خدا وكفا ضربت	والحشا مملو جروحا وكلوم

مريم:

من لنا يا ناس في هذا المصاب	قلبنا من هوله كالشمع ذاب
أترى يسوع للأوطان آب	فيزيل الكرْب عنا والهموم

الجوقة:

للقاء الرب مرتا خرجت	ومحياه رأت فانفرجت
ايمانها بربها ما برحت	هتفت[1]: يا سيِّدي أنت رحوم

مرتا:

كيف كان الأمر أنت قادر	أن تقيم العازَرَ يا جابر
فارحمني وانصرن يا ناصر	وانشل العازَرَ من قبر مشوم

(١) هنا تتكلم مريم.

الجوقة:

فبكى يسوع من ايمانها ونوى احياء من قد زانها
فمضى للقبر يبغى شانها ودعا العازَرَ بالصوت العظيم

يسوع: (حكي)

عازَرُ أخرج ياحبيبي خارجا وقم بأثواب البلاء دارجاً
لأسى أختيك بدد فارجا واذكر الرب بآيات تدوم

عازار:

انا العازر قمت اليوم حيا وقبلا كنت ضمن القبر بالي
ناداني الهي قم واخرج فقمت ملبيا مولى الموالي

الجوقة:

ثم ضجوا بدعاء يا أنام واحمدوا ربا أتاكم بالسلام
فإذا الله اتيتم يا كرام جاءكم جيش الهنا رحما رحوم

أحد الشعانين

موقع أحد الشعانين، أو عيد الطفولة، في الأحد السابق للفصح. وهو يوافق بداية تحسن الطقس، لذا قيل: «شعنن وادخل»، أي عيّد الشعنينة وأدخل في أجواء شبيهة بأجواء الصيف بعد مغادرة أجواء الشتاء. إنه تذكار دخول السيد المسيح إلى الهيكل في اورشليم راكباً على أتان وإلى جانبها جحشها، والاستقبال الذي أقيم له والذي حملت فيه مجموعات الفتيان أغصان النخيل والزيتون ولوّحوا بها ورموها مع الملابس والأمتعة تحت قدمي الاتان تكريماً لمن تحمل.

والشعانين هي من السريانية (سعانين) ومفردها «سعنينة». ولعلها من السعنة بمعنى «عسيب النخيل»، أي أغصان النخيل التي استقبل بها المسيح. وربما جاءت لفظة الشعانين من كلمة «هو شعنا» العبرية الأصل التي جاءت في الهتاف الذي استقبل به المسيح، ومعناها «خلّصنا».

وبخلاف معظم الأعياد المسيحية يخلو عيد الشعنينة من صنع المأكولات والحلويات احتراماً لفترة الصوم التي يقع فيها. لكنه يجري في احتفال جميل تزيده براءة الطفولة بهجة وسروراً، تطورت مظاهره من عصر إلى آخر. ففي القرون الماضية كان الكاهن

يبارك غصن زيتون كبير يحمله الأطفال إلى الكنيسة، فيجري الطواف به، وكان يحق لمن يدفع مالاً للكنيسة إركاب ابنه، أو من يشاء من الأولاد، عليه في اثناء الطواف به.

ثم تطور الأمر من غصن زيتون كبير إلى سباسب زيتون ونخيل تسمى «سبسوقات» أو «قصافي»، توضع على أطباق يحملها الكبار بأيديهم أو على رؤوسهم، إلى أغصان زيتون ونخيل مزينة بالشموع والأزهار والأثمار والكعك، إلى شموع كبيرة مزدانة بأوراق الزيتون والزهور والخيوط والشرائط الملونة. ويحمل الأولاد الكبار الأغصان والشموع، أو يحملها الاباء وعلى أكتافهم أو أياديهم أولادهم الصغار، وهم يصلون ويرددون في طوافهم «هو شعنا». ويباهي الأهل بعضهم بعضاً بالباس ابنائهم أجمل الأثواب الزاهية. ومنهم من يلبس ابناءه لباس القديسين والاعلام الزمنيين.

يتخلل الاحتفال طواف يسمى «زيّاح الشعنينة». وفي الكورة يخرج المحتفلون من الكنيسة حاملين الشعانين، فتبدو لكثرتها كأنها غابة شموع تسير. ويطوفون بها في ساحة القرية المقفلة المحال في موكب حاشد يحمل فيه الأهل ابناءهم الصغار على الأكتاف، يتقدمهم عمدان الشعانين. ويسير في مقدمة موكبهم الكهنة والمرتلون، يليهم حملة الصلبان والشموع الكبيرة، ويواكبهم الكشافة. ثم يعود الموكب إلى الكنيسة كما انطلق، فتصطف الشعانين في باحتها، ويبارك الكاهن الحاضرين، وبعد أن ينتهي من قراءة الانجيل يقول: «انكسر عمد الشعانين». عندها يتسابق الجميع لأخذ محتويات الشعانين المعتبرة مقدسة للاحتفاظ بها بركات في البيوت[1].

ان الاحتفاظ بمحتويات الشعانين في البيوت، والتبرك بها، عادة قديمة، فقد كانت سباسب الزيتون والنخيل توزع على المحتفلين بركات تصون، بحسب ما يعتقدون، البيوت من النكبات، وتقي المؤن والمزروعات أذى الحشرات والجرذان، وتبعد العين الشريرة وكبسة الطفل، وتشفي من المرض بحرق رمادها الممزوج مع الملح والتبخر به.

اسبوع الآلام

اسبوع الآلام هو تذكار آلام السيد المسيح. وببدايته تنتهي فترة الصوم الكبير. موقعه بين أحد الشعانين وأحد القيامة، فهو مناسبة حزن بين مناسبتي فرح. ان عيد الشعانين، أو عيد الطفولة، هو تذكار دخول المسيح إلى الهيكل في اورشليم، والاستقبال الحاشد الذي أقيم له. وأحد القيامة هو عيد الفصح، أو العيد الكبير، أو عيد القيامة، الذي يبتهج فيه النصارى بقيامة المسيح من بين الأموات. وأيام اسبوع الآلام ستة هي:

---

(١) انظر عن عيد الشعانين في الكورة، سامي ريحانا، موسوعة التراث القروي ج ٢، مرجع مذكور سابقاً، ص ٩٤. ٩٥ .

- الاثنين الذي يلي أحد الشعانين.
- الثلاثاء المعروفة بـ «الثلاثاء المضرّة».
- الاربعاء المعروفة بـ «اربعاء أيوب»؛ لأنها تذكار لآلام أيوب التي ترمز إلى آلام المسيح، وبـ «اربعاء البراقطة» أو «اربعاء البرقطة» لبرقطة النساء لشعورهن وعيونهن فيه.
- خميس الأسرار المعروف أيضاً بـ «الخميس الكبير» و«خميس الفصح» و«خميس الغسل» و«خميس العهد». وهو تذكار العشاء السري الذي تناوله المسيح مع تلاميده، وغسل فيه أقدامهم.
- الجمعة الحزينة المعروفة أيضاً بـ «الجمعة العظيمة» و«جمعة الصلبوت». وهي تذكار محاكمة المسيح وصلبه وموته ودفنه.
- السبت الكبير المعروف أيضاً بـ «سبت النور». وهو خاتمة الصوم والآلام.

يعيش المسيحيون اسبوع الآلام بأوضاع وحالات ومظاهر تتفق مع اسمه، هي تذكر ما جرى للمسيح والحزن والتعبد والصوم والمبرات والزهد. ويترافق ذلك مع عادات مختلفة.

الحزن: يبدأ اسبوع الآلام بيوم الاثنين الذي يلي أحد الشعانين. وفيه تُنزع عن الكنائس زينتها، وتغطى تماثيلها ورسومها بالقماش الأسود، وتغطى مذابحها بقماش أسود أيضاً مطبوع عليه شارات الآلام باللون الأبيض، وتطفأ الشموع، ويصمت الكهنة عن التهليل ويتركون لفظة «هللويا».

وفي يوم الثلاثاء يلبس الناس الثياب السود رمزاً إلى الحزن والحداد. ويستمرون في لبسها حتى نهاية اسبوع الآلام. ويبلغ الحزن ذروته في يوم الجمعة؛ لأن هذا اليوم تذكار صلب المسيح وموته وما تخلله من آلام.

التعبد: يكثر النصارى في اسبوع الآلام من الصلوات الخاصة المسماة بالسريانية «الحاش». ويكثرون من القداديس المصحوبة عند بعض الطوائف بالسجود ورتبة الصليب المؤلفة من أربع عشرة مرحلة. وكانوا يسهرون ليل الجمعة كله من أجل الصلاة التي كثيراً ما يتخللها السجود.

وبعد ان تضاءل عدد العارفين باللغة السريانية، الذين يشاركون في ترنيم الأناشيد، جعلت الصلوات المسائية والصباحية وصلوات نصف النهار باللغة العربية منظومةً على أوزانٍ سريانية ومنشدةً على الأنغام القديمة الأصيلة. «ويلتقي المؤمن الماروني في هذه

الصلوات بروح الأجداد القديسين، وهي من تراثهم الروحي الرائع، منقولاً من لغة سريانية إلى لغة عربية، منظوماً شعراً على أوزان سريانية، ومنشداً على النغم الماروني الأصيل»[١].

الصوم: على النصارى أن يصوموا ويتقشفوا في الطعام طوال اسبوع الآلام، وان يمتنعوا عن أكل الزفر لحماً وبياضاً، وهذا ما يعرف بـ «القطاعة» التي كان النصارى يدققون فيها، ويفرضونها على الأولاد، ويرفضون كل محاولة لتخفيفها وتقصير مدتها كما وردت الإشارة الى ذلك.

وكان المؤمنون لا يكتفون بأوقات الصوم المحددة، بل يصومون أكثر منها، ويكتفون بوجبة واحدة متقشفة في مساء أيام الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس، ويصومون من مساء خميس الأسرار إلى صباح أحد القيامة. وصومهم هذا، المتواصل لأكثر من يومين، يسمى «الطوي».

ان البعض كان يكتفي بالكبة حيله[٢] المسماة «كبة الراهب»، أو يكتفون بالمجدَّرة أو الهندباء المرة المتبلة بالحامض استذكاراً لما أسقي به السيد المسيح وهو على الصليب؛ إذ قُدّم له اسفنجة مملوءة خلاً، وموضوعة على قصبة ليشرب منها حين قال: أنا عطشان. وكان الكهنة يفطرون على البصل والثوم، ولا يذوقون طعاماً أدامه الزيت، ويرفقون صيامهم بالرياضة الروحية وبوعظ الناس وحثهم على التوبة.

المبرات والزهد: كان الصوم والقطاعة يرفقان طوال فترة القيام بهما بشكل عام، وفي اسبوع الآلام بشكل خاص، بالأمانات والمبرات والزهد. ومن مظاهر ذلك عفة المتزوجين، وعدم اقامة المآدب وحفلات الغناء والطرب والرقص، والانقطاع عن كل وسائل اللهو والتسلية، وعدم اقامة الأعراس الا في الحالات الاضطرارية وبعد سماح السلطات الدينية المختصة، والتوقف عن متابعة الدعاوى الجنائية وإصدار الأحكام بالموت.

تذكر آلام السيد المسيح وما جرى له: ان اسبوع الآلام هو تذكر لآلام السيد المسيح ومعايشتها في آن. ان نهار الخميس هو تذكار العشاء السري الذي تناوله مع تلاميذه. وفي صباح هذا اليوم يتقدم معظم حاضري القداس للتناول الفصحي، ويطوف بعضهم بعد الظهر في سبع كنائس لرؤية القربان المقدس المزين المعروض عند مدخلها.

---

(١) انظر هذه الاناشيد في كتاب، اسبوع الآلام، تأليف قسم الليتورجيا وقسم العلوم الموسيقية في جامعة الروح القدس، الكسليك، جونية، لبنان ١٩٧٦ ص و من المقدمة.

(٢) الكبة حيله: سميد ناعم مخلوط بمسلوق اللقطين، محشو بالبطاطا والحمص. والبعض كانوا يصنعونها من الدقيق والبرغل والعدس. ويضيف الناس، اليوم، إلى حشوتها اللحم والصنوبر والجوز والفستق.

وبعد الظهر يقوم كاهن بغسل أقدام اثني عشر ولداً تذكاراً لغسل المسيح أقدام تلاميذه الاثني عشر ليعلمهم التواضع، ويسمى ذلك «حفلة الغسل». ومن العادات تمثيل أحدهم شخصية يوضاس فيتعرض للإهانة والتحقير والاعتداء، وهذا ما يجعل الكثيرين يفضلون توجيه الإهانة ليوضاس على تمثيل دوره.

وفي يوم الجمعة العظيمة، الذي هو تذكار لمحاكمة المسيح وحمله الصليب وموته ودفنه، يقرأ الكاهن انجيل صلاة الغروب. ثم تجري حفلة تجنيز المسيح، فيوضع تمثاله أو صليبه في نعش خاص قاتم اللون، ويحمله كاهنان أو أكثر[1]، ويطاف به ثلاث مرات في صحن الكنيسة في موكب يتقدمه الكهنة حاملين المباخر، مرتلين الألحان المحزنة. ويلمس الجميع النعش ويتسابقون للمرور تحته تبركاً. ثم يوضع النعش في شبه قبر معدٍّ له داخل الكنيسة، ويغطى بالأثواب، ويزين بالأزهار المسماة «الحنوط»، التي يتحمل الناس المشقة والعذاب في سيرهم لجمعها من البراري. وهذا السير يسمى «الشرحطة» أو «التشرحط».

وإذا كان بعض النصارى يكتفون بالطواف بنعش المسيح ثلاث مرات في الكنيسة، فإن بعضهم الآخر يطوفون به في القرية، فيحمله كاهنان من داخل الكنيسة ويقفان على بابها ليلمسه المحتفلون ويمروا تحته، ثم يسيران به في موكب ضخم يتقدمه المرتلون وأعضاء الجمعيات الدينية حاملين الصلبان المتشحة بالسواد. وتسير بعض النسوة وراء النعش مباشرة وبينهن من يمثلن دور مريم المجدلية وأم يسوع، ويسير وراءهن رجال القرية ونساؤها وشيوخها وأطفالها مرتلين. ويمثل أحد الشبان الأقوياء المسيح، فيجر الصليب الضخم الملقى على كتفه ووراءه شاب بلباس جندي روماني يجلده بالسوط. ويعود الموكب إلى باحة الكنيسة على هذه الصورة.

ومن المعتقدات والمزاعم السائدة سابقاً عند بعض النساء ان تمشيط شعورهن في مكان مظلم قرب شيء يبرق اي يلمع يكسب الشعور لمعاناً او برقطة، وان تكحيل العيون او برقطتها بسناج[2] الشمع أو السراج العالق على صفحة معدن أو فخار، ومرافقة ذلك ببعض الأدعية، يجمِّل العيون ويبعد عنها الأمراض والرمد. لذلك سمِّيت اربعاء أيوب بـ «اربعاء البراقطة». وفي هذا اليوم يطيِّب النصارى الماء الذي يغتسلون به بعشبة اسمها «عشبة أيوب»؛ لأنهم يعتقدون أن أيوب استحم بها فشفي من أمراضه السبعة. فالاغتسال بالماء المطيَّب بعشبة أيوب وبالزيزفون والزهر والغار يطهر الجسد في رأيهم

(١) يشارك اليومَ في حمل النعش المسؤول السياسي الكبير الذي يحضر حفلة تجنيز المسيح.

(٢) السناج: اثر الدخان، وفي العاميّة «الشحتار».

كما يطهر الصوم والعبادة النفس. ومن المزاعم أن رش بعض هذا الماء المطيّب عند مداخل البيوت ومفارق الطرق يبعد الحشرات والأمراض وصيبة العين والكبسة والقرينة، ويبطل السحر.

عيد الفصح

لا يعرف بالتأكيد أصل كلمة «الفصح». وهي تدل على العيد كما تدل على الذبيحة التي تُذبح فيه. والفصح اكبر أعياد اليهود. وهو احياء لذكرى خروج الشعب الاسرائيلي من مصر. وموقعه في بدء الربيع في شهر نيسان القمري المعتبر أول شهور السنة. وفيه يفرض على كل بيت يهودي أن يذبح حملاً أو خروفاً في الرابع عشر من نيسان القمري ليؤكل بأرغفة فطير مع أعشاب مرة في أوائل اليوم الخامس عشر، اي بعد غروب اليوم الرابع عشر[1].

تناول يسوع عشاء الفصح مع تلاميذه، وهو العشاء السري الذي سبق آلامه وموته، وأنشأ في ذلك العشاء القربان المقدس. والفصح في المسيحية هو احياء لذكرى قيامة المسيح من الموت بعد آلامه وموته.

تنقل موقع العيد في الماضي، وهو اليوم على الحساب الغربي بعد ٢١ آذار في أول أحد يلي اكتمال القمر، وقد جعله اللاتين يوم السبت. فهو إذاً يوافق بدء الربيع مما يجعل الاحتفال به عادة في طقس معتدل فيزيد من رونقه. ولعيد الفصح اسماء أخرى أشهرها «عيد القيامة» لقيامة المسيح، و«العيد الكبير» لأنه أهم الأعياد عند الطوائف المسيحية. وكان يسمى «حد الحدود» لأنه أهم الآحاد.

يبدأ قداس العيد عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وينتهي عند بزوغ الفجر. ويُحتفل في اثناء ذلك بفض أختام القبر والطواف بالمصلوب في موكب ثلاثاً داخل الكنيسة وسط الشموع المضاءة وباقات الزهر المرفوعة وقرع الأجراس والترنم بالأناشيد والتهليل بكلمة «هللويا».

ومن العادات احتفال الطوائف الشرقية بـ «رتبة الهجمة» حيث يخرج موكب المصلين من الكنيسة بعد القداس، ويطوف بأيقونة القيامة ثلاثاً حول الكنيسة، ثم يعود إلى الداخل بعد مراسم تتخذ عند فتح أبواب الكنيسة التي تكون قد أوصدت بعد خروج الموكب منها، وعبارات تقال عند قرعها. ومما يقوله الكاهن بعد قراءة انجيل السر: «انفتحي أيتها الأبواب المباركة ليدخل ملك المجد». فيجيب شخص من الداخل سائلاً:

---

(١) انظر فهرس الكتاب المقدس ص ٨٤٢ .

«من هو ملك المجد». وبعد أن يعيد الكاهن قرع الباب والنداء ثلاث مرات وبعد ان يسأل من في الداخل ثلاث مرات، يقول: «هذا هو ملك المجد»، ويدفع الباب فينفتح على مصراعيه ليدخل منه الجميع وهم يرتلون: « المسيح قام من بين الأموات». ويكون ذلك اعلاناً لقيامة المسيح. ومن عادات الطوائف الشرقية أيضاً الاحتفال بثاني عيد الفصح بعد ظهر الاثنين. وهذا الاحتفال يسمى «الباعوث»، وهي كلمة سريانية معناها الصلاة والدعاء.

ومن العادات الاحتفال بقرع الأجراس ابتهاجاً، وإطلاق الرصاص بشكل عراضات، وإقامة الزينات في البيوت، ولبس الفتيان والفتيات والصغار للثياب الجديدة يوم العيد، ولبس الكبار للثياب الجديدة في الأحد الجديد. فعيد الفصح يُستقبل كعيد الشعانين بالثياب الجديدة. ويُستقبل أيضاً بالعودة إلى المآكل الشهية والمزفرة وإقامة الحفلات والمآدب بعد أجواء الكآبة والحزن، وصنع الكعك والمعمول بالسمن الحموي.

من العادات أيضاً سلق البيض المتجمع في فترة الصوم، في يوم السبت السابق ليوم القيامة وتلوينه بغلي قشر البصل الأحمر معه، أو ورق التين الاخضر، أو قطع الطرابيش القديمة الخمرية اللون، أو بعض أنواع الأصباغ. وأفضل الألوان ما هو على لون الدم تبركاً واستذكاراً للدم الذي سال من المسيح. والبيض في النصرانية رمز عودة المسيح إلى الحياة كما يخرج الفرخ من البيضة، فهو رمز الحياة والانبعاث والتجدد، وتلوينه رمز إلى الفرح. وهو أول نوع من المأكولات يوضع على مائدة العيد. لذا يُسمى عيد الفصح أيضاً «عيد حمّار البيض». ومن المعتقدات ان من لا يسلق البيض ويحمّره يصاب بالجرب. ومن العادات مهاداة الناس به، وإهداؤه إلى الكهنة مكتوباً عليه «المسيح قام».

ومن العادات المفاقسة أو المداقسة، أي ضرب البيضة ببيضة أخرى. ولذلك أصول وشروط يتفق عليها اللاعبون، منها تحديد أي من اللاعبين يضرب ببيضته بيضة الآخر، وتحديد الجهة التي يتم التداقس بها، ومقدار الفيحة أي الفسحة المكشوفة من البيضة حول قبضة الممسك بها. ويعتبر صاحب البيضة الكاسرة رابحاً، وصاحب البيضة المكسورة خاسراً. وقد يأخذ الرابحُ، تبعاً للإتفاق، البيض المكسور أو الرهان. لذا يعمد اللاعبون إلى اتقان فن التفييح، فيفيحون بشكل يعزز احتمال صلابة بيضتهم أمام بيضة الضارب، كما يعمدون الى اختيار أجود أنواع البيض وأكثره صلابة. ولبعضهم خبرة في ذلك إذ يعرفون البيضة من شكلها أو يختبرونها بضربها بأسنانهم. ومنهم من يلجأ إلى الغش، فيداقس ببيض من خشب أو ببيض محشو بالزفت.

يوافق عيد الفصح الفترة التي يكثر فيها وضع الدجاج للبيض، وهي فترة شباط وآذار. ومن التعابير الشعبية هذا التعبير «بشباط ببيض الدجاج ع البلاط». لذا تتوافر أعداد كبيرة من البيض في عيد الفصح. وقد تأثر بعض المسلمين المساكنين للنصارى بهم فصاروا يسلقون البيض لأولادهم في عيد «حمّار البيض» كما يقولون، ويلونونه، وصار ابناؤهم يتفاقسون به ويتداقسون.

والمعايدة في عيد الفصح واجبة أكثر من أي عيد آخر؛ إذ انها تهانٍ مشتركة ومتبادلة بقيامة السيد المسيح. ولا يقصّر أحدهم فيها بينما قد يقصّر في المعايدة في أعياد أخرى. لذا يسير معظم أهل القرية جماعات، وأقلهم فرادى، للمعايدة، متنقلين من بيت إلى آخر، وكل قادم على الآخر يقول: «المسيح قام ـ ان شاء الله عيد الجايي تكون بالقدس الشريف او ان شاء الله تجوّز أولادك». فيجيبه: «حقاً قام». ومن العبارات المتداولة: «كل عيد وأنتم بخير ـ كل عام وأنتم بخير». ويظل المسيحيون يردّدون هذا القول عند ادائهم التحية لمدة أربعين يوماً.

عيد مارجرجس

القديس جرجس او «الخضر» هو جندي في الجيش الروماني من اللد في فلسطين، دافع عن النصارى عندما أصدر الامبراطور ديوقلسيانوس أمراً باضطهادهم فحكم عليه بالموت في نيقوميدية سنة ٣٠٣ م. وقد اتخذه البيزنطيون ومن بعدهم الانكليز شفيعاً لهم في الحروب واعتبره النصارى الشرقيون شفيع الجنود والجيوش[١].

جاء في تاريخ صالح بن يحيى ما يلي: «زعم النصارى ان في القدم خرج في بيروت تنين فقرروا أهل بيروت له في كل عام بنت يخرجوها اليه اكتفاء لشره فوقعت القرعة في سنة من السنين على صاحب بيروت فأخرج بنته ليلاً الى مكان موعد التنين. فتوسلت بالدعاء إلى الله فتصور لها مارجرجس القديس. فلما جاء التنين خرج عليه مارجرجس فقتله فعمر صاحب بيروت في تلك المكان كنيسة بالقرب من النهر»[٢]. وهذه الرواية من الاساطير العالقة في أذهان الناس. وصورة مارجرجس راكباً على حصانه يقتل التنين وإلى جانب منها الفتاة التي كانت ستقدم الى التنين، من الصور التي تعلق في معظم البيوت. وقد أقيم له كنيسة مشتركة بين الموارنة والملكيين في المكان الذي قيل أنه قتل التنين فيه.

---

(١) المعلومات المذكورة اعلاه عن القديس جرجس مقتبسة عن الأب بطرس ضو، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، جـ ٥، لا مكان للطبع وتاريخه، ص ٢٧٣.

(٢) تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي، دار الشرق، بيروت، لبنان ١٩٦٧، ص ٩.

كان يُحتَفَل بعيد مارجرجس في الأديرة والكنائس التي تحمل اسمه بحفلات رقص وغناء وألعاب قوى وفروسية. وكان يُحتَفَل به في بعض المناطق ومنها جهات بشري وزغرتا والكورة بامتطاء فارس ظهر جواد ممثلاً مارجرجس، وطوافه في ساحة الكنيسة مظهراً ما يجيد من فنون الفروسية. ولنصارى بيروت انشودة تروي اسطورته منها هذان البيتان اللذان يقولهما والد البنت (صاحب بيروت) المقدمة للتنين:

«أهل بيروت يا مدينتي   خذوا مالي ومملكتي
واعفوا عني وعن بنتي   ما لي طوق الحزانى»[1]

عيد العنصرة

العنصرة كلمة عبرانية معناها الجمع والحشد. وموقع العيد بعد الفصح بخمسين يوماً. وهو تذكار حلول الروح القدس على تلاميذ المسيح بالسنة نارية. لذا كانوا يرمزون إلى الروح القدس بحمام يطلقونه في الكنائس، ويوقدون النار في مشق وقطع من القطن، فيطيّرونها في الهواء تمثل الالسنة النارية التي ظهرت على رؤوس التلاميذ، ويشعلون المشاعل في الليل بعد الصلاة عليها كشمعة الفصح. وكانوا يزينون الكنائس بالزهور ومداخلها بالأغصان النضرة وينثرون الورد على الرؤوس مما دعا النصارى الى تسمية عيد العنصرة بالعيد الاخضر وعيد الفصح الوردي وأحد الورد. ومن عاداته عندنا رش الماء في البيوت، كما يجري في عيد الغطاس، تبركاً، وركوع النصارى الشرقيين، وتلهي الأولاد بألعاب مختلفة منها الأراجيح التي كانت تنصب في الاشجار وسقوف البيوت واسمها «العنزوقات».

عيد الجسد

موقعه في الخميس الثاني بعد العنصرة. وهو حديث عند الشرقيين، وقد اعتمد عندهم في القرن التاسع عشر. تحتفل به بعض البلدات والقرى اللبنانية كزحلة وبكفيا وغزير بالطواف بالقربان. وأجمل حفلة تقام له في زحلة «إذ يطوف اسقفها والكهنة حول المدينة تذكاراً لطواف قديم دفع عنهم شر الطاعون»[2].

---

(١) طه الولي: مقالة بعنوان: «بيروت كما رآها الرحالة الاجانب» في مجلة الحداثة عدد ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ سنة ١٩٩٦ ص ٢١٣.

(٢) لبنان، مباحث علمية واجتماعية، مصدر مذكور سابقاً، جـ ١ ص ١٨٩ .

عيد مار الياس

موقعه في العشرين من تموز. تحتفل به قرى كثيرة بإقامة قداس، وتحتفل به قرى الكورة وزغرتا ـ الزاوية وبشري، علاوة على ذلك، باحتفال شعبي حاشد في الدير الذي يحمل اسم مار الياس في سهل الكورة، حيث تقام ألعاب الفروسية من سباق خيل ولعب جريد ورفع أثقال وكباش[1].

عيد الرب

لعيد الرب اسم آخر هو عيد التجلي. موقعه في ٦ آب. وهو عيد تذكار تجلي السيد المسيح على طور (جبل) طابور. ومن العادات أن توقد كل أسرة سرجاً أو شموعاً على عدد ابنائها. ومن الخرافات ان الذي يتمشط فيه يمتلىء رأسه بالحب «اللي بيتمشط بعيد الرب بيمتلي راسو حب». وبما ان موعده يوافق موسم العنب في الأماكن الساحلية والمناطق الجبلية التي لا يتعدى ارتفاعها ٨٠٠ متر، يحمل المزارعون بعض عناقيد كرومهم إلى الكنيسة، أو يدعون الكاهن إلى بيوتهم، لمباركتها، ويوزعون منها على الحاضرين، معتقدين ان ذلك يزيد غلالهم.

من الأمثال الشعبية «بعيد الرب يمتلي العنقود حب ـ عيد التجلي يقول للصيف ولّي». ولهذين المثلين ما يماثل معناهما من الأمثال مثل «بعشره آب عدّي عَ الكرم ولا تستهاب» ويعنى بذلك نضج عناقيد العنب وصلاحها للقطف والأكل. ومثل «تمعي الجدي ولا سواد العنقود» ويعنى به أن صوت الجدي المولود في أواخر الشتاء، والمبشر بقدوم الربيع، أفضل من سواد العنقود في آب، المبشر بانتهاء الصيف وقدوم الخريف والشتاء.

عيد السيدة

موقع عيد السيدة في الخامس عشر من آب. وهو ذكرى انتقال العذراء، وتلفظ عند العامة «العضرا». تضاء فيه الكنائس، وتقام القداديس، ويقام زيّاح يطوف خلاله الكاهن في موكب حاشد حول الكنيسة، وعند البعض في شوارع القرى. وتقام حفلات الرقص والغناء حتى ساعة متأخرة من الليل. وتعد الولائم التي تتميز بطعام رئيس هو القمحية المعروفة أيضاً بـ «الهريسة». ومن عادات بعض القرى كما في حدشيت من منطقة بشري «قيام مجموعة من الأهالي بجمع كمية من المال ومن القمح بهدف تحضير كمية كبيرة

---

(١) للمزيد من المعلومات عن عيد مار الياس في الكورة، انظر سامي ريحانا، التراث القروي ج ٢، مرجع مذكور سابقاً، ص ٩٨ـ٩٠.

من الهريسة توزع فجراً على منازل البلدة فيأكل منها الجميع عند الظهر»[1].

من أهم الاحتفالات بالعيد الاحتفال به في كنيسة خلدة التي تحمل اسم «كنيسة السيدة» حيث يعقب القداس حفلةٌ زجلية، والاحتفالات التي تقام في دير سيدة حماطورة في وادي قاديشا، واحتفال بلدتي دير القمر وصغبين. ومن العادات فيه صيام القرويين حتى الظهر وعدم تناول اللحوم.

عيد قطع رأس يوحنا المعمدان

موقعه في ٢٩ آب. ومن العادات وضع النصارى في فترة النوم فوق رؤوس ابنائهم، وبعددهم، بطيخات بدون تنقية، وفي الصباح «تُشحف»، أي تشق رؤوس البطيخ. فمن كانت بطيخته أجود يكون في زعمهم أسعد حظاً، ويسمى «البطيطيخي»، وفي هذه العادة ايجاد نوع من العلاقة الشكلية، من خلال الرأس، مع مناسبة قطع رأس هيرودس ليوحنا المعمدان وتقديمه لابنة زوجته على طبق.

عيد الصليب

كان الصليب المعقوف رمزاً دينياً لبعض الشعوب الهندية والصينية، الذين كانوا يحفرونه على قبور موتاهم «للبركة والتقديس وللحراسة من الشرير». وعنهم أخذه قدماء الالمان، ثم أحيته النازية وجعلته شعارها. وكان الصليب، بشكله المعروف عند المسيحيين، شارة مقدسة عند قدماء المصريين يرسمونه في معابدهم كرمز للحياة. وكان هنود اميركا يرمزون به في أماكن عبادتهم إلى الجهات الأربع، ويعتبرونه في اميركا الجنوبية رمزاً للخصب. وقد استعمله الاشوريون في أواخر عهدهم أداة للصلب والتعذيب بعد ان استعملوه من قبل علامة للتبريك، وعنهم أخذه اليونانيون كأداة للصلب، وعن هؤلاء أخذه الرومان واستعملوه للغرض نفسه.

ومنذ ان عُلق يسوع على خشبة الصليب، صار الصليب رمزاً مقدساً للنصارى، الا انهم لم يستطيعوا الجهر بهذا الرمز الا بعد ان إعترف الامبراطور قسطنطين بالمسيحية واعتنق الدين المسيحي.

ولعيد الصليب الذي هو من أكبر الأعياد عند المسيحيين الشرقيين تذكارات عديدة ترمز كلها إلى تكريم الصليب المقدس الذي هو علامة انتصار المسيح. أولها تدشين كنيسة القيامة في القدس في ١٣ أيلول ٣٣٥ م.

---

(١) فريدريك معتوق: التقاليد والعادات الشعبية اللبنانية، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان ١٩٨٦، ص ٩٠ .

وثانيها انتصار قسطنطين وتنصره. ففي عام ٣١٢م سار قسطنطين حاكم غاله (فرنسا) لمحاربة اعدائه في رومه فتراءى له الصليب في السماء عند الظهيرة وعليه كتابة بأحرف من نور هي «بهذه العلامة تنتصر». فرفع الصليب على الأسلحة والاعلام، وهاجم اعداءه وانتصر، فأصدر في العام ٣١٣م منشوراً يساوي به بين الديانتين: المسيحية والوثنية، ثم اعتنق المسيحية.

وثالثها العثور على خشب الصليب المقدس في ١٤ أيلول سنة ٣٢٠ م بناءً على طلب هيلانة أم قسطنطين التي أمرت بالتفتيش عنه عند زيارتها للقدس.

ورابعها استرجاع الامبراطور هرقل لخشب الصليب من أيدي الفرس الذين أخذوه من القدس، وذلك بعد تغلبه عليهم في أراضيهم[1]. وقد أعلم سكان القسطنطينية بذلك بإشعال النار على المرتفعات. لذا جرت العادة أن توقد النيران في العيد في ١٤ أيلول على القمم المشرفة.

كان القرويون النصارى يصنعون من عيدان الحطب، أو من الأعشاب والنباتات البرية التي يجمعونها من حقولهم لتنظيفها وإعدادها للحراثة، حزماً تسمى «الابولات»[2] ليشعلوها في عيد الصليب على التلال والأماكن والطرقات المشرفة. ثم صارت النيران توقد في هذه الأمكنة وعلى سطوح المنازل بمزج الرماد بالكاز وإشعاله. ولكثرة ما كان يوقد من ابولات، ومن نيران على السطوح، كانت المناطق المسكونة بالنصارى تبدو وكأنها شعلة نار.

ومن المعتقدات ان غسل المرء لعينه بالماء المسخن على نار ابولة يشفيها من المرض، وان غسله لوجهه وجلده به يقيهما من عدوى الأمراض الجلدية. ومن العادات الطواف ليلة العيد بالصليب في الكنائس وتقبيله تبركاً، ورسم شارة الصليب بالدق (الوشم) على أحد اعضاء الجسم.

وبين عيد الصليب على الحساب الغربي، وعيده على الحساب الشرقي، اثنا عشر يوماً تسمى «البواحير» أو «الصليبيات»، كان بعض الناس، ولا يزالون، يراقبون فيها طقس كل يوم في جميع ساعاته، ويحسبون كل يوم لشهر معين، متوقعين أن يكون طقس

(١) للمزيد من المعلومات عن شارة الصليب وتذكاراته انظر مقالة للأب سمعان بطيش بعنوان «الصليب في التاريخ ومعنى الاشارة»، في جريدة السفير، عدد الاثنين في ١٤ ايلول ١٩٩٨، ص ٥ . ومقالة اخرى له في جريدة السفير، عدد الثلاثاء في ١٤ ايلول ١٩٩٩، ص ٥ .

(٢) ابولة هي تصغير استعمله العامة لكلمة ابالة أو ابيل أو ابيلة الفصحى، ومعناها «الحزمة من الحشيش والحطب». وقد كتبها البعض «قبولة» كانيس فريحة في كتابه، القرية اللبنانية... مرجع مذكور سابقاً، ص ٢٧٣، مع الاشار الى ان حرف القاف يلفظ عند بعض الناس، ولا سيما النصارى، الفاً.

الشهر مطابقاً في جوه العام وفي بدايته وأيامه ونهايته لجو اليوم العام ولطقس ساعاته. أما البواحير على الحساب الشرقي، فهي تبدأ من ٢٧ أيلول. ومن التعابير الشعبية «بعيد الصليب كل أخضر بيسيب» ويعنى بذلك يباس معظم الاشجار والانتهاء من موسم العنب مما يضطر نواطير الكروم إلى ترك هذه الكروم، وهذا يسبّب سيابها، ويجيز قطفها من عابري السبيل. ومن التعابير «بعيد الصليب الدني بتعيب» ويعنى بذلك تحول الطقس من مشمس ودافىء إلى بارد وممطر.

عيد البربارة

موقع عيد البربارة في ٤ كانون الأول. وهو ذكرى استشهاد القديسة بربارة التي هي على الارجح من مواليد بعلبك أو مواليد قرية تابعة لبعلبك اسمها دلسون. ومن المرجح أيضاً استشهادها في منطقة بعلبك إذ ان هناك من يشير إلى استشهادها في فلسطين. وقد أقيم لها كنيسة في بعلبك وذلك بتحويل معبد فينوس الروماني إلى كنيسة باسمها.

جار على بربارة والدها ديوستوروس لعدم ايمانها بالالهة الوثنية التي يعبدها، واستهزائها بها، وايمانها بالمسيح. ولما لم تتخلَ عن معتقدها المسيحي ضربها وعذبها ثم اقتادها إلى الحاكم مرقيانوس، فحاول هذا اقناعها بالعدول عن مسيحيّتها والعودة إلى الايمان بالمعتقدات الوثنية. وحين أخفق معها أمر بجلدها وسجنها وتعذيبها، ثم أمر بقطع رأسها. ومما يروى أن والدها هو الذي قطع رأسها بينما قطع الجند رأس بوليانه، المرأة التي تعاطفت معها في سجنها وكانت مثلها مسيحية. وقد عاقبت العناية الآلهية الوالد الوثني الجائر؛ إذ قُتل بصاعقة في اثناء عودته إلى بيته بعد تنفيذه حكم الاعدام بابنته[1].

من أقدم الاشارات إلى عيد البربارة في بلادنا اشارة المؤرخ صالح بن يحيى الذي يقول: «يزعمون النصارى ان البربارة كانت قديسة ولها نشب كبير ببيروت وعيد البربارة منسوباً إليها»[2]. ويحتفل المسيحيون في بلاد الشام بعيدها. ويعتبرها الغربيون شفيعة العاملين في الصناعات والحرف الخطرة كسبك المعادن والبناء وصنع الأسلحة والبارود وإطلاق المدافع. وربما كان هذا عائداً إلى الايمان بمقتل والد بربارة بصاعقة.

---

(١) للمزيد من المعلومات عن القديسة بربارة انظر الأب بطرس ضو، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، جـ ٥، لا مكان للطبع وتاريخه، ص ١٩٦ . ٢٢١ .

(٢) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي، دار الشرق، بيروت، لبنان ١٩٦٧ ص ٩ .

من العادات أن يطوف الأولاد على البيوت عشية العيد لابسين ثياباً عتيقة وأقنعة تنكرية من صنع أهلهم، منشدين انشودة هزلية. وهذا الطواف تذكار لطواف برباره عريانة في الشوارع بأمر من الملك قبل اعدامها. ويتقدم الأولاد واحد منهم مسوّد وجهه بالسناج المعروف بـ «الشحتار»، يلبس ثوباً ويعتمر غطاء رأس هزليين، ويضع على ذقنه لحية مستعارة. ويحمل عصا كبيرة (هراوة)، اسمه «العرندس» و«البسبس» و«البسيّة»، تصغير بسّة، و«المسوّد». ومن هنا القول «عاملين عرندس» ويُعنى به كل من يطوفون على البيوت في أي مناسبة.

يشيد الأولاد في عدياتهم بسيدة البيت التي تكرمهم، ويهجون سيدة البيت التي تبخل ولا تجزل لهم العطاء. ويخصونها بذلك دون الآخرين؛ لأنها هي التي تستقبلهم وتعطيهم. ويجمعون من البيوت طحيناً ودبساً وزيتاً ودراهم، فيقدمون الزيت والدراهم للكنيسة أو يقدمونه للخوري «المحترم» أو للخورية الساكنين في «الانطش». ويجتمعون في بيت أحدهم حيث يطبخون بالطحين وبالزيت الذي أبقوه لهم المعكرونة ويطفئونها بالدبس. وبعد صنع الاقنعة المخيفة المختلفة الأشكال والألوان واسمها «بربارة»، صار الأولاد يلبسونها كلهم أو بعضهم، ويلبسون الثياب الجاهزة التي تخفي شكلهم ومظهرهم، ويطوفون على البيوت بالطبل والزمر والغناء والضجيج.

ومن العادات ايقاد الشموع، والتكحل بالسناج، وسلق القمح وتحليته بالسكر وتطعيمه بقلوبات الجوز واللوز والصنوبر والفستق الحلبي تذكاراً للقديسة بربارة التي اختبأت عند هروبها من ظلم أبيها في حقول القمح، وصنع المعكرون بالدبس واضعين في بعضها فحمة أو قشرة هي دليل حسن الفأل لمن يصيبها، وصنع حلويات أخرى مثل الزلابية والعوام اشارة إلى الطعام المر الذي تحول إلى حلوٍ في فم بربارة في فترة تعذيبها.

اختفى الاحتفال بهذا العيد من مدن وبلدات وقرى عديدة، فيما لا تزال قرى كثيرة تعتمده منها قرى زغرتا التي بات الأولاد فيها يلبسون الاقنعة المخيفة، والملابس التنكرية الجاهزة، ويوزعون ما يجمعونه على العائلات المحتاجة[1]، ومنها قرى كثيرة في جنوب لبنان. كما أن بعض المسيحيين المهاجرين إلى البرازيل مثلاً يجرون هذا الاحتفال بالمظاهر التي يجري فيها في لبنان.

من عديات الأولاد الموجهة إلى القديسة بربارة:

---

(١) انظر عن عيد البرباره في زغرتا، جريدة السفير، عدد ٧٨٦٤ تاريخ ١٢/٤/ ١٩٩٧ ، ص ١١ .

«القديسه برياره عند الرب مختاره
نالت كرامه عند الله لتشفع بالنصارى

أبوها حاكم بأرض الشام عمّر للفتاة حمام
حتى تحصل بالسلام ويصونها من العهاره»[1]

❖❖❖

هاشله برياره عَ طريق الحاره
يامعلمتي عبي الكيس الله يبعتلك عريس
بجاه الله والمسيح

❖❖❖

برياره برياره عند الرب مختاره
أبوها هَ الكافر كان عبّاد حجاره

❖❖❖

بسيه برياره والقمح بالكواره

من عديات الأولاد الموجهة إلى بوليانه التي رافقت برباره في عذابها وموتها:

«بوليانه هي وعظتها وبدين المسيح ارشدتها
اطلبوا جميعاً شفاعتها من القديسه برياره»[2]

من عديات الاولاد التي تمتدح أو تهاجم صاحبة البيت:

عود فوق عود صاحبة البيت من أهل الجود
كيله فوق كيله صاحبة البيت بخيله

عيد الميلاد

عيد الميلاد هو تذكار ميلاد المسيح. كان يُحتفل به مع عيد رأس السنة، ثم مع عيد الغطاس في ٦ كانون الثاني. واعتُمد موقعهُ أخيراً في الخامس والعشرين من كانون الأول. وعيد الميلاد هو «العيد الصغير». أما «العيد الكبير»، فهو عيد الفصح. ويسبق عيدَ الميلاد أحد النسبة الذي يعظ فيه الكاهن المصلين.

---

(١) مجلة المشرق سنة ١٩٠٩، العدد ١٢ ص ٩٥٦.

(٢) الأب بطرس ضو، تاريخ الموازنة... مرجع مذكور سابقاً، ص ٢٠٥.

من العادات سهرة جميع أفراد العائلة حول الموقد بانتظار قداس نصف الليل؛ لأن عيد الميلاد معتبر عيد العائلة. وبما أن المناسبة مناسبة تذكر، فإن النار والدفء والشرر المتطاير من النار تذكّر المسيحي بولادة المسيح وترمز إلى أمور مهمة.

ان النار الضرورية للاستدفاء في أيام الشتاء، حيث يأتي عيد الميلاد، على العموم، في أقساها برداً، ترمز إلى ضياء نجم المجوس وإلى النور الذي أشع حول الملائكة عند ظهورهم للرعاة وهم يرتلون «المجد لله في الأعالي». والاستدفاء بالنار يذكّر بالدفء الذي بعثته الحيوانات الملتفة حول المسيح عند ولادته في المذود الذي يلفظ «المزود» في التعابير الشعبية.

وان اشعال الحطب في المواقد كان الوسيلة الوحيدة للتدفئة في الماضي. ويزداد استهلاكه عند الجبليين في كانون الأول وكانون الثاني المعتبرين فحلي الشتاء؛ لأنهما أقسى شهوره برداً وصقيعاً وأغزرها على العموم شتاء وأكثرها ثلجاً. ومن الطبيعي تحريك الوقيد من حين إلى آخر لإزاحة رماده وزيادة اشتعاله. كما من الطبيعي أن يأخذ البعض من هذا وسيلة للهو والتسلية، فيعمدون إلى اللعب بالوقيد بعيدان حطب أو باشياش حديد (قضبان) فتنبعث منه شرارات يتباركون بها؛ لأنها شبيهة بالنور الذي أشع حول الملائكة عند ظهورهم للرعاة، فيتوجهون عند حدوثها بطلباتهم إلى الله معتقدين أن الطلب إليه مستجاب في هذه الليلة المباركة.

وبما ان عيد الميلاد أهم مناسبة دينية مفرحة عند المسيحيين، فإنهم يستقبلونه بمظاهر الفرح، وبالزينة، والمآكل والحلويات الطيبة. من العادات اعداد الحلويات المقلية في سهرة عيد الميلاد، المسماة كسائر الحلويات التي تصنع في كل عيد «بركة العيد» على أن تؤكل في اليوم التالي ويقدم منها الضيافة للمعايدين. ومنهم من يواصل قلي المعكرون والعوّام والزلابية في الليالي الواقعة بين الميلاد والغطاس، أي بين «المولود والمعمود»، والمسماة «ليالي القلاية». كما أن بعض القرى تصنع المغلي بالجوز والصنوبر. وصنع الحلويات المقلية في سهرة عيد الميلاد هو استمرار لصنعها الذي جاء من وقوع عيد الميلاد لفترة من الزمن مع عيد الغطاس في ٦ كانون الثاني. وصنع المغلي هو من عادات سكان المناطق اللبنانية وسواهم عند الولادات، وقد اعتمده البعض في ولادة السيد المسيح.

من العادات اعداد المأكولات الشهية مثل الدجاج المحشي (المحشو) والضلوع المحشوة والكبة والحلويات والنقوع، أي الخشاف، وهو منقوع الزبيب مع الماء والسكر وماء الزهر. الا ان المسيحيين المتدينين يمارسون الصوم الاختياري، والتقشف في الاكل،

إذ يأكلون الخبز الناشف المبلول بالماء والملح، والخضار المتبلة بالحامض من دون زيت، والحبوب المسلوقة، ومنهم من يصوم طوال الثلاثة أيام التي تسبق يوم العيد. وهذا مقدمة لفرحهم بميلاد المسيح.

ومن العادات استقبال العيد بالثياب الجديدة والجميلة، وتنظيف البيوت واضاءتها وتزيينها. ومما كانوا يزينون به نباتات يستنبتونها من حبوب منزلية في الأيام السابقة للعيد رمزاً إلى الخير وتفاؤلاً به، وتبركاً بالعيد. ومنها اضاءة الكنائس والطرقات، والتنوير، وقرع الأجراس لمدة طويلة تعبيراً عن الفرح والابتهاج بميلاد المخلص (الفادي)، وهذه عادة استحدثها الامبراطور البيزنطي قسطنطين عندما أمر بقرع الأجراس طوال ليلة الميلاد في كنيسة الميلاد التي شيدها في بيت لحم. ولقرع الاجراس أصول يتعرف الشباب اليها بالممارسة. وهم يتباهون به وينتخون عنده. ومن دقاته التربيع التي تجمع بين الفن والقوة.

يحضر كل قادر قداس نصف الليل كي لا يُحرم البركة، وكي لا يتعرض لعقاب الآخرين بعدم مهاداته ومعايدته. ويقال عند المعايدة: «ميلاد سعيد. ميلاد مجيد». وكان الاختلاط بين الرجال والنساء غير مسموح به قديماً في الصلاة كما في سائر المناسبات والاحتفالات، جرياً على العادة المتبعة. لذا كانت النساء المارونيات تتخذ زاوية خاصة عند مدخل الكنيسة، وتخرج بعد اداء الصلاة والقداس قبل الرجال بفترة حتى لا يراهن أحد بحسب ما ذكر القاصد البابوي إلى الموارنة سنة ١٥٩٥م، الأب دنديني اليسوعي. ثم خُصِّص للنساء جناح خاص في الكنائس مواز لجناح الرجال أو أعلى منه، ظل يعتمد في كثير من القرى حتى أواسط القرن العشرين قبل أن يعتمد الفناء الواحد للرجال والنساء.

من التقاليد اقامة المذود، أو المغارة. وهذا تقليد شرقي يرمز إلى المكان الذي ولد فيه المسيح، ويتبرك الناس به. ومنها اقامة شجرة الميلاد في البيوت وتزيينها، وهذا تقليد حديث أتى به المرسلون الأوروبيون، والكهنة الذين درسوا في أوروبا، نشأ في المانيا وانتقل منها إلى سائر بلدان أوروبا وإلى كافة المناطق المسيحية. وكان سبب نشوء هذا التقليد مهاجمة القديس بونيفاسيوس لعبدة الاله ثور، اله الغابات الذي تُقدم له الضحايا البشرية، وهم يهمون بذبح ابن أحد الامراء ضحية له في حفلة أقاموها تحت شجرة، ليلة عيد الميلاد، فردعهم وأمرهم بقطع الشجرة واقامتها في أحد المنازل شجرة مقدسة تزين بالأنوار والهدايا بعد ان كانت شجرة اعدام تسفك تحت أغصانها الدماء ليلة الميلاد المباركة.

اعتاد الكهنة عندنا اقامة شجرة الميلاد في المعابد، يعلقون فيها أكياس الزبيب والجوز واللوز والصنوبر، ويوزعون منها على المهنئين، فيتباركون بها. واعتاد المؤمنون أن يفعلوا مثل هذا في البيوت. ثم صارت الشجرة تزين بالشموع، فبالأنوار الكهربائية وبمندوف القطن والخيوط الذهبية والفضية والخيوط الملونة، ويوضع في أعلاها نجمة. ويُرمز بالقطن إلى الثلج المتساقط على الأشجار ليلة الميلاد، وبالخيوط اللماعة إلى أعمدة الجليد المتدلية من الأغصان، وبالنجمة إلى النجم الذي قاد المجوس إلى المغارة. أما المحزونون، فلا يصنعون المغارة والشجرة؛ لأنهما من مظاهر الفرح.

من التقاليد الحديثة المأخوذة عن الغرب الأب ميلاد المعروف بـ «الاب نويل» أو «بابا نويل» الذي تصوروه شيخاً طاعناً في السن، ذا لحية بيضاء كثة تمتد إلى زناره، وشوارب يصل طولها إلى شبر، قوي الجسم، يرتدي ثياباً غريبة، ويمتطي عربة سحرية تجرها الغزلان، أو ينتقل على بساط سحري، يحمل الهدايا في كيس على ظهره. وكانوا يوهمون الأولاد أنه يهبط عليهم من السماء، ويدخل البيوت من النوافذ والشقوق والمداخن، وينقل الهدايا اليهم، ويضعها غالباً تحت شجرة العيد. وهذه طريقة تتلبس السحر والخيال لإيصال الهدايا إلى الأطفال وإفراحهم بمولد المسيح. وكان الكهنة، والمؤمنون الميسورون الذين يريدون الاحسان للتبرك، يمثلون دور «بابا نويل»، فيوزعون النقود على المحتاجين في اكياس صغيرة يضعونها أمام بيوتهم.

ان التصور الاسطوري لـ «بابا نويل» تجسد حالياً في رجل يهبط من الطائرة في احدى الساحات أو يأتي بالسيارة، ليوزع الهدايا على الأطفال الذين ينتظرون قدومه. وهدايا عيد الميلاد عينية من الألعاب والحلويات، بينما هدايا عيد رأس السنة مالية.

الفصل الثالث:

الأعياد والمواسم الدينية الاسلامية

لم يهتم المسلمون في بادىء الأمر بإقامة الاحتفالات بذكر المناسبات الدينية، واعتبروا الاحتفال ببعضها عند بداية اعتماده بدعة دينية كالاحتفال مثلاً بذكرى المولد النبوي الشريف الذي كان الفاطميون أول من احتفل به احتفالاً رائعاً بحسب ما ذكر المقريزي والقلقشندي. وقد أوجد الفاطميون أيضاً العديد من الاحتفالات بالمناسبات الدينية والزمنية حتى بلغت خمسة وعشرين عيداً، منها عيد رأس السنة الهجرية، وعيد الفطر السعيد، وعيد الأضحى المبارك، والموالد الأربعة (مولد الإمام علي، والإمام الحسن، والإمام الحسين، والسيدة فاطمة)، وأيام الركوبات، وموسم فتح الخليج، ويوم النوروز، وعيد كسوة الصيف، وعيد كسوة الشتاء، ومولد الخليفة الفاطمي المتسلم للخلافة.

ان بعض ما اعتبره معظم المسلمين في الماضي بدعاً غدا أمراً واقعاً. وباتت الاحتفالات بالأعياد والمواسم الدينية أمراً مألوفاً عندهم حتى انها كانت تجري في عهد الايوبيين والعثمانيين بأساليب مبالغ فيها. ومع ذلك فإن الأعياد والمواسم الإسلامية أقل عدداً ومظاهر وعادات من مثيلاتها المسيحية. ومنها ما يقتصر على الصلاة فقط، ومنها ما تحصل فيه البطالة وتجري الاحتفالات الرائعة. ويوم الجمعة هو اليوم المبارك ويوم العطلة الاسبوعية الذي تقام فيه الصلاة في الجوامع والمساجد. ويتأنق المسلمون في اللباس والمأكل في الأعياد، فالرسولﷺ «كان يلبس برده الأحمر في العيدين وفي الجمعة»[1].

مواقع الأعياد والمواسم الدينية الاسلامية على أساس التقويم الهجري (الحساب الهجري)، لذا سنوردها بالتسلسل بحسب موقعها ابتداءً من عيد رأس السنة الهجرية.

---

(١) الشوكاني، نيل الاوطار، وردت الاشارة اليه، جـ ٣ ص ٢٨٤ .

رأس السنة الهجرية

موقع رأس السنة الهجرية في أول شهر محرّم. وهو تذكار هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى يثرب بعد اشتداد تضييق قريش عليه ومحاولتها قتله. وللهجرة أهمية كبيرة عند المسلمين؛ إذ لها، بالإضافة إلى أبعادها الدينية السامية، أبعادها وآثارها السياسية الخطيرة، فقد كانت بداية لتأسيس أول حكومة اسلامية في يثرب (المدينة) برئاسة النبي ﷺ، بفضل المؤازرة التي لقيها، ولقيها المهاجرون قبله، من الأنصار، وكانت منطلقاً لنشر الإسلام في الجزيرة العربية، ولفتح مكة، وبداية الفتوحات.

ان تاريخ هجرة الرسول ﷺ هو أول شهر ربيع أول. لكن الخليفة عمر بن الخطاب أشار على المسلمين بجعل أول محرّم بداية للتأريخ، فاعتمده المسلمون، ونشأ بناءً على ذلك التقويم الهجري. ثم جعل الفاطميون بداية هذا الشهر عيداً. وبعد قرون عديدة، وبفضل مبادرات المفكرين المسلمين، عم العيد جميع الاقطار الاسلامية.

يُحتفل بالعيد في لبنان في المساجد والجوامع والنوادي والجمعيات الخيرية في المدن والبلدات بإقامة صلوات خاصة، وإلقاء المفتين وأئمة الجوامع الخطب التي تتناول فلسفة الهجرة وأهميتها ونتائجها، وما تعرض له الرسول ﷺ من صعاب، وما تحلى به من صبر وثبات وإيمان وتصميم على نشر الدعوة. ومن أهم الاحتفالات به حالياً الاحتفال المركزي في بيروت الذي يترأسه مفتي الجمهورية اللبنانية.

العادات في عيد رأس السنة الهجرية تقتصر على تبادل التهاني والهدايا والزيارات، وتقديم الضيافات غير المبالغ فيها كالقهوة والحلويات المختلفة والفواكه. ويؤثر المسلمون صنع الارز بحليب، وسائر المطبوخات البيضاء اللون تفاؤلاً بأن تكون السنة أياماً بيضاء، وان تخلو من الأيام السود. كما يصنعون الحلويات من الدقيق الصافي الممزوج مع الدبس المغلي، ويسلقون الحبوب على مختلف أنواعها وفي طليعتها القمح المقشور تفاؤلاً بالعام الجديد. ويتجنب المتدينون أكل اللحوم، وإذا ما صنع سواهم رؤوس الذبائح، يكتفي بسلقها وتتبيلها بالحامض.

عيد المولد النبوي

موقع عيد المولد النبوي الشريف في الثاني عشر من شهر ربيع أول. وهو تذكار لمولد الرسول ﷺ. كان في الماضي ذكرى دينية مباركة، ثم صارت الذكرى عيداً. وأول من جعلها عيداً، واحتفل به احتفالاً رائعاً، الفاطميون. وفيما لم يهتم به الأيوبيون كالفاطميين، بالغ المماليك في الاحتفال به، وتبعهم في ذلك العثمانيون. «ففي سنة

١٩١٠ احتفل المسلمون به احتفالاً لم يسبق له نظير، وأصدر السلطان محمد رشاد أمراً بجعله عيداً رسمياً»[١]. ومع ان العلماء المسلمين يعتبرون العيد، اعتماداً على الأدلة الشرعية، بدعة محدثة[٢]، الا ان هذه البدعة غدت أمراً واقعاً وعيداً سنوياً رسمياً وجماهيرياً يعطل فيه ليوم واحد.

من العادات انارة المساجد والبيوت ليلاً وابقاؤها مضاءة رمزاً بالنور إلى ولادة الهدى والضياء، وإقامة الزينات، وإطلاق الرصاص، وإشعال المفرقعات، والطواف في الشوارع بالاعلام وبالتهليل والغناء، وإشعال النيران في القرى على السطوح والمرتفعات، وذلك بمزج النفط مع الرماد والنشارة، وإشعاله.

ويقيم المسلمون الاحتفالات المسائية والصباحية بدعوة من دائرة الأوقاف. ففي المساء يؤم المؤمنون المساجد حيث يقرأ عليهم خطباؤها قصة المولد، ويذكرون مآثر الرسولﷺ ومواقفه وصبره، ويحثونهم على ضرورة الاتعاظ من هذه المناسبة. وفي صباح اليوم التالي يقام الاحتفال الأهم إذ يؤم مفتي كل مدينة جموع المصلين في المسجد الجامع كالجامع العمري في كل من بيروت وطرابلس وصيدا، وتقرأ قصة المولد، وتُنشد الأناشيد الدينية، وتُوجه الابتهالات والأدعية إلى الله. وبعد الصلاة تنطلق الجموع من المساجد في تظاهرات الفرح التي لا تخلو من التعبير عن المواقف السياسية في المناسبات المهمة. وكان يسير في طليعتها أحياناً لاعبو السيف والترس، وعبد يمتطي حصاناً أو جملاً ممثلاً السيد بلال، مؤذن الرسول. وتسير فيها الفرق الكشفية منشدة الأناشيد الحماسية، وأمامها حملة المشاعل وعازفو الآلات الموسيقية. كما تسير فرق الطرق الصوفية مكبّرة، وأمامها حملة الأعلام والرايات[٣].

من العادات تبادل المسلمين التهاني والزيارات، وتقديم الحلويات مثل الارز بحليب والمعمول والشوكولا والكوم والدربس والملبس، والأنواع الأربعة الأخيرة تسر الأطفال كثيراً. ومنهم من يحمل هذه الحلويات إلى المساجد لتقديمها للمحتفين بالعيد كما في المدن، أو يحمل الزهور والورود والعطور لرشها عليهم كما في قرى جرود عكار. ومن العادات في بعض القرى اعداد الهريسة لإطعام المهنئين ولتوزيع قسم منها على الفقراء،

---

(١) مجلة العرفان سنة ١٩١٠، المجلد الثاني، العدد الرابع ص ٢٢٥.

(٢) انظر راي الشيخ عبد العزيز باز السعودي بعيد المولد النبوي في جريدة النهار عدد ١٤٧٨٩ تاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٨١، ص ١١.

(٣) للمزيد من التفاصيل انظر مجلة العرفان لسنة ١٩٢٥، المجلد ١٠، عدد ٢ ص ٢٠٢، وفيها وصف لاحتفال عيد المولد النبوي في صيدا.

وإعداد شيوخها ووجهائها الاطعمة ووضعها على طاولات أو شراشف أو صدور أو أطباق ليأكل منها معايدوهم. ومن عادات الأغنياء تقديم الأموال للمساجد وللذين قرأوا المولد وأنشدوا الأشعار الدينية. وبما ان العيد تذكار لمولد الرسول ﷺ يستبشر الأهل خيراً بولادة طفل لهم فيه ويسمونه «محمد» تيمناً.

ليلة الاسراء والمعراج

موقعها في ليلة السابع والعشرين من رجب، وهي ليلة الاسراء بالرسولﷺ من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس، والمعراج به إلى السماء الذي يعتقد بعض العلماء أنه كان بالروح وبعضهم الآخر أنه كان بالجسد.

يتبرك المسلمون بليلة الاسراء والمعراج، ويتبركون بالشهر الذي تحصل فيه، لذا يؤثرون اجراء عقود الخطبة والزواج واجراء الاحتفالات بالأعراس والختان في هذا الشهر تبركاً. ومنهم من يصوم فيه يومين من الاسبوع هما الاثنين والخميس، ومنهم من يصومه كله. ومن العادات طواف الباعة في ليلة الاسراء بنوع من الحلوى شكله كالقطن المندوف، مختلف الألوان، اسمه «غزل البنات»، وهم ينادون: «يا ليلة الله».

ليلة النصف من شعبان

يعتبرها بعض المسلمين ليلة فاضلة شريفة اعتماداً على أحاديث نبوية ضعيفة. لذا يجتمع فيها قسم من أفاضلهم في المساجد بعد صلاة المغرب ليتلوا القرآن الكريم، ويبتهلوا إلى الله بالدعاء، ويرددوا اسماءه الحسنى. ومن العادات صنع نوع من الحلويات اسمه «شعيبيات».

الصوم

شهر رمضان شهر مبارك عند المسلمين لنزول القرآن الكريم فيه. والصوم طواله أحد أركان الاسلام الخمسة، وفريضة على كل مسلم بالغ عاقل قادر عملاً بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون»[١]، «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر»[٢].

---

(١) سورة البقرة، الاية ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٥ .

الصوم في شهر رمضان هو الامساك عن الطعام والشراب من الفجر حتى غروب الشمس، أي من السحور صباحاً إلى الفطور مساء. وهذا مجهد للجسم وبخاصة للعامل، ومجهد أكثر في فصل الصيف بسبب وطأة الحر والعطش، وقد يضيّق صدر بعض الصائمين، ويؤثر على أعصابهم. لذا يضطر الصائم إلى اختصار وقت عمله والتخفيف من اعبائه. وقد راعت الحكومة اللبنانية هذا الوضع فخفّضت ساعات عمل الموظفين في رمضان.

كان التشدد في الصوم في الماضي أكثر من اليوم؛ لأن المسلم غير الصائم ما كان يتعرض فقط لإدانة الآخرين، بل يتعرض لعقاب السلطة أيضاً، وبخاصة في فترات التشدد، مما يحمل الجميع على الصيام بعكس ما يحصل اليوم إذ يقتصر الصوم على معظم المسلمين لا على كلهم. وبعض الزمنيين من الدروز يصومون في رمضان عملاً بفريضة الصوم، ورجال الدين منهم يصومون ويتوسعون في ضرورات الصوم وشروطه ومدته مركزين على صيام النفس عن الشهوات، ويصومون يوم الجمعة لأنه يوم مبارك، وكبار الاتقياء يعيشون في تقشف دائم في الطعام، مكتفين بما يقيت الجسم من الخبز الناشف والقليل من «الادام»، ممسكين الفواكه دون أن يأكلوا منها قائلين: «سبحان الخالق»، حتى ان بعضهم يزهد في الأمور الجنسية أو يتعفف عنها ويكتفي من الزواج بمعاملة المرأة له، وهذا ما يسمونه «جازة نظر».

ينفق الصائمون بسخاء على مآدبهم تقوية لأجسادهم من أجل تحمل فترة الصوم والقيام بأعمالهم في اثنائها. ويعوّضون عن امساكهم عن الطعام أكثر من نصف النهار بتناول الاطعمة الشهية والمغذية والحلويات على مختلف أنواعها. ومن المآكل الضرورية «المقبّلات» وفي طليعتها الخضار والحساء والفتّوش، التي يتناولها الصائم قبل الفطور من أجل تليين المعدة التي تكون شبه منكمشة وجافة، وهذه قاعدة صحية رئيسة تقي المعدة من التعب وعسر الهضم. ومن الحلويات ما هو مختص برمضان ويحمل اسمه مثل «كلاج رمضان» و«حلو رمضان».

من العادات تجمع أفراد العائلة على الفطور، والتزاور بين الرجال في أي وقت حتى في آخر الليل إذا كان المزار يقظاً، والتزاور بين النساء نهاراً. وتسمى الزيارات «زيارات التبريك». ومن العادات تبادل العزائم، وتزكية المال، والانفاق على الفقراء. ومنها حديثاً الاكثار من موائد الافطار التي يُدعى إليها المسؤولون والميسورون، ويعود ريعها إلى الجمعيات والمشاريع والمؤسسات الخيرية. والزكاة من أركان الاسلام الخمسة، ومناسبتها الرئيسة شهر رمضان، ومقدارها ٢,٥ ٪ من مال المسلم. وهذا يوجد نوعاً

من التكافل الاجتماعي، ويجعل للصوم فوائد اجتماعية تضاف إلى فوائده الجسدية والروحية.

ومن العادات اطلاق المدافع في مدن بيروت وطرابلس وصيدا وصور عند حلول موعد الصلاة قبل الافطار. وأول من اعتمد ذلك الدولة العثمانية التي كانت تطلق المدافع على حسابها؛ لأن رفع الرايات لم يكن يُرى دائماً ولا سيما عند مغيب الشمس وفي فصل الشتاء. وبناءً على طلب السكان تبنى الفرنسيون ذلك. ثم باتت المدافع تطلق على نفقة دار الافتاء والبلديات.

ان ميعاد وجبة السحور يوافق فترة ما قبل الفجر. لذا نشأت عادة التسحير. وهي دوران شخص على النائمين لإيقاظهم اسمه «المسحّر» أو «المسحّراتي» عرفته المدن والقرى اللبنانية منذ انتشار الاسلام فيها؛ لأنه الوسيلة الفضلى لإيقاظ النائمين آنذاك. فالمناداة من مكان واحد، وصوت المؤذن، لا يصلان إلا لبعض الناس، وقد لا يوقظان النائمين منهم. هذه العادة غدت تقليداً يميز شهر رمضان توارثته الأجيال عبر القرون، ولا يزال ظاهرة عامة حتى اليوم.

كان المسحّر يدور على بيوت الحي في المدينة، وبيوت القرية في الأرياف، حاملاً فانوسه، ينقر على مزهره أو طبله، منشداً المدائح النبوية والتواشيح الدينية والأدعية والابتهالات التي تتخللها أحياناً المطاوعيات الرقيقة مثل «ياقلبي امدح محمد والامام علي»، وتتنوع من ليلة إلى أخرى. فهي في ليلتي القدر ونصف رمضان الكريمتين غيرهما في الليالي الأخرى. وهي في بدء التوحيش في الثلث الأخير من رمضان غيرها في بدايته، ومما ينشد البيتان التاليان، البيت الأول في بداية رمضان، والبيت الثاني في توديعه:

لي بأرض الحجاز حبيب　　　نور العين والقلوب طبيب

❖❖❖

رمضان سار عنّا　　　بعدما فينا أقام

وقد يرافق المسحّر شخص آخر يتناوب وإياه القرع والانشاد. وقليلاً ما ترافقه فرقة موسيقية تجمع، بالإضافة إلى الدف والطبل، المزامير. وينادي المسحّر النائمين قائلاً: «لا إله إلا الله. وحدوا الله» أو «لا إله إلا الله. يانايم وحد الله» أو «يانايم وحد الدايم» أو «قوموا لسحوركم جايي النبي يزوركم». وإذا كان يعرف صاحب البيت يناديه باسمه بدلاً من مناداة «يانايم»، فيجيب هذا بعبارات تدل على الايمان وبالشكر منها «لا اله إلا الله محمد رسول الله». والكثيرون من أصحاب البيوت يعطون المسحّر ورفاقه

مما أعدوه من طعام وحلويات، وبعضهم يعطيه الدراهم ولا سيما عند توديع رمضان.

وشهر رمضان ليس شهر الصوم عن الطعام فقط، بل شهر العبادة والتوبة والاستغفار أيضاً. فقد قال الرسول ﷺ: «لو يعلم الناس ما في شهر رمضان من الخير لتمنت أمتي أن يكون رمضان السنة كلها». لذا يقضي الكثيرون من المسلمين لياليه في التوجه إلى الله بالأدعية التي تختلف بين ليلة وأخرى، كما يقضونها في حفظ القرآن وتجويد اياته وسماعها وسماع المدائح النبوية من المنشدين الذين ينشدونها بأصواتهم الشجية في المساجد. ومن الاغنياء من يستقدمون بعض الشيوخ المنشدين لتلحين القرآن وإنشاد المدائح النبوية في بيوتهم تبركاً، ويجزلون لهم العطاء، أو يكافأونهم بالهدايا. وأكثر ما يحصل ذلك عند وداع رمضان أو «التوحيش» وذلك في الثلث الأخير منه.

من ليالي رمضان المباركة ليلة القدر التي اختلفت الروايات في شأنها: هل هي ليلة الثالث والعشرين، أم ليلة الواحد والعشرين، أم ليلة التاسع عشر؟ فموقعها في العشر الأواخر من شهر رمضان؛ إذ لما سئل الرسول ﷺ عنها قال: «التمسوها في العشر الأواخر من شهر رمضان»[1].

ليلة القدر هي عند المسلمين أفضل الليالي وأسعدها؛ إذ بدأ فيها نزول القرآن الكريم الذي جاء فيه قوله تعالى: «انّا أنزلناه في ليلة القدر وما ادراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر»[2]. وفي عرف المسلمين أن المولود في ليلة القدر هو من السعداء. وبناءً على ذلك يقال: «خلقان في ليلة القدر ـ امو جابتو بليلة القدر». ومن المعتقدات ان طلبات المؤمن تستجاب في هذه الليلة. لذا يتوجه الكثيرون بأدعيتهم إلى الله أن يوفقهم وأحباءهم في الأعمال، ويقيهم من الأذى، ويشفيهم من الأمراض، ويحققَ لهم سائر رغباتهم وتمنياتهم.

ينتهي الصوم بانتهاء شهر رمضان في «ليلة الوقفة» أو «ليلة ختم الشهر»، وذلك عند التماس هلال شوّال من قبل شاهدين يحضران إلى دار الافتاء، ويقسمان انهما شاهدا الهلال. فتُطلق المدافع ايذاناً بانتهاء الصوم وحلول عيد الفطر. وترتفع آذان المؤذنين مبشرة المسلمين الساهرين طول الليل، المنتظرين هذه المناسبة. وتضج في الاجواء أصوات الرصاص والمفرقعات ابتهاجاً. وتقام الزينات. وتشع الانوار بكثافة في البيوت والمحال التجارية والشوارع.

---

(١) غالب العسلي، اعمال شهر رمضان، المؤسسة الدولية، بيروت، لبنان ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م ص ١٨٩ .

(٢) سورة القدر.

عيد الفطر

موقع عيد الفطر في أول شوّال بعد ليلة ختم شهر رمضان ونهاية الصوم. اسمه أيضاً «العيد الصغير»؛ لأن مدته ثلاثة أيام، أي أقل يوماً واحداً من عيد الأضحى المسمى «العيد الكبير». في الصباح يذهب الرجال إلى المساجد لسماع صلاة العيد وخطب المفتين والأئمة والمشايخ التي تركز على معاني العيد السامية، وتعظ المسلمين وتحثهم على القيام بواجباتهم الدينية والاجتماعية، ولا سيما واجباتهم ازاء الفقراء والمحتاجين، وتتناول الأمور السياسية الراهنة.

من العادات معايدة كبير العائلة أولاً فالأصغر منه، واجتماع العائلة على مائدة كبيرها، ومعايدة الأقارب والجيران والاصدقاء والائمة والخطباء ومشايخ القرى ومشايخ الطرق. ويقول المعايدون: «عيد مبارك وفطر سعيد ـ ان شاء الله عيد الجايي تكونوا بالحرم الشريف، أو تفرحوا من أولادكم»، فيجاوبون: «علينا وعليكم ـ الله يبارك فيكم ـ ان شاء الله تكون أيامكم سعيدة ـ ان شاء الله تفرحوا من أولادكم».

ومن العادات اعداد الأطعمة المختلفة، وأخصها عند الموسرين خروف يُذبح ليلة الختم ويؤكل يوم العيد، وعند غيرهم الاطعمة المطبوخة باللحم كالكبة والضلوع المحشوّة واليخاني. كما تعد الحلويات ومنها «حلوى رمضان» و«كلاج رمضان» وأشهرها المعمول، وتوضع على صدور أو أطباق أو اسكملات ليتناول منها المعيّدون. ويوزع بعض ما يصنع في العيد على الفقراء، ويوزع عليهم المال احساناً أو صدقة عن أرواح الموتى، واتماماً للفائدة من الصوم؛ لأن لا جدوى منه في عرف المتدينين إذا لم يقترن بالصدقة والزكاة. وكان الأعيان والميسورون ومشايخ القرى الزمنيون يعدون الولائم، ويمدون السفرات في بيوتهم للمعيدين. الا ان هذه الولائم تكاد تختفي اليوم؛ لأن الأكثرية باتت تقتصر على تقديم الضيافة المعتبرة بركة العيد.

وعيد الفطر عند المسلمين يقابل عيد رأس السنة عند النصارى من حيث تقديم العيدية للأطفال؛ إذ من العادات اعطاء الأهل والأقارب لهم مبلغاً من المال يسمى «العيدية» لإنفاقه على شراء ما يشتهون من الحلويات، ويسرهم من المفرقعات. ولما كان الناس يستقبلون العيد بالأثواب الجميلة، وهذا ليس ميسراً للفقراء في القرى النائية، كان من العادات ان يشتري الاباء الفقراء لابنائهم الصغار الأثواب في عيد الفطر؛ لأنه العيد الصغير، ويشترون الأثواب لأبنائهم الكبار في عيد الأضحى؛ لأنه العيد الكبير.

ويستمر العيد بأيامه الثلاثة بمظاهر الاحتفال المعهودة من اطلاق نار، وتفجير

مفرقعات، وإقامة ولائم، والقيام بالنزهات، ولا سيما إلى حرج بيروت فيما يتعلق بأهالي هذه المدينة حيث كانت تقام ألعاب السيف والترس. كما يكون العيد مناسبة لتذكر الأموات، فيزور الناس قبورهم في صباحه، ويزينونها بالزهور، ويقرأون الفاتحة عن أرواحهم.

عيد الأضحى

موقع عيد الأضحى المبارك أو «عيد الضحية» في العاشر من ذي الحجة. وسمي بهذين الاسمين نسبة إلى الأضاحي التي تذبح فيه، وهي كباش غنم على العموم؛ لأن الله فدى لابراهيم ابنه بكبش حين تراءى لإبراهيم في المنام ذبح ابنه في سبيل الله وهمّ بذبحه، وقال تعالى: «وفديناه بذبح عظيم»[1].

واسم عيد الاضحى أيضاً «عيد النحر» نسبة إلى نحر الأضاحي فيه، فهو موسم لذبح الخراف التي يختار منها أصلحها. واسمه «العيد الكبير»؛ لأن مدته أربعة أيام. وهو أطول الأعياد، ويزيد يوماً واحداً عن عيد الفطر المسمى «العيد الصغير».

اسم الأيام الثلاثة الأخيرة بدءاً بيوم العيد عند بعض العلماء، وباستثناء يوم العيد عند آخرين[2]، «أيام التشريق» بسبب توجيه جلود الضحايا نحو الشرق عند نشرها من أجل تجفيفها، أو بسبب نحر الضحايا حين تشرق الشمس، أو بسبب صلاة العيد بعد ان تشرق الشمس. واسمها «الايام المعدودات» التي قال عنها الله تعالى: «واذكروا الله في أيام معدودات»[3]. لذا يقصد فيها المسلمون المساجد لاداء الصلاة، ويلقي الائمة خطباً تحثُّ على الفضائل والبر والتقوى.

العادات في الأضحى تتفق مع عادات عيد الفطر، إذ يُستقبل بالتأنق في المأكل والملبس، وبتظاهرات الفرح المعهودة كإقامة الزينات وإطلاق النار وتفجير المفرقعات وإنشاد الأغاني، وإطلاق المدافع في المدن في الأوقات الخمسة المخصصة للصلاة. وتتفق عاداته كذلك مع عادات عيد الفطر في المعايدة والتزاور والمهاداة وإعداد الولائم والضيافات والقيام بالنزهات. وتختلف عنها بنواح قليلة، منها ان عيد الفطر يغلب فيه صنع الحلويات، وعيد الاضحى يغلب فيه ذبح الاضاحي وأكل اللحوم. لذا سُمي الأول «عيد الحلويات»، والثاني «عيد اللحومات» إذ يؤكل فيه اللحم مشوياً ومصنّعاً في مأكولات أبرزها الكبة والضلوع المحشوّة. ومن أوجه الاختلاف أيضاً أن نحر الأضاحي

---

(١) سورة الصافات، الآية ١٠٧ .

(٢) الشوكاني، نيل الاوطار، وردت الاشارة اليه، ج ٣، ص ٣١٤ .

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٠٣ .

يكون معظمه في عيد الأضحى صباح يوم العيد، بينما يكون في عيد الفطر مساء ختم رمضان. بيد ان هذا لا يعني ان عيد الأضحى يخلو من صنع الحلويات، إذ تصنع فيه حلويات عديدة أبرزها الكعك والمعمول.

ومن العادات توزيع لحوم الأضاحي على الفقراء من قبيل الاحسان والتبرك وكسب الأجر. وتوزّع الضحية في بعض القرى على الشكل التالي: ثلثها لأهل البيت، وثلثها للأقارب، وثلثها للفقراء. ولذابحها من غير البيت حصة من اللحم لا أجرة؛ لأن الأجرة تذهب بالأجر.

عيد الاضحى عند الدروز

المسلمون الموحدون الدروز فرقة اسلامية، ومذهبهم او مسلكهم أحد مذاهب الاسلام. ولهم خصوصية معينة ناتجة عن تفسيرهم الخاص لبعض آيات القرآن الكريم. فهناك الكثير الذي يتشابهون فيه مع سائر المسلمين. وهناك القليل الذي يفترقون فيه عنهم كما في بعض أمور الارث والوصية والزواج والطلاق. وبالنسبة إلى الأعياد، فإنهم يعيّدونها بصمت باستثناء عيد الاضحى المبارك (عيدهم الكبير) الذي يحتفلون به بشكل مميز، وبمظاهر يتشابه بعضها مع مظاهر سائر المسلمين، ويختلف بعضها الآخر عنها مما استوجب معالجة العيد عندهم ببحث خاص. والوصف التالي هو للعيد في القرية؛ لأن معظمهم يعيش في قرى وبلدات الارياف والمناطق الجبلية.

مدة عيد الأضحى عند الدروز تسعة أيام قبل يوم العيد وثلاثة أيام بعده. ويُسمى يومه والايام التسعة التي تسبقه «عشور العيد» وتلفظ «عاشور العيد». وهم يعدون له المأكل والملبس الانيقين، والمال اللازم للضيافة والطعام، وعيدية الأولاد ونفقات «فرقعتهم» أي ابتهاجهم بالالعاب النارية، كما يستقبلونه بتنظيف البيوت. وقبل حلوله يذهب أصحاب الدكاكين الى المدن والقصبات لشراء الاقمشة والالبسة والسكر والارز والقضامه والملبس والدربس والكوم والسنيورة، والكعك الذي هو غير كعك العيد، والالعاب النارية. ويسمون ذلك «تحويجة العيد».

يبدأ العيد بمظاهر تختلف عند رجال الدين المسمين «الاجاويد» أو «العقّال» أو «الروحانيين» عن الزمنيين المسمين «الجهّال» أو «الجسمانيين». والعقّال هم الذين عقلوا علوم الدين وأموره، أي عرفوها وأحاطوا بها. والجهّال هم الذين جهلوها. ويبتدىء العيد أحياناً عند الاولاد قبل العشور بيوم أو بعدة أيام. لذا سنتكلم عن نوعين من سهرات العيد هما السهرات الدينية والسهرات الزمنية، كما سنتكلم عن الاحتفالات بيوم العيد.

السهرات الدينية: عيد الأضحى عند العقّال الملتزمين مناسبة للصلاة والخشوع والزهد والتقوى. ففي كل ليلة من ليالي العشور، وعند بدء الظلام، يجتمعون في الجوامع المعروفة بـ «الخلوات» و«المجالس»، ويجتمع معهم مريدو الدين، أي طالبوه، والعقّال المطلعون على العلوم الأولية. وكثيراً ما يجتمع معهم بعض الشباب من الزمنيين الذين يحضرون للتبرك ومجاراة للعادات والتقاليد. ويجتمع الجميع في غرفة واحدة كبيرة، إذ ليس هناك كما جاء عند لحد خاطر غرفتان أو خلوتان أو مجلسان، احدهما داخل الآخر، الأول مجلس خارجي يُعرف بـ «البرّاني» مخصص للمريدين والشباب، ومجلس داخلي يُعرف بـ «الجوّاني» يدخله الاجاويد بعد انصراف المريدين والشباب فيغلقون بابه ويقرأون الايات الدينية[1]. ان «المجلس البرّاني» و«المجلس الجوّاني» اللذين تكلم عنهما لحد خاطر لهما عند رجال الدين مدلول معنوي روحي لا مدلول مادي مكاني. وأكثر ما يحضر الشباب في الليلتين الأخيرتين من العشور. والبعض من رجال الدين يسهرون عند أحد الشيوخ الاتقياء.

يخلع جميع القادمين إلى المجلس أحذيتهم في مدخله الصغير، أو في فسحة صغيرة منخفضة قليلاً عن أرض الغرفة اسمها «السفرة» أو «الساطوين»، إذ لا يجوز على الاطلاق خرق حرمة المجلس بدخول الانسان اليه منتعلاً حذاءه. ويجلس الداخلون على الأرض ويثنون أرجلهم، أي «يتربعون»، ويجلس بعضهم أمام بعض عند الازدحام متقيدين بمبدأ الاخوة الدينية، الذي تنتفي عنده ضرورة مراعاة السن والمكانة الاجتماعية المعروفة بـ «القدر». ويجلس القادمون المتأخرون أمام القادمين أولاً. ويظهر الكثيرون التواضع والخشوع فلا يضيرهم ان يكون جلوسهم عند باب المجلس. كما يفسح القادمون أولاً مجال الجلوس في صدر المجلس للاتقياء وكبار السن الذين يقبلون بذلك كأمر واقع لا بناءً على رغبة منهم.

تبدأ السهرة بإنشاد الأناشيد المسماة «الاشعار» والمدائح الدينية والأدعية والابتهالات، ومعظمها قصائد وجدانية لمتدينين متصوفين يتكلمون عن زهدهم وتقشفهم وخشوعهم وضعفهم، وعن عظمة الله، ويتوجهون الى الله بالأدعية والابتهالات ان يأخذهم بجانب حلمه وكرمه وعطفه، ويمتدحون النبيﷺ والائمة. وتنشد مجموعة من أصحاب الاصوات الجميلة، هي عادة ثلاثة أو أربعة ولا تقل عن اثنين، أبيات القصيدة كلها وهم يتمايلون احياناً برؤوسهم يمنة ويسرة لانسجامهم الكلي مع الانشاد، ويردد سائر المنشدين المطلع فقط. وهذا بعض مما يُنشد:

---

(١) لحد خاطر، العادات والتقاليد اللبنانية، منشوات لحد خاطر، بيروت، لبنان ١٩٨٥، جـ ١ ص ٧٣ .

من شعر الشيخ أبي صالح جلال الدين من قرية كوكبا في منطقة حلب، شمال سورية:

الا مـــولاي اهـديـنـي ... عـلـى عـمـل يـنـجّـيـنـي
وجــرنـي مــن عــذاب الـنـار ... وثـبّـتـنـي عـلـى ديـنـي

من شعر الشيخ أبي المعالي:

عـلـى أبـوابـكـم عـبـد ذلـيـل ... عـزيـز الـصـبـر نـاصـره قـلـيـل
لـه اسـف عـلـى مـا فـات مـنـه ... وحـزن مـن صـدودكـم طـويـل
يمـد الـيـكـم كـف افـتـقـار ... ودمـع الـعـين مـن اسـف يـسـيـل

من شعر الشيخ سعيد البقعسماني من قرية بقعسم في اقليم البلان من سورية:

الا لا تلمني ان عرضت عن الهوى ... فكم من علا لما اطاع الهوى هوى
فلا مسمعي صاغ إلى قول من غوى ... ولا المهتدي والمرتد في الهوى سوا
ولا جـاهـل بـين الـورى مـثـل عـالـم

من شعر الشيخ عبد القادر الباروكي من بلدة الباروك في الشوف:

يا مالك الملك يا غوثي ويا املي ... أحسن خلاصي فاني منك في وجل
وعينني فعلى علياك متكلي ... ان كنت قصرت في علمي وفي عملي
فـأنـت يـا خـالـقـي لـلـذنـب غـفّـار

من شعر امين بك ناصر الدين من بلدة عبيه في قضاء عاليه من لبنان:

يـا ربـي انـعـم بـالـرضـى ... عـنـا وهـب حـسـن الخـتـام
واغـفـر لـنـا ذنـبـاً مـضـى ... بـالحـلـم يـا مـولـى الانـام

من شعر الشيخ علي فارس من قرية يركا من قرى الجليل في فلسطين:

انا الفقير الذي قلت مكاسبه ... انا الحقير الذي عمت مصائبه

من شعر الشيخ ابراهيم الهجري من بلدة قنوات في جبل العرب، احدى المحافظات السورية:

يا غافلين عن الصلاح	قوموا الليالي والصباح
فالعمر قد ولى وراح	فتزهبوا قبل السفر
جدوا على الفعل الجميل	واستغفروا المولى الجليل
يعفو عن الذنب الثقيل	يوماً به وقع القدر

بعد الانتهاء من الاشعار تُتلى المواعظ والحكم وسير الانبياء والاولياء والزهاد ليتعظ السامعون، ويتقوا الله، وينصرفوا إلى العبادة والتقوى، ويتحلوا بالفضائل والمناقب، ويبتعدوا عن الاثام والمعاصي. ويكون الوعظ شفهياً بلسان أحد التقاة الافاضل العارفين، أو مدوَّناً يقرأه أحد المشايخ.

وبعد الانتهاء من الاناشيد والوعظ وشرح التعاليم الدينية، وخروج غير العقّال الملتزمين، يبدأ العقال الملتزمون بالصلاة الدينية، اي بتلاوة آيات الذكر الحكيم قراءة، او غيباً عن ظهر قلوبهم.

ان سهرات العقّال في الليالي الثماني من عشور العيد تمتد إلى منتصف الليل او قبله بقليل، بينما تمتد السهرة في الليلة التاسعة إلى ما بعد منتصف الليل، وأحياناً إلى ما قبل الفجر، وتسمى «ليلة الوقفة»؛ لأنه في اليوم التاسع من ذي الحجة يكون وقوف الحجاج المسلمين على جبل عرفة. وأطول الليالي وأهمها الليلة العاشرة المسماة «ليلة العيد» التي تمتد إلى الفجر فيُتلى فيها ما يتيسر من الذكر الحكيم، كما ان فترة مكوث الزمنيين والمريدين والمطلعين على العلوم الأولية تطول فيها أكثر من الليالي السابقة.

وتنتهي كل سهرة بتناول الضيافة من الفواكه والحلويات المسماة «بركة العيد». وهذه الضيافة هي من القيّمين على المجلس او سائسه أو بعض الخيرين طلباً للأجر والتبرك. وبعض رجال الدين يأخذون معهم في «ليلة الوقفة» و«ليلة العيد» مقداراً من الكعك والكبة لتوزيعه على اخوانهم للتبرك، وقد يضطر أحدهم الى الأكل ليستطيع متابعة السهرة. الا ان أكثرهم يفضلون عدم تناول شيء الا بعد انتهاء السهرة، ومنهم من يكتفي بتناول مقدار قليل من النقل كبعض حبات من العنب في موسم العنب، أو أخذه من قبيل التبرك.

اما النساء، فيجتمعن في غرفة أخرى من المجلس أو الخلوة، ملاصقة لغرفة الرجال وأصغر منها. ويفصل بين الغرفتين جدار فيه باب يصل بينهما، وشباكان أو أكثر لكل منهما شبكة من الخشب تسمح فتحاتها مع فتحة الباب بسماع ما ينشده الرجال من أناشيد دينية، ويقرأونه من مواعظ، ويتلونه من آيات.

وتتولى احدى النساء التقيات او زوجة سائس المجلس ضبط الامور في مجلس النساء بحسب التعاليم الدينية، ونقل توجيهات السائس اليهن. وبعد تلاوة الاناشيد والمواعظ تغادر مريدات الدين، والفتيات اللواتي حضرن مراعاةً للعادات والتقاليد، المجلس، وتبقى النساء المتدينات الملتزمات لسماع آيات الذكر الحكيم.

وتمتلىء باحة المجلس بالأطفال المعيدين، كما تمتلىء مع مدخله وبعض جوانبه الداخلية بالشموع الملونة المضاءة. ويوضع بعض الشموع على النعش (المحمل) المخصص لنقل الاموات، الذي يُحفظ في المجلس. فالأهل ينذرون ابناءهم باضاءة الشمع على نيتهم تبركاً وتفاولاً بالخير لهم، ويختارون منه ما هو بطول ابنائهم الصغار.

السهرات الزمنية: يشكل الخارجون من المجلس من «الجهّال»، وسائر شباب القرية، جماعات يتوافر فيها الانسجام بعامل القربى أو الصداقة أو تقارب العمر، فتجتمع كل منها في غرفة أو عليّة، وتباشر الغناء والرقص والطرب، وتتناول الطعام بدون مسكرات تمشياً مع العادات والتقاليد. وفي فترات انقطاع المطر واعتدال الطقس، وبخاصة في ليلتي الوقفة والعيد، يجتمعون في ساحة القرية حيث يرقصون الدبكة على أنغام المجوز والناي وإيقاع الدربكة، ويحوربون، وينشدون الأغاني الشعبية الحماسية، ويطلقون النار من مسدساتهم. وتبلغ الفرحة ذروتها عند وصول الموظفين، ولا سيما من هم في الدرك والجيش، الذين يأخذون اجازات في عيد الاضحى بينما يأخذ الموظفون المسيحيون اجازات في أعيادهم.

وبما ان الاختلاط كان ممنوعاً، فإن الفتيات اللواتي كن يخرجن من المجلس يشكلن مع الفتيات اللواتي لازمن بيوتهن جماعات تجتمع كل منها في بيت حيث يرقصن الرقصات الافرادية، ويغنين الأغاني الرقيقة الخاصة بهن دون أن يخالطن أحداً من الرجال والفتيان بمن في ذلك أصحاب البيت الذي يجتمعن فيه. وبعد اعطائهن القليل من الحرية صرن يقفن في دار أحد البيوت أو في جانب من الساحة ليتفرجن على احتفال الشباب بالعيد دون المشاركة فيه. وتطور الأمر شيئاً فشيئاً إلى اختلاطهن بالرجال الاقارب، ثم بالاصدقاء، ثم بالاباعد، إلى أن أصبح هذا الأمر عادياً اليوم.

وإذا كان العيد للجميع فهو أولاً للصغار الذين ينتظرونه من سنة إلى أخرى

ليفرحوا بالبذلة الجديدة، «وليفرقعوا»؛ لأن العيد عندهم عيد «الفرقيع» أكثر مما هو عيد اللحومات والحلوى، بينما الفتيات الصغيرات يكتفين بإشعال الشموع والسنانير، واللعب بالدمى التي تمثل الطفولة.

يأخذ كل من الصبيان عيديته اليومية من أهله، وهي بعض الدراهم، فيشتري بها الألعاب النارية وأشهرها في الماضي القريب مفرقعات صغيرة اسمها «الفتيش» هي عبارة عن لفائف صغيرة اسطوانية الشكل، من الورق والكرتون، محشوة بقليل من المواد المتفجرة، تنتهي بخيط سريع الاشتعال، مجموعة بعضها مع بعض بشكل حصيرة لذا تسمى «الحصيرة». ومن أنواعها ما هو كبير شديد الانفجار يسمى «الديناميت».

ومن الألعاب النارية الكهربان المعروفة عند الأطفال بـ «السنانير»؛ لأنها تشبه السنانير، وبـ «الشرقيط»؛ لأنها «تشرقط»، أي تبعث الشرر عند اشتعالها. ومنها الاسهم النارية، والمسدسات الكذابة، أي تقليد المسدسات، وهي معروفة بـ «الفرودة» وأشهرها فرد الفلين. وجميع الألعاب أنواع بسيطة رخيصة الثمن يتاح للفقراء شراؤها مجموعات أو مفردات؛ إذ يمكن شراء بعض السنانير من علبة أو بعض الفتيشات من حصيرة.

لا يحلو العيد للفتيان والأولاد إلا في ساحة المجلس أو الساحة القريبة منه، وبعضهم يرافقون أهلهم إليه، وكثيراً ما يزعجون رجال الدين، ويعطّلون بضجيجهم وغنائهم ودوي مفرقعاتهم صفاء الجو الروحاني،مما يضطر سائس المجلس أو أحد رجال الدين إلى تهدئة عاصفة ضجيجهم، أو طردهم. لكنهم لا يلبثون أن يعودوا حين يدخل، فيخرج مرات إليهم متجنباً تعنيفهم أو ضربهم تحاشياً لخلق الكمد والحزن عندهم بدلاً من الفرح بالعيد، واحتراماً لأهلهم.

وكثيراً ما يجتمع أولاد الحارات والعشائر المحزونة في ساحة مجلس أو عائلة غير محزونة. ويشكل الأولاد أحياناً فرقاً على أساس عشائري أو غرضي، أو على أساس الحارة، تتحدى بعضها بعضاً بالغناء، وتهاجم كل منها الأخرى بالألعاب النارية التي تسبب الأذى في الوجوه وتحرق الثياب. ومن مظاهر الاحتفال في ليلتي الوقفة والعيد اشعال النار على السطوح والطرقات والرقص والغناء وتفجير المفرقعات حولها، وانشاد الحديوات التي ينشدها الكبار، أو حدّيوات خاصة بالصغار، مثل:

عيد الضحيّه عيدنا	فرحه كبيره عندنا
بمجيتو جانا الفرح	ضج الفضا بُارودنا

يوم العيد: يبلغ الاحتفال بالعيد ذروته في آخر يوم من عشوره، ويتم التحضير له يوم الوقفة، وتكون الأيام التي تليه أيام توقف عن العمل ومعايدة ترافقها أحياناً بعض الاحتفالات. وبما أنه عيد الضحية أو عيد النحر، من العادات ذبح كبش غنم أو ذكر الماعز المسمى «تيس». وتكون الذبيحة على العموم ابنة سنتين، فتسمى «ثني» أو «ثنية». وقد تتشارك عدة بيوت في ذبيحة، كما يكتفي الفقراء بذبح دجاجة. ومع الزمن، وتطور المفاهيم، وتناقص المواشي البيتية، بات يستغنى عن الذبيحة بلحم يشترى من القصبات أو المدن، أو من ذبيحة تعلق في أحد الدكاكين أو شجرة الساحة. وبعد توسع القرى وازدهارها بات اللحم يؤمن من دكاكين لحاميها. وإذا كان من العادات نحر الأضاحي صباح العيد، الا ان الكثيرين يبكّرون في ذبحها فينحرونها في يوم الوقفة من أجل توفير الوقت اللازم للنساء لاعداد الولائم التي تبدأ من يوم الوقفة.

والمأكولات في العيد هي اللحم المشوي، والضلوع المحشوّة، والكبة المصنوعة بأشكال مخروطية والمحشوة بالدهن واللحم والجوز والصنوبر، والمقلية بزيت الزيتون، والدجاج المحشو، والهريسة، والبيض المسلوق، واليخاني. والحلوى الرئيسة هي كعك العيد المصنوع من الطحين الاسمر البلدي الممزوج بالحليب والسمن والدبس[1] وبعض الطيوب التي كانت تقتصر على الخزامى واليانسون، والمغطى بالسمسم. وكان الكعك يشوى في التنور أو الفرن العام، ويبقى صالحاً للأكل لمدة شهر وأكثر. فعيد الأضحى يقترن بالكعك واللحم اللذين هما ميزته الخاصة فيما يتعلق بالطعام والحلويات.

للمعايدة وجهان رئيسان لا يزالان متبعين إلى اليوم: المعايدة الخاصة والمعايدة العامة. في المعايدة الخاصة ينحصر تبادل التهاني بين الأهل والأقارب والجيران والاصدقاء، فيعايد الصغار في البيت الكبار، ويقبلون أيادي الآباء والأجداد والعمات فيتلقون منهم العيدية التي هي مبلغ من المال. ويعايد أهل البيت بعضهم بعضاً، ويعايدون المحزون من أقاربهم أولاً ثم يعايدون، إذا كانوا قد فكوا حدادهم الذي عملوا به مشاركة للمحزون، اقاربهم وجيرانهم واصدقاءهم بادئين المعايدة بكبير الفخذ (الجب). ويقال مع عبارة المعايدة المألوفة التي هي «كل عيد وأنتم بخير» تمنيات بعودة الغائب وزواج العازب، ويضيف إليها رجال الدين عبارة «ان شاء الله تكونوا من المعيدين المقبولين» فيجاوبون بعبارة «ينعاد عليكم» مشفوعة باحدى التمنيات.

وكان من أشكال المعايدة الخاصة معايدة اهل القرية لشيخ القرية يوم العيد، ومعايدة شيخ المنطقة في اليوم التالي للعيد وتقديم الهدايا له. وهم يعايدون اليوم

(١) كان الكعك يحلّى بالدبس، فصار يحلّى بالسكر.

النواب والوزراء والزعماء والرؤساء الروحيين وسائر الفعاليات السياسية والاجتماعية.

والمعايدة العامة تتم في ساحة القرية أو في جولة عامة. فبعد خروج رجال الدين من المجلس يقفون في الساحة حيث يجتمع ابناء العشيرة أو القرية، فيتبادلون التهاني. وفي حال تغيب نسبة كبيرة عن اجتماع الساحة يقوم الذين اجتمعوا فيها بجولة عامة على أهل القرية أو العشيرة يبدأونها بزيارة العوائل المحزونة أو أقرب بيت. وكل بيت يضع الحلويات والفواكه على سماط هو عبارة عن قطعة قماش مخصصة لذلك تسمى «شرشف»، أو على صدر أو طبق أو أسكملة، ويسمون ذلك «بركة العيد» التي يأكل منها المعيدون، أو يأخذونها معهم، تبركاً. والمعايدة العامة تزيل الخصومات عفواً؛ إذ إن المعيدين لا يستثنون أحداً بمن في ذلك خصومهم منسجمين مع مفهوم العيد الذي هو عيد المحبة والتضحية وتناسي الأحقاد والضغائن، كما لا يستثنون بيوت الفقراء والارامل.

ويكون اجتماع أهل القرية مناسبة لالتقاء المواهب ولإظهارها في احتفال شعبي يحفل بالرقص والغناء والحداء والعراضات، كما يتخلله أحياناً ألعاب القوى كالمصارعة والكباش ورفع القيمات. ويغتنم الفرسان ذلك فرصة لإظهار فنونهم في الفروسية، فيُجرون في الميادين أو في الساحات الكبيرة سباق خيل ومرامحة ولعباً بالسيف والترس ورمياً للأهداف، ويمثلون أحياناً فصلي الهجوم والدفاع في الحرب. أما الأولاد، فإما أن يكونوا متفرجين على ما يجري، مرافقين للكبار في جولة معايدتهم، وإما أن يقيموا احتفالات خاصة بهم. ومنهم من يذهبون إلى مكان طبيعي جميل، أو مزار قريب للتنزه، حاملين معهم «زهبتهم»، أي زادهم من الكبة المقلية والبيض والكعك. لقد كانوا أسبق من الكبار إلى التنزه في العيد. ونزهة الكبار على العموم في ثاني أيام العيد.

والمعايدة العامة لا تزال معتمدة في بعض البلدات والقرى، ومنها بشتفين في منطقة المناصف التي اتخذتها تقليداً منذ عشرات السنين، ومزرعة الشوف التي اعتمدتها مجدداً بعد انقطاع لسنوات كثيرة. وقد كان الاحتفال في مزرعة الشوف في عيدي سنتي ١٤١٥ و١٤١٦ هـ، الموافقتين لسنتي ١٩٩٤ و١٩٩٥ م، من أروع ما يكون؛ إذ اجتمع أهل القرية، رجالاً ونساءً وشيوخاً وفتياناً، في بيتين عامين متجاورين في وسط البلدة، وعايدوا بعضهم بعضاً، وألقيت الخطب، وقدمت الضيافة أو بركة العيد من قبل جمعية التعاضد الاجتماعي ومن بعض الخيرين. ثم طاف شباب وشابات البلدة في شارعيها الرئيسين وهم ينشدون الاغاني ويرقصون وامامهم لاعبو السيف والترس.

ان عيد الأضحى مناسبة لإظهار التعاطف الاجتماعي في مجالات عديدة، منها بالإضافة إلى الإطلالة على المحزون، وتبادل التهاني والهدايا، الاحساس مع الفقراء

والمحتاجين؛ اذ ينال هؤلاء، وبطريقة سرية لا تجرح شعورهم، مبالغ من المال يعطيها المحسنون إلى أحد الثقات ليوزعها دون أن يذكر اسماءهم، أو ينالون مقادير من الحبوب والسمن والسكر والكعك، توضع في الليل أمام بيوتهم أو النوافذ، مما يحقق المعاني السامية للعيد ويجسّدها على صعيد الواقع براً واحساناً. فبهذا تتكامل المظاهر الدينية من صلاة وعبادة وتقوى وامانات ومبرات وتعاطف اجتماعي مع المظاهر الزمنية التي يُحتفل العيد بها، ويصبح العيد حقاً «العيد الكبير».

الحج

الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة أحد أركان الاسلام الخمسة. وهو فريضة على من استطاع اليه سبيلاً ولو مرة على الاقل. وللقيام به شرطان هما الاستطاعة، وتوافر الامان في الطريق. وأوقاته في العشر الاوائل من أيام ذي الحجة التي يقع فيها عيد الاضحى المبارك، بالإضافة إلى شهري شوال وذي القعدة. ومراسمه هي زيارة البيت العتيق والطواف والوقوف على جبل عرفة بثياب الاحرام التي هي ازار أبيض ذو شكل واحد للجميع، ثم اتمام المناسك في منى.

ما كان الحج الى بيت الله فيما مضى من القرون آمناً، بل محفوفاً بالمخاطر بسبب تعديات اللصوص وغزو القبائل المقيمة حول طريقه، حتى ان القبائل المحيطة بمكة المكرمة والمدينة المنورة كانت في أوائل القرن العشرين تجد في موسم الحج فرصة للاكتساب من غزو الحجاج وسلبهم. لذا كان وداع الحاج وداع مفارق فيودع عند ذهابه، ويستقبل عند عودته ويهنىء بالعودة سالماً كما باتمامه فريضة الحج.

كان عدد الحجاج في الماضي أقل بكثير مما هو الآن. ومن أسباب ازديادهم زيادة عدد السكان، وارتفاع المداخيل، وتطور المواصلات، وتنظيم زيارات الحج، وتأمين الطرق، ومنع التعديات، وضمان سلامة الحجاج. ومن العادات القديمة المتوارثة توديعهم في بعض القرى باحتفال حاشد على عزف النوبة، واعتبار عودتهم في جميع المدن والقرى مناسبة عامة تخص أهل حيّهم وقريتهم الذين يبتهجون بقدومهم ويقيمون لهم استقبالاً حاشداً عند أول المدينة أو القرية.

يستقبل الحجاج بعزف النوبة والزغاريد والاناشيد الدينية والزمنية وإطلاق النار وتفجير المفرقعات، ويستقبلون بالاضافة إلى ذلك بالحداء في القرى. ويعود بهم مستقبلوهم بهذه المظاهر إلى بيوتهم حيث يقابلون برش الورود والزهور والعطور والارز من البيوت التي يمرون أمامها.

وتزدان المداخل الخارجية لبيوت الحجاج بخيمة خشبية كبيرة على شكل قنطرة، أو على شكل الكعبة، عليها أغصان النخيل. وتزدان المسافة بينها وبين حائط البيت بالزينة أيضاً، ومن وسائلها اليوم المصابيح الكهربائية وحبال الورق الملونة والبالونات المنفوخة المتعددة الالوان. ويعطّر البيت بالبخور المشتعل الموضوع في صحون متفرقة. ويعلّق لافتة عليها الكتابة التقليدية التالية: «أهلا بحجاج بيت الله الحرام. حج مبرور وسعي مشكور». ويضاف إليها أحياناً الآية القرآنية الكريمة التالية: «ولله على الناس الحج من استطاع اليه سبيلاً».

وعند وصول الحاج إلى بيته يُنحر خروف (ضحية) على العتبة تكريماً له، فيمر فوقه. ويهنئه الناس بالقول: «الحمد لله على السلامة - حج مبارك - عقبال العودة - حج مبرور وسعي مشكور». ويخاطبونه بالحاج، ويقبلون يده تقديراً. ويمضي اسبوعاً أو أكثر يتقبل التهاني لابساً عباءة بيضاء رمزاً إلى الطهارة. وتلبس الحاجة التي تخاطب بلقب الحاجة عباءة بيضاء، وتضع على رأسها منديلاً أبيض.

ويتبادل الحاج ومهنئوه الهدايا. فهم يهدونه الثياب والحلويات، وفي بعض القرى كانوا يهدونه قمحاً ثم صاروا يهدونه الارز والسكر. وهو يهديهم ما حمله من الديار المقدسة، وأفضل الهدايا ماء زمزم، كحل، بخور، حناء. مكحلة، مسبحة، عباءة، سجادة صغيرة للصلاة، طاسة الرعبة، تمر.

استقبال الحجاج في برجا: من عادات أهل برجا الاحتفال بعودة حجاجهم بحسب ما وردت الاشارة إليه. لقد كان رجالهم ونساؤهم وشيوخهم وشبابهم وفتيانهم يلاقون حجيجهم إلى أول البلدة، وفي بعض الأحيان إلى بلدة الجيّة، ويعودون بهم بالغناء والحداء والزغاريد وعزف النوبة والرقص بالسيف والترس، ويقومون بصهجات في ساحة برجا. وتتقدم الموكب أعلام البلدة وهي علمان يودعان في الجامع، وعدة أعلام تودع في الزاويتين الصوفيتين وهما الشاذلية والقادرية، ولون كل منها أخضر له كنار أصفر وعليه آية قرآنية كريمة مكتوبة باللون الأسود مثل: لا آله إلا الله محمد رسول الله. ومما كانوا ينشدونه، بالاضافة إلى انشاد لا اله إلا الله، الاغاني والزغاريد التالية:

أغنية:

وعليك يانبينا صلّينا	من بير زمزم واسقينا
وين ما صلّيتو صلّينا	وين ما حجّيتو حجّينا
وين ما ودّعتو ودّعنا	وين ما حلّيتو حلّينا

أغنية أخرى:

هــزّوا الــرمــح وعــود الــزيــن — قــولــولــي الحــجّــاج مــنــين
الحــجّــاج لأهــل بــرجــا — لاقــيــنــاهــم عَ الــصــفــين

أغنية أخرى:

ياهلا بجمع القرايب ياهلا — وياهلا بحجاج برجا ياهلا
وياهلا لو كانوا الحجاج معانا — عَ خلا فتحوا بيوتن عَ خلا

أغنية عند وصول الحجاج إلى فسحة كبيرة تجري فيها صهجة:

وسّعوا المرجه والمرجه لنا — وسّعوا المرجه لتلعب خيلنا
وسّعوا المرجه لحجاج برجه — ومين ليسترجي يمرق بيننا

حداء:

يــا دار هــلّــي وافــرحــي — فــيــك الــطــبــول بــتــنــقــحــي
يــا دار هــلّــي وافــرحــي — حــجــاجــنــا وصــلــوا بــســلام

❖❖❖

يا حج حجّه مباركه — زيارة نبينا المصطفى
ويا حج حجّه مباركه — بزيارة البيت الحرام

زغاريد:

اويها. يا جملنا هوش هوش — اويها. تحت في المردكوش
اويها. والزيارة لعند النبي — اويها. بتسوى كل المال والقروش

❖❖❖

حجّاجنا مقبوله زيارتكم — والعين تذرف دموع عَ طول غيبتكم
وإذا اجا البشير يبشر بسلامتكم — لأعطيه روحي وفرّق من هديتكم

❖❖❖

لا الجازه فرحه — ولا مجية الصبيان
وما فرحه الا زيارة محمد — والمشي مع العربان

❖❖❖

حجّاجنا وصلت — عَ بيوتها نزلت
شلحت ثياب السفر — كسبت وما خسرت

زيارة النبي أيوب

يكرّم الدروز الانبياء والاولياء وكبار الاتقياء، ويزورون اضرحتهم، أو الابنية التي انشئت في الأماكن التي أقاموا أو مروا فيها، ويسمونها مزارات ومقامات. وفيما يتخذ الزمنيون من الزيارات مناسبات للتبرك ووفاء النذور والتنزه، يتخذ الروحيون منها، بالإضافة إلى ذلك، مناسبات للعبادة. وبعض الروحيين الاتقياء يستهدف التعبد والتبرك فقط.

من بين الانبياء المكرمين عند الدروز النبي أيوب، وهم يزورونه لا في ذكرى وفاة، ولا في ذكرى ولادة، ولا في عيد مخصص له، لكن يزورونه في أي وقت، وبخاصة في فصل الصيف. وهم يقصدونه بأعداد كبيرة من جميع المناطق المسكونة بهم في بلاد الشام. ولقد غدت زيارته موسمية، اذ ان كثيراً من الناس يزورونه سنوياً، ومنهم من يزورونه في السنة عدة مرات.

للنبي أيوب عند دروز بلاد الشام مزاران. أولهما في لبنان وهو الاشهر والأهم والأقدم، يقع بالقرب من بلدة نيحا في جنوب قضاء الشوف. وقد أقيم في المكان الذي شفي فيه أيوب من أمراضه، وعلى صخرة تقول رواية متواترة ان أيوب شفي بعد اغتساله بالماء الذي تفجر منها[1]. وثانيهما في بلدة قنوات من أعمال جبل العرب في الجمهورية العربية السورية، التي مرّ بها في اثناء تنقله وأقام. وكان له بحسب ما يذكر الطبري «البثنية من الشام كلها»[2]. والبثنية هي جبل العرب، وكان مولده في عوس، احدى خربه اليوم.

ان مزار النبي أيوب في لبنان هو في طليعة مزارات الدروز في بلاد الشام، من حيث كثرة زائريه وناذريه، لأسباب عديدة هي:

١- ان النبي أيوب مكرّم عند الدروز؛ لانه نبي الله. انه مكرّم في الديانات: اليهودية والمسيحية والاسلامية. وسفره في التوراة يبلغ اثنين وأربعين اصحاحا. وعنه قال الله تعالى: «وأيوب إذ نادى ربه اني مسّني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرر وأتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين»[3]. «واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه اني مسني الشيطان بنصب وعذاب»[4].

---

(١) قصة النبي ايوب، منشورات مكتب مشيخة العقل في لبنان، طبعة ١٩٦١، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٢) تاريخ الطبري المعروف بتاريخ المملوك، مؤسسة الاعلمي، بيروت، لبنان، لا تاريخ جـ ١ ص ٢٢٦ .

(٣) سورة الانبياء، الآية ٨٣ والاية ٨٤ .

(٤) سورة صَ، الاية ٤١ .

٢ ـ ان مزار النبي أيوب من أقدم مزارات الدروز في بلاد الشام، وهو أقدم مزار لهم في لبنان، ويقع في الشوف حيث أسسوا اماراتهم التنوخية والمعنية والشهابية، وحيث شكلوا أكبر تجمع درزي في بلاد الشام.

٣ ـ يقع مزار النبي أيوب فوق بلدة نيحا، على تلة من تلال جبل نيحا تعلو حوالى ١٤٠٠ م عن سطح البحر، وسط غابة جميلة مكتظة بالاشجار. ويطل على مد النظر على مناطق تمتد من الجبل إلى البحر وتشمل معظم أراضي جبل لبنان ولبنان الجنوبي. وهذا ما جعله مقصداً لمن يودون التنزه والتمتع بالمناظر الخلابة والمناخ الجيد اضافة إلى التبرك.

٤ ـ استقبال مقام النبي أيوب لجميع الزائرين من مختلف الطوائف في أي وقت، وجل زائريه بالطبع هم من الدروز. وتوافر غرف المنامة والإقامة فيه، وفسحات اقامة حفلات الغناء والرقص.

ان زائري النبي أيوب يستهدفون بعض النواحي التالية أو كلها، وهي التبرك، ووفاء النذور، والتنزه.

التبرك: النبي أيوب هو نبي الله الذي اقترن به الصبر حتى غدا مضرب مثل به، فيقال عند ضرورة التحلي به: «ياصبر أيوب». والدروز يتبركون بزيارة مزاره معتبرين اياه مكاناً مقدساً، ويتمنون أن تكون زيارتهم له مقبولة، ويتبركون بكل شيء فيه، ومنه، ويعتبرونه «بركة».

من البركات التي يؤتى بها بكثرة من مقام النبي أيوب ربط قماش صغيرة تعلق في الأعناق، وتربط في الأيدي، وتعلق بها الحروز. وهي قطع قماش مهداة إلى المقام تقطّع وتُهدى مجاناً للزائرين. ومنها الآيات القرآنية، والزيت المقدم من أصحاب النذور، وبعض ماء النبع المتفجر من صخرة أقيم عليها ضريح النبي، هذا الماء الذي شفي أيوب من أمراضه بعد اغتساله به كما تقول الرواية عنه. وبعد أن جف الماء منذ فترة ليست ببعيدة، استبدل بالماء الذي جر بانبوب من أحد ينابيع جبل نيحا واعتبر كنبع الماء الذي جف مباركاً.

ومما يعزز ايمان الناس وتبركهم بالنبي أيوب القصص التي تروى عن شفاء الله للمرضى المنذورين له وعقابه لمن اساؤوا اليه واعتدوا على حرم مقامه. وفي نيحا عنعنة يتناقلها الخلف عن السلف، وهي ان المرأة التي اشترطت على زوجة أيوب (رحمة) اعطاءها خصلتين من شعرها الجميل مقابل رغيفين من الخبز، بحسب ما يردُ في

قصة أيوب، هي من نيحا، وان أحفادها، لهذا السبب، غير موفقين، ودون مساكنيهم، منذ اقامة النبي أيوب بالقرب من نيحا حتى اليوم.

ان ايمان الدروز بالنبي أيوب جعل النازحين منهم إلى جبل العرب في الجمهورية العربية السورية ابتداءً من سنة ١٦٨٥ يطلقون على أحد المعابد الرومانية في بلدة قنوات اسم «قلعة النبي أيوب» أو «مزار النبي أيوب» تبركاً، وذلك اعتماداً على أن أيوب كان مقيماً في جبل العرب وسيداً عليه كما وردت الاشارة إلى ذلك.

وفاء النذور: يتذر الناس إلى النبي أيوب ايماناً بان النذر له مقبول من الله للشفاء من الأمراض، والتوفيق في الأعمال، والانقاذ من الورطات، وتحقيق الامنيات والطلبات، والخلاص من الازمات والضيق، والوقاية من الخطر. وجل الناذرين من النساء، وبعضهن ينذر الأمور البسيطة.

أما النذور، فهي تقدمات مالية تُسمى «سمحة نفس»، ليس من المألوف ذكر مقدارها للآخرين، وهدايا عينية من سجاد وثريات وغير ذلك مما يحتاج اليه المقام، وذبح خروف، والسير حفاة. وما يتجمع في الصندوق الحديدي الموضوع في احدى زوايا حجرة المقام، وعلى بلاطات الحجرة، يبلغ سنوياً عشرات الملايين. وهو ينفق على توسيع بناء المقام وصيانته وتجهيزه. وما تبقى يُنفق على مشاريع حيوية عامة.

التنزه: الزيارة إلى مقام النبي أيوب تجمع إلى التبرك، ووفاء النذر، التنزه؛ لأن موقعه جميل جداً، ومناخه جيد معتدل في الصيف، والمناظر التي يطل عليهاخلاّبة، والفسحات المعدة تحت سندياناته توفر للزوار اقامة حفلات الرقص والغناء، وذبح الذبائح، وإعداد المشاوي وسائر أنواع الاطعمة. وهو مجهز لقعود المئات تحت اشجاره وعلى جوانبه، ومجهز كذلك لمنامة عشرات العائلات في غرفه التي تتوافر فيها الفرش والمساند والوسائد والحرامات واللحف.

كان الكثيرون من الزوار يأتون ليلة أو أكثر في مقام النبي أيوب. وكان بعض الصيادين ينامون فيه ليبكروا في الذهاب إلى صيد الحجال والارانب التي توجد بكثرة في الجبال والهضاب والوديان المحيطة به. الا أن فترة المنامة فيه صارت اليوم تقتصر على من يزورونه من مناطق بعيدة كابناء الجمهورية العربية السورية. ولم يعد مسموحاً بمنامة الزوار الآتين من المناطق اللبنانية الا في حالات خاصة واضطرارية ينظر فيها المسؤول عن المقام المسمى «سائس المقام».

باتت الزيارة تستهدف التنزه أكثر مما تستهدف التبرك بدليل طغيان اجواء الفرح

واللهو والطرب على اجواء الخشوع والتأمل في مقام ديني، وبدليل ازدياد حفلات الرقص والغناء، والضجيج المرتفع من الزائرين ومن الراديوات والمسجلات العائدة لهم ولحوانيت الباعة، ووضع المسكرات والخمور على بعض الموائد المقامة خارج المقام. ولوضع حد لهذه الأمور، ولوقف تمادي الناس بها، وللتذكير بآداب الزيارة، تضع ادارة المقام تنبيهات خطية على الجدران، كما يتابع سائس المقام تقيد الزائرين بهذه التنبيهات.

الزيارة: كان الناس قديماً يزورون النبي أيوب سيراً على الاقدام، فينطلقون جماعات من القرى البعيدة عند منتصف الليل، ومن القرى القريبة عند الفجر، يسوقون الذبائح، وينقلون أغراضهم على المطايا التي يستعملونها أيضاً للركوب. ويسير الناذرون حفاة كل الطريق أو بعضها، وإذا أرادوا السير حفاةً جزءاً من الطريق، اختاروا الطريق الكثير التعرج بين نيحا والمقام لكي يصلوا الى المقام حفاة.

ان الزيارة التي كانت صعبة على البعيدين، صارت اليوم سهلة بواسطة السيارات والحافلات. لذا زاد عدد الزائرين من المناطق المسكونة بالدروز في بلاد الشام، البعيدة والقريبة. ففي أيام العطل والأعياد في فصل الصيف يفد اليه الآلاف يومياً، تنقلهم مئات السيارات والحافلات. ويخف العدد بعض الشيء في الأيام الأخرى. وأكثر ما تحصل الزيارات في فصل الصيف، لا لملاءمته للتنقل فحسب، بل لاعتدال طقسه أيضاً في المزار بسبب ارتفاعه الكثير عن سطح البحر. وتحصل الزيارة في اليوم التالي لعيد الاضحى، إذ تزوره مئات العائلات ما عدا أهالي نيحا الذين يزورونه معظمهم بحسب ما اعتادوا عليه من مئات السنين.

فور وصول الزائرين يزورون الحجرة فيدخلون اليها بعد ان يخلعوا أحذيتهم عند الباب، وتلبس الحاسرات المناديل. ولا عبرة لزيارة النبي أيوب دون زيارة الحجرة التي بنيت فوق المكان الذي اعتقد أنه أقام فيه، فهذه هي الزيارة فقط. وكانوا في الماضي يقبلون بلاط الحجرة، فاستعيض عن ذلك اليوم، بعد توسيعها وإحاطة الشاهدة بسياج نحاسي مذهّب، بتقبيل القرآن الكريم الموضوع على السياج. ومنهم من يقبل السياج وهو يدور حول الشاهدة. ويتوجه الزائرون بالأدعية والابتهالات الى الله ان يوفقهم ببركة النبي أيوب، وان يمنَّ عليهم بالصحة والسعادة، ويحقق لهم طلباتهم. ثم يضع كل امرىء عنه أو عن أهله، مبلغاً من المال في الصندوق الحديدي من خلال ثقب في أعلاه من قبيل التبرك، أو من قبيل وفاء النذر، كما يضع «سمحة النفس» المكلف بايصالها إلى المقام من أحد الأشخاص لتعذر زيارة هذا إلى النبي.

ان تقبيل الشاهدة، او سياجها، أو جدار مدخل الحجرة، أمور ينكرها المثقفون. وينكرها معظم رجال الدين الذين يطلبون فقط تلمس الستائر للتبرك. فان أول واجب على الزائر هو «ان يقصد تواً إلى حجرة المزار، ويخلع حذاءه خارجاً، ويدخل صامتاً خاشعاً، ويتلمس ستائر النبي تبركاً، ويقرأ الفاتحة وما تيسر من الأدعية»[1].

من الزوار من يزور وينصرف، ومنهم، وهم الاكثرية، من يجلسون على الأرض في جوانب جدران الحجرة الأربعة، متبركين بجلوسهم، مواصلين الدعاء إلى الله سراً لا علناً.

وفي الجلوس مع الكثيرين مقابل الشاهدة، تحت القبة العالية، وازاء تتابع الداخلين الذين يزورون مقبلين مبتهلين، مبعث للرهبة والخشوع قبل ان يغادر المرء الحجرة إلى الخارج حيث تصدح الموسيقى ويرتفع الغناء وتنبعث جلبة الناس في قدومهم وذهابهم وتنقلهم، وحيث صارت الجلبة ترتفع من حوانيت الباعة التي تكاثرت بالقرب من مدخل المقام.

بعد هذا ينصرف الزائرون إلى نحر الذبائح لتباشر النساء باعداد الاطعمة. وكانت النساء، في الماضي، تستعمل ما تحتاج اليه من أواني المقام، بينما تستعمل في الحاضر بعضها اضافة إلى ما يتيسر حمله من البيوت. ويختار الزائرون الذين تتشكل مجموعاتهم غالباً على اساس عائلي أو ضيعوي فسحة من فسحات المقام الدخلية، او الفسحات المحيطة به، حيث يجلسون لشرب «المتّي» التي هي مشروب الدروز الاول، وحيث تعمر الدبكات، ويرتفع الغناء والعزف، وتمد الموائد السخية الحافلة بشتى أنواع الاطعمة، وبخاصة الشواء والكبة والتبولة. الا ان الرقص والغناء والعزف وتناول المشروبات الروحية أمور ممنوعة في داخل البناء لأن له حرمة وقداسة.

وبعد الفراغ من تناول الطعام، وأخذ قسط كبير من اللهو والطرب والرقص، يحين وقت الانصراف. الا ان معظم الزائرين يدخلون إلى الحجرة ويقبلون ويدعون إلى الله كما فعلوا عند وصولهم. ويأخذون بركة من النبي أيوب هي بعض الزيت أو الماء أو قطع القماش الصغيرة، أو أي شيء يعتقدون أنه مبارك به.

والتعبير المصطلح عليه هو قول: «زيارة مقبولة» لكل من زار النبي أيوب، والجواب عليه هو قول: «يقبلنا ويقبلكم». ومعنى هذا عسى أن تكون الزيارة الى النبي مقبولة على صعيد التبرك ووفاء النذر وتلبية الادعية. وبهذا القول يتوجه كل زائر إلى من

---

(١) النبي ايوب عليه السلام. آداب زيارته ونبذة من سيرته. كتيِّب اصدره مكتب مشيخة العقل في لبنان ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م ص ٧.

يلتقيه من الزوار، ويتوجه به الذاهبون معاً بعضهم إلى بعض عند مغادرة المقام وعند التفرق، كما يتوجه به غير الزائرين للزائرين عند مشاهدتهم.

الزيارة الرسمية: من العادات تكريم رجال الدين للنبي أيوب بتخصيص زيارة عامة سنوية له في أواخر الصيف هي واحدة من الزيارات والسهرات والاجتماعات التي يخصصون بها الخلوات والمزارات لتلاوة الذكر الحكيم. وكانوا ينتقلون إلى النبي أيوب سيراً على الاقدام أو على ظهور الرواحل. وصاروا ينتقلون إليه بواسطة السيارات والحافلات مما أدى إلى تزايد عدد محيي هذا الاحتفال السنوي سنة بعد سنة.

ومنذ ان تسلم سماحة المغفور له الشيخ محمد أبو شقرا مشيخة العقل في سنة ١٩٤٩ أعطى للزيارة طابعاً رسمياً إذ صار يحضر بالإضافة إلى الرئاسات، الروحية ورجال الدين، رجال زمنيون بينهم قيادات سياسية، وممثل لرئيس الجمهورية اللبنانية كان عادة قائمقام الشوف.

وبما ان هذه الزيارة الرسمية تتم سنوياً في أحد أيام أواخر ايلول، بدعوة من مشيخة العقل، يمكن القول انه صار للنبي أيوب ما يشبه العيد. الا ان موسمه مقتصر فقط على التجمع والقاء خطبة شيخ العقل، وخطبة ممثل السلطة، وذكر الله، دون أي مظهر زمني من مظاهر الاحتفالات التي تشهدها الاعياد والمواسم الدينية.

الفصل الرابع:

المأتم الحسيني

عاشوراء

موقع ذكرى عاشوراء في العاشر من محرم، أول شهور السنة الهجرية. وعاشوراء، اوعشوراء، لفظة تعود إلى العهد الجاهلي. وهي في لغة العرب العاشر من محرّم، وقيل: التاسع[1]. ففي العاشر من محرّم من سنة ٦١ هـ، الموافق للعاشر من تشرين الأول سنة ٦٨٠ م، استشهد في الطفّ (كربلاء) الامام الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) واثنان وسبعون من صحبه على يد جيش عمر بن سعد، الذي أرسله عبيدالله بن زياد، والي العراق من قبل الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، لقتال الحسين والقضاء على ثورته. وكان الحسين قد ثار على يزيد ملبياً نداء الواجب ودعوة أهل الكوفة الذين وعدوه بالنصرة، لا لأنه يريد الخلافة لنفسه ولآل البيت فحسب، بل أيضاً لان الخلافة لا تصلح ليزيد لفسقه وانحرافه وسوء نهجه، ولتصحيح الواقع السياسي الاجتماعي وشؤون المسلمين.

ان العاشر من محرّم، وقبل ان يكون يوماً مكرّماً عند الشيعة الذين هم أنصار الامام علي (ع) وأتباعه المقرون بامامته وبالائمة من بيته لأنه ذكرى استشهاد الحسين، هو يوم مكرّم في الاسلام بناءً على ما روي عن الرسول ﷺ من أحاديث تأمر بالصيام فيه قبل تحديد الصوم في شهر رمضان المبارك، ويرد فيها انه يوم صالح عند اليهود والنصارى، نجّى الله فيه موسى وبني اسرائيل من عدوهم. وكان من قبل يوماً مكرّماً في الجاهلية تصومه قريش.

بعد ان فقد العاشر من محرّم أهميته كيوم صيام عند المسلمين حين نسخت آيات

---

(١) ابن منظور، لسان العرب.

القرآن الكريم ذلك وحددت الصوم في شهر رمضان المبارك، برزت أهميته أكثر في سنة ٦١ هـ بمقتل الامام الحسين (ع) واقترن به، وصار تقليداً سنوياً، ومن كبريات المناسبات والمواسم الدينية عند الشيعة، بل المناسبة الحدث التي يعود اليها تجذر الوجود الشيعي مما اشيع عند البعض مقولة «لا شيعة بدون عاشوراء».

ان واقعة كربلاء التي استشهد فيها الحسين حدث تاريخي مهم جذّر التشيع، وسرّع في تطوره، وزاد من التفاف الناس حول أهل البيت، وأثر تأثيراً كبيراً في التاريخ بما أحدث من ثورات وانتفاضات وتحولات سياسية واتجاهات معارضة لبعض أنظمة الحكم والحكام، وولّد الكم الهائل من الانتاج الفكري والكثير من العادات والتقاليد، وعزز الاتجاه نحو القيم والمبادىء السامية، فجاء تأثيره في شتى الصعد السياسية والاجتماعية والثقافية. وتعود أهمية هذا الحدث، واستمرار تأثيره، وعظم نتائجه، الى العوامل الرئيسة الثلاثة التالية:

١ ـ شخص الحسين: انه الامام الثالث عند الشيعة وابن الامام علي (ع) من زوجته فاطمة (ع) بنت الرسول ﷺ. ويروى ان جبرائيل بشر بولادته. وكان مكرّماً عند الرسول ﷺ، ونشأ في كنفه وكنف والديه علي وفاطمة فنهل من ينابيع الفكر والدين والتقى والفضائل، وشب متديناً تقياً عالماً وأقام الحلقات الدينية. وأخذ الفتوة من والده فأبلى بما عنده من ايمان بلاءً حسناً في الفتوحات الاسلامية في شمال افريقيا وطبرستان. ثم ثار على يزيد بن معاوية ايماناً منه بوجوب وضع حد لتجاوزاته وسوء نهجه، وتصحيح الانحراف في الواقع السياسي الاجتماعي، وإصلاح شؤون المسلمين، واستشهد في كربلاء حين لم يبق له الا خيار الشهادة فخلد باستشهاده واعتبر سيد الشهداء.

٢ ـ مأساة كربلاء: ان هذه المأساة تتمثل في مقتل الحسين مع اثنين وسبعين من صحبه من بينهم اخوته وابنه علي الاكبر وابنه الطفل عبدالله، بعد ان حاصرهم العدو ومنع الماء عنهم وأصر على محاربتهم بالرغم من أن الحسين سألهم أن يخلوا بينه وبين الرجوع «فأبوا الا قتاله»[١]. وأُخذت النساء اسرى. وكان بعض المشتركين في قتاله من أهل الكوفة الذين راسلوه وهو في مكة، وأظهروا له التأييد، لكنهم خذلوه وقاتلوه، فقال فيهم: «انهم دعونا لينصرونا فعدوا علينا فقتلونا»[٢].

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، لبنان، لا تاريخ جـ ٢ ص ٢٤٤.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م جـ ٤ ص ٧٧ .

٣ ـ الثورة المستمرة: خُذل الحسين من أهل الكوفة، وانتهت واقعة كربلاء بمصرعه وصحبه. لكن ثورته لم تنتهِ فصولاً وصدى وأبعاداً ومرامي ومعاني وأهدافاً. وظلت القضية التي استشهد من أجلها، والمبادىء التي جاهد في سبيلها، حية في نفوس أنصار أهل البيت تتنامى وتتفاعل وتعمل تحت شعارات «كل أرض كربلاء ـ كل يوم عاشوراء ـ هيهات منا الذلة»، حتى بات يصح التساؤل عما إذا كان حقق الحسين لو بقي حياً بعد كربلاء، أو بدونها، ما حققه باستشهاده، وبخطأ يزيد بن معاوية في ذلك.

ان احياء ذكرى عاشوراء هو في نظر التوّابين تكفير عن ذنب التخلف عن نصرة الحسين في مواجهة اعدائه بعد وعده بالنصرة من أهل الكوفة، وإظهار للغضب والندم على ذلك. وهو في نظر الشيعة تعبير عن التعلق بأهل البيت، واستمرار لمشروع المعارضة الجماهيرية لأي واقع سياسي اجتماعي سيىء وجهادها في سبيل تصحيحه كما فعل الحسين، وذلك تمشياً مع مبادئه ومعاني حركته. ففي كربلاء كانت القلوب مع الحسين والسيوف عليه. وفي ذكراها المستمرة من سنة ٦٢ هـ ٦٨١ م، وفي كل يوم، وفي كل مكان، يجب أن تكون السيوف معه فتحارب أي ظلم وانحراف، وتنصر أية قضية عادلة ومحقة.

بدايات المأتم الحسيني

منذ سنة ٦١ هـ ٦٨٠ م وعاشوراء تتسلسل في التاريخ ثورات وأحداثاً، ومؤسسة ثقافية اجتماعية دائمة ومتجددة، ومدرسة للنضال والفداء، ومحطة لاستلهام المعاني السامية والعبر، وتحديد الأهداف، واتخاذ المواقف. انها تعيش حية في الذاكرة الشعبية الشيعية، وتُحيا ذكراها بمآتم حسينية في مناسبات كثيرة، وبعادات وتقاليد معينة.

تعود جذور المأتم الحسيني إلى المآتم العائلية والعامة التي أقامها أهل الحسين واقرباؤه وأنصار أهل البيت بعد مقتل الحسين وصحبِه في كربلاء بشكل مفجع يستدعي من الحزن والتفجع والبكاء أكثر مما تستدعيه أشكال الموت وأسبابه وحالاته الأخرى. كما تعود إلى انفعال الناس بثورة الحسين ومقتله المأسوي، وتجمعهم للتحدث في ذلك.

أول مأتم عائلي هو المأتم الذي اقامته السيدات والفتيات في كربلاء نفسها، بعد انتهاء الواقعة مباشرة، ومعظمهن نساء الحسين وصحبِه من الهاشميين. ثم تلاه تفجعهن وصياحهن ولطم خدودهن عند مرورهن بقبور الحسين وصحبه بعد يومين من الفاجعة حيث صاحت زينب، اخت الحسين،: «يامحمداه، صلى عليك ملائكة السماء! هذا الحسين بالعراء، مرمل بالدماء، مقطع الاعضاء، وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة

تسفي عليها الصبا. فأبكت كل عدو وصديق»[1].

والمأتم العائلي الثاني أقيم في الكوفة في طريق سبايا كربلاء إلى الشام. والمأتم العائلي الثالث اقامته سيدات الحسين الاسرى في الشام، في قاعات قصر الخضراء، مقر الخليفة الاموي يزيد بن معاوية «حيث لم تبق امرأة من آل يزيد الا أتتهن وأقمن المأتم»[2].

وعندما علم الطالبيون والطالبيات في المدينة المنورة بمقتل الحسين وصحبه، بعد ان نادى بذلك عامل يزيد على المدينة (عمرو بن سعيد بن العاص) أقاموا في المنازل والساحات العامة مآتم عائلية للرجال، ومآتم عائلية للنساء. وتواصلت هذه المآتم إلى ما بعد قدوم موكب أسرى كربلاء إلى المدينة.

ومن المآتم العائلية المقامة في المدينة المآتم المقامة في البقيع[3] من أم البنين أم العباس، التي قُتل أربعة من ابنائها مع أخيهم الحسين، وهم العباس وعبدالله وجعفر وعثمان. والمأتم الذي اقامته السيدة رباب زوجة الحسين. والمأتم الذي اقامته السيدة زينب بعد وصولها إلى المدينة، والذي كان أهم المآتم العائلية، وأدى إلى ردود فعل ضد الامويين في المدينة مما دفعهم إلى اخراج السيدة زينب إلى مصر حيث توفيت في الرابع عشر من شهر رجب سنة ٦٢ هـ. ومن المآتم العائلية أيضاً المأتم الذي اقامه عبدالله بن جعفر.

أما المآتم العامة الأولى، فبدايتها هي الاستقبال الشعبي في الكوفة لقافلة سبايا كربلاء مع رؤوس الشهداء، حيث عبّرت السيدات: زينب وأم كلثوم وفاطمة الصغرى عن فجيعتهن ومرارتهن بخطب القينها في جموع المحتشدين. كما خطب في هذه الجموع أيضاً علي بن الحسين (زين العابدين). فأثرت هذه الخطب تأثيراً كبيراً في أهل الكوفة، وضج الرجال والنساء بالبكاء والنحيب، ولطمت النساء الخدود، وخمشن الوجوه، ونشرن الشعور، ووضعن التراب على الرؤوس.

وتحولت المآتم العائلية التي أقامها الطالبيون والطالبيات في شوارع المدينة والساحات العامة والمنازل إلى مآتم عامة ارتادها أهل المدينة، وأظهروا مشاركتهم لأهل البيت في نكبتهم، كما استقبلوا، رجالاً ونساءً، موكب الاسرى عند وصوله إلى المدينة، وفي طليعته علي بن الحسين، بمناحة كبيرة لم يكن أعظم منها الا المناحة على الرسول ﷺ[4].

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، مصدر مذكور سابقاً، ص ٨١ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٦ .

(٣) البقيع: مقابر اهل المدينة المنورة.

(٤) للمزيد من المعلومات عن المآتم العائلية والعامة، انظر الشيخ محمد مهدي شمس الدين، واقعة كربلاء في الوجدان الشعبي، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م ص ٢٢٣ - ٢٣٢ .

أحدثت هذه المآتم، العائلية والعامة، انفعالاً عند الناس بثورة الحسين ونهايته المأسوية. وتضافر معها في إحداث الانفعال الاخبار التي نشرها الجنود العائدون من كربلاء، والتي تناقلها الناس. فشكل هذا بحسب رأي الامام الشيخ محمد مهدي شمس الدين «مبرراً للتجمع، ومادة للحديث، وحافزاً على مراجعة المواقف والاراء، وإعادة النظر في النظام كله». وكانت التجمعات التي أدى إليها الانفعال العفوي بالمأساة، وتأثير المآتم العرضية العامة، والعائلية «النواة التي بدأ منها المأتم الحسيني ـ المؤسسة، وتطور خلال التاريخ»[١].

كانت المآتم في البداية عبارة عن اجتماعات عفوية وغير منظمة، معظمها صغير، يقيمها ال البيت وائمتهم وأنصارهم الناقمون على السلطة، انى وحيث تيسر لهم الاجتماع، حيث يتحدثون عما جرى للحسين وصحبه في كربلاء، ويستنكرون أفعال من قاتلهم ومن أرسلهم للقتال، ويؤلبون الناس على الامويين للثأر منهم، وانتزاع الخلافة واعادتها إلى ذرية الامام علي (ع). لقد كانت المآتم مجالس عزاء سياسية، واطاراً لتجميع الناس حول أهل البيت، ووسيلة من وسائل المعارضة العلنية أو المستترة، ومناسبة لبذر بذور الثورة وتهييج الناس ضد الامويين.

وكان للسيدة زينب فضل تحويل المأتم إلى مؤسسة، وللإمام محمد الباقر، ابن الامام علي بن الحسين، فضل تشكل احياء الذكرى في العاشر من محرم بممارستين هما زيارة قبر الحسين في كربلاء، والتجمع والبكاء. والممارسة الثانية، أي التجمع والبكاء، هي لمن لا يستطيعون زيارة القبر في عاشوراء. وفي عهد الامام جعفر بن محمد الصادق صار التجمع والبكاء في ذكرى عاشوراء أمراً مألوفاً.

ان ائمة أهل البيت هم الذين حثوا الناس على التجمع. وهم الذين رعوا المأتم الحسيني، ودفعوا به ليتحول إلى مؤسسة ثقافية اجتماعية. وكانوا يحثون الناس على عقد المجالس، وانشاد الشعر، والتحدث في ثورة الحسين، ويستمعون عند استقبالهم للمعزين إلى الخطب والقصائد في فضائل الحسين وعظمة استشهاده، وفي فضائل أهل البيت. وكانوا يقدمون الطعام للمعزين.

من أقوال الائمة التي تحث الناس على التجمع في عاشوراء قول الامام جعفر الصادق للفضيل بن يسار: «يافضيل، تجلسون وتتحدثون، قال: نعم سيدي. قال: يافضيل، هذه المجالس أحبها، احيوا أمرنا، رحم الله أمرأ احيا أمرنا»[٢]. ومنها قول

---

(١) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، واقعة كربلاء في الوجدان الشعبي، مرجع مذكور سابقاً، ص ٢٣٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٨ .

الامام علي الرضا: «من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة. ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه، جعل الله عز وجل يوم القيامة يوم فرحه وسروره وقرت بنا في الجنان عينه»[1].

تطور المأتم الحسيني

بين الازدهار والتراجع: مر المأتم الحسيني بأدوار عديدة تراوح فيها بين الازدهار والتراجع، والعلنية والسرية، والتجمعات الحاشدة الصاخبة الحافلة بالمواكب والتجمعات القليلة العدد والصامتة أو الهادئة، كما تراوح بين اعتباره مناسبة رسمية معترفاً بها من قبل السلطة ومناسبة ممنوعة ومحاربة، وذلك تبعاً لقوة الشيعة أو ضعفهم، ولنطاق الحرية الذي كان يُعطى لهم في عهود الدول الحاكمة، وللتضييق عليهم أو التسامح معهم.

تعرض الشيعة في العهد الاموي للاضطهاد والتنكيل والملاحقة مما أدى الى اتصاف المأتم الحسيني، انى يقام، بالهدوء أو بالسرية. وفي أيام الامام الصادق، في أواخر العهد الأموي ومطلع العهد العباسي، تمتع الشيعة بقدر وافر من الحرية لانشغال الأمويين بقمع الثورات الناشبة ضدهم، وانشغال العباسيين بملاحقة الامويين المهزومين، وبتأسيس دولتهم، فازدهر المأتم الحسيني.

لكن الشيعة اضطهدوا في عهد الخليفة العباسي، أبي جعفر المنصور، وخليفته هرون الرشيد. وقُمعت نشاطاتهم الثقافية الاجتماعية بما في ذلك المأتم الحسيني، فاضطروا إلى التقيّة. وبعدها تمتعوا بحرية نسبية في عهد الخليفة المأمون، وقوي شأنهم؛ لان الامام الرضا كان ولي عهد المأمون، كما كان والإمام محمد الجواد صهرين له. ثم تعرضوا مجدداً للاضطهاد في عهد الخليفة المتوكل. ومن التدابير المتخذة ضدهم، والمضايقات لهم في العهد العباسي، هدم المتوكل لقبر الحسين ومنع الناس من زيارته، ومنع الخليفة المستعصم قراءة كتب المقتل، ومعارضة الحنابلة إقامة الشعائر الحسينية المتمثلة بزيارة الحسين وإقامة عزائه.

تحسنت أوضاع الشيعة في عهود الدول البويهية والحمدانية والفاطمية؛ لان الحكام كانوا منهم، فازدهر المأتم الحسيني ازدهاراً كبيراً، وكثرت الاحتفالات العلنية به، الشعبية والرسمية، في بلاد فارس والعراق وشمال بلاد الشام ومصر.

يذكر ابن الاثير في حديثه عن حوادث سنة ٣٥٢ هـ ان معز الدولة البويهي أمر

---

(١) الشيخ الصدوق، عيون اخبار الرضا، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م جـ ٢ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

الناس في بلاد فارس والعراق، في عاشر المحرم «ان يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الاسواق والبيع والشراء، وان يظهروا النياحة، ويلبسوا قباباً عملوها بالمسوح، وان يخرج النساء منشرات الشعور، مسودات الوجوه، قد شققن ثيابهن، يدرن في البلد بالنوائح، ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي رضي الله عنهما. ففعل الناس ذلك، ولم يكن للسنّة قدرة على المنع منه لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم»[١].

وكان الناس في مصر، بحسب ما ذكر المقريزي، ينحرون الابل والبقر والغنم في يوم عاشوراء، ويكثرون النوح والبكاء، ويسبّون من قتل الحسين. وقد اهتم الخلفاء الفاطميون بالمأتم الحسيني الذي كان معتمداً في العهد الاخشيدي في مصر قبل سيطرتهم عليها، فكانوا يتخذون من عاشوراء يوم عطلة وحداد واقفال للأسواق، ويقيمون المأتم الحسيني في احتفال رسمي له ترتيباته ومراسمه، يحضره الوزراء والقضاة. وكانوا يعملون السماط العظيم المسمى «سماط الحزن»، فيقدمون للناس العدس الاسود والعدس المصفّى والملوحات والمخللات والاجبان والالبان الساذجة والاعسال والفطير وخبز الشعير والخبز المغيّر لونه عمداً. وتوضع هذه الاصناف على السماط بدون مرافع نحاس. كما كان يحصل في القاهرة احتفال في ليلة عاشوراء تُنشد فيه الاناشيد، وتتلى كتب المقتل[٢].

وما ذكره ابن الاثير والمقريزي يفيد ان عاشوراء غدت في بلاد فارس والعراق ومصر، في عهد البويهيين والفاطميين، مناسبة رسمية، ويوم حزن وحداد تُعطل فيه الاسواق، وتغلق المتاجر. وما ذكره ابن الاثير يفيد عن دخول عناصر جديدة على المأتم الحسيني هي خروج النساء من المنازل في بلاد فارس والعراق، واشتراكهن في المواكب الحسينية التي تسير في الشوارع وسط مظاهر الحزن والحداد واللطم وانشاد الاناشيد المحزنة.

وفي عهود السلاجقة والزنكيين والايوبيين والمماليك ظهر التعصب من السنّة، الذين صار الحكم لهم، ازاء المذاهب الاسلامية الاخرى، فحرموها[٣]. وكان الايوبيون والمماليك الأكثر تشدداً ازاء الشيعة مما أدى إلى إضعاف التشيع وتراجع المأتم الحسيني الذي صار يُقام سراً، أو بطريقة شبه سرية، في معظم مناطق العراق وسورية ومصر، باستثناء الاماكن الدينية الشيعية المقدسة في العراق.

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، مصدر مذكور سابقاً، جـ ٨ ص ٥٤٩ .

(٢) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، دار صادر، بيروت، لبنان. لا تاريخ جـ ١ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٩٠ .

(٣) للمزيد من المعلومات، انظر الشيخ محمد حسين المظفر، تاريخ الشيعة، دار الزهراء، بيروت، لبنان ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ص ١٩٢ - ١٩٣ .

وبالاضافة إلى ذلك تحولت ذكرى عاشوراء، التي هي يوم حزن وحداد عند الشيعة، إلى يوم فرح عند السنّة في مصر في عهد الايوبيين، كما جاء عند المقريزي الذي ذكر ما يلي: «فلما زالت الدولة الفاطمية، اتخذ الملوك من بني أيوب يوم عاشوراء يوم سرور يوسعون فيه على عيالهم، ويتبسطون في المطاعم، ويصنعون الحلاوات، ويتخذون الاواني الجديدة، ويكتحلون، ويدخلون الحمام جرياً على عادة أهل الشام التي سنها لهم الحجاج في أيام عبد الملك بن مروان، ليرغموا بذلك آناف شيعة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن»[1].

وفي عهد الدولة الصفوية قوي التشيع، وازداد انتشاره في الهند، وازدهر المأتم الحسيني. فعندما تسلم الشاه اسماعيل الصفوي السلطة في ايران واحتل العراق، نمت في ايران الاحتفالات بعاشوراء، وكان الحداد الرسمي يُعلن في أيام عشر محرم، والاحتفالات تُقام في قصر الشاه وبحضوره، وكان الشاه اسماعيل يستقبل المعزين. أما الشاه عباس الاول الصفوي، فكان يسير في مقدمة المواكب الحسينية لابساً السواد، ملطخاً جبينه بالوحل. وكان هناك تجمعات دينية اسم الواحد منها هيئة تنظم المواكب، ولها اسم وعلم وشارة.

وحين انتزع العثمانيون العراق للمرة الثانية من الصفويين سنة ١٠٤٥ هـ ١٦٣٥ م، نكلوا بالشيعة فيه، وكادوا يقضون عليهم في شماله مما اضطر قسم منهم إلى التقيّة، فانحصر وجودهم الكبير في العراق في جنوبه حيث ظل المأتم الحسيني يتطور ويزدهر في العتبات المقدسة بينما كان يُقام بهدوء، أو بسرية، في المناطق العراقية الأخرى.

وفي العصور الحديثة، وباستثناء ما تعرض له الشيعة من التنكيل في بداية العهد العثماني بسبب الصراع بين العثمانيين والصفويين، يمكن القول ان الشيعة تمتعوا في معظم مناطقهم، التابعة للدولة العثمانية، والخاضعة للنفوذ الاوروبي، بقدر من الحرية تنامى مع الايام وسمح لهم بإقامة الشعائر الدينية، فازدهر المأتم الحسيني تبعاً لذلك، وصار يُقام علناً في أي وقت من السنة.

التطور من حيث الشكل: تطور المأتم الحسيني في الشكل والنوع، وعرف صيغاً متعددة خلال تأرجحه عبر التاريخ بين التراجع والازدهار منذ السنة التالية لسنة واقعة كربلاء، أي منذ سنة ٦٢ هـ ٦٨١ م، حتى اليوم. وتمحورت صيغه حول عنصر ثابت فيه مؤلف من ثلاثة مرتكزات أساسية هي ثورة الحسين، وواقعة كربلاء بفصولها المأسوية،

---

(١) الخطط المقريزية، مصدر مذكور سابقاً، جـ ١ ص ٤٩٠ .

ولعن بني أمية وبني العباس. ويتم استعادة ذلك في اجواء الحزن لمقتل الحسين والبكاء عليه والندم على خذلانه وانشاد الشعر في رثائه والاشادة بمناقبه.

ان نقد بني أمية وبني العباس كان في العهدين: الاموي والعباسي، صريحاً في أكثر الاحيان، وايماءً في أقلها. وكان لعنهم يعقب النقد سراً في معظم الاحيان الا في أراضي الدول ذات السلطان الشيعي كما في أراضي الدولة الفاطمية. وقد جاء لعن بني أمية رداً على لعن هؤلاء للامام علي، الذي بدأ في عهد معاوية وأبطل في عهد عمر بن عبد العزيز، وذماً لبني أمية الذين قتلوا الحسين وصحبه. ولُعن بنو العباس؛ لأنهم اضطهدوا بعض ائمة الشيعة، واستأثروا بالخلافة التي هي من حق أهل البيت. واستمر النقد الذي استهدف بني أمية وبني العباس في نقد أي سلطة حاكمة غير مرضي عنها.

تطور المأتم الحسيني من حيث الشكل في عدة أمور هي اقامته في العلن بدلاً من السر، ومواعيده، وأمكنته، وأشخاص منبره، وتلاوة السيرة الحسينية نثراً وشعراً.

بعد ان اتصف المأتم الحسيني في بداياته بالبساطة والتجمع العفوي، وبعد ان كان يُقام في زيارات الحسين، وفي اليوم العاشر من محرم فقط، تعددت مناسباته، وصار له أوقات محددة، ودخل في جميع الاحتفالات الدينية والفاتحات والكثير من المناسبات الخاصة. الا انه تحول في أكثر الاماكن منذ عصر الانحطاط حتى التاريخ المعاصر إلى مجالس عزاء بكائية.

صار المأتم يُقام في الأيام التسعة الأولى من محرّم اضافة إلى العاشر منه. وقد بدأ ذلك في عهد الفاطميين الذين كانوا أول من احتفل بالأول من محرم وجعلوه عيداً هو عيد رأس السنة الهجرية، وتابعوا الاحتفالات حتى العاشر، ذكرى استشهاد الحسين. لقد وصل الحسين وصحبه إلى كربلاء في الثامن من محرم على الارجح. ودارت المفاوضات بينهم وبين خصومهم في اليوم التاسع حيث انتهت إلى الفشل ازاء اصرار الحسين على موقف الاباء وعلى رفض النزول عند طلب خصومه مبايعة يزيد، واصرار خصومه على اذلاله. وقد طلب الحسين منهم إرجاء القتال إلى اليوم التالي. فالاحتفالات إذاً تبعاً للمدة التي قضاها الحسين في كربلاء يجب أن تكون يوم التاسع من محرم الذي شهد المفاوضات، ويوم العاشر الذي شهد المأساة. لكن التوسع في الذكرى بدأ في العهد الفاطمي فشمل الأيام الثمانية الاولى من محرم، وصار تقليداً عند الجميع في كل العصور.

وصار المأتم يُقام في شهر صفر، وفي ذكرى وفاة الرسولﷺ، وفي ذكرى ولادة ووفاة كل امام من ائمة البيت، وفي ذكرى وفاة السيدة فاطمة الزهراء والسيدة زينب

ومسلم بن عقيل، وفي أمسيات أيام شهر رمضان المبارك، وفي ليلة الجمعة ويومها من كل اسبوع، وفي أي وقت من الليل والنهار، مناسب لإقامة المأتم ويسمح للناس بحضوره دون تعطيل أعمالهم، كما صار يُقام في ليلة اليوم التالي لعاشوراء، المسماة «ليلة الوحشة». ويسمى كل محفل «مجلس عزاء».

بالإضافة إلى ذلك صار هناك مناسبات خاصة يُقام فيها المأتم الحسيني تبركاً بذكر الله تعالى والرسولﷺ وأئمة البيت، كإقامة مجلس عزاء عند سكن بيت جديد، وقدوم من سفر، وعودة من الحج، وإقامة حفل تأبين للميت أو صلاة عن روحه بحيث يكون عزاء الحسين جزءاً من حفل التأبين أو مجلس الفاتحة المعقود له، فيتعزى أهل الميت بذلك، ويخف عنهم المصاب. وهناك اليوم مجالس تعزية خاصة بالرجال، ومجالس تعزية خاصة بالنساء، ومجالس تعزية مشتركة. فإذا كان القارىء رجلاً، كان مجلس التعزية خاصاً بالرجال أو مشتركاً. وإذا كان القارىء امرأة، كان مجلس التعزية خاصاً بالنساء.

ومن المألوف في مجالس التعزية، المقامة في حفلات تأبين الموتى أو الصلاة عن روحهم، أن يُقرأ من المقتل ما يتلاءم مع وضع الميت. فإذا كان الميت طفلاً، يُقرأ عن الطفل الرضيع عبدالله. وإذا كان شاباً، يُقرأ عن القاسم أو عن علي الأكبر. وإذا كان أخاً، يُقرأ عن العباس. وإذا كان رجلاً كبيراً يُقرأ عن الحسين. وإذا كان سيدة، يُقرأ عن فاطمة الزهراء أو عن السيدة زينب.

وكما تطور المأتم الحسيني من حيث الزمان تطور أيضاً من حيث المكان. فبعد ان بدأ عند قبر الحسين، ومن قبل من يزورونه عن قرب، صار يُقام في أي مكان من قبل من يزورونه عن بعد، أي أنه صار يقام في ساحات المزارات والجوامع، وفي الساحات العامة، وفي البيوت. ثم تحول مؤخراً إلى أمكنة خاصة به سميت باسم الحسين هي النوادي الحسينية أو الحسينيات؛ لانها بنيت لإقامة عزائه. وأول من بناها الفاطميون في مصر، ومنها انتقلت إلى المناطق الاسلامية الأخرى.

من وجوه تطور المأتم الحسيني على صعيد الشكل تخصص رجال ونساء بتلاوة السيرة الحسينية وتفاصيل مأساة كربلاء، عرفوا بـ «القصاصين»، وتخصص آخرين بإنشاد الشعر بإسلوب النوح، عرفوا بـ «النوّاح» أو «المنشدين»، وتخصص البعض بإنشاء شعر النوح. وغدت السيرة الحسينية نصاً يُتلى بعد ان كانت حواراً أو حديثاً بين المجتمعين لإحياء الذكرى كما كان يحصل في المراحل الأولى. وأُلفت كتب المقتل لتتلى في المآتم الحسينية.

ثم حل الخطباء مكان القصاصين المنشدين، وازداد عددهم مع ازدهار المأتم الحسيني، وكان عليهم أن يقوموا بمهمة الاثنين معاً. وتبعاً لذلك بات عليهم حفظ السيرة الحسينية بكل تفاصيلها، وإجادة انشاد بعض الاشعار بأسلوب النوح ليختتموا بها عادةً مجلس العزاء، بالإضافة إلى التفقه بالعلوم الدينية والتثقف ببعض المعلومات التاريخية. وصار عليهم في الفترة الأخيرة امتلاك مقدرة الربط بين ما يتحدثون عنه من عناصر المأتم الحسيني، وما يواجه الناس في حاضرهم من مشكلات سياسية واجتماعية واقتصادية.

سمي خطيب المنبر الحسيني بـ «القارئ» و«الخطيب» و«روزة خوان». وعن الاسم الاخير جاء عند الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين ما يلي: «يدعى الخطيب بالفارسية والاردية والتركية «روزة خوان» بحسب النطق الفارسي الذي يحوّل الضاد زاياً، وحقيقته «روضة خوان». وخوان بالفارسية معناها قراءة. ويكون معنى هذا المركّب «قراءة الروضة». والمراد بـ «الروضة» كتاب «روضة الشهداء» الذي ألفه المولى الحسين بن علي الكاشفي، المعروف بالواعظ البيهقي، توفي سنة ٩١٠ هـ، وهو كتاب من كتب المقتل ألفه صاحبه في بداية تأسيس الدولة الصفوية الشيعية في ايران، وانتشر بين الناس انتشاراً واسعاً جعله يدخل في تسمية الخطيب الذي يحيي الذكرى الحسينية»[1].

ومن وجوه تطور المأتم الحسيني في الشكل اقامته علناً، بعد نشوئه في مراحل قوة الشيعة وعدم تشدد الدول الحاكمة ازاءهم، وإقامته علناً في التاريخ الحديث، ودخول لطم الرجال اليه منذ العهد البويهي بعد ان كان اللطم مقتصراً على النساء، وضرب السلاسل بالأكتاف، وشج الرؤوس بالقامات واسالة الدماء منها منذ قرنين ونيف، ثم عمل الشبيه.

التطور من حيث النوع: كما تطور المأتم الحسيني من حيث الشكل، تطور أيضاً من حيث النوع. ومن وجوه التطور النوعي التوسع في الحديث عن مقدمات ثورة الحسين، وعن خاتمتها المأسوية في كربلاء، وتطور لغة المآتم وأسلوبها، وازدياد الحرص على الدقة التاريخية واستبعاد الروايات غير الموثقة، واشتمال المأتم على فضائل ائمة البيت، اضافة إلى مناقب الحسين التي كان يُكتفى بها سابقاً.

وبعد ان كان التركيز يحصل في المأتم الحسيني، في عصر الانحطاط الذي أعقب

---

(١) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، واقعة كربلاء...، مرجع مذكور سابقاً، ص ٢٩٣ .

سقوط بغداد على يد القائد المغولي هولاكو في سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م، على الزهد وطلب الآخرة والانصراف عن شؤون الحياة، بات يركّز فيه في العصر الحديث، ولا سيما في التاريخ المعاصر، على معالجة الشؤون الحياتية، وعلى فهم مضامين ثورة الحسين وأبعادها. وبات الخطاب في المأتم الحسيني يعالج شتى الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وتحول المأتم الحسيني في الفترة الأخيرة إلى منبر توعية وتثقيف، وإلى مناسبة لقول الخطاب السياسي للأحزاب والتنظيمات، ولإعلان المواقف. واختلف معظم خطبه في اسلوبه ومضمونه عن خطب قراء مجالس العزاء التقليدية. ففي خطب اليوم التي تسبق قراءة السيرة الحسينية وعظ للناس وحثهم على استلهام العبر والمعاني السامية من ثورة الحسين ومن استشهاده وصحبه، وعلى الاقتداء به والتحلي بفضائله، وضرورة الجهاد مثله من أجل احقاق الحق ودحر الباطل ومقاومة التسلط مهما كان نوعه وبأي زي تزيا، فكل أرض كربلاء. وفي خطب اليوم أيضاً معالجة للموضوعات السياسية والاقتصادية الراهنة، وتطرق إلى كيفية التعاطي معها وواجب الناس ازاءها.

معظم خطب المنبر الحسيني اليوم محاضرات دينية واجتماعية وثقافية ذات دلالات ومرامٍ سياسية، تتناول بالاضافة إلى الحديث عن الحسين، أو أحد الأئمة، أو أحد الشخصيات البارزة في التاريخ الاسلامي بشكل عام وتاريخ الشيعة بشكل خاص، شؤون الناس وشجونهم ومشكلاتهم وقضاياهم، وكل ما يعنيهم ويؤول إلى خيرهم وصلاحهم. كما ان المنبر الحسيني مجال رحب لإبراز مواهب الخطباء، وإنتاج الادباء من النثر والشعر.

المأتم الحسيني في المناطق اللبنانية في العصور القديمة

التشيع: ارتبط المأتم الحسيني في المناطق اللبنانية بوجود التشيع فيها، وارتبط ازدهاره وتراجعه بقوة هذا التشيع وضعفه، وبمدى اطار الحرية الممنوحة له.

جذور التشيع في بلاد الشام تعود إلى الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري الذي نفاه الخليفة الراشدي عثمان بن عفان إلى الشام «حين بلغه ان أبا ذر يقع فيه ويذكر ما غيّر وبدّل من سنن رسول الله وسنن أبي بكر وعمر»[1]. فهذا الصحابي كان من شيعة علي، ومن أوائل الداعين إلى التشيع، وقد نشر مذهبه في كل مكان حل فيه. ويقول الأمير شكيب ارسلان: ان التشيع موجود في بلاد الشام منذ بداية الفتح الاسلامي، وان

---

(١) تاريخ اليعقوبي، مصدر مذكور سابقاً، المجلد الثاني، ص ١٧١ .

التشيع في بلاد فارس جاء بعده[1].

ومما توارثه أهل جبل عامل عن الآباء والأجداد ان تشيعهم لمذهب أهل البيت كان على يد أبي ذر[2]. ويرى الشيخ أحمد رضا ان أبا ذر الذي له مقامان في قريتي الصرفند وميس الجبل، وهما قريتان في جبل عامل، حل في جبل عامل، وان التشيع في الجبل نشأ منذ اقامته فيه[3]. وذكر محمد كرد علي، نقلاً عن الحر العاملي، في كتابه أمل الآمل «ان أبا ذر لما أخرج إلى الشام تشيع فيها جماعة، ثم أخرجه معاوية إلى القرى فوقع في جبل عامل فتشيعوا منذ ذلك اليوم. ثم ذكر رواية عن الامام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وقد سئل عن أعمال الشقيف، فقال: ارنون وبيوت وربوع وتعرف بسواحل البحار واوطئة الجبال هؤلاء شيعتنا حقاً»[4].

ومع ان حلول أبي ذر في جبل عامل، أو مروره فيه، أمران غير مؤكدين[5]، الا ان التشيع في الجبل قديم، وتعود جذوره، على الارجح، الى اقامة أبي ذر في بلاد الشام. وفي هذا الصدد يقول السيد محسن الأمين: «ان صح أن تشيع أهل جبل عامل من زمن نفي أبي ذر إلى الشام لم يكن أسبق منهم إلى التشيع سوى بعض أهل الحجاز»[6].

وإذا كانت جذور التشيع في جبل عامل وبعض مناطق بلاد الشام الأخرى تعود إلى أبي ذر الغفاري، وإلى عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، فإن انتشار التشيع في الجبل وفي سواه من المناطق اللبنانية، وفي سائر مناطق بلاد الشام، يعود إلى أوائل المائة الثالثة للهجرة، وفي هذا الصدد يقول السيد محسن الأمين: «والذي يغلب على الظن ان انتشار التشيع وكثرته وفشوه في جبل عامل وسائر بلاد الشام كان ابتداؤه من أوائل المائة الثالثة للهجرة، وازداد ذلك في أواخر المائة الثالثة فما بعدها»[7].

وسبب تأخير انتشار التشيع في بلاد الشام يعود إلى ضعف تيار الشيعة العام في بلاد الاسلام في بدايات تكونه، واضطهاد الدولة الأموية والدولة العباسية للشيعة. فالدولة الاموية التي اضطهدت أنصار أهل البيت وأخمدت ثوراتهم ونكلت بهم، ستنال منهم أكثر في بلاد الشام حيث مركز ثقلها وحيث عاصمتها دمشق. ومعظم الخلفاء

---

(١) الامير شكيب ارسلان، مجلة المقتطف، مجلد ٣٨ سنة ١٣٢٩ هـ ١٩١١ م ص ٥١ .

(٢) محمد جواد آل الفقيه، أبو ذر الغفاري، دار الفنون، بيروت، لبنان ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م ص ٧٧ .

(٣) الشيخ أحمد رضا، مجلة المقتطف سنة ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م ص ٤٢٧ . ٤٢٨ .

(٤) محمد كرد علي، خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م جـ ٦ ص ٢٤٦ .

(٥) السيد حسن نور الدين، عاشوراء في الادب العاملي المعاصر، الدار الاسلامية، بيروت، لبنان ١٤٠٨ هـ. ١٩٨٨م ص ١٨ .

(٦) السيد محسن الامين، خطط جبل عامل، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ١٤٠٢ هـ ١٩٨٣ م ص ٨٣ .

(٧) المرجع نفسه، ص ٨٥ .

العباسيين الاوائل اتبعوا سياسة متشددة ازاء الشيعة، مع الاشارة إلى ان بعد بلاد الشام عن عاصمة الدولة العباسية كان يتيح لسكانها حرية نسبية في المعتقد وممارسة الشعائر الدينية.

ان التشيع في بلاد الشام ازداد انتشاراً في عهدي الدولتين: الفاطمية والحمدانية. الا ان تأثير الحمدانيين اقتصر على شمال لبنان، بينما كان جنوبه يتأثر بفرع آخر من الشيعة هم القرامطة الاسماعيليون، وشرقه يتأثر بالاخشيديين السنَّة. أما في العهد الفاطمي، فقد ظهر التشيع بقوة في معظم المناطق اللبنانية، وبخاصة في مدينتي طرابلس وصور، كما ازدهر في العهد الصليبي في كسروان حين كان الايوبيون والمماليك منشغلين بالصراع مع الصليبيين.

ومما يؤكد انتشار التشيع في المناطق اللبنانية في العهد الفاطمي على نطاق واسع ما جاء في وصف ناصر خسرو لرحلته، فقد ذكر عن طرابلس التي مر بها سنة ٤٣٨ هـ ان جميع أهاليها شيعة، كما ذكر ان أكثر أهل صور شيعة، وان القاضي فيها سني، وان الشيعة بنوا المساجد.

وبعد هذا الانتشار الكبير ضعف وجود الشيعة في العديد من المناطق اللبنانية كطرابلس وبيروت وجبل لبنان بسبب التضييق عليهم من الزنكيين والايوبيين، وبخاصة من المماليك الذين طردوهم من كسروان. لقد تفرغ المماليك بعد افتتاح عكا وطرد الصليبيين لقتال النصيرية المعروفين بـ «الظنيين» والشيعة المعروفين بـ «الرافضة»، وقادوا أربع حملات تأديبية على سكان كسروان نجحت في اخضاعهم[١]. وسكان كسروان ساحلاً وجبلاً كانوا، بحسب المصادر، شيعة ودروزاً وموارنة. الا ان أكثريتهم كانوا من الرافضة، أي من الشيعة[٢]. وسبب حملات المماليك هو اتهامهم سكان كسروان بالتعرض لهم بعد حربهم مع التتر، وإصدار العالم الفقيه ابن تيمية فتواه ضد المتعرضين.

أدت الحملات المملوكية على كسروان إلى تشتت الشيعة في جهات جزين والبقاع وبعلبك، واضطرارهم إلى التقية والتظاهر باعتناق المذهب الشافعي طيلة القرن الرابع عشر للميلاد. وأسكن المماليك مكانهم في كسروان القبائل التركمانية (آل عساف). ويذكر صالح بن يحيى ان شيعة بيروت تظاهروا آنذاك بالسنّة[٣].

---

(١) انظر عن هذه الحملات صالح بن يحيى، تاريخ بيروت. تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي، دار المشرق، بيروت، لبنان ١٩٦٩، ص ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٥٣ . والمقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دور الملوك، لجنة التاليف والترجمة والنشر. القاهرة، مصر ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩، جـ ٢ ص ١٥ ـ ١٦ وجـ ٣ ص ٩٠٢ ـ ٩٠٣ .

(٢) محمد علي مكي، لبنان ٦٣٥ ـ ١٥١٦ من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٩، ص ٢٢٩ .

(٣) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، مصدر مذكور سابقاً، ص ١٩٥ .

وفي العهد العثماني تراجع وجود الشيعة عن بعض المناطق،وضعف في منطقتي جبيل وجزين، بسبب الوقائع بينهم وبين مقاطعجيي جبل لبنان، لكنهم ازدادوا في البقاع وتعزز وجودهم في شماله بفضل الامراء الحرافشة. وازدادوا منعة في جبل عامل بفضل تنامي نفوذ حكام مقاطعاته ونجاحهم في الوقوف بوجه محاولات الامراء الشهابيين الحاق الجبل بإمارتهم.

وإذا كانت الأسباب والعوامل التي وردت الاشارة اليها أدت في الماضي إلى إضعاف وجود الشيعة في بعض المناطق اللبنانية، ونزوحهم منها إلى مناطق لبنانية أخرى، واضطرارهم أحياناً إلى التقية، وتحول بعضهم إلى السنّة، فإن فترات الامن والهدوء والحرية، والعوامل الاقتصادية والاجتماعية، أدت إلى نزوحاتهم وانتشارهم وتكاثرهم في عدة مناطق وقرى، وتواجدهم في المراكز السكنية المختلطة، على امتداد الأراضي التي تشكلت منها دولة لبنان الكبير في سنة ١٩٢٠ . وعلى سبيل المثال ازدادوا مؤخراً في بيروت، وعلى الأخص في ضاحيتها الجنوبية، بسبب نزوحهم اليهما بأعداد كثيرة حتى غدت الضاحية الجنوبية، التي كانت تجمعاً صغيراً لهم، تجمعاً كبيراً يوازي في الأهمية جنوب لبنان وشمال البقاع.

المأتم الحسيني: بعد هذا العرض الموجز للوجود الشيعي في المناطق اللبنانية، يمكن القول ان هذه المناطق عرفت المأتم الحسيني منذ أواخر المائة الثالثة للهجرة، أي منذ انتشار التشيع في جبل عامل، وان المأتم الحسيني ازدهر في فترات قوة الوجود الشيعي، وتراجع في فترات ضعفه.

لقد ازدهر المأتم الحسيني في المناطق اللبنانية، وبخاصة في السواحل، في عهد الدولة الفاطمية بسبب ازدهار التشيع فيه، ولأن الدولة الفاطمية جعلت عزاء الحسين مناسبة رسمية تكثر فيها الاحتفالات والمظاهر. وتبعاً لذلك نرجح ان المأتم الحسيني كان يُجرى في المناطق اللبنانية آنذاك بالممارسات والمظاهر التي كان يُجرى بها في سائر أراضي الدولة الفاطمية.

ثم تراجع المأتم الحسيني في المناطق اللبنانية في عهود الدول الزنكية والايوبية والمملوكية بسبب السياسة المتشددة التي اتبعتها هذه الدول ازاء الشيعة. لذلك كان يتم أحياناً بصمت أو بسرية، وبمظاهر بسيطة، تبعاً للأحوال. أما الدولة العثمانية، فلم تتشدد مع الشيعة كالدول المذكورة بدليل حضور واليها على حلب احتفال هذه المدينة بعاشوراء، وبدليل ازدهار المأتم الحسيني في أواخر عهدها.

نقل الينا المؤرخ محمد كرد علي وصفاً لاحتفالات الحلبيين في عاشوراء، فقال: ان

من عاداتهم صنع طعام حلو في أول يوم من المحرم، والتصدق بالطعام على الفقراء والعجزة، واعداد الكثير من المطاعم للعيال، وطبخ طعام الحبوب[1]، وأضاف قائلاً: «وفي يوم عاشوراء كانت الحكومة قبل خراب مشهد الحسين تولم فيه وليمة حافلة يحضرها الوالي ومن دونه، وينشد أحد المطربين قصيدة ابن معتوق في رثاء الحسين، التي مطلعها: هلّ المحرم فاستهل مكبراً»[2].

كان المأتم الحسيني في المناطق اللبنانية يقتصر على مجالس عزاء تقليدية حيث يتجمع الناس في ساحات الجوامع والمزارات، وفي الساحات العامة، وفي البيوت، لسماع أخبار المقتل والمراثي، والأناشيد التي تقال في مدح الحسين وال البيت، وللبكاء على الحسين. وكانت المآتم تبدأ وتنتهي بأناشيد الندب التي هي مزيج من العامية والفصحى. وكان آنذاك بعض العادات مثل تقديم الطعام للفقراء عن روح الحسين، والتقشف في المأكل، وصنع بعض الحلويات والمأكولات الخاصة بالمناسبة. وفي هذا الصدد يقول السيد محسن الأمين، في معرض حديثه عن بعض العادات المألوفة عند أهل جبل عامل، الذي هو أهم المناطق الشيعية في لبنان، مايلي:

«انهم يقيمون عزاء الحسين عليه السلام كل ليلة من عشر المحرم، وقد يقيمونه أيضاً نهاراً فيقرأ لهم قارىء من أخبار المقتل فيستمعون اليه. فإذا كان يوم العاشر تركوا أعمالهم واجتمعوا لسماع خبر المقتل. فإذا فرغوا أحضر كل منهم ما تيسر عنده من طعام وقدمه للفقراء، هذه عادتهم من قديم الزمان»[3].

ويقول الامام الشيخ محمد مهدي شمس الدين ما يلي: «نعلم اننا منذ مئات السنين على الأقل ومجالس العزاء في هذه البلاد تقام في الجنوب في البقاع، قبل ضياع كسروان أو جزين، في جزين وفي كسروان تقام»[4]. ومما تجدر الاشارة إليه ان الوجود الشيعي انحسر عن كسروان في القرن الرابع عشر للميلاد.

ومما يؤكد أيضاً على الاحتفال بذكرى عاشوراء بمجالس عزاء فقط، وبحسب ما ذكر السيد محسن الأمين والامام الشيخ محمد مهدي شمس الدين، عدم ورود أية اشارة من الشيخ علي الزين إلى عادات العامليين في عزاء الحسين، وهو الذي اسهب في الحديث عن عادات أهل جبل عامل في العهود الاقطاعية في كتابه «العادات

---

(١) طعام الحبوب: هو على الارجح القمحية، اي الهريسة.

(٢) محمد كرد علي، خطط الشام، وردت الاشارة اليه، جـ ٦ ص ٢٨٥ .

(٣) السيد محسن الامين، خطط جبل عامل، وردت الاشارة اليه، ص ١٤٦ .

(٤) الامام الشيخ محمد مهدي شمس الدين، عاشوراء (١) مجموعة محاضرات، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م ص ٤٧ .

والتقاليد في العهود الاقطاعية»[1]. فذكرى عاشوراء إذاً كانت تقام ببساطة وهدوء، ودون حشود، ودون احتفالات مركزية تجذب اليها السكان من سائر القرى.

المأتم الحسيني في المناطق اللبنانية في القرن العشرين

ابتداءً من أوائل القرن العشرين بدأ المأتم الحسيني في المناطق اللبنانية يتطور شكلاً ونوعاً، ويزدهر، إلى أن أصبح على ما هو عليه الآن بمظاهره وممارساته المختلفة. ويعود هذا التطور وهذا الازدهار إلى الحداثة وما تحمله من الجديد الذي دخل من الباب الواسع للحرية المتاحة لجميع اللبنانيين في اقامة الشعائر الدينية في العهد العثماني وفي عهد الانتداب الفرنسي وفي عهد الاستقلال، وإلى التأثير الايراني الذي حصل بفضل العلاقة التاريخية القائمة بين شيعة لبنان وإيران، والذي أدخل عمل الشبيه وشج الرؤوس بالجارحات بالرغم من الاعتراض عليهما من قبل بعض رجال الدين. ومما طور المأتم الحسيني أيضاً طواف المحتفلين بمواكب جنائزية. والمواكب كانت جارية عند الفاطميين وجارية أيضاً عند البويهيين باسم «مواكب الهيئة»؛ إذ كان هناك هيئات، أو تجمعات دينية بويهية تنظمها.

ويعود هذا التطور أيضاً إلى النظام السياسي الطائفي في لبنان، ابتداءً من عهد القائمقاميتين، الذي عزز الشخصية المعنوية للطوائف البالغ عددها حالياً ثماني عشرة طائفة معترفاً بها رسمياً، وأدى بالتالي إلى تعزيز الشخصية المعنوية للطائفة الشيعية التي أُعترف بها رسمياً بموجب القرار رقم ٣٥٠٣ المصدق من المفوض السامي الفرنسي بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٦ . ثم صارت ذكرى عاشوراء مناسبة رسمية من جملة عدة أعياد اسلامية ومسيحية اعتبرتها الدولة أعياداً رئيسة تُقفل فيها الادارات والمؤسسات والمدارس. وبهذا صارت الأيام العشرة لهذا الموسم الديني الشيعي المهم تُختتم في اليوم العاشر بعطلة رسمية تعبّر عن المشاركة الوطنية العامة بهذه المناسبة. فإذا كان المولد النبوي الشريف، ورأس السنة الهجرية، والفطر السعيد، والاضحى المبارك، أعياداً مشتركة بين المسلمين، وأعياداً رسمية، فإن ذكرى عاشوراء هي مناسبة شيعية بالرغم مما لها من أهداف اسلامية، ومن مضامين انسانية.

ان العوامل التي ورد ذكرها أدت إلى تطور المأتم الحسيني وازدهاره في معظم أماكن اقامته على جميع الأراضي اللبنانية. كما أدت إلى نشوء احتفالات حاشدة وصاخبة بدأت في النبطية، وكان من أسبابها كون هذه المدينة كبرى قصبات جبل عامل

---

(١) انظر علي الزين، العادات والتقاليد في العهود الاقطاعية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر ١٩٧٧.

ومركزاً ادارياً وتجارياً، ومقاماً لمعظم الايرانيين الوافدين إلى جبل عامل والحاملين معهم عادات جديدة، وتفردها لمدة طويلة بعمل الشبيه وشج الرؤوس بالجارحات، وهذا معروف بـ «ضرب القامات» أو «التطبير»، مما جذب اليها سكان الجوار وسواهم للمشاركة والتفرج.

وبهذا تطور المأتم الحسيني من مجلس تُتلى فيه أخبار المقتل والخطب، ويكثر فيه البذل عن روح الحسين، الى احتفالات مركزية حاشدة وصاخبة، حافلة بالمظاهر الكثيرة، كانت تأتيها في الماضي وفود القرى بالندب والبكاء، تتقدمها النوبات، والسيوف والأعلام المنكَّسة، وترافقها بعض النسوة لاطمات الخدود، قارعات الصدور، واضعات على الجبين عصباً سوداً.

يقام المأتم الحسيني في العشر من محرم، وفي الاحتفالات الدينية والفاتحات والمناسبات الخاصة التي وردت الاشارة إليها. لكن أهم الاحتفالات به تلك التي تُقام في الأيام التسعة الأولى من محرم وتبلغ ذروتها في العاشر منه، وتقام في ليلة الحادي عشر المسماة «ليلة الوحشة» التي يسودها الحزن؛ لانها ذكرى الليلة التي مرت حزينة على نساء الحسين بعد واقعة كربلاء. وهناك اليوم اتجاه الى زيادتها بتشجيع من رجال الدين بحيث صارت مجالس العزاء تقام في البيوت قبل ثلاثة أيام من عاشوراء، وبعدها بثلاثة أيام تسمى «الأخذ بالثأر». كما صارت تقام بعدد من الأيام أكثر كما حصل في بلدة كفرمّان، في محافظة النبطية، التي امتدت فيها مجالس العزاء في عاشوراء إلى أربعين يوماً.

يشارك في الاحتفالات بعاشوراء جميع الأهالي؛ لأنها مناسبة لتجمع سكان القرية، أو حي المدينة، الغائبين والمقيمين، الكبار المعتادين على ممارستها، والصغار الذين يتهافتون للتفرج ويكتسبون شيئاً فشيئاً الخبرة على ممارسة عاداتها وتقاليدها، ومنهم من يشترك في المسيرات. انها موسم سنوي منتظر يستأثر باهتمام الجميع، ويطغى على معظم الامور الحاضرة والشؤون المعيشية.

تُقام مجالس العزاء أو التعزية، التي يطلق عليها البعض اسم «تعزّه»، بعد عصر كل يوم من الايام التسعة الأولى من محرم، أو في مسائه. وقد تُقام قبل الظهر في المنازل حيث يحييها غالباً، وخلال مدة لا تتجاوز نصف ساعة، قراء المجالس المسائية في الحسينيات، الذي هم من لبنان وخارجه. وتُقام في صباح اليوم العاشر؛ لأن واقعة كربلاء جرت في مثل هذا الوقت. وتستقطب هذه المجالس أكبر عدد من الناس الذين ينقطع بعضهم عن عمله لحضورها. كما تستقطب المجالس التي يخطب فيها شيخ علاّمة، أو إمام بارز، جمهوراً كبيراً من المثقفين والفعاليات والمسؤولين الكبار.

يتضمن المجلس تلاوة آيات من القرآن الكريم، وخطبة لأحد المشايخ او الأئمة، وقصائد في مدح مناقب الحسين وآل البيت ومراثي. وفيما يتلى في مجلس كل يوم من الأيام التسعة جزء من السيرة الحسينية يتضمن مقتل أحد صحب الحسين، يتلى في مجلس اليوم العاشر كامل السيرة الحسينية. ويخصص لعلي الأكبر، ابن الحسين، مجلس بكامله يتناول فيه الخطيب كيفية استشهاده.

ليس هناك مراسم وشعائر وعادات واحدة لإحياء العزاء الحسيني في جميع المدن والبلدات والقرى اللبنانية المأهولة بالشيعة. فمن القرى والبلدات والاحياء المدينية ما يحيي الذكرى بمجالس عزاء تقليدية دون طواف وضرب وتطبير وعمل الشبيه، وينهيها بتقديم طعام وضيافة عن روح الحسين هما القمحية أو الهريسة او الشورباء، ونوع مألوف من الحلويات أبرزه الراحة والبسكويت وكعك العباس. ومنها ما يحيي الأيام التسعة في قريته ويشارك في احياء العاشر في الاحتفال المركزي في محلته، الذي يشهد معظم العادات والتقاليد الرئيسة التي سنتحدث عنها لاحقاً. ومنها ما يحيي الذكرى بطواف تتحول مواكبه إلى حلقات لطم وضرب وتطبير، ويتناوب فيه شباب على قول هتافات كانت دينية وصار بعضها سياسياً، وأناشيد، وندبات خاصة بالمناسبة هي مزيج من العامية والفصحى، مأخوذة من الأناشيد التي تقال في الحسين وآل البيت، اسمها «ندبات» او «ندبيّات» لها ردات بمثابة اللازمة، مثل:

يا أهل بيتي ودعوني — يوم عاشر يقتلوني

❖❖❖

كربلا لا زلت كرباً وبلا — ما لقي عندك أهل المصطفى

وبينما يشج الرجال رؤوسهم فتسيل منها الدماء عند مقتل شبيه الحسين في التمثيلية التي تجري في بعض الاحتفالات المركزية كاحتفال النبطية، يصب الرجال والنساء على رؤوسهم مواد ذات لون أحمر كالدم، عند الانتهاء من تلاوة المقتل في اليوم العاشر، كأهل يحمر في البقاع الغربي.

تشارك الاحزاب حالياً في احياء احتفالات عاشوراء تنظيماً وحضوراً بشكل يظهر مدى تنظيمها وقوتها، فترفع اللافتات والشعارات الكربلائية، والاعلام، في أمكنة نفوذها. وتنظم الاحتفالات ومجالس العزاء وتتخذ منهما مناسبة للتعبير عن مواقفها ونظراتها إلى الأوضاع والمشكلات الراهنة. وتنظم المواكب التي تطوف وسط مظاهر الحداد واللطم والانشاد على طريقتها الخاصة. وهي تأتي الى الاحتفال المركزي المقام،

أو الاحتفال المركزي الذي تقيمه بمحازبيها وتنظيماتها وأنصارها مواكب تتقدمها الأعلام. وعلى سبيل المثال اعتادت حركة أمل أن تقيم احتفالها المركزي بذكرى عاشوراء في اليوم التاسع، وهذا ما جرى في ٢٥ نيسان ١٩٩٩حيث جرى الاحتفال في مركز قيادة اقليم البقاع. وأقام حزب الله احتفاله المركزي في النبطية في اليوم العاشر، في ٢٦ نيسان ١٩٩٩ .

العادات والتقاليد

تتمحور عادات وتقاليد المأتم الحسيني حول ممارستين رئيستين هما : زيارة الحسين، والتجمع والبكاء. بعضها له جذور شرعية، وبعضها الآخر لا أساس له في الروايات والأحاديث والفقه، وجزء منه معتبر في نظر رجال الدين بدعاً يجب أبطالها بالرغم من الدوافع النبيلة لها. ليس لإحياء المأتم الحسيني عادات وتقاليد واحدة في جميع الدول. فإذا كان هناك أوجه تشابه في بعضها، هناك أوجه اختلاف في بعضها الآخر بين دولة ودولة. وتختلف ضمن الدولة الواحدة بين منطقة ومنطقة، وبين قرية وأخرى في المنطقة الواحدة.

كثيرة هي العادات والتقاليد التي يتم بها استعادة وتذكر ما جرى للحسين، والتي تعبر عن الحزن عليه، والغضب لمقتله، والندم على خذلانه، والحداد عليه، والبذل عن روحه، والتبرك بنذره وزيارته وبالتربة التي دفن فيها. وسنتكلم عن بعض هذه العادات بإيجاز على أن نتكلم في نقاط لاحقة عن زيارة الحسين، والحزن والبكاء، والحسينية، وعمل الشبيه، واللطم، والضرب والتطبير، واحتفالات النبطية كنموذج عن الاحتفال بذكرى عاشوراء.

ان عاشوراء مناسبة تجمع وبكاء وابكاء، وتعبير البعض عن ندم، وتأمل وتذكر. وهي أيضاً مناسبة للبذل عن روح الحسين، وهذا الامر جارٍ منذ أيام ائمة البيت الذين كانوا يجودون على الفقراء في هذه المناسبة، وهو أيضاً منسجم مع المألوف في المآتم من الاحسان عن أرواح الموتى، فكيف إذا كان المبذول عن روحه سيد الشهداء. ويؤمن الناس بأن في البذل عن روح الحسين تبركاً، وأجراً من الله، ودفعاً للبلاء، وشفاء من الأمراض، وتفريجاً للأزمات، وتحقيقاً للأماني، وبلوغاً للأهداف. ومن العادات في هذا المجال الاحسان إلى الفقراء وتقديم الطعام لهم، وبناء السبل والحسينيات، والتبرع إلى المؤسسات الدينية والخيرية والاجتماعية وفي طليعتها النادي الحسيني الذي يتطلب توسيعاً وتأثيثاً وتأميناً لحاجاته ولوازمه، يضاف إلى ذلك تمويل المآتم الحسينية العامة

لتغطية نفقات ضيافة الرواد، وبدلات استئجار المقاعد، والمبالغ المالية التي تقدم للخطباء.

من عادات البعض صوم عاشوراء. وهم ليسوا ملزمين بذلك، بل يندفعون اليه استحباباً تذكراً لجوع وعطش الحسين وصحبه، ومن قبيل التقشف وتعذيب النفس والجسد لما أصاب الحسين، ومن قبيل كسب الأجر. ويذكر جمال الدين بن عبدالله في كتابه «صيام عاشوراء» روايات كثيرة عن ائمة الشيعة تأمر بترك الصوم في عاشوراء؛ لأنه يوم حزن ومصاب وتشاؤم لا يصلح للصيام. كما يذكر رواية عبدالله بن سنان عن الصادق عليه السلام في حديث عاشوراء، قال: «صمه من غير تبييت، وافطره من غير تشميت، ولا تجعله يوماً كاملاً، وليكن افطارك بعد العصر ولو بشربة ماء»[1]. وهذا يفيد عن اجازة صومه على هذه الطريقة.

ومن العادات تقشف الاكثرية في المأكل والمشرب والاقتصار عند البعض على الخبز اليابس والمائل إلى السواد، وعلى المآكل المحمَّضة والمالحة، وطبخ العدس الاحمر أو المائل إلى السمرة، وأكل الخبز اليابس والمغيّر لونه. وبعض هذه المأكولات كان معتمداً عند الفاطميين. وبهذا وبسواه يشبه عشر المحرم اسبوع الآلام عند النصارى.

ومن العادات تسويد الوجوه، ولبس قباب تُعمل بالمسوح، وتلطيخ الجبين بالوحل، ولبس السواد، وعدم حلق الرجال لذقونهم. وجميعها كانت جارية في عهد البويهيين. وقد استمرت مظاهر الحداد هذه إلى يومنا هذا، وهي تظهر في اتخاذ عاشوراء مناسبة حداد، ولبس النساء للثياب السود، ووضع الرجال والنساء العصب السود على الجبين، ورفع اللافتات والاعلام السود. وكان من مظاهر الحداد في الأمس القريب تنكيس السيوف والأعلام.

ومن العادات الامتناع عن اقامة الأعراس والحفلات ووسائل التسلية وسماع الأغاني من المذياع والتلفاز. وإحجام النساء عن التطيب والتزين بالحلي والثياب، وعن تنظيف البيوت. ونذر الناس بالسير حفاة وبشج الرؤوس، ونذر الأهل لابنائهم بحضور مسيرات عاشوراء والمشاركة فيها وشج رؤوسهم، أملاً بالشفاء وإبعاد الخطر. وهناك روايات عديدة تتحدث عن شفاء المرضى المنذورين.

ومن العادات اعداد الهريسة، واعداد البعض لها بكميات كبيرة لتوزيعها على الفقراء، وعلى الاغنياء الذين يتقبلون ذلك من أجل التبرك. ومنها أيضاً اعداد حلويات

---

(١) جمال الدين بن عبدالله، صيام عاشوراء، دار الرسول الاكرم (ص) دار المحجة البيضاء، بيروت، لبنان ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م ص ١١٥.

معينة مثل الرز بحليب، و«كف العباس» أو «كعك العباس» تذكاراً للعباس الذي قطعت يداه في اثناء مهمة حمل الماء من نهر الفرات لإرواء ظمأ الأطفال والنساء العطاش. هذا اضافة إلى المألوف من الحلويات مثل الراحة والبسكويت، والمألوف من المرطبات. ومن العادات عند البعض تقديم الشاي لحاضري مجالس العزاء؛ لأنه يرمز في عرف مقدميه إلى دم الحسين.

والماء والعطش موضوعان رئيسان في مأساة كربلاء. فلقد مُنع ماء الفرات عن الحسين وصحبه فعُذبوا بالعطش. لذا هناك عادات كثيرة تذكّر بهما منها اضطلاع البعض من الرجال والفتيان بمهمة العباس، أي قيامهم بمهمة سقي الناس في عاشوراء تذكراً للعباس الذي ذهب إلى الفرات لينقل الماء إلى العطاش، لكنه قضى على يد جيش الشمر بعد ان قطعت يداه.

والناس يتذكرون الحسين عند رؤية الماء، أو عند شربه، كما يتذكرونه عند تناول الطعام؛ لأنه قضى عطشاناً وجائعاً. وهم يبذلون المال عن روحه لإنشاء السبل من أجل سقاية الناس، ويكتبون عليها «اشرب الماء واذكر عطش الحسين». فقد قال الامام الصادق (ع): «ما شربت ماء بارداً الا وتذكرت عطش الحسين». كما أن زائري الحسين يتبركون بماء الفرات شرباً واغتسالاً، ويسقون الأولاد تبركاً وأماناً. ومن العادات الشرب بطاسات من نحاس بدلاً من الاباريق والكؤوس تذكراً لعطش الحسين. ويتذكر الناس الحسين بصب الماء في الطشت؛ لان رأسه قدم إلى يزيد في طشت من ذهب.

وبما ان تربة الحسين مقدسة، يُحنك الأطفال بها بداعي الأمان والتبرك، وتُصنع السبحات منها للتسبيح. فلقد جاء عن الامام الصادق (ع) قوله: «من كانت معه سبحة من طين قبر الحسين عليه السلام كُتب مسبحاً وان لم يسبح بها»[1].

زيارة الحسين

يروى عن الرسول ﷺ انه كان يزور قبور أهل المدينة في البقيع، وشهداء أحد، وانه زار قبر أمه. وقد أجاز زيارة القبور من أجل الزهد في الدنيا وتذكر الآخرة. لذا فإن زيارة قبور المسلمين، وعلى الأخص الصالحين، جائزة بالسنّة. وقد تميز الشيعة الامامية عن سائر المسلمين بحرصهم الشديد على زيارة القبور، فاستحبوا زيارة قبر النبي ﷺ، وقبور ائمة البيت (ع)، وقبور المجاهدين في سبيل الله، وقبور الصالحين والصالحات والذين

---

(١) جواد محدثي، موسوعة عاشوراء، ترجمة خليل زامل العصامي، دار الرسول الاكرم (ص) دار المحجة البيضاء، بيروت، لبنان ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م ص ٤٢١ .

يتمتعون بمنزلة خاصة، لتكريمهم والتبرك بهم وطلب الشفاعة منهم عند الله. وفي طليعة السيدات المزارة قبورهن خديجة وفاطمة الزهراء وزينب بنت الامام علي (ع).

يسمى قبر الحسين في كربلاء «روضة الحسين» على اعتبار أنه روضة من رياض الجنة. وزيارته هي عند الشيعة الامامية أكبر المواسم الدينية، وأهم من سائر زيارات آل البيت، وأولى ممارستي المأتم الحسيني؛ لأن الممارسة الثانية، أي التجمع والبكاء في أي مكان، وضعت لمن لا يستطيعون زيارة الحسين. فالمأتم الحسيني إما أن يكون عند قبره لمن يستطيعون زيارته، وإما ان يكون في البيوت والمساجد وسواها لمن لا يستطيعون الزيارة. وزيارة الحسين تتم عند الكثيرين سنوياً، ويزار مع قبره، وقبر أخيه العباس، وقبر ابنه الأكبر علي، قبور سائر شهداء كربلاء اكراماً لهم؛ لأنهم ضحوا بأنفسهم دفاعاً عنه، وتقدموا لقتال اعدائه قبل أهله.

من أهداف الزيارة التبرك، وكسب الأجر، وتعزيز الصلة بين الزائر ورموز تاريخه وما يمثلون من قيم ومبادىء سامية، والعبادة الروحية، وإظهار التعلق بأهل البيت، والارتباط الوثيق بالحسين، وتمجيده وتكريمه، وادانة من قاتلوه وقتلوه ومن أرسلوهم لقتاله، وادانة كل قوة غاشمة مثلهم.

أول من زار قبر الحسين بعض أهل بيته وأنصاره، وقد حصل ذلك بعد أربعين يوماً من مقتله. ثم ان ائمة الشيعة دعوا إلى زيارته. وأول من مارس ذلك منهم الامام علي بن الحسين (زين العابدين) إذ كان يأتي من المدينة إلى كربلاء لزيارة قبر والده. وكثرت عن الائمة الروايات التي تحث على الزيارة[1]، وتعظم الاجر منها. ومما جاء في احداها القول: «ما أتاه عبد فخطا خطوة الا كتب الله له حسنة وحط عنه سيئة». ومنها أيضاً «من زار الحسين عليه السلام عارفاً بحقه غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[2].

كان الزائرون يهتدون إلى قبور الحسين وصحبه بادلاء من بني أسد العلويين، الذين كانوا ينزلون في كربلاء، والذين ساعدوا زين العابدين على دفن القتلى. ثم أقيمت الابنية على القبور في العهد الأموي فصارت دليلاً للزائرين، يهتدون بها، ويهتدون إلى قبر الحسين بسدرة يستظلونها. لكن الخليفة العباسي هرون الرشيد أمر بهدم الأبنية وقطع السدرة حتى لا يقف الناس عند قبر الحسين. وقد أعيد البناء على القبر في عهد المأمون وبنيت حوله المنازل والدور[3].

---

(١) انظر الشيخ جعفر بن محمد بن قولويه القمي، كامل الزيارات، دار السرور، بيروت، لبنان ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

(٢) المرجع نفسه، الباب ٤٩: ٣٨٤، والباب ٥٤: ٣٩٦ .

(٣) معلومات هذه الفقرة مقتبسة عن الشيخ محمد حسين المظفر، تاريخ الشيعة، مرجع مذكور سابقاً، ص ٩٥ ـ ٩٦ .

ازداد تدفق الزائرين إلى كربلاء سنة بعد سنة، وتعاظم تيار زيارة الحسين. وأقيمت على قبره المآتم الكبيرة، فكان ذلك تعبيراً عن ازدهار التشيع وتجميع صفوف الشيعة حول قضية أحقية أهل البيت بالخلافة، مما دفع الخليفة العباسي المتوكل، المعادي للشيعة، إلى هدم القبر وازالة معالمه، وإنزال أقسى العقوبات بزائريه. ففي الحديث عن سنة ٢٣٦ هـ يذكر الطبري ما يلي:

«وفيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي، وهدم ما حوله من المنازل والدور، وان يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره، وان يمنع الناس من اتيانه، فذكر ان عامل الشرطة نادى في الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى المطبق، فهرب الناس وامتنعوا من المصير اليه، وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه»(١).

أعيد بناء القبر وبناء الدور حوله في عهد الخليفة المنتصر الذي كان، بعكس والده المتوكل، مع العلويين. وقد أشاد القبر والدور صاحبُ طبرستان الداعي محمد زيد العلوي، فعاود الناس زيارة الحسين، وقد أصلح عضد الدولة في سنة ٣٩٦ هـ ما أصاب الابنية من أضرار جراء الحوادث. واحترقت قبة قبر الحسين في سنة ٤٠٧ هـ بسبب سقوط شمعتين كبيرتين مشتعلتين(٢). وبعد ذلك بقرون تعرضت خزائن قبر الحسين للنهب على يد الوهابيين في سنة ١٢١٦ هـ عند افتتاحهم لكربلاء التي قاومتهم.

ومما يجدر ذكره هو تنافس الملوك والسلاطين وبخاصة من آل بويه على توسيع وتزيين كربلاء، وتحول كربلاء إلى عاصمة لتدريس مذهب أهل البيت حتى أوائل القرن الثالث عشر للهجرة حين انتقل التدريس إلى النجف الاشرف مرقد الامام علي (ع).

لزيارة الحسين أوقات مفضلة بالرغم من أنها أمر مندوب إليه ومستحب في جميع أيام وليالي السنة. ومن أوقاتها المفضلة، بالاضافة إلى زيارة العاشر من محرم المعروفة بـ «زيارة عاشوراء»، العشرون من شهر صفر، وهو زيارة الاربعين التي تتم بعد أربعين يوماً على تاريخ مقتل الحسين، والتي يجتمع فيها أكبر حشد من الزائرين. ومن أوقاتها المفضلة أيضاً يوم عرفة في التاسع من شهر ذي الحجة، ويوم الأضحى في العاشر من شهر ذي الحجة، ويوم الفطر في الأول من شهر شوال، وأيام الأول والخامس عشر من شهر رجب والخامس عشر من شهر شعبان. أما الليالي، فهي ليالي القدر في التاسع عشر والحادي والعشرين والثالث والعشرين من شهر رمضان المبارك.

للزيارة آداب وعادات منها الاغتسال بماء الفرات، وطواف الزائرين من الرجال

---

(١) تاريخ الطبري، مصدر مذكور سابقاً، جـ ٧ ص ٣٦٥ .

(٢) انظر الكامل في التاريخ، مصدر مذكور سابقاً، جـ ٨ ص ٧٠٥ وجـ ٩ ص ٢٩٥ .

والنساء والأطفال حول القبر، ولثمه، والصلاة في رحابه، وتلاوة نص معين اسمه «الزيارة» وهو عبارة عن شكر الله على اتاحته للزائر فرصة زيارة الحسين، وحمد الله، وسلام على الحسين، ومديح له، وتعداد لفضائله، واستنكار لقتله، وادانة لقتلته، ويضاف إلى ذلك دعاء قصير.

وضعت نصوص كثيرة لزيارة الحسين. ووضع الائمة نصوصاً لزيارته عن بعد؛ إذ من يزورونه عن قرب آقل بكثير مما يزورونه عن بعد ولا يتمكنون من المصير إليه بسبب المرض، أو البعد، أو الفقر، أو عدم القدرة على ترك العيال والأعمال، أو بسبب الظروف الأمنية، أو في حالات منع زيارة الحسين كما حصل في فترات التشدد ضد الشيعة.

من العادات وضع الزائرين مبلغاً من المال في قفص ضريح الحسين، أو تسليمه لأشخاص مكلفين بذلك. ويبلغ ما يقدم للضريح ملايين الدينارات سنوياً. ومنها النذر اليه بالتوفيق، والشفاء من الأمراض والعاهات والآلام. وفي المرويات الكثير من حالات شفاء المنذورين. ومنها أيضاً عودة الزائر بشيء من تراب قبر الحسين للتبرك به. ومع توافر وسائل النقل اليوم فإن الكثيرين ما زالوا يزورون الحسين، او يقطعون مسافة طويلة للوصول إلى قبره، سيراً على الاقدام كسباً للمزيد من الاجر.

الحزن والبكاء

حزن الموت أهم الأحزان. وكثيراً ما لا يبقيه المحزونون حرقةً في القلب، وألماً في النفس، ولوعة بين الضلوع، بل يعبّرون عنه بأساليب عديدة هي التجهم، والتأثر، والندب، والنياح، واللطم، ونشر الشعور وقطع خصلات منها، والحداد، وتشحير الوجوه، وشق الثياب، ولبس الثياب السود، ورفع اللافتات والاعلام السود. وجميعها مظاهر سوداء خارجية تعبر عن سواد الذات الداخلية. ومن أهم أساليب التعبير عن الحزن البكاء.

الحزن والبكاء في الموت جائزان في الشرع الاسلامي؛ لأنهما من طبيعة النفس البشرية، على أن يتما بدون النياح والصراخ والضجة التي حرمها الاسلام. وما هو ممنوع في الشريعة الاسلامية من جزع في الموت وعويل على الأموات من الأهل والأقارب والاصدقاء والعارفين وذوي الشأن في المجتمع، ممنوع عند الشيعة، لكنه مشّرع عندهم بالنسبة إلى الحسين فقط، ومأجور من الله. وفي هذا الصدد يروى عن الامام الصادق انه قال: «ان البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن علي عليه السلام، فإنه فيه مأجور»[1].

---

(١) كامل الزيارات، وردت الاشارة اليه، الباب ٣٢: ٢٨٦ .

ان تخصيص الحسين بالبكاء عائد في نظر الشيعة الى فداحة مصابه، وهول ما حصل له ولصحبه في كربلاء، وأهمية القضية والأهداف السامية التي ثار من أجلها واستشهد، ولأنه ضحية الخذلان والغدر والخيانة. ومشروعية الحزن والبكاء والتفجع على الحسين تعود إلى أئمة أهل البيت الذين وردت عنهم نصوص عديدة تدعو إلى هذه الأمور. وعلى نهجهم سارت المراجع الدينية الشيعية فدعت إليها.

جذور ممارسة البكاء تعود إلى الامام علي بن الحسين (زين العابدين) «الذي قضى سني حياته كلها بالبكاء على أبيه، فإنه ما قدّم له طعام أو شراب الا ومزجه بدموع عينيه، وعلى هذا المنوال نسج الائمة من أولاده»[1]. لقد شهد علي بن الحسين مأساة كربلاء. وارتسمت صورها البشعة والمحزنة في ذاكرته طوال حياته، بالإضافة إلى كونه ابن الحسين البار المتبني لقضيته والمتابع لرسالته.

للأئمة أقوال كثيرة تأمر بالبكاء منها القول التالي للإمام علي بن الحسين (ع): «ايما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي عليه السلام دمعة حتى تسيل على خده بوأه الله بها في الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً، وايما مؤمن دمعت عيناه حتى تسيل على خده فينا لأذى مسناً من عدونا في الدنيا بوأه الله بها في الجنة مبوأ صدق، وايما مؤمن مسه أذى فينا فدمعت عيناه حتى تسيل على خده من مضاضة ما أوذي فينا صرف الله عن وجهه الأذى وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار»[2].

ومن أقوال الامام محمد الباقر (ع): «ثم لينذب الحسين ويبكيه، ويأمر من في داره بالبكاء عليه، ويقيم في داره مصيبة بإظهار الجزع عليه، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضاً في البيوت، وليعزِ بعضهم بعضاً بمصاب الحسين عليه السلام».

ومن أقوال الامام الرضا (ع): «من تذكر مصابنا أهل البيت وبكى أو أبكى أو تباكى لما أصابنا من البلاء والمحن يوم كربلاء، كان معنا في درجات يوم القيامة، ومن تذكر مصابنا وبكى، لم تبك عيناه يوم تبكي فيه العيون»[3].

ويقول الشيخ الطريحي: «كل عين باكية يوم القيامة الا عين بكت على مصاب الحسين فإنها ضاحكة مستبشرة بنعيم الجنة. فيا اخواني أكثروا البكاء والعويل على هذا العزيز الجليل لتفوزوا بالثواب الجزيل من الرب الجليل فإن الله جعل متابعتنا لهم

---

(١) محمد حسين المظفر، تاريخ الشيعة، مرجع مذكور سابقاً، ص ٣٩ .

(٢) كامل الزيارات، وردت الاشارة اليه، الباب ٣٢: ٢٨٥ .

(٣) السيد عبد الحسين ابراهيم العاملي، سفينة النجاة، دار المحجة البيضاء، دار الرسول الاكرم (ص) بيروت، لبنان ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م ص ١٥١ .

فيما أمكن من الفعال، وبكاؤنا عليهم بالدمع السجال، وبعث عيوب اعدائهم أهل الضلال قائماً مقام الجهاد معهم في يوم القتال»[1].

ان هذه الأقوال تحث على ندب الحسين وبكائه، عند قبره أو في أي مكان يقام فيه عزاؤه، وتعتبر البكاء عليه مأجوراً من الله، وسبيلاً إلى دخول الجنة، كما ان الشيخ الطريحي يعتبره قائماً مقام الجهاد مع الحسين.

إن مرور مقتل الحسين في الذاكرة مثير للحزن والأسى الشديدين؛ لأنه فاجعة كبيرة ومأساة عظيمة. والحزن الذي أحدثه لم تخمد جذوته عند الشيعة حتى اليوم بسبب ذلك، وبسبب التذكير به، أي بالمقتل، بأساليب مؤثرة في المناسبات العديدة التي أوجدت من أجل التجمع للبكاء والنياح على الحسين وندبه. ومما يزيد في اهاجة الحزن واثارته سرد أخبار المقتل وانشاد المراثي الرقيقة والأناشيد المحزنة (الندبات). وكان يقوم بذلك القصاصون والشعراء والنوّاحون في العصور القديمة، ثم صار يقوم به خطباء متخصصون.

يركّز القاص والشاعر والنائح والخطيب على الجانب المأسوي من السيرة الحسينية، أي على الفصل الأخير الذي جرى في كربلاء، والذي هو عنصر أساسي من عناصر المأتم الحسيني؛ لأنه يمثل كبر ايمان الحسين، وسمو أهداف ثورته، وعظمة استشهاده وصحبه، وصغر اعدائه، ولأنه يؤثر أكثر من سواه في السامعين فيثير حزنهم ويفجّر بكاءهم. وموضوعاته تشتمل على قدوم الحسين إلى الكوفة تلبية لطلبات أهلها، وخذلان أهل الكوفة له وخيانتهم وغدرهم، ومحاصرة موكبه ومنع الماء عنه، وعطش الجميع، وموت البعض في خلال محاولات نقل الماء، وقتل الأطفال والفتيان، واصرار الحسين على موقفه المبدئي المعارض ليزيد بن معاوية لا طمعاً بالخلافة، وإنما تصويب للخطأ واحقاقٌ للحق، واباؤه وصحبه للضيم ازاء اصرار العامل الأموي عبيدالله بن زياد على اذلالهم، ورفض صحب الحسين النجاة بأنفسهم نزولاً عند طلبه واصرارهم على متابعة القتال معه واستشهادهم واحداً بعد آخر، وأخيراً استشهاد الحسين الذي يمثل ذروة المأساة.

وبقدر ما يمتلك متلي السيرة الحسينية من براعة في الاداء، وفي تغيير نبرات الصوت وجعلها متسقة مع الكلمات والمعاني، وبقدر ما يبدو متأثراً مع تلاوته للسيرة، ومع انشاده لأبيات الشعر بأسلوب النوح، بقدر ما يؤثر في السامعين ويحدث فيهم توتراً نفسياً وعاطفياً يقودهم إلى البكاء.

---

(١) الامام الشيخ فخر الدين الطريحي، المنتخب، مؤسسة الاعلمي، بيروت، لبنان ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م ص ٢٩ .

وإذا كان للمآتم الحسينية التي تُقام في ساحات المزارات والجوامع والحسينيات هذا التأثير في إحزان حاضريها وإبكائهم، فكيف بالمآتم الحسينية التي تقام عند قبر الحسين، وفي اثناء زياراته. لقد بكى الشريف الرضي عند قبر الحسين وأبكى، وظل يبكي حتى أغمي عليه. وقال في كربلاء قصيدته الشهيرة: «كربلا لا زالت كرباً وبلا».

ثم ان لعمل الشبيه بمختلف وجوهه، وبخاصة تمثيل واقعة كربلاء، تأثيراً اضافياً في إحزان الناس وإبكائهم. فبعد تمثيل المعركة التي يُقتل فيها صحب الحسين، وتمثيل كل معركة لاحقة يُقتل فيها أحد صحبه، ثم تمثيل مقتله، يتفجر الغضب والحزن شجاً للرؤوس ولطماً عليها، وتنسكب الدموع من المآقي، وترتفع أصوات الرجال منادية: حيدر، حيدر. وترتفع أصوات النساء الباكيات منادية: ياحسين. ياحسين.

البكاء إذاً تلازم مع الحزن في المأتم الحسيني منذ نشوئه حتى اليوم. الا ان ظاهرته غدت موضوعاً مطروحاً للنقاش. وممن ناقشه الامام الشيخ محمد مهدي شمس الدين الذي يقول: «ظاهرة البكاء مثار نقد كثير... ولعل الموضوعية تقضي علينا بان نسمي هذه الظاهرة «ظاهرة الحزن في المأتم الحسيني والذكرى الحسينية». فالحزن أعم من البكاء، ومن يحزن ربما يبكي وربما لا يبكي... وقد لاحظ أحد كتاب المقتل المتأخرين، وهو السيد ابن طاووس (توفي سنة: ٦٦٤ هـ) ان هذه الذكرى كانت خليقة بان تبعث على الفرح والسرور لولا الأمر الشرعي بالحزن والبكاء»[١].

الحسينية

من وجوه تطور المأتم الحسيني في جميع مناطق الشيعة بناء الحسينية أو النادي الحسيني أو المأتم. وهي تكية منسوبة إلى الامام الحسين (ع)؛ لأنها بنيت أصلاً لإقامة عزائه بدلاً من إقامته في ساحات المساجد والمزارات وفي الساحات العامة والبيوت. وهي قاعدة معنوية تلي المسجد في الأهمية، الا أنه لا تنطبق عليها الأحكام الخاصة بالمساجد من حيث القيود الخاصة بالدخول.

الحسينية مؤسسة قديمة تعود إلى العهد الفاطمي؛ إذ كان في القاهرة حسينية كبيرة من أضخم عماراتها مخصصة لإقامة عزاء الحسين. وقد انتقلت إلى الهنود والايرانيين الذين بنوها في بلادهم وفي العراق. «وعرفت في مناطق الهند باسماء مختلفة مثل غراخانه، وامام باره، وتعزيه خانه، وعاشوراء خانه، وجبوتره، وجوك امام صاحب. وعرفت في مناطق آسيه الوسطى باسم مسجد الشيعة. وعرفت في بعض

---

(١) الامام محمد مهدي شمس الدين، واقعة كربلاء، مرجع مذكور سابقاً، ص ٣١٧ .

المناطق باسماء مؤسسيها مثل حسينية الاصفهانيين، وحسينية الطهرانيين»[1].

جرى التوسع في انشاء الحسينيات في بعض الاماكن، كبديل عن المراكز الدينية المرتبطة بالخلافة، أو الحكومات غير الشرعية، فأوجدت نهضة حسينية بعيداً عن السلطة، وبدت وكأنها مراكز مناوئة لها. الا انه بنيت في ايران، حيث السلطان للشيعة، تكيات خاصة بالدولة.

وبما ان الحسينية أُوجدت لإقامة عزاء الحسين، جُعل في وسطها موضع مرتفع يرتقيه قراء العزاء، وجُعل لبعضها مدخلان تمر منهما القوافل والتشابيه ومجاميع العزاء. وقد انشأ ناصر الدين شاه حسينية من عدة طوابق على شكل المسرح، في وسطها منصة واسعة تعلوها أضلاع حديدية توضع عليها الخيم في أوقات اقامة العزاء.

لم تُعتمد الحسينيات لإقامة عزاء الحسين فقط، بل اعتمدت أيضاً لإيواء الغريب ونزول الفقراء. فهي بمثابة فنادق مجانية كالحسينيات التي بنيت في مدن النجف وكربلاء ومشهد. وقد بُني إلى جانب معظم الحسينيات سبل ماء للشرب يسمى الواحد منها في ايران «سقّا خانه».

يذكر السيد محسن الأمين (١٢٨٤ هـ ١٨٦٧ م - ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م) ان الحسينية لم تكن معروفة قبل عصره، وان أول حسينية انشئت في جبل عامل هي حسينية النبطية التحتا. ثم انشئت عدة حسينيات في صور والنبطية الفوقا وكفرمّان وبنت جبيل وحاروف والخيام والطيبة وكفرصير وغيرها[2]. ويعود انشاء حسينية النبطية التحتا إلى سنة ١٩١٠، وإلى الشيخ عبد الحسين صادق الذي انشأها بعد عودته من العراق واستقراره في النبطية. ثم انتشرت الحسينيات في بلدات وقرى جبل عامل وفي سواه من المناطق حتى بات من النادر ان تكون هناك قرية، مهما صغرت، بدون حسينية.

والحسينية في المناطق اللبنانية، كسواها من الحسينيات في غيرها من المناطق، لها دار ذات حجر وصحن فيها منبر، وفيها تجهيزات كثيرة مثل المقاعد والسجاد والمصابيح والثريات، والأواني لاعداد الشاي والقهوة، والاعلام والأقمشة التي تغطى بها جدران الحسينية في ايام عزاء الحسين اعلانا للحداد. ويعين عليها ناظر وقوام. بناؤها وما فيه وقف يستفيد منه الجميع، وتوقف له الأوقاف. يختلف حجمها وتجهيزها باختلاف كبر القرية أو المدينة وصغرهما، وباختلاف امكانيات منشئيها.

---

(١) موسوعة عاشوراء، مرجع مذكور سابقاً، ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٢) السيد محسن الامين، خطط جبل عامل، وردت الاشارة اليه، ص ١٨١.

ان للحسينية دوراً آخر غير اقامة عزاء الحسين هو ايواء الغرباء ونزول الفقراء. لكن الغريب، في المناطق اللبنانية، يجد من ينزل عنده، والفقير يجد من يطعمه، لذا اقتصر دور الحسينية على اقامة عزاء الحسين، وصار يشمل أيضاً اقامة المناسبات الاجتماعية والثقافية. وهي تشبه في هذا المجال الخليّة عند السنّة، وبيت القرية أو العائلة عند الدروز، وبيت الرحمة عند النصارى.

عمل الشبيه

أوجد عمل الشبيه في عاشوراء ظاهرة مسرحية بمشاركة شعبية واسعة، فكان له تأثير في الفن هو من جملة تأثيرات المأتم الحسيني في شتى الصعد. وهو فن استعراضي يعرض على أنظار الناس واقعة كربلاء بالصورة، أو بالحركة والتمثيل. وقد عُرف باسمين آخرين هما «التشابيه» و«التعزية».

بدأ عمل الشبيه في ايران في العهد الصفوي، وتطور في عهد ناصر الدين شاه الذي أعجب بالمسارح المقامة في اوروبا اثناء سفره اليها فبنى حسينية ضخمة في بلاده لإقامة الشعائر الحسينية، فيها منصة كبيرة لعمل الشبيه على مرأى من الجمهور. ومن ايران انتقل عمل الشبيه إلى سائر المناطق الاسلامية، وانتشر على نطاق واسع، وبأساليب كثيرة، في الهند والباكستان. وبما انه يتناول معالم الاكابر والمعصومين كالامام الحسين (ع)، فقد اختلفت الاراء حوله من الوجهة الاعتقادية والفقهية، فحرمه بعض علماء الشيعة، واجازه بعضهم الآخر على ان يجري بشكل صحيح يصون حرمة المعصومين.

كان عمل الشبيه عند نشأته صناعة للاشباه عرفت باسم «المراثي المصوّرة». ثم تطور الى عرض يقوم به أشخاص يمثلون أدواراً معينة، ومراحل محددة من السيرة الحسينية. والمراثي المصورة هي رسوم شخصيات واقعة كربلاء على ستائر. لذا سميت «تصاوير الستائر». وهي تُرسم عليها وفق تسلسل الحوادث: مجيء الحسين وصحبه، قدوم اعدائه، صحب الحسين قتلى في الطفّ واحداً بعد آخر، العباس مقطوع اليدين، الاطفال القتلى وبخاصة علي الاصغر بين يدي الحسين، الخيام المحروقة. ثم يقرأ القارىء الاشعار والمراثي وفقاً للرسوم على مرأى ومسمع من الناس.

بعد المراثي المصورة صارت واقعة كربلاء تُعرض على منصة او على مسرح في الهواء الطلق، حيث تمثل مجموعة من الاشخاص أدوار الحسين وصحبه وأدوار أعدائه على أن يكون هناك تمييز في اللباس بين الفريقين، وتطابق مع من يمثلون؛ إذ من يمثل

دور الحسين يجب أن يكون رجلاً وقوراً، ومن يمثل دور علي الاكبر يجب ان يكون شاباً، ومن يمثل دور القاسم يجب أن يكون فتى.

كان يتم التمهيد للتمثيلية بدخول اشخاص بخطى بطيئة ورتيبة متناغمة مع ضرب الطبل، وبمرورهم أمام أنظار المتفرجين. وبعد ان يدوروا عدة دورات تبدأ التمثيلية. وبهذا يكونون قد مهّدوا لها، كما انهم قد يمهّدون لها بشكل سؤال وجواب. ويسمى التمهيد أيضاً باسم «النوحة» أو «النياح»، فيقال: «النوحة التمهيدية» أو «النوحة الاولى».

من الموضوعات المهمة في عمل الشبيه الاسد والحصان وجنازة القاسم. الاسد هو «أسد كربلاء» الذي روى رجل من قبيلة بني أسد الذين دفنوا الحسين وصحبه انه كان يراه كل ليلة يأتي من القبلة ويمرّغ وجهه بجسد الحسين بحالة تشبه البكاء والنحيب. ومما يروى ان الانس والجن والطير ذرفت دموعها على الحسين، وان جميع ما خلق الله بكى عليه[1]. لذا يرتدي أحد الاشخاص جلد اسد في اثناء تمثيل واقعة كربلاء.

والحصان هو جواد الحسين الذي يرمز لونه الابيض الى الطهارة. وهو، أي الحصان، يرمز إلى مقتل الحسين؛ إذ انه حين عاد ملوي السرج، ملطخ الناصية بالدم، إلى حيث توجد النساء، ادركن ان الحسين قد قتل فعلا صراخهن. وتروى عن الحصان روايات كثيرة منها انه هام على وجهه بعد استشهاد الحسين وألقى بنفسه في ماء الفرات واختفى. ومنها «انه دار حول الحسين ولطخ ناصيته بدمه وأخذ يرمح برجليه حتى قتل اربعين رجلاً من رجال عمر بن سعد، وعشرة أفراس، وصهل صهيلاً عالياً ونطق بالكلام قائلاً: الظليمة، الظليمة، من امة قتلت ابن بنت نبيها»[2].

يمشي المحتفلون بعاشوراء بجنازة القاسم في موكب مهيب يسوده الحزن، يتقدمه حصانان يرمزان الى الحسين والقاسم، وتابوت خشبي مغطى بقماش اسود تحمله مجموعة من الشباب. ومما يجدر ذكره ان الكثيرين يسمون هذا الموكب الجنائزي «عرس القاسم» بناءً على اعتقاد خاطىء هو ان الحسين زوّج القاسم ابنته في كربلاء. وهذا لا يعقل حصوله على الاطلاق في وقت عصيب لا تسمح حوادثه القاسية المتلاحقة به، اضافة الى ان القاسم لم يبلغ الحلم، «وكل ما يذكر في عرس القاسم غير صحيح لعدم بلوغه سن الزواج ولم يرد به نص صحيح من المؤرخين»[3]. ولعل هذه العادة مبنية على نية الحسين تزويج ابنته للقاسم، أو على اعتبار ان مأتم الشاب عرسه.

---

(١) انظر كامل الزيارات، مرجع مذكور سابقاً، الابواب ٢٦ - ٢٩ .

(٢) عبد الرزاق الموسوي المقرم، مقتل الحسين، دار الاضواء، بيروت، لبنان ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م، ص ٢٨٣ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٦٤ (هامش).

انتقل عمل الشبيه مع شج الرؤوس بالجارحات من ايران الى لبنان منذ حوالى قرن من الزمن، وقد أدخله الى المأتم الحسيني في النبطية المواطن الايراني ابراهيم ميرزا الذي كان يقيم فيها آنذاك مع مجموعة من الايرانيين. لكن عمل الشبيه وشج الرؤوس جوبها عند بدء ممارستهما بمعارضة السيد حسن بن يوسف الحسيني العاملي الحبوشي الذي سكن النبطية بعد عودته من العراق. كما جوبها بعد ذلك بمعارضة السيد محسن الامين الذي كتب في هذا الموضوع «رسالة التنزيه في أعمال الشبيه».

ذكر السيد محسن الامين في رسالة التنزيه ان شعائر الحسين كان لها منافع كثيرة حين كانت تُحيا بالعبادة فقط. لكن البعض عمل على «اغواء الناس على ان يدخلوا فيها البدع والمنكرات وما يشينها عند الاغيار قصداً لإفساد منافعها وإبطال ثوابها فادخلوا فيها أموراً أجمع المسلمون على تحريم اكثرها وانها من المنكرات وبعضها من الكبائر التي هدد الله فاعلها وذمه في كتابه العزيز»[1].

وذكر السيد محسن الامين ان السيد العاملي الحبوشي استعان بقائمقام صيدا لمنع الايرانيين وبعض أهل النبطية من عمل الشبيه وشج الرؤوس، كما ذكر التدخلات التي أدت الى اخفاق هذه المحاولة، فقال:

«ولكن جرت تدخلات مع الوالي في بيروت بان الرعايا الايرانيين في النباطية يريدون القيام ببعض الشعائر الدينية، وقائمقام صيدا يمنعهم. فصدر امر الوالي الى القائمقام بان لا يتعرض للايرانيين في عمل الشبيه وجرح الرؤوس بالقامات. فلم يتمكن السيد (الحبوشي) حينئذ من معارضتهم، فعملوا ذلك، وبالطبع كان يتبعهم غيرهم ممن ليس ايرانياً. ثم اتسعت دائرة هذا العمل حتى صار موسماً تجتمع اليه عوام الناس من القرى رجالاً ونساء، ويحضره الغرباء بقصد التفرج، وساعد عليه بعض من ينالهم منه نفع دنيوي»[2].

مما ورد ذكره نستنتج ان عمل الشبيه وشج الرؤوس بدعتان منكرتان في رأي السيد محسن الامين، وان الايرانيين جاؤوا بهما، وان السيد حسن الحبوشي حاول منعهما مستعيناً بالسلطة، بيد ان أمر قائمقام صيدا بمنعهما ألغي من قبل والي بيروت بسبب توسط المحبذين لهما من ابناء النبطية عنده. وفي هذا جذور الانقسام الذي نشأ حول هاتين الظاهرتين، والذي لا يزال مستمراً بين من يرون وجوب تطوير المأتم الحسيني بما يتلاءم مع جوهره، والغاء ما دخل عليه من عادات كالتطبير مثلاً،

---

(٢) السيد محسن الامين، رسالة التنزيه في اعمال الشبيه، ص ٧ .

(٣) السيد محسن الامين، خطط جبل عامل، وردت الاشارة اليه، ص ١٤٦ .

يعتبرونها غير موافقة ولا تنسجم مع روح العصر، وبين من يتشبثون بمراسم المأتم الحسيني كما انتهت عليه. وقد كان انصار الظاهرتين في الماضي أقوى بكثير من معارضيهما.

انشئت الحسينية لإقامة عزاء الحسين. ومما كان يجري في حسينيات ايران والعراق تمثيل واقعة كربلاء. وقد تزامن عمل الشبيه وشج الرؤوس اللذان أتى بهما الايرانيون مع انشاء الشيخ عبد الحسين صادق للحسينية التي جاء بفكرتها من العراق، فأنشأ في النبطية في سنة ١٩١٠، بعد عودته من العراق، الحسينية التي لا تزال قائمة إلى اليوم، مما أوجد مكاناً مخصصاً لإقامة الشعائر الحسينية بما في ذلك عمل الشبيه، كما أوجد المناخ الثقافي الملائم لتقبل عادتين جديدتين أتى بهما مواطنون ايرانيون.

ومما ساعد في استمرار عمل الشبيه وشج الرؤوس ازاء معارضة السيد حسن الحبوشي، ومعارضة كثيرين غيره، اقتناع معتمديهما بهما، وازدياد محبذيهما مع الايام، لا في النبطية فحسب، بل في غيرها، واغنائهما للمأتم الحسيني بالمزيد من الحيوية والحركة والاثارة، وانتفاع أهل النبطية مادياً ومعنوياً من تميز مدينتهم باحتفال مركزي متفرد لزمن طويل بممارستين ساهمتا في جذب الناس من جبل عامل، ومن مناطق كثيرة، إلى النبطية. فبهما وبسواهما من الممارسات انتقل المأتم الحسيني من حال إلى حال، فبينما كان مجالس عزاء تُحيا بالعبادة صار احتفالاً تكثر فيه المظاهر الزمنية، وتتخلله المواكب وسط مظاهر الندب واللطم والضرب والتطبير، وضرب الطبول، والنفخ في الابواق.

بعد ان انفردت النبطية بعمل الشبيه لمدة طويلة على بيدرها الواسع دون توقف حتى في اثناء الاحتلال الاسرائيلي، اقتدت بها في تمثيل الواقعة بلدات عديدة منها كفرمّان والغازية وجباع وكفرحتى ومجدل سلم ودير الزهراني. لكن تمثيل الواقعة في بعض هذه البلدات توقف بسبب الاحتلال الاسرائيلي، ثم عاد بعد تحريرها، كما أنه لم يكن يجري دائماً في اليوم العاشر، وعلى مسرح في الهواء الطلق. فعلى سبيل المثال جرى تمثيل الواقعة في كفرمّان ابتداءً من سنة ١٩٧١ في السابع أو الثامن من عشر المحرم. وابتداءً من سنة ١٩٧٥ صار يجري في العاشر من محرم. وقد تحول من مسرح في الهواء الطلق على الطريق العام الى مسرح يقام في احد اندية البلدة حيث يجلس المتفرجون على مقاعد.

وكما كانت النبطية التحتا أول مدينة بدأ فيها عمل الشبيه، لا تزال الاولى في

ذلك، وفي اجتذاب أكبر عدد من المشاركين والمتفرجين. فالمواكب الجنائزية تنطلق في شوارعها لعدة أيام. والمسرحية تقام على بيدرها الواسع الذي هو الآن ساحة الحسينية. وقد أقيمت على مسرح خشبي في سنة ١٩٨٢، لكنها أعيدت الى المسرح الواسع في الهواء الطلق. وعلى هذا المسرح يُستعاد ما جرى للحسين قولاً وفعلاً بواسطة عدد كبير من الممثلين.

ولكي تكون التمثيلية أقرب ما يكون إلى الواقع، ينقسم الممثلون الى فريقين: فريق عمر بن سعد وأعوانه الذين يتخذون جانباً من المسرح، وفريق الحسين وآله وصحبه الذين يأتون في موكب مهيب، ويتخذون جانباً آخر حيث تنزل النساء والاطفال في خيام، وينزل الرجال في خيام، فيما يخصص جانب ثالث من المسرح لتمثيل الواقعة بين الحسين وأعدائه. ويتزيا الممثلون بالملابس العربية القديمة، ويتسلحون بالسيوف والدروع والرماح والسهام والعصي، وينتقلون على الخيل والابل. وتُستكمل عناصر المسرحية بجمهور غفير يقف على جوانب المسرح، ويجلس بعضه على مقاعد.

وكما لكل تراجيديا بطلها وموضوعها وخاتمتها المأسوية، هكذا لمسرحية واقعة كربلاء. فبطلها هو الحسين، رمز البطولة والشهامة والفداء. وموضوعها هو ثورته على يزيد بن معاوية للتخلص من شروره وانحرافه، ولإعادة الامور إلى نصابها الحقيقي. ومكانها هو كربلاء. وفصولها تدور حول الصراع بين الحق والخير والفضيلة ممثلةً في الحسين وصحبه، والشر والظلم والكراهية والنذالة والاجرام ممثلةً في اعدائه. ونهايتها المأسوية تتمثل في مقتل شبيه الحسين بعد مقتل صحبه، وبعد معاناتهم جميعاً مع النساء والأطفال من الجوع والعطش.

يقبل الناس على تمثيل دور الحسين وصحبه ولبس الثياب السود، ولا يرغبون بالاشتراك في فرقة الشمر بن جوشن في جيش عبيدالله بن زياد اللابسين الثياب الحمر والمعروفين عند الناس بـ «قوم الشمر»، فهولاء ملعونون، بينما الحسين وصحبه مباركون. ومثل هذا يحصل عند النصارى في خميس الاسرار المعروف بـ «خميس الغسل» الذي غسل فيه السيد المسيح أقدام تلاميذه؛ إذ يُقبل الناس على تمثيل المسيح وتلاميذه ما عدا تلميذه يوضاس.

يستغرق وقت التمثيل حوالى الساعتين. وتجري في اثنائه المفاوضات والمراسلات بين الحسين وأعدائه، والمراسلات بين عمر بن سعد وعبيدالله بن زياد. ثم تدور المعركة فيُقتل معظم صحب الحسين، ثم يُقتل الباقون واحداً بعد آخر بعد استئذانهم الحسين بالمضي إلى القتال بحسب التقاليد الحربية القديمة التي تقضي باستئذان المقاتلين

لقائدهم في حالة القتال الافرادي. وأخيراً يُقتل شبيه الحسين في وقت يوافق تقريباً الوقت الذي قُتل فيه الحسين في كربلاء، أي عند الظهر. وبمقتله تنتهي التمثيلية. وعندها يشج الوف الرجال رؤوسهم غضباً وحزناً.

اللطم

مقتل الحسين فاجعة ومأساة تبعث ذكراها الحزن في القلوب، والغضب في النفوس على مسببيها وفاعليها ومنفذيها. وهو أيضاً مثار ندم متواصل على خذلان الحسين، والتخلي عن مساعدته. فلو التحق به آلاف أو مئات من أهل الكوفة الذين كانوا آنذاك مئات الالوف أسوة بثلاثين شخصاً منهم التحقوا به ليلة عاشوراء، لما قُتل، ولما حصلت الفاجعة، ولكان تغير مسار الأحداث. ولو أن أهل الكوفة لم يراسلوه وهو في مكة، ولم يبدوا له الاستعداد للوقوف إلى جانبه، لما انتقل من مكة وسار نحو الكوفة، ولما أعلن ثورته على الخليفة الاموي يزيد بن معاوية، ولاكتفى بمعارضته.

لذا تولد عند الشيعة غضب ورغبة في الثأر للحسين. ورافقهم عبر التاريخ احساس بالذنب والندم على خذلانه والتخلي عنه ليواجه مع قلة من صحبه القدر المحتوم في كربلاء، وبعض من خذلوه هم ممن راسلوه وأظهروا التأييد له ودعوه للمجيء إلى الكوفة. ومن مظاهر التعبير عن الاحساس بالذنب والندم، وعن الحزن، لطم الصدور والرؤوس بالأيدي، وضرب الأكتاف بالسلاسل الحديدية، وشج الرؤوس بالجارحات واسالة الدماء منها.

اللطم ردة فعل عاطفية. ولطم النساء للصدور والوجوه كان منذ البداية عنصراً أساسياً من عناصر المأتم الحسيني، وقد شهدته المآتم العائلية والعامة التي أقيمت بعد مقتل الحسين جرياً على عادة النساء في المآتم. وجذور لطم الرجال تعود إلى ردة الفعل العاطفية من أهل الكوفة الذين ندموا على خذلان الحسين في كربلاء وتقاعسهم عن نصرته، فتابوا لله فسموا «التوابين»، وثاروا في سنة ٦٥ هـ ٦٨٥ م على الامويين، وقاتلوا حتى قُتل معظمهم في عين الوردة غربي الكوفة. وكانوا قد تلاقوا بالتلاوم والتندم عند قبر الحسين وصاحوا صيحة واحدة يارب انا قد خذلنا ابن بنت نبينا فاغفر لنا ما مضى وتب علينا «وجعلوا يلطمون بالسيوف على رؤوسهم والسلاسل من الحديد على ظهورهم، وهو زرد الدروع، وقد أُخذ منهم هذا العمل إلى هذا اليوم»[1].

مورس لطم الرجال في المأتم الحسيني بصورة فردية في ايران والباكستان والهند،

---

(١) السيد عبد الحسين ابراهيم العاملي، سفينة النجاة، وردت الاشارة اليه، ص ١٩١ . وانظر عن ثورة التوابين تاريخ الطبري، مصدر مذكور سابقاً، جـ ٤ ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .

ثم مورس في العهد الصفوي بصورة جماعية وفي المواكب الجنائزية، وتوسع نطاقه في العهد القاجاري. وبعد تعديلات وتغييرات في ممارسته صار في زمن ناصر الدين شاه يمارس مصحوباً بالموسيقى وبالهتافات والندبات وفق شعائر وترتيبات كثيرة منها تعرية القسم الأعلى من الجسم أو من فوق الثياب. «وكانت ظاهرة اللطم شائعة حتى بين نساء ملوك القاجار»[١].

يُلطم بالأيدي على الرؤوس والصدور. ويُضرب بالسلاسل الحديدية على الأكتاف. والسلسلة حلقات معدنية تنتهي بمقبض من المعدن أو الخشب. وكان البعض لا يكتفون بازرقاق الأكتاف وبتورمها وبجروحها البسيطة من ضرب السلاسل الحديدية، بل يعمدون إلى وضع شفرات حديدية في هذه السلاسل لإحداث الجروح البالغة في أجسامهم واسالة الدماء منها. ومثل هذا يحصل في الفترة الأخيرة في قرية الخرايب بالقرب من مدينة صور. وقد قل عدد اللطامين اليوم عما كان في الماضي لاعتبارات كثيرة.

التطبير

يُطلق على شج الرؤوس بالجارحات واسالة الدماء منها اسماء عديدة هي «ضرب القامات» نسبة إلى القامات، وهي شبه سيوف قصيرة عريضة يستعملها الجزارون. و«التطبير» نسبة إلى الكلمة الفارسية «طبر» أي الفأس. و«ضرب عجام» نسبة إلى بلاد العجم (ايران) وسكانها المعروفين بـ «العجام». والتسمية الأخيرة عندنا في لبنان سببها انتقال شج الرؤوس من ايران إليه.

جذور ضرب القامات، كما وردت الاشارة اليه، تعود إلى سنة ٦٨٥ م حين ضرب التوابون رؤوسهم بالسيوف ندماً. لكنه لم يعتمد في المآتم الحسينية الا منذ نيف ومائتي سنة، وإلى فترة الاحتلال الانكليزي للهند حيث ظهر عند المسلمين الهنود والباكستانيين، ولقي تشجيعاً من الانكليز. ثم انتقل من الهند إلى ايران والعراق. ومن ايران انتقل إلى النبطية في جبل عامل.

يتهم الدكتور موسى الموسوي الإنكليز بأنهم هم الذين علموا الشيعة ضرب القامات وشجعوهم عليه لأغراض استعمارية هي «اظهار شعوب تلك البلاد بمظهر المتوحشين الذين يحتاجون إلى قيّم ينقذهم من مهامة الجهل والتوحش»[٢]. ونحن نوافقه على

---

(١) موسوعة عاشوراء، مرجع مذكور سابقاً، ص ٣٨٧ .

(٢) موسى الموسوي، الشيعة والتصحيح. الصراع بين الشيعة والتشيع. الزهراء للاعلام العربي، القاهرة، مصر ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م ص ص ٩٩ - ١٠٠ .

اتهامه للانكليز باستغلال ضرب القامات عند الشيعة لتحقيق مآربهم الاستعمارية كما يستغلون ما يفيدهم من أي شأن سياسي أو اجتماعي. لكننا لا نوافقه الرأي بأنهم هم الذين علموا الشيعة ضرب القامات؛ لأنه لم يعطِ الأدلة المقنعة، ولان هذه الامور هي تطوير للطم الرجال الذي غدا عنصراً أساسياً مَن عناصر المأتم الحسيني في عهد الصفويين. ان ضرب القامات يعود لأسباب داخلية لا خارجية، متصلة بالواقع الاجتماعي الثقافي الذي يولّد بعض المظاهر المشابهة له في التعبير عن المشاعر ازاء مقتل الحسين المأسوي.

إن ضرب القامات هو، عند فاعليه، كلطم الصدور والرؤوس بالأيدي، وضرب الأكتاف بالسلاسل الحديدية، تعذيب للنفس والجسم ابتغاءً للمغفرة، وتكفيراً عن الخطيئة، وعقاباً للذات عن ذنب فعله الأجداد. وهو في الوقت نفسه اراحة للذات من عذاب الاحساس بالذنب والندم، اضافة إلى التعبير عن الحزن والتشبه بالحسين في آلامه، وإظهار الاستعداد على الاقتداء به في الشهادة. وشبيه بذلك ما يفعله نصارى الفيليبين مؤخراً في اسبوع الآلام إذ يغرزون السفافيد في أكفهم تشبهاً بما جرى للمسيح في صلبه، وتذكراً لآلامه.

كما ان خروج الدم من جسم الإنسان رمز إلى التطهر من زاوية نظرة فلسفية ومفهومٍ عند البعض يرى في الدم نجساً، وفي خروجه من جسد الانسان تطهراً. وهذا التطهر يعمّق الذكرى في وجدان المرء من خلال معاناته، ويساعده على الارتقاء، وعلى السير في طريق الحسين والاقتداء به. وفي الحديث عن هذه الظاهرة في عاشوراء تقول الدكتورة ذكاء الحر الخطيب: «وهنا يبرز التحوير أو الترميز في ضرب الرؤوس واسالة الدم. فالدم نجس في الموروث الشعبي، ولكن بعد خروجه يتطهر المرء»[1].

يعصب المطبّرون الجباه بالعصب المتعددة الألوان المكتوب على بعضها «يا أبا عبدالله»، ويلبسون الأكفان البيض، تعبيراً عن استعدادهم للشهادة. ويشجّون رؤوسهم بالقامات في العديد من الاحتفالات، وبخاصة احتفالات النبطية، في اليوم العاشر من محرم، عند سيرهم في مواكب التطبير، وفي اثناء تمثيل واقعة كربلاء، وبخاصة عند مقتل صحب الحسين، واحداً بعد آخر.

والتطبير يجري على نطاق واسع عند مقتل شبيه الحسين. وصار يحصل في الايام السابقة للعاشر من محرم في بعض الاحتفالات. ويترافق كما يترافق لطم الرؤوس

(١) ذكاء الحر الخطيب، التراث الشعبي الديني (عاشوراء). انظر المؤتمر الأول للثقافة الشعبية في لبنان سنة ١٩٩٣ . كتاب اصدرته حلقة الحوار الثقافي، ص ٣٤٦ .

بالأيدي، وضرب الاكتاف بالسلاسل، وباستمرار، مع هتافات: حيدر. حيدر. وكان يكتفى من ذلك بشج الرؤوس قليلاً لإسالة نقط من الدم فقط ترمز إلى التكفير عن الذنب وإراحة الذات. الا ان المطبّرين زادوا مع الزمن من عنف شج الرؤوس وإسالة الدماء منها إلى حد الايذاء الجسدي.

ان حيدر هو اسم ولقب إمام البلاغة والسيف وسيد الفرسان، الامام علي (ع). وهم يستجيرون به لينصر أتباعه. وعن اسم حيدر أو حيدرة وعلاقته بعلي جاء في معجم لسان العرب ان والدة علي، فاطمة بنت أسد، سمّتة على اسم أبيها (أسد) في غياب والده. وحين حضر والده سماه علياً. ومن اسماء الاسد الكثيرة اسم «حيدرة». والحيدرة في الاسود مثل الملك في الناس. وقد قال الامام علي الأبيات التالية في الفخر:

انا الذي سمتني أمي الحيدره

كليث غابات غليظ القصره

اكيلكم بالسيف كيل السندره[1]

والذين يشجون رؤوسهم بالقامات، ويتابعون ضربها بها، يعتقدون ان بركة الامام علي تقيهم من الأذى. ونادراً ما يموت أحدهم، وقليلاً ما يصاب بمكروه. وكانت معالجة الجراح تتم قديماً بعلاجات بدائية. وهي تتم حالياً في المستشفيات، أو بواسطة الاسعاف الميداني من قبل العاملين في جمعية الصليب الأحمر اللبناني وجمعيات خيرية أخرى.

لا يقتصر شج الرؤوس وإسالة الدماء منها على الكبار فقط، بل ان للصغار، وبخاصة المنذورين، نصيباً منه. ويتولى ذلك معهم اخصائيون كي لا يصابوا بالأذى. وابتداءً من الثمانينات شاركت المرأة في شج الرؤوس على نطاق ضيق للغاية وذلك من قبيل النذر. وقد كان عدد المطبّرين كثيراً، حتى ان مدينة النبطية فاق عدد المطبّرين فيها ألف رجل.

غدا شج الرؤوس واسالة الدماء منها ظاهرة في بعض الأوساط، ملازمة لعاشوراء، ومتصلة بها إلى حد يصعب تصور عاشوراء بدونها. لكنها اليوم مثار نقد كثير، وحولها جدل قائم بين ممارسيها ومحبذيها، ومعارضيها ومنتقديها الذين يعملون على الغائها مع احترامهم لدوافع العاملين بها.

---

(١) انظر معجم لسان العرب، أيضاً ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، دار الاضواء، بيروت، لنبان، ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م ج ٣ ص ١٣٣، ٣٢٠.

ان شج الرؤوس كضرب السلاسل هو في نظر ممارسيه ومجيزيه جائز شرعاً، وجزء عزيز من التراث، متغلغل في أعماق الوجدان الشعبي، وخير متنفس للغضب، وأفضل تعبير عن الندم، ووسيلة لتعميق الذكرى وللارتقاء يتفاعل فيها المرء أكثر مما يتفاعل مع تمثيلية أو مجلس عزاء.

وشج الرؤوس هو كضرب السلاسل في نظر معارضيه أمر غير جائز، وغير مجدٍ للتكفير عن الذنب، ولا يليق بعظمة ذكرى عاشوراء. لقد حرمته الثورة الاسلامية في ايران، البلد الذي انتقل منه الى لبنان. وحرمته مراجع دينية عدة في لبنان منها الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين، والعلاّمة السيد محمد حسين فضل الله، وحزب الله. والكثيرون من الناس، وعلى الأخص الكثيرون من المثقفين، يستنكرون التطبير ويرون مع من حرّمه من العلماء أن التبرع بالدم لبنك الدم والمستوصفات والمستشفيات ونقله إلى المحتاجين إليه، أفضل وأجدى من هدره على الطرقات[1]. ويركزون على الجوهر من الاحتفال بعاشوراء، وهو ضرورة تفهم سمو أهداف ثورة الحسين ونبل استشهاده والأخذ بالقيم والمعاني السامية التي تجسدها مسيرته والاقتداء به في التضحية والفداء، وهذه أمور يمكن تحقيقها بمجالس العزاء التي يسودها التعبد والخشوع والتأمل واستلهام العبر والمعاني، والتي تترافق مع البذل والعطاء.

نموذج عن الاحتفالات بذكرى عاشوراء (احتفالات النبطية)

أفضل نموذج عن الاحتفالات بذكرى عاشوراء هو احتفالات النبطية التي تشمل جميع المراسم والمظاهر. ان الاحتفال المركزي الضخم والحاشد، بعاشوراء في لبنان، يقترن بجبل عامل. ويقترن في جبل عامل بمدينة النبطية التحتا التي كانت، ولا تزال، أهم مركز لإحياء هذه المناسبة التراثية، وتنفرد عن سائر المدن والبلدات باستقبال آلاف الوافدين للمشاركة والتفرج. وقد بدأ الاحتفال المركزي فيها يأخذ أهميته منذ بداية عمل الشبيه وضرب القامات والطواف بمواكب جنائزية وسط مظاهر الحداد والندب وضرب الطبول والنفخ في الابواق.

كل يوم من العشر الأول من محرم هو يوم حزن وحداد، وإغلاق للمقاهي ودور السينما، ومسيرات يزداد عدد المشاركين فيها تباعاً حتى يبلغ أقصاه في اليوم العاشر. ومنذ اليوم الأول ترتفع في سماء المدينة أصوات القراء الذين يتلون السيرة الحسينية بواسطة مكبرات الصوت. وترتفع فوق شوارعها الرئيسة وعلى جدرانها، وعلى جدران

---

(١) لقد اصبح هناك مراكز للتبرع بالدم منها مركز النبطية.

الحسينية وفي باحتها، لافتات سود، منها ما طُرّز بعبارات كربلائية تعبّر عن المناسبة، ومنها ما طُرّز بآيات قرآنية كريمة. وهذه بعض الشعارات:

- شهر محرم انتصار الدم على السيف.

- شيعتي ان تصدقوني بالعهود فليكن شاهدكم بين الشهود فاكتبوها بالدماء على الجبين.

- ابكي قتيلاً بكربلاء بكى عليه من ساكن الارض والسماء.

- البكاء على الحسين صرخة في وجه الظالمين.

- ان خذلك الورى في كربلاء فأنا اليوم لك ناصرون.

- لابكين عليك بدل الدموع دماً.

مظاهر الايام الاربعة الاولى تتشابه. ففي عصر كل يوم يتجمع الناس في الساحة الواقعة أمام الحسينية (بيدر النبطية). ومنها ينطلقون على شكل مجموعات في موكب مهيب يسوده الحزن، تتقدمهم الأعلام واللافتات السود المحمولة من الفتيان، ويطوفون في الشوارع ضاربين الأكتاف بالسلاسل الحديدية، لاطمين الصدور والرؤوس بالأيدي، مرددين الهتافات، والندبات الحزينة، التي يتناوب على ادائها شباب يسيرون أمامهم، كلما انتهى شاب من مجموعة هتافات بدأ شاب اخر بمثلها. ثم يعودون إلى الحسينية لسماع جزء من المقتل.

وفي اليوم الخامس يُضاف الى مظاهر الايام الاربعة الاولى جنازة رمزية يحملها الشباب وتنطلق من ساحة الحسينية عصراً في موكب مهيب يتقدمه حصان أبيض مغطى بقماش ملطخ بالدم، يرمز إلى الحصان الذي امتطاه الحسين الى كربلاء، ويرمز لونه الأبيض إلى الطهارة.

وفي عصر اليومين، السادس والسابع، تجري مظاهر متشابهة مع مظاهر اليوم الخامس من حيث اللطم والضرب والهتاف والندب. الا أنها تختلف عنها بتقدم حصانين للموكب الجنائزي، مجللين بالثياب الحمراء، بدلاً من حصان واحد، يرمزان إلى حصاني الحسين وأخيه العباس. ويشارك في هذا الموكب أعداد غفيرة تفوق أعداد المواكب السابقة.

وفي عصر اليوم الثامن يسير المحتفلون بموكب جنائزي على صورة المواكب السابقة. وهذا الموكب يمثل جنازة القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) أو ما يسمى خطأ «عرس القاسم» ويضم عدداً كبيراً من الرجال وعدداً من النساء المعصبات بالمناديل السود، اللواتي يمثلن سبايا كربلاء مكبلات بالسلاسل، بالاضافة إلى فرق

الكشافة، يتقدمهم حصانان يرمزان إلى حصاني الحسين والقاسم، ومجموعة من الشباب تحمل تابوتاً خشبياً مغطى بقماش أسود.

وفي ظهر اليوم التاسع يتجمع معظم أهالي النبطية في ساحة الحسينية للمشاركة في المسيرات وللتفرج. ويحضر بعض أهالي القرى المجاورة لهذين الغرضين. وعند العصر ينطلق آلاف الرجال والنساء والفتيات والأطفال في موكب حزين يمثل المسيرة الحسينية، يسير فيه خمسة أحصنة تعلوها عمائم خضر ترمز إلى الحسين وصحبه. ويطوف الموكب شوارع المدينة صفوفاً من الرجال يلوحون بالسيوف، وصفوفاً من النساء يلوحن بالمناديل، وسط أناشيد الندب والهتافات الحزينة، فيما الآلاف مصطفون على أرصفة الشوارع أو على سطوح المنازل وشرفاتها ليتفرجوا. ويتجه الموكب إلى النبطية الفوقا. وعندما يبلغ مشارفها يتوجه مع مستقبليه فيها إلى حسينيتها حيث يتواصل في باحتها اللطم والندب. ثم يعود الموكب في المساء إلى حيث انطلق على الصورة السابقة.

أما اليوم العاشر؛ فهو أهم الأيام، لانه يوم واقعة كربلاء ومقتل الحسين وصحبه. فمنذ الصباح الباكر تتوافد الجموع نحو الحسينية وساحتها للاستماع إلى المقرئين الذين يتلون السيرة الحسينية كلها في مدة تقارب الثلاث ساعات. وتغص شوارع النبطية بأهلها وبالقادمين إليها من جبل عامل ومن سائر المناطق اللبنانية للمشاركة أو للتفرج. كما يأتي إلى النبطية مسؤولون لبنانيون وسفراء أجانب ومراسلو وسائل الاعلام ومصوروها. وتضيق الحسينية وباحتها عن استيعاب الجميع فيتجمع معظم الناس حول ساحة الحسينية بانتظار التمثيلية التي ستعرض فيها، ويجلس بعضهم على مقاعد موضوعة في أحد جوانب الساحة، فيما يقف جمع غفير من المتفرجين على شرفات وسطوح المنازل المجاورة، وتقف الفرق الامنية وفرق الاسعاف مستنفرة لكل طارىء.

وفي الوقت الذي تتلى فيه السيرة الحسينية، وتمثل واقعة كربلاء، تكون مسيرات الوف الشباب، الذين تكفن بعضهم بالأكفان البيض تعبيراً عن الاستعداد للشهادة، منطلقة في شوارع النبطية على شكل حلقات تطبير، ووسط هتافات حيدر. حيدر، فيما الدماء تسيل من الرؤوس المشجوجة بالجارحات على مختلف أنواعها (سيوف بشفرة - سيوف بشفرتين - سيوف محدبة - سيوف طويلة - قامات - خناجر - أمواس).

ويزداد سيلان الدماء بالضرب المتواصل على الرؤوس بالجارحات وبالأيدي، فتصبغ أرض الشوارع وباحة الحسينية بلونها الاحمر القاني، وتلطخ الثياب وعصب الجبين

والأكفان البيض. ويدخل البعض في الغيبوبة. وفي الوقت نفسه يُشاهد الكثيرون من الأطفال المنذورين والدماء تسيل من رؤوسهم التي شجت عند مختصين.

وبعد انتهاء التمثيلية بمقتل شبيه الحسين يشق الشباب المتجمعون في باحة الحسينية وحولها رؤوسهم، ويسيرون في مواكب حزينة لاطمين. وتنطلق مسيرة ضخمة أخرى هي مسيرة مجموعات الحزب الذي يقيم مهرجانه بمناسبة عاشوراء في النبطية. وبهذا تنتهي مراسم عاشوراء، وهي تنتهي بما يسمى «الفلّة»، أي بانصراف كلٍّ امرىء إلى بيته ليتذكر ويقيّم ما حصل، وليعود إلى مزاولة أعماله اليومية.

الفصل الخامس:

الاستسقاء. حلقات الذكر. الاعياد الزمنية

الاستسقاء

تمطر السماء، فتعد بخضرة الارض ووفرة الخير وجود المواسم وارواء الانسان والحيوان والنبات، وتتدفق الينابيع، وتجري السيول والسواقي والأنهار فتحيي الأودية والسهول. وإذا تساقط الثلج، زاد في ارتواء الارض، وامتلأت خزانات المياه الجوفية؛ لأنه «خميرة الارض» و«ملح الارض» بحسب التعابير الشعبية. وإذا اشتد الصقيع وكثر الجليد، ماتت الحشرات الضارة، وسهلت حراثة الارض. وإذا عصف الرعد، تفجرت الينابيع من باطن الارض، وازداد دفقها. ونظراً لأهمية الماء وضرورته واستحالة العيش بدونه قدس الانسان القديم الانهار والينابيع.

وينحبس المطر لفترة طويلة، فيتأخر وقت الزرع، ويتباطأ نمو المزروعات أو يتوقف، وتذبل النباتات، ويساور القلق النفوس على المواسم الواعدة بالخير، وتجف الينابيع أو تشح، ويتهدد العطش بني البشر، ولا سيما يوم كانوا يجهلون أساليب تحلية مياه البحر، ويصعب عليهم انشاء السدود لتخزين المياه الشتوية من أجل الاستفادة منها في الصيف.

ولكلٍّ وقته وحدوده ومعدله. وكثرة الامطار إلى حد الفيضان، وقلتها إلى حد الانحباس لفترة طويلة، وحصول القيظ في غير أوقاته، أمور مضرة بالانسان، وتؤدي إلى الكوارث والنكبات. وفيما تخضع اليوم هذه الأمور لتفسيرات علمية محضة تعيدها إلى عوامل طبيعية، وإلى ما أحدثه الانسان فيها من خلل، وإلى ثقب طبقة الأوزون، خضعت في الماضي عند الشعوب الوثنية لتفسيرات مختلفة تعيدها إلى قوى غامضة وإلى الالهة التي تتحكم بسقوط المطر وانحباسه، ونشوء العواصف والأعاصير، تبعاً

لرضاها أو غضبها على البشر. وتخضع عند أتباع الأديان السماوية إلى تفسير ديني يعيدها إلى الله تعالى الذي لا يتحرك ساكن ولا يسكن متحرك الا بإرادته.

كان الانسان الوثني يقيّم على القوى الغامضة ويستسقي ويصلي إلى الالهة لإنزال المطر عند انحباسه. وكان أتباع الأديان السماوية، ولا يزالون، يستسقون ويصلون ويدعون إلى الله ان يجود عليهم بنعمه، ويشملهم برحمته، وينعم عليهم بالمطر الملقب بـ «النعمة» في بعض المناطق، والملقب عندنا بـ «الرحمة».

والله هو الملجأ والمرتجى والملاذ للمؤمنين، في كل وقت، ولا سيما في الشدائد والضيق ونقص الخيرات، وشح الامطار أو انحباسها، حيث يحس الانسان بضعفه، ويشعر بعجزه عن تأمين مصالحه، ودفع الخطر والبلاء عنه، وتوفير مقومات وجوده واستمراره، وحيث يحس انه بحاجة إلى رضى الله وعونه وانعامه ورحمته.

والله غفور رحيم جواد حليم. لكنه يغضب على البشر لسوء أعمالهم ولخطاياهم، وعزوفهم عن المعروف، ولجوئهم إلى المنكر، وتركهم للعبادة. وإذا غضب الله على قوم جعل صيفهم شتاءً وشتاءهم صيفاً. قال الله تعالى: «لو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض لكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون»[1].

الاستسقاء في اللغة «طلب السقيا في انزال الغيث على البلاد والعباد». وهو هاهنا التماس انزال الغيث في احتفال له على الصعيد الديني مراسمه وصلواته وأدعيته، وله على الصعيد الشعبي، وفي التراث، عاداته وتقاليده المختلفة في بعض الوجوه، والمتفقة في بعضها الآخر، بين منطقة ومنطقة وزمان وزمان. الا ان بعضها الذي كان يمارس في القرن العشرين له جذوره الوثنية.

إذاً يستسقي الناس بالصلاة والدعاء إلى الله في احتفال عام. ويستسقون بأساليب أخرى هي عادات وحركات ومظاهر معينة، شأنهم في ذلك كشأنهم في سائر المناسبات الدينية والاجتماعية. ان الانسان لا يقف متأملاً ومفكراً ازاء الظواهر الطبيعية، ولا يتصرف مصلياً وداعياً إلى الله، فقط، بل كثيراً ما يتصرف بسلوك معين، غريب أحياناً، يرى فيه وسيلة لتحقيق مطالبه، أو لإبعاد ضرر الظاهرة الطبيعية عنه. فقد كان أجدادنا، على سبيل المثال، يعتقدون عند حصول الخسوف ان حوتاً كبيراً بلع القمر، فيبادرون إلى تلاوة آيات من القرآن الكريم، وقرع الأجراس، وضرب أواني النحاس وألواح التنك بالمطارق وبسائر الآلات وبالحجارة لإحداث الضجة، مناشدين الحوت الذي ابتلع القمر، في زعمهم، ان يفلته، قائلين: «ياحوت دشّر قمرنا».

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٩٦.

الحاجة إلى الاستسقاء في لبنان هي دونها في سائر الاقطار العربية؛ إذ ان تساقط الأمطار فيه يكاد منتظماً أو شبه منتظم على العموم. ومع هذا فإن المناطق اللبنانية كانت تشهد، بحسب ما يرد في المؤلفات، وبحسب ما هو ماثل في الذاكرة الشعبية، فترات جفاف ينحبس فيها المطر في الأوقات الملائمة للزرع والأوقات الملائمة للنمو. وفي هذا نذير الشؤم، ومجيء الجراد، وبوادر المحل والقحط.

ان الأوقات الملائمة للزرع هي فصل الخريف، وتبتدىء من شهر تشرين الأول حيث يتوقع الفلاح هطول كمية كافية من المطر تروي الارض وتجعلها مؤهلة للحراثة وبذر الحبوب على مختلف أنواعها. وهذا ما يعبّر عنه الفلاحون بالقول: «اروت الارض»، ويقصدون بذلك ان السماء أمطرت كمية كافية روت الارض، وبات عليهم التشمير عن سواعدهم لشقها بالمحاريث وبذرها بالحبوب. وإذا لم ترتوِ الأرض «ما روت» يقعدون باطلين عن العمل، ينتظرون الرحمة، وقد يتركون القسم الكبير من حقولهم بدون حراثة أي «بور»، في حال تأخر الري.

والأوقات الملائمة لنمو الزرع هي النصف الثاني من فصل الشتاء، الذي يبتدىء بشباط، وأوائل فصل الربيع. وانقطاع المطر ابتداءً من شباط، ولفترة طويلة، يهدد المزروعات باليباس، أو يضعف نموها، أو يقلص انتاجها، بحيث لا تعود تكفي غلالها الناس وتكفي حيواناتهم.

الحبوب المعروفة عند القرويين بـ «الزرع» أهم من الاشجار بالنسبة اليهم؛ لأنها، وبخاصة حبة القمح المباركة، غذاؤهم الرئيس، ولانها غذاء الحيوان الأساسي. وبفضل المطر يجود محصولها، وتخضّر الحقول، وتنحني السنابل مثقلة بالقمح، وتكثر الاغمار والأكداس، وتعمل البيادر طوال الصيف، وتمتلىء الاهراءات البيتية (الكواير) بالمؤونة، وتمتلى اهراءات العلف (التبّانات) بالتبن. لذا كان المسلمون والمسيحيون في المناطق اللبنانية يستسقون، ويتوجهون بالدعاء إلى الله ان يبعث المطر لأهميته في كل النواحي، ولأنهم يعتمدون على الزراعة البعلية.

صلاة الاستسقاء

تكرر ذكر الاستسقاء في الحديث النبوي الشريف. وصلاته سنّة مؤكدة ثابتة بسنّة الرسول ﷺ وخلفائه. لقد كان الصلاة والسلام عليه يدعو إلى الله ويتضرع ويكبر ويصلي ركعتين في صلاة الاستسقاء. وكان المسلمون يستسقون بذوي الصلاح، فلقد استسقى الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب بالعباس عم الرسول ﷺ قائلاً: «اللهم ان

هذا عم نبيك ﷺ نتوجه اليك به فاسقنا». واستسقى الخليفة الأموي معاوية بيزيد بن الاسود الجرشي.

ضروب الاستسقاء ثلاثة. أولها أن يدعو الناس إلى الله لإنزال المطر في أعقاب الصلوات وفي الخلوات. وثانيها ان يدعو الإمام يوم الجمعة على المنبر ويؤمن الناس على دعائه. وثالثها ان يخرج الناس إلى صلاة الاستسقاء في المصلى فتكون صلاتهم جامعة. وليس لصلاة الاستسقاء وقت معين، والأولى فعلها في وقت صلاة العيد، والاكثار فيها من الدعاء والتضرع والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ.

لا تُستحسن صلاة الاستسقاء الا بخروج الامام أو رجل من قبله. فإذا أجدبت الأرض، يخرج المسلمون مع الامام في ثيابهم القديمة متخشعين في مشيتهم وجلوسهم في خضوع، متضرعين لله تعالى، متذللين له، راغبين إليه. وهم في ذلك يقتدون بالرسول ﷺ الذي روي عنه أنه كان إذا خرج للاستسقاء، خرج متواضعاً متبذلاً متخشعاً متذللاً متضرعاً. ويستحب الخروج للناس كافةً، وعلى الأخص لذوي الدين والستر والصلاح، وللشيوخ، كما لا بأس بخروج النساء والعجائز والصبيان. ولا يستحب اخراج البهائم، لأن النبي ﷺ لم يفعله.

كان المسلمون السنّة والشيعة، في المقاطعات اللبنانية، يقيمون صلوات الاستسقاء في أيام الجمعة، أو في أيام الأعياد الواقعة في فترات القيظ. كما كانوا يقيمونها ببادرة من ائمة القرى، أو بدعوة من كبار الرؤساء الروحيين.

تقام صلوات الاستسقاء في المساجد. ومنهم من يقيمها في الساحات العامة، أو عند ينابيع المياه كأهالي بلدة كفرمّان في الجنوب اللبناني مثلاً، الذين كانوا يقيمون صلاة الاستسقاء عند عين الجمل. وكان المستسقون يسيرون حاسرين متذللين مبتهلين، متضرعين إلى الله بالأدعية، ويقيمون الصلاة راكعين يتلون في كل منها الفاتحة وإحدى سور القرآن الكريم، القصيرة، فيما يرفع الشيخ يديه بالدعاء بعد كل ركعة، ثم يتوجه بالنهي والنصائح إلى المصلين مستقبلاً القبلة.

أما بالنسبة إلى المسلمين الموحدين الدروز، فلم أجد فيما قرأت ذكراً عن صلاة جامعة للاستسقاء عندهم في العصور السابقة، ولم يفدني أي من المعمرين عن قيامهم بمثل ذلك. والسبب، على الارجح، عائد إلى أنهم يعتبرون الصلاة بشكل عام صلاة روحية بين الانسان وربه، وفرضاً يؤديه رجال الدين منهم وحدهم في أوقاته المحددة وفي غيرها. كما لم أجد ما يفيد عن استسقاء فتيانهم بطوافهم في القرى كما كان

يفعل فتيان النصارى والسنة والشيعة. وإذا كان هناك من طواف لهم، فهو طواف قلة من فتيانهم مع أترابهم من مساكنيهم.

ان المؤمنين من الدروز يردّون سقوط المطر وانحباسه الى الارادة الالهية، ويعتبرون انحباسه غضباً من الله، ويدعون إلى الله في أي وقت أن يبعث «الرحمة»، أي المطر، ويقولون عند انقطاع المطر: «الله كريم. الله يعاملنا أكثر مما نستأهل، فهو لو أراد محاسبتنا على سوء أعمالنا لحجب عنا معظم نعمه. الله كريم. على الانسان الا يقنط من رحمة الله. العبد لجوج. من صبر ظفر ومن لج كفر». وفي التعبيرين الأخيرين اشارة إلى أن الناس يلجّون من انقطاع المطر ويلجّون من كثرته. كما يقول المؤمنون الدروز عند انهمار المطر بغزارة: «ساعة من ساعاته تقضي كل حاجاته».

ونظراً لانحباس المطر لفترة طويلة في خريف سنة ١٩٩٩ أقيمت صلاة الاستسقاء في جوامع بيروت وسائر المناطق بعد صلاة يوم الجمعة الواقع فيه العاشر من كانون الاول ١٩٩٩، بدعوة من مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ محمد رشيد قباني الذي أمّ المصلين في افتتاح مسجد العزم في مدينة طرابلس، ومن رئيس المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين الذي أم المصلين في الجامع الأعظم ومسجد الإمام الصادق في بيروت. وقد دعا الاثنان، وسائر خطباء هذه المناسبة، الناس إلى أتباع الهدى والصلاح والتقوى، وعمل المعروف، والابتعاد عن المنكر والمظالم والشرور والمطامع. كما دعوا إلى الله ان يُنزل المطر الذي باتت الأرض وما عليها بأمس الحاجة اليه، والذي بات انقطاعه يهدد بالكارثة.

وكان كهّان القرى عند النصارى يقيمون صلوات الاستسقاء بمبادرة منهم، أو بأمر من البطاركة والمطارنة الذين يصدرون في فترات انحباس المطر، الطويلة، مناشير تُقرأ في الكنائس تأمر الناس بالتعبد والصيام والتقشف، والسير في طريق الصلاح، وتجنب المساوىء والشرور. وكانت تُقام في الكنائس الصلوات والقداديس والزيّاحات الكبيرة على قرع الأجراس وسط الابتهال والدعاء والتضرع إلى الله أن يبعث المطر.

كان شتاء سنة ١٨٩٩ كخريف سنة ١٩٩٩ فصل جفاف وانحباس مطر. فكما انتهى القرن التاسع عشر بالقيظ، انتهى القرن العشرون به أيضاً. وقد وصف مارون عبود استسقاء أهل قريته عين كفاع في عيد مار مارون في شباط ١٨٩٩، وأورد صلوات ونصائح جده، كاهن القرية، ومنها ما يلي:

«ياحسرتي علينا يا أولادي، إذا حجب الرب عنا رحمته، فلأننا ما عدنا نفتكر به. تركناه فتركنا. ما عدنا نفتكر الا بالدنيا، كبيرنا إلى صغيرنا... خطايانا الكثيرة ورّثت

كل هذه الضربات والبلايا والضيق. متى كان ينقطع المطر في كانون وشباط؟... ماذا تراه يفعل ربنا الذي قال: من منكم إذا طلب منه ابنه سمكة يعطيه حية؟ أما هو الذي جرّأنا على الطلب منه بالحاح؟ أما هو قال لنا: اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم؟ قوّوا قلبكم، واقرعوا بابه ولا تخافوا... صلوا اذن، فكل ما تطلبونه تنالونه كما يعلمنا الانجيل الطاهر. اطلبوا من ربنا أن يتحنن علينا ويرحمنا، ان يروي قلوبنا العطشانة الى النعمة الآلهية، ويسقي زروعنا، ويبارك علينا، ويحمينا من الجراد».

ويعلق مارون عبود بالقول: «ما دريت لماذا حتى كان المساء وتلبدت الغيوم وسقط المطر»[١].

إذاً يتوجه رجل الدين الى الناس بالنصح والارشاد، فيأمرهم بالتوبة عن المعاصي، والخروج عن المظالم، والصيام والصدقة، وترك المشاحن، وعبادة الله، والعمل بتعاليمه، لكي يقبل دعاءهم. كما يذكّرهم بأن ما أصابهم هو من سوء أعمالهم، وبان رضى الله ورحمته ونعمه مقرونة بالطاعة والتوبة، والله يقبل التائبين ورحمته واسعة.

تترافق صلاة الاستسقاء مع أدعية يرفعها رجال الدين والمصلون من دور العبادة إلى الله، ويرفعها الفتيان على شكل أناشيد في خلال طوافهم في أزقة القرى. والإمام عند المسلمين يؤمّن الناسَ على دعائه بعد صلاة يوم الجمعة. والكبار عند النصارى يؤمّنون على دعاء الفتيان. ومن الأدعية التي يجدر ذكرها دعاء الرسول ﷺ، ودعاء الإمام علي رضي الله عنه.

عن أنس رضي الله عنه، قال: «كان النبي ﷺ لا يرفع يديه في شيء من دعائه الا في الاستسقاء فإنه كان يرفع يديه حتى يرى بياض ابطيه»[٢]. ومن دعائه: «اللهم اسقنا واغثنا. اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً وحياً ربيعاً وجداً طبقاً غدقاً مونقاً هنيئاً مريئا مريعاً مربعاً مرتعاً سائلاً مسيلاً مجللاً ديماً دروراً نافعاً غير ضار، عاجلاً غير رائث. اللهم تحيي به البلاد، وتغيث به العباد، وتجعله بلاغاً للحاضر منا والباد. اللهم انزل في أرضنا زينتها، وانزل علينا في أرضنا سكنها. اللهم انزل علينا من السماء ماء طهوراً فأحيِ به بلداً ميتا، واسقه مما خلقت أنعاماً وأناسي كثيراً»[٣].

ومن دعاء الإمام علي في خطبة الاستسقاء مايلي: «اللهم انا نسألك أن لا تردنا خائبين، ولا تقبلنا واجمين، ولا تخاطبنا بذنوبنا، ولا تقايسنا بأعمالنا. اللهم انشر علينا

---

(١) مارون عبود، أحاديث القرية، اقاصيص وذكريات، دار الثقافة، دار مارون عبود، بيروت، لبنان ١٩٧٦ ص ١٥٠ - ١٥٣ .

(٢) متفق عليه، انظر الشوكاني. نيل الاوطار، وردت الاشارة اليه جـ ٤ ص ٨ .

(٣) المغني والشرح الكبير للإمامين ابني قدامه، دار الفكر ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م المجلد الثاني ص ٢٩٢ .

غيثك، وبركتك، ورزقك ورحمتك. واسقنا سقيا نافعة مروية معشبة تنبت بها ما قد فات، وتحيي بها ما قد مات. نافعة الحيا، كثيرة المجتنى، تروي بها القيعان، وتسيل البطنان، وتستورق الاشجار، وترخص الاسعار. انك على ما تشاء قدير»[1].

ومما يجدر ذكره ان المعمّرين يتذكرون ان المطر ما كان يتأخر سقوطه بعد صلاة الاستسقاء، وكثيراً ما كان يسقط في يومه أو اليوم الذي يليه. وهذا السقوط السريع كان يعزز الاعتقاد عند المؤمنين بقبول الله لدعائهم، ويعزز في الوقت نفسه توجههم إلى الاستسقاء في كل وقت يحصل فيه القيظ.

طواف الفتيان

الصلاة للكبار، والطواف للفتيان والصغار. فالكبار يستسقون في مراكز العبادة وسواها. والفتيان والصغار يستسقون طائفين في أزقة القرى وعلى بيوتها. هذا كان شأن صغار اللبنانيين، مسلمين ومسيحيين، في الماضي في المناطق اللبنانية؛ إذ كانوا يطوفون في القرى منشدين الأناشيد، متوقفين أمام البيوت لإعطائهم الهدايا أو لرش الماء تلبية لطلبهم.

كان من عادات فتيان النصارى الطواف بصورة العذراء، أو بأيقونة القديس الياس، أو بشكل انسان مصنوع من خشبتين متعارضتين، ملبّس ثياباً رثة. وكانوا يتوقفون أمام البيوت ممتدحين من يعطيهم الهدايا، والزيت لاسراج المعابد، او من يرش عليهم الماء، هاجين من يبخل عليهم بأحد هذه الأمور. وهذا النوع من الطواف يشبه طوافهم في عيد البربارة وفي سبت اللعازر. ويتخلل طوافهم إنشاد أناشيد خاصة بالمناسبة، مناشدين «أم الغيض»، التي هي «أم الغيث»، بعث المطر.

وكان من عادات فتيان المسلمين الطواف كفتيان النصارى. ولطوافهم جذور شرعية إذ من الجائز خروج الصبيان في الاستسقاء. لذا يخرجون ويستسقون على طريقتهم حاملين قصباً أو قضباناً من ازدرخت وتوت وغير ذلك، على رؤوسها قطع من القماش، منشدين أناشيد تتفق مع أناشيد فتيان النصارى في طلب سقوط المطر، وفي مدح أصحاب البيوت الذين يكرمونهم وهجاء من لا يلبون طلبهم، وتختلف عنها بأنها تتوجه إلى الله لا إلى أم الغيض، وتتوجه إلى أصحاب البيوت طالبة اليهم رش الماء على قطع القماش المحمولة.

---

(٣) نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب، شرح الشيخ محمد عبده، دار الهدى الوطنية، بيروت، لبنان، لا تاريخ، جـ ٢ ص ٢٦.

وإذا جادت صاحبة البيت برش الماء، أو جادت بهدية، يقول لها الفتيان: «يخضّر زرعاتكم»، وينشدون ما يلي:

ليـــمـــونه فـــوق ليـــمـــونه صـــاحـــبـــة البـــيت يا عـــيـــوني
قـنـيـنـه فـــــــــوق قـنـيـنـه صـــاحـــبـــة البـــيت كـــريمه

وإذا لم تجـد عليـهم صـاحبـة البيت برش الماء، أو بهـدية، يقـولون لهـا: «ييـبّس زرعاتكم»، وينشدون ما يلي:

اركـــيـله فـــوق اركـــيـله صـــاحـــبـــة البـــيت بـخـــيـله
صـــحَـــاره فـــوق صـــحَـــاره صـــاحـــبـــة البـــيت قـــهَـــاره

ان طواف الفتيـان في المناطق اللبنانيـة يشبـه طواف شعـوب البلقـان من الرومـانيين (سكان رومـانيـا) والبلغار واليونانيين في الازمنة القديمة؛ إذ كان نسـاء هـؤلاء يطفن على بيوت القرية بفتاة عارية مغطاة بالأزهار والأعشاب، وهن ينشدن، فترش صاحبات البيوت الماء على الفتـاة. كما أنه يشبـه طواف نسـاء بدو شـرق الاردن، تتصـدرهن كبيـرة سيـدات القوم منشدات لام الغيث بأن تجلب المطر. وفيما تربط شعوب البلقـان وبدو شـرق الاردن بين الأنوثة والمطر فيستسقون بطواف النسـاء، يربط سكان المناطق اللبنانية بين الطفولة البريئة والمطر فيستسقون بطواف الصبيان كما يستسقون بصلاة الكبار.

وبالرغم من ان جانبـاً من أسلوب استسقـاء الفتيـان يوحي بأنهم مندفعون اليـه للهو، الا ان الجوانب الكبـرى منه تبـدو في براءتهم ومشـاركتهم في التوجـه بالأدعيـة إلى الله الذي يقبل دعـاءهم ويشفع بهم أكثـر مما يقبل دعـاء الكبار ويشفـع بهم بحسب المفاهيم الدينية والاجتماعية الشـائعة. فإذا كان الكبـار مخطئين، وإذا كان القيظ فـي غيـر أوقاته من سوء أعمـالهم ومن غضب الله عليهم، فإن الصـغار الابرياء الذين قال المسيح عنهم: «دعـوا الأطفـال يأتون إلي» غيـر مـذنبين، ولا يستـأهلون عـقـاب الله والنتـائج السـيئـة لانقطاع المطر. لذا ينشـد الفتيان فـي طوافهم أناشيـد تدل على أنهم غيـر مـذنبين مثل النشيد التالي لفتيان بلدة مزبود من اقليم الخروب في قضاء الشوف:

يـــا ربـــنـــا. يـــا ربـــنـــا نحـنـا الصـــغـــار شـــو ذنبـنا

والكبار يعرفون أهميـة براءة الأطفـال وشفـاعـة الله بهم، لذا يسروّن بمواكبـهم تجول في ساحـات القرى، ليس فقط من قبيل تركهم على سجيتهم يلهـون ويفرحـون، بل أيضـاً من قبيـل أن يسمع الله صوتهم، ويشفـع بهم، ويستجيب لدعائهم. وفي هذا الصـدد يقول

لحد خاطر الذي اشترك في طواف الفتيان في الاستسقاء في طفولته: «أما السبب في اسناد هذه الحفلة إلى الأطفال وحدهم، فاعتقاد اللبنانيين فيهم أنهم كلهم بررة اطهار مقبولو الدعاء عند الله. لذلك ترى الأطفال إذا مشوا تنحى الكبار عنهم إلى جانبي الطريق، واكتفوا بحضهم على الانتظام في سيرهم والالحاف في انشادهم والتأمين على أدعيتهم»[1].

أم الغيث

من أناشيد استسقاء بدو شرق الاردن ما يرد فيها مناشدة أم الغيث. ومن أناشيد استسقاء فتيان النصارى في المناطق اللبنانية ما يرد فيها مناشدة أم الغيض. والمطلوب من كليهما ارسال المطر.

تقول أغنية بدو شرق الاردن المسلمين الذين يطوفون بتمثال ام الغيث المزين بالحلي الثمينة:

«أم الـغـيـث يـا دايم   اسـقـي زريـعـنـا الـنـايم
بـلّـي زرع بـوجـابـر   الـلـي لـلـكـرم دايم
أم الـغـيـث يـا دايم   اسـقـي زريـعـنـا الـنـايم

❖❖❖

«راحت أم الغيث تجيب الزلازل[2]   ماجات غيرالزرع طول السنابل
راحت ام الغيث تجيب الرياح   ماجات غير الزرع طول الرماح
راحت ام الغيث تجيب الرعود   ماجات غير الزرع طول القعود



«أم الـغـيـث يـا دايم   خـلّـي سـيـلـهـا يـدعـج
أم الـغـيـث يـا ربـي   اسـقـي زريـعـنـا الـغـربـي
أم الـغـيـث يـا دايم   اسـقـي زريـعـنـا الـنـايم»[3]

وفي الذاكرة الشعبية بعض مما كان يردده فتيان النصارى في استسقائهم، ومن

(١) لحد خاطر، العادات والتقاليد، مرجع مذكور سابقاً، جـ ١ ص ٢٠٤ .

(٢) الزلازل: كثرة الامطار في التعابير الشعبية. فيقال: زلزلت، اي امطرت إلى حد الفيضان واحداث الانخسافات والانهيارات في الارض. ومعنى ذلك ان ام الغيث ذهبت لتأتي بالمطر الغزير.

(٣) مقالة بعنوان «اللاهوت البدوي في شرق الاردن» للخوري بولس سلمان الذي اصبح فيما بعد مطراناً، في مجلة المشرق المجلد ١٨ ص ٤١٢ .

مناشدتهم لام الغيض ما يلي:

يـا أم الـغـيـض غـيـضـيـنـا	شـتّـي فـي حـقـالـيـنـا
شـتّـي فـي حـقـول الـزرع	تَ يـكـبـر ويـنـشـيـنـا

ان أم الغيث عند بدو شرق الاردن هي أم الغيض عند نصارى المناطق اللبنانية بحسب ما هو معروف عند اللبنانيين، أي انها ام المطر. وقد أشار إلى ذلك المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف في حديثه عن عادات اللبنانيين، فقال: «من عادات اللبنانيين إذا انقطع المطر عنهم ان يستسقوا بالباس ثياب لعود، وحمله طائفين به على البيوت ومنشدين: يا أم الغيض غيضينا، أي أم الغيث غيثينا، ويجمعون زيتاً لاسراج المعابد استمطاراً. وفي بعض القرى يحملون ايقونة القديس الياس النبي لأنه بصلاته حجب المطر واستمطر»[1].

إن لأم الغيث عند بدو شرق الاردن وأم الغيض عند نصارى المناطق اللبنانية تفسيرين: الأول يعني بها السيدة العذراء. والثاني يعني بها الهة وثنية اسمها أم الغيث، استمرت مناشدتها عند مسلمي البدو في شرق الاردن، وعند نصارى المناطق اللبنانية، لتجلب المطر، ولم تستطع الديانة المسيحية والديانة الاسلامية الغاءها لتجذرها في الذاكرة الشعبية وفي العادات والتقاليد قوة علوية يرتبط بها الغيث، ويجب الابتهال اليها لتسقطه.

ومن الارجح أن تكون أم الغيث الهة وثنية عبدها الجاهليون لا السيدة العذراء للأسباب التالية:

١ ـ عدم تضمين بدو شرق الاردن لتمثال أم الغيث، المزين جسمه وعنقه بالحلي الثمينة، أية اشارة إلى السيدة العذراء.

٢ ـ لو كانت أم الغيث هي السيدة العذراء لما ذكرت في أغاني فتيان النصارى في المناطق اللبنانية بـ «أم الغيض». فالغيض يعني في اللغة النقص والقليل من المياه. وهذا يضعف القول بأن المقصود بها السيدة العذراء. كما أنه ليس من المعقول أن يتحول لقب السيدة العذراء من أم الغيث، أو أم الغيض، إلى أم غاد بتحويل الضاد إلى دال كما يظهر في بعض الأغاني مثل أغاني فتيان دير القمر في الاستسقاء:

«يـا أم غـاد وغـاديـنـا	شـتـي فـي حـقـالـيـنـا»[2]

---

(١) لبنان. مباحث علمية واجتماعية، مصدر مذكور سابقاً، جـ ١ ص ٢٠١ .

(٢) شكري البستاني، دير القمر... مرجع مذكور سابقاً، ص ١٢٣ .

٣ ـ ان فتيان النصارى في المناطق اللبنانية كانوا يستسقون بحمل ايقونة القديس الياس، أو بحمل خشبة على رأسها شكل انسان يلبسونه ثياباً بالية، أو بالباس ثياب لعود. فلو كانت أم الغيض هي السيدة العذراء لاستسقى جميع النصارى بها وحدها. وحمل بعضهم لصورة العذراء خلال الاستسقاء هو من قبيل التبرك فقط كما يحمل بعضهم الاخر ايقونة القديس الياس.

ترميز سقوط المطر والايحاء به

من طقوس الوثنيين وحركاتهم التي تومىء إلى الماء تفاؤلاً بسقوط المطر تعكير مياه الجداول أو الأنهار أو الينابيع على أمل أن يؤدي اضطرابها إلى نزول الغيث، وذبح الطيور اعتقاداً بأن السماء تمطر بكاء عليها، والاعتماد على ثغاء النعاج العطشى في خلق الرحمة عند الاله وإنزاله المطر لسقيها. ومن وسائل استنزال المطر التضحية بإنسان غريب برميه في النهر، واغتسال الكهنة، وخوض العذارى الأنهر، وتمثيل سقوط المطر بأفعال ثلاثة هي الضرب على الطبل لأحداث ضجة تشبه الرعد، وضرب حجر من الصوان بحجر آخر لبعث شرر يشبه البرق، ورش المياه. ومن الوسائل أيضاً رش المياه على عذراء عارية مغطاة بالأزهار والأعشاب تطوف بها فتيات القرية، ورش المياء على قطع من القماش يحملها طائفون في القرى تشبهاً بسقوط المطر.

ان انشودة بدو شرق الاردن في الاستسقاء، التي ورد ذكرها، تصور أم الغيث ذاهبة لتأتي بالرعود والرياح والمطر، وتصور السنابل عالية بطول الرماح، مثقلة بالحب. وفي هذا تصوير لما يتوقعون حدوثه ويأملون.

ومثل هذا التقليد والايحاء يحصل في المناطق اللبنانية إذ كان الفتيان يطوفون، كما وردت الاشارة اليه، على البيوت طالبين رش الماء، متوقعين بذلك حصول المطر فعلاً. ومن أناشيدهم في بلدة الوردانية في اقليم الخروب من قضاء الشوف:

شاش[1] بلّي[2] كبّوا مي	تنتلي المحافر مي
يا الله تدوم، يا الله تدوم	يا الله الدني تصبح عوم

ان المنشدين يطلبون من صاحبات البيوت التي يتوقفون عندها في طوافهم ان تبل قطع الشاش التي يحملون بالماء. وفي هذا الايماء إلى الماء تفاؤل بسقوط المطر كي تمتلىء المحافر عندهم. والمحافر هي بركة واسعة في الوردانية طُمرت في أوائل

---

(١) شاش: نوع من القماش كان يضع الفتيان قطعاً منه على رؤوس العصي.
(٢) بلّي: من فعل بلّ، اي بللي بالماء.

الستينات من القرن العشرين، وجعلت ملعباً رياضياً. وكانت من قبل تمتلىء بالماء في الشتاء، ويستفاد منها حتى نهاية الصيف. وكانت تتم حولها دراسة القمح على البيادر.

ومن الأناشيد في بلدة مزبود من قرى اقليم الخرّوب في قضاء الشوف:

شيش[1] بلي يا عطشان   دير الميّ ع البستان

ان المنشدين يطلبون من العطشان تبليل قطع الشاش، التي يحملون، بالماء. وفي هذا الايماء إلى الماء تفاؤل بسقوط المطر، وبتحويل الاقنية إلى البساتين العطشى لريها.

ومن الاناشيد في بلدة مزبود أيضاً:

حط الشيش بالجرّة   نادوا رحمتك يا الله

ومعنى هذا وضع الشاش في الجرة ايماءً إلى الماء. ففي هذاالعمل تفاؤل بسقوط المطر الملقب بـ «رحمة الله»، إذ كانوا في السابق يستعملون قطع الشاش لتغطية فوهات الجرار المملوءة من الينابيع، ولتصفية المياه من الشوائب المختلفة في حال تعبئة الجرار من مياه برك الجمع.

أبطال عادات الاستسقاء

بدأت عادات الاستسقاء تتراجع منذ أواسط القرن العشرين حتى بطلت كلياً في نهايته فلم تُلحظ في استسقاء سنة ١٩٩٩، الذي اقتصر على الصلوات والأدعية والخطب. وهذا عائد إلى التطور الذي طال جميع المفاهيم والعادات فعدّل فيها وألغى، ومن بينها العادات في الاستسقاء. ففي الوقت الذي بقي الاستسقاء على الصعيد الديني صلاة تُؤدى في أماكن العبادة ودعاء إلى الله، اختفى ممارسةً لعادات وتقاليد أضحت ذكرى في أذهان المعمرين، وكلمات في بطون المؤلفات.

من أسباب إبطال عادات الاستسقاء وعي الناس بأن الحركات والمظاهر لا تجدي في انزال المطر، وذهاب البعض منهم إلى ان الصلاة والدعاء إلى الله لا يجديان أيضاً في إحداث هذا الأمر الخاضع في نظرهم لنواميس طبيعية لا إلى نواميس الهية. ومن الأسباب أيضاً تحول الناس من المجتمع الرعوي والزراعي إلى مجتمع الصناعة والتجارة والخدمات، وقلة عمل الفتيان في الزراعة، وضعف تأثير انحباس المطر عن الماضي بسبب ضعف الاعتماد على الزرع وعلى الزراعة البعلية، وبسبب الاعتماد على الزراعة المروية، مما جعل ارتباط الناس بشكل عام وارتباط الفتيان بشكل خاص،

---

(١) شيش: هي تحريف لكلمة «شاش».

بالزرع الذي يعتمد على مياه الشتاء، معدوماً أو ضعيفاً. ومنها أيضاً حلول عادات جديدة تشكل وسائل تسلية ولهو للفتيان بدلاً من الطواف الذي كان يحصل في مناسبات عديدة منها عيدا البربارة واللعازر، والاستسقاء.

حلقات الذكر

الحلقات هي اصطفاف الناس في حلقة (دائرة). والذكر بوجه عام هو العبادات عند أتباع جميع المذاهب الدينية. وهو بوجه خاص القرآن الكريم استناداً الى قوله تعالى: «انّا نحن نزّلنا الذكر وانّا له لحافظون»[1]. والذكر بمعنى العبادة نوعان: ذكر هادىء يُكتفى فيه بالقراءات والابتهالات، وذكر صاخب يتخلله الرقص والغناء.

من أنواع الذكر ذكر يؤديه مشايخ الطرق الصوفية، وتلاميذهم المسمّون «مريدين» و«خلائف» و«دراويش»، من وجوهه ما يُجرى بحسب الطريقة الرفاعية مساء كل خميس، أي ليلة الجمعة، بعد صلاة العشاء. وهو يبدأ بتلاوة الفاتحة، ثم أواخر سورة الفتح من عند جملة «محمد رسول الله والذين معه...»، ثم «سبّح باسم ربك الأعلى...»، ثم «وانّا أنزلناه في ليلة القدر...»، ثم «إذا جاء نصر الله والفتح...»، ثم المعوذات الثلاث، ثم الفاتحة، ثم طلب المدد من الرسول عليه الصلاة والسلام، ومدد الانبياء والإمامين (الحسن والحسين) والسبعة الاقطاب والاطراز والأنجاد والأفراد والأوتاد، ثم الوقوف والنطق بالشهادة مئة واحدى عشرة مرة. وعند الانتهاء يقف الشيخ متجهاً الى القبلة، ويدعو بما فتح الله عليه، فيصافح الجميع بعضهم بعضاً، وينتهي الذكر.

أما حلقات الذكر الذي نحن بصدده، فهو الذكر الذي يؤديه مشايخ الطرق الصوفية وتلاميذهم بحضور جمع غفير من المشاهدين. ويكون ذلك بترداد اسم الله وصفاته مراراً وتكراراً، او الثناء عليه والدعاء له بأحد الادعية التي يضعها مشايخ الطرق لتلاميذهم، والتي تسمى «الادوار» أو «المقامات». وقد تفرّد هؤلاء عن سائر رجال الدين بأمرين: أولهما اعتماد الرقص في حلقات الذكر على ضرب الطبول والمزاهر والصنوج، على اعتبار ان الموسيقى تبعد نفوس الذاكرين عن الرذائل، وتقرّبها الى الفضائل. وثانيهما القيام بجرح التلاميذ بالسيوف وغرز السفافيد (الاشياش) في أجسادهم، وإتباع ذلك غالباً بدوس الخيل على ظهور الشباب المنبطحين أرضاً.

وبناءً على ما ذُكر يمكن القول ان حلقات الذكر الصاخب هي من المواسم الزمنية ذات المظهر الديني، أو يغلب عليها الطابع الزمني على الطابع الديني. ويعتبرها العلماء

---

(1) سورة الحجر، الآية ٩.

المسلمون بدعةً منكرةً وباطلةً لا علاقة لها بالأعياد والمواسم الدينية الاسلامية لعدم وجود أصل لها في القرآن والسنّة، فيما رأى فيها السيّاح الأجانب احدى غرائب الشرق. أما الذاكرون، فيرون فيها قربةً من الله، والتزاماً بطاعته، وتسليماً للنفس الى حضرته، ويعتقدون انهم، من خلال نشوة الذكر وذهولهم عن كل ما حولهم وابتعادهم عن الماديات بحيث يصبح واحدهم روحاً خالصةً، يصلون الى الاتحاد بالذات الالهية.

من أصول حلقات الذكر وقواعدها الاذن بها وترؤسها وإتمام جميع مراسمها من شيخ طريقة أصيل ذي محتد، معروف في المنطقة، موثوق به من تلاميذه، أي أنه بحسب ما هو متعارف عليه «ابن جد» متواصل بسلسلة مشايخ الطرق حتى الرسول ﷺ. لذا ينادي عند مباشرته الأعمال الصعبة التي هي غرز السفافيد في أجساد التلاميذ، والدوس بالخيل على ظهور الشباب، «ياجدّاه».

ان حلقات الذكر كانت تجري في مدن ومناطق لبنانية كثيرة حيث يوجد مشايخ الطرق الصوفية. وكانت تجري في باحات مزارات الاولياء، وفي فسحات مدافن مشايخ الطرق، وفي تكايا خاصة بجماعة الصوفية(١). ويذكر شفيق طباره ان هؤلاء انشأوا تكيّة للدراويش في طرابلس تضمنت قاعة فسيحة أعدوها للرقص والغناء، وكانوا يحشدون فيها أحسن المنشدين، ويهيئون للرقص أبرع العازفين. وتبدو مقدرة العازفين في نقل الذاكرين من نغمة الى نغمة. كما تبدو مقدرة المنشدين في متابعتهم للأنغام والإنشاد. وكان الرئيس (الشيخ) يقف في وسط الحلقة ويستفتح الرقص مردداً بصوت شجي «أيها الفلك الدوار حول رؤوسنا بشكل حلقة تشوقاً إلى الشمس، انك تمارس العمل الذي نمارسه. ثم يفتلون (الفتلة) كما يسمونها ويندفعون في اللف والدوران تشبهاً بدوران الاقمار حول الأرض ويفضون منه الى رقصة السماح»(٢).

تُقام حلقات الذكر في اليومين الأولين من عيدي الأضحى المبارك والفطر السعيد، وفي خميس الأسرار الذي تجري فيه الدعسة. في اليوم المعين يأتي تلاميذ الطريقة الصوفية وبعض أهل قراهم في مواكب الى بيت شيخ الطريقة تتقدمهم البيارق. ويذهبون خلف الشيخ، الذي يسير وراء نوبته وسنجقه، الى مزار الولي أو النبي المحدد لإقامة الحلقة، مرددين الآيات الدينية والتسابيح والأناشيد.

يُطلق على الأعلام وآلات الحرب المرافقة للشيخ اسم «النوبة». ولكل شيخ طريقة

---

(١) انظر عن اجراء حلقة الذكر في صيدا، هلال ناتوت، مقالة بعنوان «من التراث الصيداوي» في كتاب «المؤتمر الاول للثقافة الشعبية، وردت الاشارة اليه، ص ٣٣٠ - ٣٣١. وانظر عن اجراء حلقة الذكر في مزارات الاولياء، لحد خاطر، العادات والتقاليد. مرجع مذكور سابقاً، جـ ١ ص ١٩١ - ١٩٧.

(٢) شفيق طبارة، الرقص في لبنان عبر العصور، بيروت، لبنان ١٩٥٧ ص ٨٨ - ٨٩.

سنجق. وهذا وصف لنوبة بر الياس الموجودة حالياً عند الشيخ خليل المجذوب الرفاعي، شيخ الطريقة الرفاعية، وقد ورث هذه النوبة عن أجداده. ان الأعلام هي:

ـ السنجق، أو العلم الأكبر، الذي يسير وراء آلات الحرب، وفيه هلال مكتوب عليه «لا اله إلا الله محمد رسول الله».

ـ الرايات، وهي بأسماء الأقطاب (ابراهيم الدسوقي، أحمد البدوي، عبد القادر الجيلاني، أحمد الرفاعي الخ...). ويُكتب في أعلى كل راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله. نصر من الله وفتح قريب»، ويكتب في أسفل الراية اسم القطب.

ـ الحربة، وهي راية الاشارة، وتعني مقدمة النوبة، وفيها تكمن أسرار شيخ الطريقة.

وتتألف آلات الحرب مما يلي:

ـ الطبل، وهو طبل الحرب المسمى «طبل الرجوج».

ـ الدفوف، أي المزاهر.

ـ الطبلة الصغيرة، وتُسمى «طبلة الباز» وقد اعتمدت في عهد الشيخ عبد القادر الجيلاني. ويمكن أن تضم النوبة طبلتين.

ـ الصنوج. وعددها غير محدد، لكنه يفوق الخمسة.

تمشي الحربة (راية الاشارة) في مقدمة الموكب، يليها الدراويش، أي التلاميذ، حاملين السلاح المؤلف من السيوف والدبابيس والاشياش. يليهم حملة الدفوف والطبلة والصنوج، فحملة العلم الأكبر والرايات. أما حامل الطبل، فهو يمشي في المقدمة، أو على الميمنة. ويسير الشيخ وراء سنجقه، ويقود فرسه شاب ذو صوت جميل ينشد الأناشيد والابتهالات. وقد يقوم الشيخ نفسه بالإنشاد. ويحمل السنجق بيرقجيٌّ قويٌّ البنية يعاونه مرافقون يمسكون بالحبال المتدلية على جانبي السنجق لاعتدال حمله، وبخاصة عند هبوب الريح. وتسير وراء نوبة الشيخ وموكبه نوبات القرى ومواكبها التي تتضمن لاعبي السيف والترس والخنجر والعصا، كما تتضمن بعض شباب وفتيان النصارى والشيعة المساكنين للسنّة، بقصد التفرج، ومن قبيل حب الاستطلاع ومشاركة مواطنيهم السنّة الذين يقوم مشايخ طرقهم بحلقة الذكر والدعسة.

عند وصول الموكب الى المزار المقصود يُستقبل الشيخ بـ «طابق حربي»، أي بالضرب السريع على الطبول والدفوف والصنوج من قبل التلاميذ وهم جاثون على ركبهم. وتُنار جدران المزار بالشموع وتزين، إذا لم تكن قد أنيرت وزُينت من قبل. ثم يصطف التلاميذ

حلقةً متراصي الأكتاف متلاصقي المناكب. ويبتدىء الذكر بتلاوة الجميع للفاتحة، ولآيات من القرآن الكريم. ثم يقف الشيخ في وسط الحلقة وبيده محجنة يشير بها، ويفتتح ما يُسمّى بـ «الادوار» أو المقامات» التي تختلف كلماتها وكيفية ادائها من طريقة إلى أخرى، فللطريقة الرفاعية، وعلى سبيل المثال، سبعة مقامات تُؤدى كل كلمة أو تعبير منها بالتمايل نحو احدى الجهات التالية: اليمين، اليسار، الأمام، الوراء. ويُؤدى في كل طريقة الدور الأول للمبتدئين، ثم تُؤدى لهم بقية الأدوار بالتسلسل بحسب تدرجهم وقدرة تحملهم. وهذا وصف لأدوار ثلاثة من احدى الطرق:

يبدأ الشيخ الدور الأول بتمايله نحو اليمين وقول «اللّه»، ثم الى اليسار وقول «اللّه». ثم يأخذ بالاسراع في القول وفي الحركة شيئاً فشيئاً وبتنوع، ويفعل ذلك مئات المرات. ويتبعه التلاميذ في ذكر اللّه وفي الحركة، مرقّصين غالباً الاشياش بأيديهم، فيبدون كأنهم كتلة واحدة تتحرك، وتبدو أصواتهم كأنها صوت واحد يصدر من فم واحد، فيما ينشد بعض أصحاب الأصوات الجميلة مدائح في النبي ﷺ، وفي الاولياء.

ويتبع الدورَ الأول دور ثانٍ فثالث يحصل فيهما ما حصل فيه. وبين كل دور ودور فاصل زمني يستريح فيه التلاميذ. ولا يختلف الدوران، الثاني والثالث، عن الأول الا في العبارات؛ إذ إن الشيخ يلقن التلاميذ في الدور الثاني كلمة «اللّه» متمايلاً الى اليمين، وكلمة «حي» متمايلاً الى اليسار. ويلقنهم في الدور الثالث كلمتي «اللّه. اللّه» متمايلاً الى اليمين، وكلمتي «اللّه حي» متمايلاً الى اليسار، ويفعل ذلك مئات المرات وهم يتابعونه كأنهم صوت واحد وكتلة واحدة والزبد على أفواههم والحشرجة في أصواتهم.

ومن حين إلى آخر يندفع بعض التلاميذ الى الرقص والدوران، والقفز أحياناً. ويظلون على هذه الحال، متابعين الرقص وترديد اسم الجلالة وصفته بشدة وبحركات عنيفة، متمايلين الى اليمين فإلى اليسار، حتى ينتهي بهم الأمر الى الغيبوبة والغشيان، وتأخذهم «نشوة الذكر» التي يذهلون بها عن العالم المادي، وينتقلون الى عالم روحاني.

حين تأخذ التلاميذَ نشوةُ الذكر، يتقدمون في كل دور واحداً واحداً من الشيخ، فيصيح «ياجدّاه»، ويضربهم بالسيف برفق، ويجرحهم جرحاً غير بليغ، ولا يوفّر نفسه من جرح جسده. الا ان العادة، على العموم، هي غرز الاشياش في أجساد التلاميذ. والاشياش، أو السفافيد، هي نبال قصيرة، أو شبه حراب، مخصّصة للمناسبة، مزيّنة بالسلاسل التي تنتهي بخشاخش، أو بقطع معدنية مكتوب عليها اللّه أو محمد، تنتهي من طرف برأس حاد، وتنتهي من الطرف الآخر بكرة خشبية، أو بمقبض له ثلاث فتحات صغيرة.

يغرز الشيخ السفافيد الى وسطها في صدور التلاميذ وخاصراتهم وأعناقهم بطريقة فنية بحيث تدخل تحت الجلد، ولا تغرز عميقاً في اللحم، ومنها ما ينفذ من جانب إلى آخر. ويتظاهر الشيخ أحياناً بعجزه عن غرز السفافيد بيده، فيعمد الى ضربها بالمطرقة كي يحدث بعمله هذا أبلغ الأثر في نفوس المشاهدين. ويمسك أحياناً بجلدة العنق ليغرز السفود فيها. ويسلّم التلاميذ أجسادهم للشيخ واثقين منه ومن خبرته، مؤمنين بأن أي ضرر لن ينالهم. ويتابعون الرقص والتمايل والسفافيد في أجسادهم الى أن يشير اليهم الشيخ بالتوقف، فيتقدمون منه واحداً واحداً ليسحب السفافيد، فيسحبها وهو يرتعش صارخاً «ياجدّاه». وكلما سحب سفوداً دهن بريقه الجرح الذي أحدثه وكأن ريقه بلسم أو دواء يخفّف من الألم أو يعجّل في الشفاء.

بعد الانتهاء من مراسم الحلقة يوهب الذكر الى من أقيم على نيته وكان الاجتماع لأجله، ثم تُتلى الفاتحة. وبهذا، وبتقديم الحلوى في بعض الحلقات، ينتهي الذكر، فيغادر المحتفلون المكان بالشكل الذي أتوا به. وهم يعودون من المزار كما أتوا اليه، منشدين على ضرب الطبول والمزاهر والصنوج، الآيات الدينية والتسابيح، وبعض أبيات من قصيدة البردة، والأناشيد الموجه بعضها الى صاحب المزار أو شيخ الطريقة الأساس.

تراجعت حلقات الذكر لاسباب عدة اهمها الأحداث اللبنانية بين عامي ١٩٧٥ و١٩٩٠. لكنها تجددت في البقاع الأوسط ابتداءً من سنة ١٩٩٦. وكانت أهم حلقاتها في عيد رأس السنة الهجرية ١٤٢١، الموافق للسادس من نيسان ٢٠٠٠، في باحة النبي العُزير المعروف أيضاً بالنبي زعور، بالقرب من عنجر، بحضور مفتي البقاع الشيخ خليل الميس وفعاليات سياسية وجموع غفيرة، وبمواكبة نوبة بر الياس. وأقيمت الحلقة بحسب الطريقة الرفاعية، وبتأدية دورين منها فقط تخللهما غرز سفافيد.

وهذا بعض مما يُنشد في بر الياس وجوارها عند الذهاب الى باحات المزارات والعودة منها من أجل اجراء حلقات الذكر:

- لا الــــه الا الــلـــه	مــحــمـــد رســول الله
- صلّوا صلّوا الســلاطين	عـلـى الـنـبـي طَـهَ الـزيـن
ابو فــاطمـه الزهـرا	جـد الحـسـن والحـسـين
- شي (شيء) لله يا رفـاعي	يـا مـطيّع الافـــاعي
- مـدد مـدد يـا رفـاعي	يـا مـطيّع الافـــاعي
ياسـاكن بأم عـبـيدان	عـقـلي في حـبك ضـاعي
- يامـسلم صـوم وصلّي	خلّي الشـيـطان يولّي

يـوم المحـشـر شـو تـسـوّي	يـوم الـ نُـجـمـع عـنـد الله
ـ يـا مـسـلـم صـلّي وقـاتـك	مـا تـنـفـعـك نـومـاتـك
بـوم الـ يـبـكـو اخـواتـك	مـات اخـونـا يـا ويـلاه
ـ يـا مـسـلـم عـوف الـغـيـبـه	والـنـمـيـمـه والـريـبـه
تـخـلّي الـولـدان يـشـيـبـا	يـوم المحـشـر عـنـد الله

ومن التسابيح الدينية ان يقول الشيخ «الله الدايم يا الله»، ويعيد ذلك بترديد اسماء الله الحسنى، ويرد التلاميذ وراءه بعد كل قول: «الله الدايم يا الله».

الدعسة

تنتهي حلقات الذكر في معظم المناطق بوطء الخيل على ظهور الشباب المنبطحين أرضاً، وهذا يُسمّى «الدعسة»[1] أو «الدوسة». والدعسة عادة قديمة متوارثة في بلاد الشام، وبخاصة في جهات البقاع الاوسط من لبنان، وجهات دمشق والقلمون وحمص وحماه وحلب من الجمهورية العربية السورية.

الأقوال والعنعنات متفقة على أن الدعسة نشأت في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي كوجه من اوجه الاحتفالات بانتصاره على الصليبيين، وانها تزامنت مع نشوء النوبة. وبعض هذه الأقوال والعنعنات يفيدُ ان السلطان صلاح الدين هو الذي حدد زمان الدعسة بين عيدي الفصح عند الشرقيين والغربيين لتكون ذكرى يحتفل بها المسلمون. وعن منشأ الدعسة يقول لحد خاطر:

«الأقوال متضاربة في أصل هذا الموسم، وأشهرها القول بانبثاقه عن احتفالات شعبية أقامها سكان هذه البلاد على أثر اتفاق عقده السلطان صلاح الدين الأيوبي مع الصليبيين وريكاردوس قلب الاسد، فأوجب الاغتباط. ومن ثم أخذت هذه الاحتفالات تتكرر كل عام في موعدها، متطورة من حال الى حال حتى أصبحت الآن تقليداً وطنياً له طابعه الحالي المعروف»[2].

ان الاحتفالات بالدعسة قديمة إذاً، وقد كانت عند بني تغلب والسعدية كرامات للسلف بقيّة للخلف، ثم انها اصطبغت بصبغة دينية هي تكريم الاولياء. وصار يُراد منها، كما يُراد من غرز السفافيد في الأجساد، التعبير عن قوة الايمان الديني، وإظهار المقدرة على تحمل الضربات والآلام والمشقات، وارهاب الاعداء بأسلوب لا يتحمله الا

---

(١) الدعس: كلمة لغوية معناها شدة الوطء.

(٢) لحد خاطر، العادات والتقاليد... مرجع مذكور سابقاً، جـ ١ ص ١٩٨.

الرجال الشجعان الاشداء. فهي إذاً تصطبغ بصبغة دينية، وتصطبغ، بناءً على خشونتها، بصبغة حربية مشكلةً أحد مظاهر الطابع الحربي الذي ميّز مجتمعاتنا.

انفرد البقاع الأوسط عن سائر المناطق اللبنانية بالدعسة، بالتأكيد في القرون الأخيرة، وعلى الارجح قبل ذلك. أما الامكنة التي كان مشايخ الطرق الصوفية يجرون الدعسة فيها، فهي مزارات الولي السيد الشيباني على طريق عميّق، والنبي العُزير بين عنجر وبر الياس، والنبي نوح في الكرك. وفي المزار الأخير كانت تُقام أهم الاحتفالات.

ان زمان الدعسة في البقاع الاوسط هو خميس الاسرار في مزاري النبي العُزير والولي الشيباني، والجمعة العظيمة في مزار النبي نوح. ويُعرف خميس الأسرار بـ «خميس الدعسة»، وكان يُسمّى «خميس المشايخ». ومن المرجح أن يكون استمرار هذا الموسم الاسلامي بين عيدي النصارى الغربيين والشرقيين، وفي موعد ثابت بعكس الأعياد والمواسم الدينية الاسلامية، عائداً إلى تجذره في التراث، والى عاملي المناخ والتعاطف الاجتماعي بين السكان على اختلاف مذاهبهم. فموقعه في نيسان في أوائل فصل الربيع مما يسمح بإقامة حلقة الذكر والدعسة في وقت ملائم لتجمع الناس وحضورهم، ويتيح المجال لانبطاحهم على أرض جافة، ويسمح بحضور النصارى للاحتفال، كما يسمح بحضور جمع غفير من ابناء المناطق اللبنانية والسورية المجاورة، وبخاصة من منطقة وادي بردى التي كان أهلها يأتون ببيارقهم ونوباتهم مشاةً وعلى ظهور الرواحل لحضور الدعسة في النبي العُزير والنبي نوح.

ان فصول الدعسة ووقائعها هي نفسها في المناطق السورية واللبنانية؛ إذ إنها تُجرى بعد الانتهاء من مراسم حلقة الذكر في باحة مزار أحد الأنبياء أو الأولياء، وبمشاركة من النصارى والشيعة للسنّة القائمين بها. وكل هذا يدل على التراث المشترك، وعلى التشابه في العادات بين المناطق السورية والمناطق اللبنانية، وبخاصة المتجاورة كمنطقة النبك ووادي بردى المجاورتين للبقاع. كما يدل على المشاركة المتبادلة بين ابناء الطوائف في المناسبات الاجتماعية.

يتم الاحتفال بمجيء المشايخ ووفود القرى، وعودتهم، بحسب الطريقة التي وردت الاشارة اليها في الحديث عن حلقات الذكر. ويتخلله العاب سيف وترس، وخنجر، وعصا، وسباق خيل (ميادين). وأهل قب الياس كانوا يجرون هذه الألعاب في فسحة كانت واقعة بجوار البلدة، اسمها «المزيّنة»، هي اليوم مدرسة وسوق خضار.

عند الانتهاء من حلقة الذكر يطلب الشيخ من الشباب الانبطاح قائلاً: «ناموا

ياشباب». فينبطح هؤلاء على بطونهم في صف طويل، باتجاه واحد، رؤوسهم نحو القبلة، وأجسادهم متلاصقة. ويقف عند كل منهم حارسان، الأول فوق الرأس، والثاني فوق الرجلين. وقد ينبطح بعض الشباب النصارى والشيعة مجاراةً منهم لمساكنيهم السنّة، وتأكيداً على أنهم هم أيضاً شجعان وقادرون على تحمل ما يتحمله الشباب السنّة الذين يتبركون بدوس الجياد عليهم، ويعتقدون ان ذلك يجلب لهم الصحة والسلامة، ويقيهم من الاخطار، ويشفي المرضى، ويخلص المتألمين من آلامهم.

بعد ان يتأكد الشيخ من استلقاء الجميع على بطونهم بحسب الوضع المطلوب، وحسن التصاقهم، وعدم وجود أي فرجة بين أجسادهم، يقرأ الفاتحة، ويهمس بأذن فرسه كلمات سرية يحتفظ بها ولا يعلنها للآخرين، وهذا يُسمّى «الاستئذان». ثم يمتطي فرسه وهو يصيح «ياجدّاه» ثلاث مرات، ويقول للنصارى الموجودين: «دستوركم ياعيسويّون»[1]. ثم يسير بفرسه، التي قد يجرّها أحد تلاميذه، على ظهور الاجساد، يتبعه أحياناً بعض أقرانه من المشايخ أو بعض التلاميذ، وسط هتاف القوم «الله أكبر»، ودعاء البعض وابتهالهم الى صاحب المزار الذي تُقام في باحته الدعسة بعبارة: «دخلك يانبي (فلان) خلّص الشباب»، الى أن تقطع الخيل الكتلة اللحمية المتراصّة.

وإذا قام جميع المنبطحين أرضاً، وغالباً ما يحصل هذا، يُعيد القوم ذلك الى بركة صاحب المزار، وطهارة الشيخ، وصلاح الشباب النائمين. ويرفعون أصواتهم شاكرين مهللين، ويعقدون حلقات الرقص والغناء على ضرب الطبول والمزاهر والصنوج. ويقومون بألعاب فروسية. ونادراً ما يموت بعض الشباب أو أحدهم. وقليلاً ما يصاب بعضهم بضرر جسدي بالغ، ويحصل هذا عند جفل الخيل. ومن يموت في الدعسة، يُعتبر من فاقدي الدنيا والآخرة معاً في نظر المشايخ والحضور[2].

ان آخر دعسة أجريت في البقاع الاوسط كانت في خميس الاسرار في عام ١٩٧٦، وقد داست فرس الشيخ فيها على ما يقارب مئة شاب بينهم بعض النصارى. ونجاح حلقة الذكر التي أقيمت في النبي العُزير في نيسان سنة ٢٠٠٠ حمل أتباع الطريقة الرفاعية على التفكير باحياء الدعسة في المستقبل كجزء من التراث.

---

(١) دستور: كلمة تعني الاستئذان للمباشرة بالعمل.

(٢) للمزيد من المعلومات عن الدعسة في البقاع الاوسط، انظر لحد خاطر، العادات والتقاليد... مرجع مذكور سابقاً، جـ ١ ص ١٩٨ ـ ٢٠٢. وللمزيد من المعلومات عن الدعسة في منطقة القلمون السورية، انظر يوسف موسى حنشت، طرائف الأمس غرائب اليوم، دار الرائد اللبناني، الحازمية، لبنان ١٩٨٢، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

الأعياد الزمنية

الأعياد الزمنية في لبنان هي أعياد شخصية وأعياد عامة. الأولى هي تذكارات للمناسبات المفرحة في حياة الفرد كعيدي الميلاد والزواج. والثانية هي التي يحتفل بها جميع اللبنانيين أو فريق منهم، وهي تذكارات لأهم الأحداث السياسية كعيد الاستقلال، أو هي تكريم لفئة معينة مثل الامهات والآباء والمعلمين. والأعياد الزمنية هي أحدث وأقل من الأعياد والمواسم الدينية. وبعضها لم يتوصل إلى اكتساب الطابع الجماهيري الواسع كالأعياد الدينية. ومنها ما ظل له الطابع الرسمي الصرف الذي يقتصر على البطالة وعلى احتفالات ذات مراسم محددة تتمثل في القاء الخطب والحضور الرسمي.

كان عندنا في العهد العثماني عيد جلوس السلطان على العرش، وفيه تُقام الاحتفالات في المدن وقصبات المناطق، ويدعى للسلطان ودوام مجد الدولة العلية العثمانية. وموقع عيد السلطان عبد الحميد الثاني في ٣١ آب، وكان يُحتفل به في الشوف في مركز المتصرفية الصيفي (بيت الدين) حيث تُشعل النيران على السطوح، وتأتي اليها وفود القرى بالحداء والحوربة والعراضات. ثم يُقام في ميدان قصر بيت الدين ألعاب فروسية وعراضات عساكر. وبالإضافة إلى هذا كان الناس يشعلون النيران على سطوح منازلهم ويقيمون حلقات الدبكة في الساحات.

ثم غدا في المناطق التي كانت تابعة للحكومة العربية في دمشق بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٠ احتفال بتأسيس هذه الحكومة واحتفال بتأسيس المملكة العربية السورية في ٨ آذار ١٩٢٠ . وكما تطلب الأمر الواقع الاحتفال بأعياد الاتراك العثمانيين في اثناء احتلالهم لبلادنا، هكذا تتطلب الاحتفال بأعياد الفرنسيين في فترة انتدابهم على سورية ولبنان، فكان اللبنانيون يشاركون في الاحتفال بعيد فرنسا القومي في الرابع عشر من شهر تموز (عيد الثورة الفرنسية)، وعيد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى في ٢٤ تشرين الثاني، وهو تاريخ توقيع الهدنة مع الالمان.

ان أهم أعيادنا في عهد الاستقلال عيد استقلال لبنان في الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني، وعيد العمال في الأول من أيار، وعيد الشهداء في السادس من أيار، وعيد الجيش في الأول من آب، وعيد الدرك في التاسع من حزيران، وعيد المعلم في آذار[1]، وعيد المقاومة والتحرير في الخامس والعشرين من أيار الذي اعتمد بعد تحرير جنوب لبنان والبقاع الغربي من الاحتلال الاسرائيلي في أيار ٢٠٠٠ . إن هذه

(١) حدد هذا العيد عند اعتماده في سنة ١٩٦٢ في السبت الثاني من آذار، ثم حدد في سنة ١٩٨٣ في التاسع من آذار. وفيه تقفل جميع المدارس والمعاهد الرسمية والخاصة.

الأعياد تقتصر على المظاهر التالية أو على بعضها: اقامة الاحتفالات، والقاء الخطب، وتقبل التهاني، وإقامة الزينات، ورفع اللافتات والشعارات، وإشعال النيران والألعاب النارية. لكن عيد الاستقلال يشتمل على جميع هذه المظاهر، كما يشتمل بالإضافة إليها على الاستعراض العسكري وسط حضور رسمي، محلي وأجنبي، على رأسه أركان الحكم وفي طليعتهم رئيس الجمهورية.

ومن الأعياد الزمنية الأعياد الفئوية كتذكارات تأسيس الأحزاب وميلاد مؤسسيها. وهي أعياد حديثة العهد؛ لأن تأسيس الأحزاب السياسية العلنية بدأ في عهد الانتداب الفرنسي، وهي تتخذ أهمية بمقدار ما للحزب من نفوذ قد يختلف من وقت إلى آخر تبعاً لاختلاف المعطيات والأوضاع السياسية.

ومما يجدر ذكره ان الأعياد الزمنية تكاثرت في الفترة الأخيرة، فصار هناك عيد الأم وعيد الطفل وعيد الجد والجدة وعيد العشاق وعيد الأب الواقع في ٢١ حزيران.

عيد المقاومة والتحرير

حُدد الخامس والعشرون من أيار عيداً وطنياً باسم «عيد المقاومة والتحرير»، فكان ذلك تكريساً رسمياً لفرح الاحتفال الذي عمّ لبنان من أقصاه إلى أقصاه وتجاوزه إلى العالم العربي، وإلى الشعوب المؤيدة للقضايا العادلة والمحقة، باكتمال تحرير جنوب لبنان والبقاع الغربي من رجس الاحتلال الاسرائيلي، على أثر انسحاب آخر جندي اسرائيلي عنهما في الرابع والعشرين من أيار. وبهذا تكتمل سلسلة انسحابات الجيش الاسرائيلي الذي بلغ أقصى مدى توسعه في اجتياحه للبنان سنة ١٩٨٢، ووصوله إلى العاصمة بيروت.

ان هذا العيد هو عرس التحرير، وعرس المقاومة التي أجبرت ببطولاتها وشهاداتها وتضحياتها، وبالتفاف اللبنانيين حولها، اسرائيل على سحب جيشها من لبنان. فهي لم تجلُ عن جنوبه وبقاعه الغربي، بل أجليت عنهما بفضل ضربات المقاومة الوطنية اللبنانية، وعلى الأخص المقاومة الاسلامية، وبفضل توحد اللبنانيين جيشاً وحكومة وشعباً، وتلازم المسارين السوري واللبناني، في مواجهة الاحتلال ورفض الخضوع والاستسلام للشروط الاسرائيلية وتحمل خسائر تدمير القصف الاسرائيلي للمدن والقرى اللبنانية وللبنى التحتية.

عيد الخامس والعشرين من أيار هو عيد النصر المجيد الذي صنعه الشهداء متوهجاً بأرواحهم الطاهرة، مشرقاً بايمانهم، مضمخاً بطيب دمائهم الزكية. فإذا كان تحرير لبنان

من الانتداب الفرنسي تم بفضل النضال السياسي، واستغلال الظروف الدولية، والتضحية بعدد قليل من الشهداء، فإن تحريره من الاحتلال الاسرائيلي جاء بفضل الجهاد العسكري والعمل الفدائي أولاً، في ظل اختلال ميزان القوى الدولية لمصلحة اسرائيل، وفي اجواء احباط العرب وهزيمتهم وقبول بعضهم بحلول التسويات المذلة، كما جاء بفضل استشهاد آلاف المجاهدين، اضافة إلى الدموع والآلام والمحن ومآسي التهجير والدمار والخراب الذي لحق بلبنان جراء الغزو الاسرائيلي ومقاومة اللبنانيين له.

ان عيد المقاومة والتحرير هو يوم المجد للبنان، ويوم العار لاسرائيل، بما يمثله من معانٍ، وما يحمل في طياته من عبر. فلأول مرة في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي تنسحب اسرائيل من أراضٍ عربية بالقوة مما يحق للبنان ان يباهي العالم بانه، وهو البلد الصغير مساحةً وعدد سكان، كان كبيراً في صنائعه وفي مواجهة الأحداث، وتمكن بقوة ايمان ابنائه، وصدق نضالهم، وصلابة وحدتهم بعد تفرقة وانقسام وحرب أهلية طويلة، ان يهزم بالأسلحة الفردية والخفيفة أقوى ترسانة عسكرية في الشرق الأوسط تمتلك أسلحة الدمار وأحدثها. ومما يجعل لبنان أيضاً يفتخر في هذه الحقبة المظلمة من تاريخنا، وفي زمن التقهقر العربي، انه أنقذ الكرامة العربية من ذل التسويات المفروضة وعار الهزائم المتلاحقة. وبناءً على كل هذا يحق له أن يحتفل بعرس التحرير، ويحيي أكبر فرحة بأهم حدث في تاريخه.

عيّد اللبنانيون بانتصارهم وبتحرير أرضهم، واكتملت فرحتهم وتضاعفت حين لم ينغّصها ما توقعته اسرائيل من اقتتال أهلي يعقب انسحابها؛ لأن هذا الانسحاب الاندحاري، المراد له أن يكون تفجيرياً كما حصل في جبل لبنان وفي شرق صيدا سنة ١٩٨٣، كان انسحاباً هادئاً لم يترك أية انعكاسات سلبية على الوضع الداخلي في لبنان، وعلى الوضع في المناطق المحررة، بل عزّز وحدة اللبنانيين وتضامنهم وعيشهم الواحد، وأبقى النصر على وهجه وتألقه. لقد انسحب الجنود الاسرائيليون ومعهم العملاء يجرون ذيول الخزي والعار، ويلعقون مرارة الهزيمة، فيما كان اللبنانيون على مختلف فئاتهم وأحزابهم واتجاهاتهم، وفي جميع مناطقهم، يحتفلون بعودة المناطق المحررة إلى الوطن، وعودة الوطن اليها، بشكل لم يسبق له نظير. فبقدر ما كانت التضحيات كبيرة، والجهاد مشرفاً، بقدر ما جاء الفرح بتحقيق النصر كبيراً وعاماً.

ان احتفال اللبنانيين بالأعياد الزمنية، باستثناء عيد الاستقلال في بداياته، لم يتخذ الصفة الشعبية الجامعة، ولم يكن أحياناً يتعدى الصفة الرسمية. لكن عيد المقاومة والتحرير كان عيد الجميع، مدنيين وعسكريين، رسميين وغير رسميين، كباراً

وصغاراً، مسيحيين ومسلمين، وقد أحياه اللبنانيون بعفوية بحسب عاداتهم وتقاليدهم ومظاهر أفراحهم المعهودة معبرين عن وحدتهم في السراء والضراء وعن صدق وطنيتهم وقوة التعاطف فيما بينهم.

تقاطرت الوفود الرسمية والشعبية نحو الأراضي المحررة: رئيس الجمهورية، رئيس المجلس النيابي، رئيس الحكومة، الوزراء، الكتل البرلمانية، المسؤولون على مختلف مستوياتهم، الرؤساء الروحيون ورجال الدين، التنظيمات الحزبية والنقابية، المعلمون وتلاميذ المدارس والجامعات والمعاهد، الوفود الشعبية من مختلف الفئات والأماكن. كتل بشرية تتحرك، معظمها يسير وراء العلم اللبناني والاعلام الحزبية والكشفية، لتكحل العين برؤيا الارض التي تباركت بدماء الشهادة وتقدست بقيم الجهاد والتضحية والبطولة، ولتحتفل بعرس التحرير، وتهنىء أهالي المناطق المحررة بعودتهم إلى أحضان الشرعية. فيستقبلهم هؤلاء برش الزهور والورود والارز، وبالهتافات والأناشيد والتصفيق والرقص واطلاق النار وتوزيع الحلوى على مداخل القرى وفي الساحات العامة وفي جميع أماكن الاستقبال. وفي نشوة النصر وغمرة الفرح تغيب عن البال مآسي الماضي، وهواجس الخوف المحتمل من المستقبل، وتطمئن النفوس إلى الحاضر المجيد الواعد بغد أفضل من الماضي.

عبارة «مبروك التحرير» على كل شفة ولسان. الزغاريد تنطلق من أفواه النساء، وبخاصة الكبيرات اللواتي عندهن لكل مناسبة فرح الزغرودة الملائمة. وحلقات الدبكة تعمر في الساحات على قرع الطبول أو على أنغام المجوز والناي. وأجراس الكنائس تدق دقات الفرح المعهودة متحدة مع التكبير المنطلق من المآذن، ومن أفواه الناس. وأصوات الرصاص تشنّف الفضاء من حين إلى آخر عند استقبال الوفود وعند النخوات وخلال الدبكات والأغاني الشعبية بحسب عادات اللبنانيين الذين يطربون من قديم الزمان لصوت البارود، ويعبرون به عن فرحهم من جهة، كما أنهم حالياً يوجهون رسالة إلى العدو الاسرائيلي بأن البنادق التي لاحقته وهزمته وطردته جاهزة لأن تطرده مما تبقى من الأراضي المحتلة، كما هي جاهزة لأن تصدّ أي عدوان جديد.

وإذا كان من الطبيعي أن تشهد الأراضي المحررة الاحتفالات الكبيرة والرئيسة والجموع الحاشدة، فإن سائر الأماكن اللبنانية شهدت صورة مصغرة عما كان يجري في الجنوب والبقاع الغربي. فقد انطلقت مواكب السيارات، وطافت المسيرات في كل منطقة لبنانية، وقُدمت الضيافات، ورُفعت الاعلام، وعُلقت اللافتات التي تحيي رئيس البلاد، والمقاومة الوطنية، وعلى الاخص المقاومة الاسلامية والجيش اللبناني، وأرواح

الشهداء الأبرار. ففي سبيل التحرير هانت التضحيات التي تحملها اللبنانيون عامة، وأبناء المناطق المحتلة خاصة. وفي عيده الميمون عوّضوا عما عانوه من قلق وحزن وألم ومآسٍ وخوف بجميع مظاهر الفرح المألوفة عندهم.

استنتاجات حول الأعياد

أقدم الأعياد هي الأعياد والمواسم الدينية الوثنية التي سُنّت احتفالاً بذكرى الآلهة والحكام المؤلهين. وبعدها غدا لأتباع الديانات السماوية أعيادهم، وهي ذكر من أوحي اليهم بها وبشروا بتعاليمها، وذكر سائر رموزها وأعلامها وأهم أحداثها ومناسباتها. وقد أخذ أتباع الأديان السماوية عادة الحفاوة بالأعياد من الوثنيين بعد ان طهّروها مما يشوبها من الأدناس، وجعلوها تتلاءم مع تعاليم أديانهم، وتوخوا من مناسباتها، بالإضافة إلى العبادة، اغراضاً انسانية واجتماعية بما يتخللها من تزكية المال والتعاطف الاجتماعي ووجوه الاحسان إلى الفقراء والبائسين والمحتاجين.

الأعياد الدينية في لبنان قديمة وكثيرة نظراً لتعدد الأديان ولكثرة المذاهب التي توافر لأتباعها على امتداد القرون حرية ممارسة الشعائر والطقوس الدينية. وأهمها اليوم تلك التي اعتبرت أعياداً رسمية تحصل فيها البطالة ليوم كما في عيد مار مارون، ولثلاثة أيام على الأكثر كما في عيدي الاضحى المبارك والفطر السعيد. وقد روعي مبدأ المناصفة في أيام عطل الأعياد بين المسلمين والمسيحيين، فجاء مجموع أيام عطل أعياد كل منهم تسعة. والأعياد الاسلامية الرسمية هي عيد رأس السنة الهجرية، وذكرى عاشوراء، وعيد المولد النبوي الشريف، وعيد الفطر السعيد، وعيد الأضحى المبارك. والأعياد المسيحية هي عيد الميلاد، وعيد رأس السنة، وعيد الفصح المجيد (غربي وشرقي)، وعيد مار مارون، وعيد جميع القديسين، وعيد انتقال السيدة العذراء.

كانت الأعياد الدينية المسيحية والاسلامية مناسبات صلاة وعبادة وتقوى. والصلاة في أي وقت هي في نظر المؤمنين واجب ديني يقرب من الله ويبعد الشرور «الصلا تدفع البلا» فكيف إذا كانت في الأوقات المفروضة، وفي المناسبات المباركة والمقدسة. وكانت الاعياد والمواسم الدينية مناسبات وقوف عند أبعادها الانسانية والاجتماعية، وتذكراً لمآثر أصحابها ولما قاسوه من الآلام والمحن والمآسي، وتكريماً لهم. وفيما ظل لها هذا الطابع عند المتدينين والمؤمنين، غدت عند غيرهم، ولا سيما في العصر الحاضر، مناسبات ترفيه وتسلية وفرح لما يتخلل الاحتفالات بها من مظاهر زمنية بعضها محرم مثل شرب الخمرة.

كان الناس ينتظرون الأعياد من سنة إلى أخرى، ويحيونها باحتفالات تقليدية توارثوا عاداتها وتقاليدها، ويستعدون لها بتنظيف البيوت وتزيينها، ويستقبلونها بالثياب الجديدة المعدة لها، ويصنعون الاطعمة والحلويات التي يسمونها «بركة العيد»، ويزورون المعابد ويضيئونها ويزينونها ويؤدون الصلوات فيها، ويقومون بمظاهر الفرح المألوفة من رقص وغناء واطلاق رصاص وإشعال نيران ولعب فروسية. وكان الأولاد على الاخص ينتظرونها للبس الجديد والجميل من الثياب، ولأكل اللحم وأطايب الاطعمة والحلويات التي لم تكن تتوافر في كل آن، ولأخذ الدراهم التي ما كانت تصل إلى أيديهم الا في مناسبات قليلة من السنة أهمها الأعياد فيشترون بها ما يفرح من الالعاب والمفرقعات.

من العادات التزاور وتبادل التهاني والهدايا، وتقديم مبلغ من المال باسم «عيدية» للأطفال في معظم الأعياد. وتتخذ المعايدة أحياناً طابعاً جماعياً بمعايدة ابناء العشيرة أو القرية بعضهم بعضاً في المعبد، أو في ساحة القرية، أو في البيوت. ومن العادات الاطلالة على المحزون أولاً لجبر خاطره المكسور والتعبير له عن مشاركته في حزنه، والبدء بمعايدة كبير العائلة أولاً، ومعايدة القرى للشيخ أو المقاطعجي وتقديم العيدية له وهي مقدار من الصابون والسكر والحبوب والذبائح تختلف كميته وقيمته باختلاف ثروة القرويين وحال قريتهم[1].

ولا تقتصر المعايدة والمهاداة على ابناء الطائفة أو المذهب، أصحاب العيد، بل ان مساكنيهم من ابناء الطوائف أو المذاهب الاخرى يزورونهم مهنئين ويحملون اليهم الهدايا، وقد يشاركونهم في احياء الأعياد والمواسم، كما أنهم يأخذون عنهم بعض العادات. فالأعياد مناسبات لتبادل مشاعر المودة والألفة والمحبة، ولتعزيز العيش الواحد، مما شكل عوامل ايجابية طغت على العوامل السلبية الناتجة من استغلال تعددية الطوائف والمذاهب.

تطورت الاعياد والمواسم الدينية شكلاً ومضموناً تبعاً لتطور البنى الاقتصادية والاجتماعية، وتعدلت عاداتها بسبب تعدل المفاهيم والتطور الفكري، وبفضل الاقتباس عن الشعوب الاخرى، ولا سيما الغربية. وتحولت الى مناسبات يغلب فيها الطابع الاجتماعي على الطابع الديني، في الوقت الذي فقدت أعياد الدول الصناعية طابعها الديني وطابعها الاجتماعي معاً، وأصبحت فولكلوراً وشكلاً دون مضمون.

---

(١) انظر لائحة باسماء الاشخاص وما حملوه من عيدية إلى أحد المقاطعجيين في وثيقة من محفوظات المديرية العامة للآثار، بيروت، نشرها رياض غنام في التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي لمقاطعات جبل لبنان ١٧٨٨ - ١٨٦١ ، اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه اللبنانية، مقدمة إلى الجامعة اللبنانية - كلية الآداب، الفرع الأول، قسم التاريخ، بيروت ١٩٩٦ ص ٦٩٧ .

الفصل السادس:

ألوان الرقص والغناء في احياء الافراح

بعد ان جرى التحدث عن العادات والتقاليد في الأفراح والأعياد، هناك ضرورة للحديث عن الرقص والغناء اللذين كان اللبنانيون يحيون بهما أفراحهم وأعيادهم واحتفالاتهم. وألوانهما الشعبية هي تلك التي تهز نفوس السواد الاعظم منهم، وتعبّر عن مشاعرهم وأحاسيسهم، وتشكل مرآة صادقة لواقعهم الاجتماعي ولمستوى الفن عندهم. وقد نشأت في بيئة طبيعية ساحرة أضفت عليها جمالها ورونقها وتنوعها، ونمت وتطورت في مناخات ثقافية هي وليدة تفاعل الحضارة المحلية مع الحضارات الأخرى.

الرقص والغناء، ورفيقتهما الموسيقى، عند اللبنانيين كما عند سواهم، من أفضل مجالات التسلية والترفيه، وأبلغ وسائل التعبير عن المشاعر وخلقها في آن. فكما ان أداة التعبير عند الكاتب قلمه، وعند الرسام ريشته، وعند النحات ازميله، هكذا فإن أداة التعبير عند الموسيقار آلته الموسيقية، وعند المغني صوته، وعند الراقص حركته. وبالابداع ـ والابداع من سمات اللبنانيين ـ تتحول حروف الكاتب إلى معاني جميلة، وألوان الرسام إلى صور فاتنة، ونقش النحات إلى تماثيل ناطقة، ونقرات الموسيقار على آلته الموسيقية إلى ألحان ساحرة، وأصوات المغني إلى تسابيح وترانيم ملائكية، وحركات الراقص إلى ايقاع جذاب.

كان الرقص والغناء والموسيقى من المراسم الأساسية في العبادات عند الفينيقيين، وقد أجادوها واشتهروا بها. وللدلالة على أهميتها وارتباطها بالسكان وقداستها مُثلت مدينة صيدون بهيئة مغنية على مسكوكاتها. وحين بنى الملك سليمان هيكله استعان بالصناع الفينيقيين لبنائه من أخشاب الارز، كما استعان أيضاً بأبرز العازفين والمغنين منهم ليشكلوا له فرق الغناء والعزف على القيثارة في المعابد العبرانية.

وكانت فنون الرقص والغناء والموسيقى رفيقة اللبنانيين عبر العصور، فاعتمدوها في مناسبات الأفراح والتجمعات على مختلف أنواعها كالولادة والزواج والولائم والأعياد، ومواسم الحصاد والقز وقطف العنب وعصر الدبس، والسهرات، ومكافحة الجراد، واستقبال الأعيان والمسؤولين والعائدين، والاحتفالات بالنصر. كما اعتمدوها في الحروب لإثارة النخوة والحماسة، وفي المآتم.

اختلفت ألوان الرقص والغناء والموسيقى باختلاف الازمنة والأمكنة. واختلف الاقبال عليها واتقانها من فئة إلى أخرى. فمعظم المقاطعجيين مثلاً كانوا يأنفون منها معتبرين انها لا تليق بهم، وان على الآخرين مهمة اسعادهم واطرابهم، لذا انصرفوا عنها إلى وسائل لهو وتسلية وفرح هي في الغالب ألعاب فروسية أو وسائل يغلب عليها الطابع الحربي.

ان بعض اللبنانيين أشد ميلاً إلى الفرح، وأكثر جدارة في التعبير عنه بالرقص والغناء والموسيقى من بعضهم الآخر، بحكم بيئتهم وثقافتهم ومفاهيمهم. فهذه الفنون، وعلى سبيل المثال، كانت أضعف عند الدروز مما هي عند مساكنيهم لتفضيلهم على العموم الرصانة والوقار على اللهو والمرح، ولتعزيز مشايخهم الروحيين الكثر (رجال الدين) ومشايخهم الزمنيين (المقاطعجيّين) هاتين الصفتين، مما أضعف الاتجاه نحو العديد من وسائل التسلية والترفيه.

بعض المؤلفين، ومنهم جون كارن وأنيس فريحه، عمّموا الظاهرة المذكورة على جميع الدروز، فوقعوا في خطأ تعميم الأحكام حين قالوا ان الدروز شعب محارب لا يحب الموسيقى والغناء والرقص ولا يمتلك أدوات الموسيقى[1]. فهذا القول كان ينطبق على الجزء منهم لا الكل، ويصح في نواحٍ معينة كالغناء الغزلي والرقص غير الرزين، بينما أنواع الغناء والرقص الأخرى معروفة عندهم ومتقنة، ولا سيما منها ذات الطابع الحربي كالحداء والترويد والحوربة ورقص الدبكة والرقص بالسلاح بدليل ما توارثوه من أناشيد ورقصات لا يزال بعضهم إلى اليوم يؤديها بحسب القواعد الموروثة، وبدليل شهرة الكثيرين منهم في اجادة العزف والغناء، ومشاركة رجال الدين الفتيان في رقص الدبكة سابقاً، ومشاركة النساء فيها منذ عشرات السنين. وبقدر ما كان الدروز غير مهتمين كمساكنيهم في التعبير عن مظاهر الفرح، كانوا متقدمين عنهم في التعبير عن الحزن بالندب وفي احياء المآتم بالمظاهر المختلفة.

---

(١) جون كارن، سورية والأرض المقدسة واسيا الصغرى، ترجمة رئيف خوري بعنوان: رحلة في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، بيروت، لبنان، ١٩٨٤، ص ١٣٤ . ايضاً أنيس فريحه، القرية اللبنانية.... مرجع مذكور سابقاً، ص ٢٧٨ .

يجمل الغناء والرقص وينضبطان ويزدادان حيوية على أنغام الآلات ا لموسيقية التي هي اليوم كثيرة ومتنوعة عندنا. منها الحديث المقتبس عن الغرب الذي لن نتكلم عنه، ومنها الموروث الذي سنتكلم عن أشهر آلاته مع الاشارة إلى أنها لم تكن مستعملة عند الجميع بالرغم من قلتها. ففي الوقت الذي اشتهر النوَر بالعزف على البزق والرباب والضرب على الطبل، في القرون الماضية، أجاد الجبليون العزف على الآلات القصبية، وكان معظمهم يأنفون من استعمال الطبل لأنه للنوَر بحسب اعتقادهم، لكنهم اعتمدوه بعد ذلك في النوبات. وأشهر الآلات الموسيقية في الماضي هي:

آلات النفخ: انها الناي، والمزمار المسمّى ايضاً المنجيرة والمسحورة، والمجوز المسمّى ايضاً الشبّابة، وكان العرب يسمونه قديماً «المقرونة». وجميعها من اشهر الآلات الموسيقية لقدمها وشيوعها، وتوفر القصب الذي تصنع منه على العموم، وسهولة صنعها، وملاءمتها للغناء والرقص. ولكل منها ثقوب عددها على الأقل خمسة، ينقل العازف عليها، المعروف بـ «دقاق القصب»، اصابعه (السبّابة والوسطى والبنصر) لاخراج اللحن وتنويعه. وكلا الناي والمزمار قصبة واحدة يُنفخ فيها عن جانب. الا ان المزمار اثخن، وتغلظ نهايته، اذا صنع من غير القصب، بحيث تشبه البوق الصغير، وصوته صدّاح اكثر، لذا يرافق غالباً الطبل في الاعراس والاعياد والمناسبات الشعبية.

أما المجوز فهو زوجان من القصب اكسباه هذا الاسم. يصنع من قصب خاص يابس، ومن اجزاء خالية من العقد. منه ما يُسمّى «المجوز الشبراوي» لطوله، وهو مؤلف من ثلاثة أقسام. الأول، وهو الاطول والاثخن، زوجان من القصب متساويان في الطول والثخن يثقبان خمسة ثقوب متوازية، والثاني قصبتان أقل طولاً وثخناً من القسم الاول، يدخلان فيه، اسمهما «البنيّات». والثالث قصبتان أقل ثخناً من القسم الثاني وتدخلان فيه اسمهما «الزمّار» و «الصلّوب» ينفخ فيهما العازف بملء فمه، ولكل منهما لسان ينتج عن جرحه، يرقَّق ويسوّى ويدوزن به المجوز وتضبط الحانه. ومن المجوز ما يصنع من قسمين فقط، أي بدون «البنيّات». يُثبَّت كل زوج من أقسام المجوز بعضه ببعض، بخيط رفيع. ويوضع على الخيوط، وبين أقسام المجوز، وفي الفراغات غير الضرورية التي قد تسرّب الصوت، شمع النحل او القار. ومما يجدر ذكره ان عازفي المجوز اليوم قلائل جداً وهم بعض الهواة وعازفي الفرق الموسيقية، بينما كانوا كثيرين في الماضي، جلّهم من رعيان الماعز.

الآلات الرقيّة: انها الآلات المصنوعة من الجلد. وهي الطبل والدربكة والدف.

والطبل إطار خشبي أو معدني له جلدان على الجانبين، يُعلق على الكتف أو الرقبة بحزام من الجلد، ويُضرب على جانبيه بكرتين احداهما أساسية وأكبر من الأخرى. ومن التعابير الشعبية تشبيه الانسان الضخم الجثة، الضعيف الشخصية والعقل، الفارغ من المعنويات، ب «الطبل». والدربكة اطار من خزف (فخار)، أو من مادة أصلب، يُثبَّت في قاعدته العليا رقة من جلد يُضرب عليها بالكف والأصابع، وله فوهة أضيق من قاعدته.

والدف اطار من خشب مثقوب الجوانب، تعلّق فيه خشاخيش، عليه رقة من جلد من جانب واحد يُضرب عليها. وإذا خلا من هذه الرقة يصبح اسمه «الدائرة» ويخشخش به فقط. ومن الامثلة الشعبية «انفخت الدف وتفرق العشاق» بمعنى تفرق الناس وانفضّوا عما كانوا يجتمعون عليه. ومنها «انسان بدون دف يرقص» ومعناها خفيف العقل أو عصبي المزاج.

الآلات الوترية: انها الآلات ذات الأوتار، وهي العود والبزق والربابة. والعود خشب مجوّف، محدّب الظهر، منبسط الصدر، مثقوب عند الوسط، كانت تشد عليه خمسة أوتار ثم أضيف اليه مؤخراً وتر سادس. وكلما عتق خشبه جاد صوته. وعن أهمية المظهر الحسن واللباس الجميل قيل: «لبِّس العود يجود». والبزق أو «الطنبور» من خشب مجوّف كالعود، الا انه أصغر منه وأطول عنقاً، وله وتران يُضرب عليهما كأوتار العود بشيء ما لأحداث اللحن. والربابة آلة مجوّفة مضلّعة مصنوعة من جلد الجدي، لها وتر واحد مصنوع من ذيل الفرس يمرر عليه العازف وتراً مصنوعاً أيضاً من ذيل الفرس مثبتاً بقوس.

النوبة: تتألف النوبة من الآلات الموسيقية التالية: طبل وكرنيتة وبوكل وألطو وباص وترمبون وترمبيت وصنوج. ولها قائد يوجّه افراد فرقتها. يرتدي العازفون على العموم لباساً موحداً، وعليهم أن يعطّلوا أعمالهم ليتدربوا، وليعزفوا في المناسبات، مما يوجب دفع بدلات لهم ثمن أتعابهم. لهذا كانت النوبة تتطلب أسرة غنية أو جمعية تنفق عليها. ومن أشهر النوبات في الفترة الاخيرة نوبات عين قني وبعقلين وعينبال وشحيم وبرجا في الشوف، ونوبة مجدل بعنا في عاليه، ونوبة صليما في المتن الجنوبي، ونوبة المتين في المتن الشمالي، ونوبات حدث الجبة وبزعون وحصرون في الشمال، ونوبة عيناتا في البقاع. وقد ازداد عدد النوبات بازدياد عدد الجمعيات في الثلث الأول من القرن العشرين، وبعد ان ضعف استعمالها في الستينات، وفي اثناء الحرب الاهلية اللبنانية، عادت تستعمل في الفترة الأخيرة كنوبة المتين التي تُستدعى حالياً في المآتم.

الرقص

الرقص من أقدم الفنون، وربما كان أول وسيلة للتعبير عند الانسان، وأسبق من النطق. وقد نشأ ضرباً من ضروب السحر، واستُعمل منذ بداياته في العبادات، فكان هناك الرقص الديني اضافة إلى الرقص المدني. وتلازم مع الموسيقى والغناء. وقد اعتبرت الاساطير اليونانية ان فنون الرقص والغناء والشعر الهات من أبوين واحدين، أي انها من أصل واحد.

كان الرقص في المناطق اللبنانية، قبل المسيحية والاسلام، في العهد الفينيقي والعهد الروماني، رقصاً دينياً ومدنياً. ثم صار بعد انتشار المسيحية والاسلام رقصاً مدنياً فقط مع بقاء وجه من وجوه الرقص الديني عند أصحاب الطرق الصوفية من المسلمين، الذين، بخلاف سائر رجال الدين المسلمين، أجازوا الغناء والرقص والموسيقى في حلقات الذكر فنشأ على يدهم رقص السماح.

ازدهر الرقص في الفترة التي سبقت الاحتلال الصليبي مما جعله أحد الوجوه الحضارية المشرقية التي تأثر بها الصليبيون. وكان يتم بمختلف أشكاله الفردية والثنائية والجماعية على أنغام العود والبزق. ومن أشكاله الثنائية أن يرقص راقص وراقصة معاً. ومن مظاهر ازدهاره ترويض الخيل على الرقص بحيث تتوصل إلى ضرب الارض بحوافرها على ايقاعات معينة. ثم ضعف الرقص في عصر الانحطاط دون أن يغيب عن أفراح الناس وأعيادهم ليعود ويتطور في أواخر التاريخ الحديث وفي التاريخ المعاصر مع الحفاظ على سماته الأساسية.

ظل الاختلاط بين الرجال والنساء، وإلى عهد ليس ببعيد، ممنوعاً في جميع الأوساط. وهذا أدى إلى أن يكون هناك حلقات رقص لكل منهما. ومعظم رقصات الرجال ثنائية وجماعية وأقلها افرادية، وهي تتصف بالحماسة والطابع الحربي. وأشهرها الدبكة (رقص جماعي)، والرقص بالسيف والترس (رقص رباعي أو ثنائي)، والرقص بالخنجر (رقص ثنائي أو افرادي). ومنها رقص أحدهم على أنغام احدى «الطقاطيق» مثل أغنية «ريدوني»، والرقص بالعصا، والرقص وعلى الرأس ابريق ماء أو صدر من نحاس عليه كؤوس مليئة بالماء.

ورقص النساء كان افرادياً، ويتصف بالنعومة والرشاقة. كانت احدى النساء تفتتح الرقص في المناسبات المفرحة، ولا سيما في الأعراس، فترقص واضعة يدها على خصرها أو على رأسها، وتتنقّل متمايلة بغنج ودلال وسط حلقة النساء ملوّحة نحوهن

بالمنديل. وعندما تنتهي من الرقص تدعو إليه بلسانها أو بايماءة منها صبية أو امرأة، أو تمسك بيدها وتجرها إلى الحلبة. ورفض دعوتها يعتبر عندها وعند الاخريات امتهاناً لها وجرحاً لشعورها. وكل راقصة تدعو احدى الحاضرات بعد الانتهاء من رقصتها. وعلى هذه الصورة تتم مشاركة الحاضرات في الرقص على ايقاع الدف أو الدربكة، وعلى أنغام الأغاني المختلفة ولا سيما الطقاطيق التي هي في الاصل أغنيات نسائية. ومن رقص النساء أيضاً الرقص بإبريق موضوع على الرأس مملوء بالماء، أو بصدر من النحاس موضوع على الرأس وعليه كؤوس مليئة بالماء. ومن رقصهن أيضاً الرقص بالسيف في المآتم.

ومنذ زمن ليس ببعيد أخذت النساء ترقص الدبكة جماعياً واضعات ايديهن على أكتاف بعضهن ومشكِّلات حلقة مقفلة. ثم أخذن يشاركن الرجال في رقص الدبكة وسواها حين سمح بالاختلاط بين الجنسين. وقد بدأ ذلك برقص النساء في حلقة مقابل حلقة الرجال، او بأخذهن جانب الحاشية من حلقة الرجال، أو برقصهن مع أهلهن وأقاربهن اللزم كأن ترقص المرأة مع زوجها، واخوتها، وابناء عمومتها وأخوالها، وترقص الفتاة مع خطيبها. وكانت الفتاة، كما في جبل عامل، تضع منديلاً في يدها في الرقصات المختلطة كي لا تلامس يدها يد الشاب وتصبح حلاً له؛ لأن المصافحة ممنوعة في الشريعة الاسلامية.

الدبكة

لفظة «الدبكة» محدثة، ومعناها ضرب الأرض بالأرجل. وهذا ما جاء في كتاب حزقيال «صفق بيديك وأدبك بقدمك». والدبكة رقصة جماعية قديمة شهيرة في المشرق العربي ومناطق الارمن والأكراد، تُرقص عند تجمع القوم في المناسبات، ولا سيما في الأفراح. ومن الممكن ان يرقصها معاً عشرات أو بضع مئات من الأشخاص في المناسبات الحاشدة. وهذا أهم أسباب اعتمادها في بلادنا وسواها، قديماً وحديثاً؛ لأنها تسمح بمشاركة أكبر عدد ممكن من الناس.

كانت الدبكة في معظم الأماكن للذكور فقط بسبب العادات التي تمنع الاختلاط بين الجنسين، ولأنها، بالإضافة إلى كونها وسيلة للانشراح خالية من الخلاعة والتهتك، هي أيضاً احد مجالات ابراز قوة الرجال وخفتهم، فهي تعتمد على القفز وعلى القوة لضرب الأرض بعنف وللاستمرار في الرقص لساعات. ثم صارت تعتمد على رشاقة النساء.

للدبكة في لبنان اسماء عديدة؛ إذ تسمى باسماء المناطق كالجبلية والسهلية

والشمالية والجنوبية. فالجبلية تغلب فيها السرعة والحركة والقفز والرشاقة انسجاماً مع ارتفاع الطبيعة الجبلية وانحدارها. والسهلية يغلب عليها البطء والرتابة. وتسمى الدبكة أيضاً بأسماء المناطق والقرى كالبعلبكية المعروفة أيضاً في المناطق الواقعة إلى الجنوب من بعلبك بـ «الشمالية»، والجباعية نسبة إلى قرية جباع الشوف، والخيامية نسبة إلى بلدة الخيام في جبل عامل. وتسمى أيضاً بحسب سرعتها كالدبكة السريعة، والدبكة البطيئة، والدبكة التي تراوح مكانها كالدبكة الخيامية التي يقال فيها: «بأرضك بأرضك» والتي تتطلب مهارة فائقة. وتسمى بحسب طريقة الرقص كالزخّة مرة أو أكثر، أي خفض الركاب، والعرجة وهي أصعب أنواع الدبكات، والزخّة والعرجة اللتان تتلازمان غالباً، والقفزة (القمزة) أي القفز في الهواء. وتُسمى بحسب الخطوات فيقال «الدبكة الثنية» و«الدبكة المثلثة»، وبحسب جنس الراقصين فيقال «دبكة نسوانية» و«دبكة رجالية»، أو «دبكة الديوك» ويعنون بذلك دبكة الرجال، و«دبكة الفراخ» ويعنون بذلك دبكة الصبايا، و«دبكة الديوك والفراخ» وهي الدبكة المختلطة. وتسمى بحسب الأغاني التي تُرقص على ألحانها مثل دبكة الدلعونا والهوّراة وبواميج والغزيّل.

وراقصو الدبكة يسمون «الدبيّكة». والبارع منهم يسمى «راقوص». ويقال عن مباشرتهم الرقص «مسكوا على الدبكة»، أي أمسكوا بأيادي بعضهم ليرقصوا الدبكة. كما يقال «عقدوا على الدبكة - نزلوا على الدبكة - عمّروا الدبكة - عملوا سحجة أو صهجة». وكانت الدبكة تُرقص على أنغام القصب، أي على أنغام آلات النفخ الموسيقية المصنوعة من القصب وهي المجوز والناي والمنجيرة، أكثر مما ترقص على ايقاع الدربكة والطبل الا في مناطق شمال البقاع وشمال لبنان حيث يغلب اعتماد الطبل والمزمار في الدبكة على غيرهما.

يدوزن «دقّاق القصب» المجوز، الذي كان الآلة القصبية الرئيسة، على اللحن المطلوب عند بداية كل رقصة على أغنية معينة. ومع المباشرة بالدوزنة يبدأ تقاطر الراقصين من بين المجتمعين واحداً بعد آخر، ويبدأون الرقص عند بداية مقدمة اللحن بعد ان يتموا تنظيم أنفسهم وترتيبهم بحسب الرقصة وما تتطلبه من تماسك بالأيدي أو بالأكتاف، ومن تشكيل صف أو دائرة. فهم يشكلون دائرة كما في رقصة «بواميج» حيث يضعون فيها أيديهم على أكتاف بعضهم. ويشكلون حلقة غير مكتملة تشبه سوار المعصم، أو صفاً ذا شكل هلالي، كما في رقصات «الدلعونا» و«الهوارة» و«الغزيّل» حيث تتشابك السواعد. ويشكلون صفين متقابلين متشابكين بالسواعد كما في رقصات التحدي والرقصات التي تتطلب غناءً من فريق ورداً من فريق آخر مثل رقصة «حيّا

تنادي واقرع الباب بالسيف». ولما كانت معظم تشكيلات الراقصين دوائر، أو نصف دوائر، فقد سميت «حلقات». وفيما يلي وصف للحلقات الهلالية التي ترقص على ألحان معظم الأغاني.

يصطف الراقصون بحسب طولهم بدءاً بالأطول فالأقصر منه. وتسمى بداية الصف على اليمين حيث تتمركز القيادة الاسماء التالية: «القيدة ـ الحاشية ـ الرأس ـ الأول». ومن يتسلمها يسمى «القيدة ـ الماسك على الأول ـ الماسك على الحاشية». وتسمى نهاية الصف «الاخير ـ التالي»، وتسمى في بعض القرى «الجحشة». ويتسلم الحاشيَة شاب طويل القامة، أو متوسطها، ماهر في الرقص، خفيف في اداء الحركات، عيّوق في ترقيص المنديل، أو تنقيل الخنجر أو السيف أو العصا، بيده اليمنى. ومن هنا المثل الذي يقول: «خذ المقطع من حاشيته»، أي خذ الرقص من متسلم الحاشية.

ويمسك إلى يسار متسلم الحاشية راقص له براعته وقوته يسمى «السندة». وقد اكتسب هذا الاسم؛ لأنه يسند متسلم الحاشية، ويساعده في ضبط حركات الراقصين وتوجيههم، ولا سيما في الفترات التي يضطر متسلم الحاشية إلى ترك الصف والابتعاد عنه للقيام ببعض الحركات. ويسمى «السندة» في بعض المناطق، كما في بعض قرى اقليم الخرّوب من قضاء الشوف، «الحوّاش»؛ لأنه يهدي الحاشية أو الدبيكة.

ويمسك على آخر الحلقة أقصر اللاعبين. لكن هذا يستطيع لفت الانتباه ببراعته، وبما يتوفر له من حرية الحركة. ويتضمن قلب الصف سائر الراقصين الذين قد يكونون جميعاً بارعين في الرقص، وقد يكون بعضهم ضعيفاً أو متمرناً. الا ان اخطاء المتمرنين والضعفاء وارباكاتهم لا تؤثر في سير الرقص؛ لان متسلم الحاشية والسندة والآخر يوجهونه ويضبطون حركاته فيتقيد الآخرون بهم.

على الراقصين ان يراعوا التنسيق الكامل والانسجام التام في حركاتهم، فمعاً يتمايلون يمنة ويسرة، ويتقدمون ويتأخرون، ويقفزون، ويضربون الارض بأرجلهم بقوة ضربة او اثنتين او ثلاثاً بحسب المقتضى، و«يعرجون» و«يزخّون» ويرفعون أرجلهم ويخفضونها ويطوونها وينشرونها. وحركاتهم هذه تصوير لمحيطهم الطبيعي المتنوع بين مرتفعات شاهقة ووديان سحيقة ومنبسطات وتعرجات. وتماسكهم تعبير عن تماسك الجماعة. وانسجام حركاتهم وانتظامها تعبير عن الاتحاد والتعاون. وضربهم الارض بالأرجل بقوة تعبير عن الرجولة وعن المقدرة على التحدي. ورفع رؤوسهم تعبير عن الشمم والعنفوان. ورقصهم الجماعي تعبير عن ذوبان الفرد في الجماعة.

وتزداد القوة والاندفاع في حركات الراقصين، وتلتهب حماستهم، وترتفع صيحاتهم،

وتشتد نخوتهم مع ارتفاع وتيرة العزف وقوة التصفيق من المشاهدين، أو بعد كل مقطع غنائي. وإذ عليهم ان يبقوا متماسكي الأيدي، بمقدور متسلم الحاشية (القيدة) ان يترك الصف بين الحين والآخر، ويبتعد عنه ويرقص وحيداً، ويقفز فيطال السقف أو غصن شجرة بأصابع يده، ويدور على نفسه بسرعة من اليمين إلى اليسار، ويقفز برشاقة وخفّة، ويتقدم باتجاه متسلم آخر الصف عارجاً ومنحنياً وواضعاً يده اليسرى خلف ظهره، ومرقصاً المنديل بالدوران، ثم يعود إلى تسلم الحاشية ببراعة. كما أنه يرسل صيحات نخوة من حين إلى آخر تفعل فعلها في الراقصين، وتساهم في تنظيم حركاتهم واثارة حماستهم. وقد يفعل متسلم نهاية الصف بعض ما يفعله القيدة.

يغني الماسك على الحاشية، أو الشاعر أو المغني الذي يقف إلى جانب دقّاق القصب في وسط الحلقة، الاغنية، ويرد الراقصون وراءه مطلعها متقيدين بألحان دقّاق القصب الذي يتابعهم منتفخ الفم والعروق، محمرّ الوجه، يتمايل إلى اليمين وإلى اليسار، ينحني برأسه حتى يكاد المجوز يلامس خصره، ثم يعود إلى استوائه. وقد يتابع الراقصين فيما يستطيع فعله من حركات، ويعزف أمام أحدهم. وهو ينتقل من لحن إلى لحن بحسب الرقصة. ومن هنا المثل الذي يقول: «الدقّة على الرقصة».

لا تزال الدبكة أشهر الرقصات الشعبية الجماعية. وهي تُرقص اليوم في بعض القرى كما في الماضي على أنغام المزمار وايقاع الطبل، وتُرقص في أكثريتها على أنغام الأغاني المسجلة. أما رقصها على أنغام المجوز، فقد بات قليلاً للغاية، وعلى سبيل المثال لا نراه في قرى الشوف الاّ في قرية جباع التي يرقص ابناؤها على أنغام عازف مجوز بارع هو حسين سعد الدين يُستدعى أحياناً لإحياء أعراس القرى المجاورة.

معظم الأغاني صالحة لإن يُرقص على أنغامها مما أدى إلى تنوع الدبكات وكثرتها. فبالإضافة إلى أغاني الدلعونا والهوارة وبوالميج وعَ العميم وياغزيل، وما ينشد للعروسين ولعلية القوم، كان هناك أغانٍ شائعة أخرى عند كل جماعة، بعضها مقتبس وبعضها محلي. وهذه الاغاني هي من نوع الغزل والوصف والفخر والحماسة كالأغاني التي تصف النساء وتتغزل بهن، وتفتخر بتاريخ الجماعة وبالأمجاد والبطولات والمناقب، وتشيد بالقادة والأعلام والرموز.

من أغاني الشوفيين المقتبسة، وعلى سبيل المثال، أغنية «يابنت ياللي بالمصيف» التي كانت تُنشد في النصف الأول من القرن العشرين. وهي مأخوذة عن سكان جبل العرب في الجمهورية العربية السورية. وفي هذا دليل على انتقال الرقصات والأغاني من منطقة إلى أخرى، وعلى التراث المشترك. و«المصيف» هو شبه خزان من تراب كان

سكان جبل العرب يقيمونه على السطوح في الصيف لتفادي الغبار الذي تثيره الرياح.
ويتم الاداء بأن ينتظم الراقصون صفين متقابلين، ويرقصون منشدين ما يلي:

يا بنت يا اللي بالمصيف	طلّي وشوفي فعالنا
طلت وقالت يا لطيف	يا رب تخلّي رجالنا

وعندما تشتد حماسة الراقصين بعد كل مقطع غنائي، يهجم كل صف باتجاه الآخر وهو يصفق فيما يقول الصف الأول: «حيّا تنادي واقرع الباب بالسيف»، ويجيبه الصف الآخر «هيّو هلك (أهلك) ياباب الما يفتحونك». وبعد ذلك يعاود الصفان الرقص والغناء، ثم يعاودان الهجوم والتصفيق بحسب ما ذكر.

ومن أغاني الغزل التي كان يُرقص عليها في المنتصف الأول للقرن العشرين أغنية «بوالميج» وأغنية «يا أصول الدبكة وترتيبها ما بين الشبين بنيّة». ومن أغاني الفخر أغنية «زحلة يا دار السلام» التي لها لحن شبيه بـ «عَ العميّم عَ العمام»، والأغاني التي أنشدت لجبل حوران (جبل العرب) ولقادة الثورة السورية الكبرى ولقائدها العام سلطان باشا الاطرش، وأشهرها أغنية «حوران يا دار الشجعان» التي لها لحن شبيه ب «عَ العميّم عَ العمام».

ومن أغاني الرقص أغنيتا «هضم الحقوق تأبى النفوس قبولها» و«انصفنا يابحر الروم»، وهما قصيدتا فخر وحماسة نظمهما الشاعر شاهين حامد من بلدة عبيه في قضاء عاليه، وأنشدهما الدروز في دبكاتهم على اثر نزاعهم مع ورثة سيّور عام ١٩٣٤ بشأن تربة الدروز في بيروت[1]. وللأولى لحن «بوالميج»، وللثانية لحن «عَ العميّم عَ العمام».

ومن أشهر أغاني الرقص الموجّهة الى العريس الأغنية التالية التي كانت تنشد على الأخص في جهات بعلبك والهرمل:

يا عريس لك جوزين علالي	ولك منزول مشيّد للرجال
يا عريس هَ الليله طويله	وهيْ اطول من كل الليالي

أغنية «يا أصول الدبكة وترتيبها»، وهي من أغاني دبكات الاعراس وسائر المناسبات المفرحة في الشوف:

(١) انظر عن هذا النزاع كتابنا: دروز سورية ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت لبنان ١٩٩٣، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ .

يا أصول الدبكه وترتيبا — ما بين الشبّين بنيّه
يا أصول الدبكه وترتيبا — والبنت بتهوى حبيبا
وما تشوفوها عجيبه — هيذي عادة الصبيّه

❖❖❖

وانا ماشي على الدرب — شفتلك نقفة صبيّه
قالتلي مالك يا شب — قلتلاً شاعر يا بنيّه
قالتلي انكنّك شاعر — وصُف راسي لكعب جريّا

❖❖❖

شاميّة جايي من الشام — من الشام جايي شاميّه
يا شعرا حبال الجمّال — لكلك لكلك عَ ديّا
يا شعرا حبال الجمّال — على كتافا حبال حبال
صنديحتها بلاط رخام — تكرج عليها الميّا
حواجبها خط الاقلام — مثل سيوف الحنيّه
وعيونا وسع الفنجان — عليهن من كحله وقيّه
مناخيرا مزاريب فضّه — عند الصايغ مطليّه
وخدودا تفاح الشام — من الشام جايينا هديّه
وشفافا رِق الفنجان — وارق منّو بشويّا
وسنانا شك اللولو — الحبّه بالفين وميّه
يا حكيا صوت الكنار — بنغماتو السحريّه
يا عنقا عنق الغزال — بيلبقلو صنوبريّه(١)
يا زنودا خيار مقشّر — محطوطين عَ الصينيّه
يا صدرا فسحة ميدان — ملعب خيل حماديّه(٢)
يا بزازا كواز الرمان — فقفق فقفق بديّا
وخصرا قضيب خيزران — يطوي الطيّه عَ الطيّه
وجريها حلوين مثل العاج — والخلاخل فضيّه
يا نقلتها كرج حجال — الحجل كارج غدويّه

---

(١) الصنوبرية. عقد من فضة فيه حبيبات بشكل الصنوبر.

(٢) اشارة إلى خيل آل حماده في الهرمل.

أغنية حوران يا دار الشجعان، وهي قصيدة فخر في الثورة السورية الكبرى وفي قادتها ومجاهديها:

حـــوران يـــا دار الـــشـــجـــعـــان   فـــيـــكِ مـــربـــى الاســـودى
مـــن تـــونـــس لـــبـــلاد الـــشـــام   مـــا بـــيـــلـــزمـــلـــك شـــهـــودى

❖❖❖

مـــا بـــيـــلـــزم عـــنـــك تـــعـــريـــف   بـسـنـة الـغـلا تـقـري الـضـيـف(١)
ايمـــانـــك الله والـــســـيـــف   مـــا بـتـحـتـاجـي الـبـارودى

❖❖❖

عـــقـــيـــد الـــثـــوره ســـلـــطـــان   والمـيـر عـادل عـالـي الـشـان
لا تـــقـــولـــوا ذلـــت حـــوران   لا بـــد الـــهـــا مـــن عـــودى

❖❖❖

لا بـــد مـــاضـــعـــونـــا تـــلـــتـــم[٢]   وتـسـقـي الاعـدا كـاس الـسـم
تـــرابـــا صـــار مـــجـــبـــول بـــالـــدم   حـجـارا مـن الـبـارود سـودى(٣)

❖❖❖

زيـــد الاطـــرش ســـبـــع الـــغـــاب   مـــن الـــدبّـــابـــه مـــا بـــيـــهـــاب
تـــحـــيـــا وتـــعـــيـــش يـــا وهّـــاب[٤]   نمـر الـثـوره المـعـهـودى

❖❖❖

ابـــن ســـلـــيـــم[٥] لا تـــقـــولـــوا مـــات   مـــن بـــعـــدو الـــوف وكـــرّات
عـــادل بـــك[٦] بـــحـــصـــانـــو فـــات   عَ الـــشـــام مـــلـــيـــانـــه جـــنـــودى

❖❖❖

كـــان يـــطـــعـــن بـــعـــود الـــزيـــن   ســـيـــفـــو يـــضـــرب عَ المـــيـــلـــين

---

(١) تقري الضيف: اشارة الى كرم أهل جبل العرب واستضافتهم حوالى عشرين الف لاجىء في اثناء المجاعة في الحرب الكبرى.

(٢) اشارة إلى نفي مجاهدي الثورة إلى وادي السرحان.

(٣) اشارة الى كثرة معارك أهل جبل العرب الذين جعلوا حجارة الجبل سوداء مع العلم انها في الأصل بركانية سوداء.

(٤) وهّاب: شكيب وهّاب احد قادة المجاهدين.

(٥) ابن سليم: فؤاد سليم احد قادة المجاهدين الذي استشهد في الجولان.

(٦) عادل بك: عادل النكدي الذي استشهد في الغوطة.

الجثّه يقطعها دلوين كان يقطعها عَ الدودى

❖❖❖

لا تنسوا ابن البريور[١] هدّ القلعه وخشّ السور
عَ الطابور لما بيغور سيفو يقدّ الجلمودى

❖❖❖

رشيد بك[٢] بو الفوارس كان هدّاد المتارس
بطل معروف وفارس ثابت بالحرب صمودى

❖❖❖

وسبع الضنضفر خطّار[٣] بيوم الهيجا وأخذ الثار
زاد بفعالو عَ عنتر وشبّه هاني المسعودي

الرقص بالسلاح

الرقص بالسلاح أحد مظاهر المجتمع الحربي، وهو شائع عندنا منذ قديم الزمان، ابتداءً من الرقص بالعصا أو بما يسمى «الخيزران» أو «البعكور»[٤] الذي هو سلاح الانسان البدائي، الى الرقص بالخنجر والسيف والبندقية.

يرقص الرجل بالعصا فيقلّبها بيمناه بخفة، أو يمسكها بيديه وينثني بها يمنة ويسرة، ويخفضها ويرفعها، وسط الغناء والموسيقى والتصفيق. وقد يرقص رجلان بالعصا على شكل مباراة، فيجولان أمام الحاضرين الذين يصفقون لهما، ويتابع كل منهما الآخر مغتنماً عنده لحظة عدم انتباه أو وضعاً خاطئاً ليعلّم عليه بالعصا. وبالرغم من ان هذا الرقص أسلم أنواع الرقص بالسلاح وأيسرها، الا ان اعتماده كان أقل من الأنواع الأخرى.

الرقص بالسيف والترس هو تمثيل للمبارزة بالسيف، وله اسماء أخرى هي «لعبة السيف والترس»، و«لعبة المسايفة»، و«لعبة الحكم والمثاقفة». وسميت بالاسم الاخير، أي «لعبة الحكم» لوجود حكم يشرف على المبارزة، الا انها تُرقص في الأعراس والمآتم وبعض الأعياد والاحتفالات بدونه. وهي في المآتم رقص هادىء وحزين.

تُستهل لعبة السيف والترس عند المسلمين، إذا كانت على شكل مبارزة بوجود حكم،

---

(١) ابن البربور: حمد البربور الذي استشهد في معركة المزرعة.
(٢) رشيد بك: رشيد طليع الذي توفي في جبل العرب في أواخر الثورة.
(٣) خطّار: خطّار ابو هرموش احد قادة المجاهدين.
(٤) البعكور: عصا من الزعرور لها نتوءات في رأسها.

بقراءة الفاتحة، وبتلاوة اللاعبين للقسم الموضوع لها. كما تُستهل عندهم وعند النصارى، على العموم، بعزف موسيقي. ولها في جميع الأحوال أبواب مشتقة اسماؤها من أماكن تشابك السيوف.

كان يُرقص بالسيف والترس ثنائياً ورباعياً. والرقص الثنائي هو الشائع أكثر. ويبدأ الرقص بتمايل الراقصين أمام الحاضرين، ودورانهما في الحلبة بخطى متوازنة، وانحنائهما، وقفزهما، وادارتهما (ترقيصهما) للسيف والترس حول الرأس وأمام الصدر بشكل متوازن مع الحركات، ورميهما للسيف الى اعلى ثم التقاطه، حتى إذا حان وقت المضاربة أسرعا في التلويح بالسيف والترس، وازدادت حماستهما، وهاجم كل منهما الآخر مسدداً اليه ضربات سريعة متلاحقة قوية يتداركها هذا بترسه، أو يضرب أحدهما بسيفه ويتلقى الاخر الضربات بترسه مسنداً السيف اليه. ثم يعودان إلى الرقص مجدداً بحسب الطريقة السابقة. والغالب في لعبة الحكم هو من «يعلّم» على مبارزه بالاشارة اليه بالسيف في اثناء غفلة منه أو ارتكاب خطأ. وإذا كان الراقصان يرقصان أمام العريس، أو أحد الأعيان والوجهاء، يهتفان عند الهجوم «بالصحايف للعريس» أو «بالصحايف لفلان»[1].

تضاءل عدد الراقصين بالسيف والترس في الفترة الأخيرة، وانحصر في قلة ممن ورثوا عن الآباء هذا النوع من العاب الفن والفروسية. الا ان هذا الرقص يتجدد اليوم على يد العديد من الفرق الفنية المختصة باحياء الحفلات.

الرقص بالخنجر أو بالسكين أشهر الرقصات بعد رقصة السيف والترس. وهو يُرقص ثنائياً أو افرادياً. ويحمل الراقص خنجراً يرقص به، لكنه على العموم يحمل خنجرين يرقص بهما بخفة ورشاقة، ويديرهما نحو اعضاء جسمه وهو يقفز ويدور في الحلقة، ويلوّح بهما محيّياً الحاضرين ووجوههم والمحتفى به عريساً كان أم زعيماً، قائلاً: «بصحايف فلان» أو «بالصحايف لفلان» أو «بالصحايف للحاضرين». وقد يقول كلمة «لعيون» بدلاً من «صحايف» كما هو الحال في الرقص بالسيف والترس.

ولهذا اللعب مخاطر، خصوصاً إذا قام به اللاعب بعد شرب الخمرة، أو إذا تعمد التفنن فيه كأن يدير الخنجر نحو وجهه أو عينه وهو منحنٍ برأسه وصدره إلى الوراء حتى يلامس الارض.

وآخر أنواع الرقص بالسلاح هو الرقص بالبندقية أو «بالبارودة» حيث يرقص المرء بها وسط القوم فارغة في أكثر الأحيان من الخرطوش من قبيل الاحتياط. ومنهم من يرقص بها ويطلق النار من حين إلى آخر.

---

(١) بالصحايف لفلان: لوجه فلان.

كان الغناء عند اللبنانيين، ولا يزال، أهم فن يعبّر عن الأحاسيس والمشاعر ويلاقي اقبالاً عليه، سواء في انشاده أم سمعه، لا نظير له في سائر الفنون. وهو في مراحل تطوره وارتقائه لم يكن وسيلة تعبير عما يخالج الذات من فرح وحزن وحب ووجد وتحسر ولوعة وفخر وحماسة، ولا وسيلة إفراح وإطراب وتسلية ولهو، فقط، بل كان له وظائف دينية واجتماعية وتوجيهية وسياسية واعلامية.

أولى وظائف الغناء هي الوظيفة الدينية. وهدا كان شأنه عند الفينيقيين كما عند سائر الشعوب الوثنية. وقد استعمله المسيحيون في القداديس وبخاصة في مناسبات الأعياد والمواسم الدينية. واستعمله المسلمون ابتهالات وتسابيح إلى الله وتمجيداً للرسول ﷺ، وقد برع في ذلك مشايخ الطرق الصوفية. ثم غدا له وظائف أخرى هي تصوير الواقع المعاش بحلوه ومرّه، ووصف الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والتوجيه الاخلاقي والوطني والانساني، والتأريخ للحوادث، والتعبير عن خطاب القوم السياسي واتجاهاتهم ومواقفهم.

ان موضوعات الغناء هي من البيئة الثقافية والاجتماعية والطبيعية. وصوره الجميلة وتلاوينه مأخوذة من أوجه الجمال واللوحات الطبيعية الساحرة والمناظر الخلابة المحيطة باللبناني، التي الهمت خياله، وساهمت في عطائه وإبداعه وتجديده، وأوجدت بعض المميزات في غنائه.

فمن سقسقة مياه الجداول والينابيع المتدفقة من بطون الجبال والتلال والهضاب، وحفيف أوراق الاشجار المنتشرة في كل مكان، ورقرقات النسيم العليل في أصابيح النهار وأمسيات الليالي، صيغت المعاني الرقيقة. ومن هدوء الليل وسكونه، وجمال القمر والنجوم والكواكب وبهائها، وصفاء السماء، وتعرجات الآفاق، كانت المواويل والأوف والعتابا والميجانا. ومن زقرقة الطيور على مختلف أنواعها كانت الانغام والألحان العذبة. ومن قصف الرعود، وضجيج العواصف، وضرب السيوف، وقرقعة السلاح، ودوي البارود، كانت حماسة التراويد والحورويات والحداء.

ومن غناء الامهات بأصواتها الملائكية لتنويم الأطفال في المهود والأحضان، إلى أغاني الصغار والفتيان في لعبهم ولهوهم وعبثهم، إلى غناء الكبار في «القيّولات» والسهرات والأعراس والأعياد والتجمعات المفرحة والاحتفالات.. تراث لبناني غني بجميع أنواع الغناء الشعبي، بعضه من فيض الخاطر في مناسبة معينة، وجلّه اعادة لما

أُنشد ولما هو ماثل في الذاكرة وتتناقله الأجيال خلفاً عن سلف دون أن تجد صعوبة في حفظه لعذوبة ألفاظه وسلاسة جمله المصاغة بالعامية.

إن الزجل خزان الأغاني الشعبية، فكل ما ينظم فيه يصلح لأن يُغنّى. ومعظم الأغاني يُنشد برفقة الألحان الموسيقية، وبعضها القليل يُنشد بدونها كالحداء. ومنها ما يُرقص على أنغامه أو يُغنى فقط، ومنها ما يصلح للوجهين. ولكل لون غايته ومناسبته ومنشدوه كالموال لبث اللوعة والشكوى، والحداء والحوربة والترويد للفخر والمدح والهاب الحماسة، والمعنّى لمجالس اللهو، والمواويل للتنهد، والعتابا للتلوع، والميجانا للحزن، والقرّادي للترويح عن النفس الهم والضجر. ومن الأناشيد ما هو للرجال أو للنساء، ولتنويم الأطفال وترقيصهم، وللصغار في العابهم.

ومما تجدر الاشارة اليه هو شيوع معظم الأغاني القديمة كما الجديدة، لا في لبنان فحسب، بل في مصر وفي مناطق عديدة من الشرق العربي بحيث يصعب تحديد منشأ الاغنية وناظم كلماتها. فعلى سبيل المثال ان الزغرودة التي تُنشد في جهات القلمون والغوطة وقرى سفح جبل الشيخ الشرقي في سورية، تُنشد في قرى سفح جبل الشيخ الغربي وجبل عامل وجبل لبنان وشمال لبنان في لبنان كما لاحظنا في جولاتنا الميدانية وعند قراءتنا لمؤلفات من كتبوا عن العادات والتقاليد والأناشيد الشعبية بشكل عام، وأناشيد الأعراس بشكل خاص[1]. يضاف إلى ذلك أمر تجدر الاشارة إليه هو ان ما ينشد من أغان في مناطق ينشد حوروبات وزغاريد في مناطق أخرى.

الحداء

الحداء في اللغة «سوق الابل والغناء لها». فقد كان من عادة البدو زجر الابل (سوقها) بالغناء لتسريع مسيرتها في الصحراء. ومنه جاءت عبارة «حادي العيس»، أي منشد الاغاني للابل.

والحداء أول أغاني العرب في الجاهلية. قال عبدالله بن خرداذبه: «كان الحداء في العرب قبل الغناء، وقد كان مضر بن نزار بن معد سقط عن بعير في بعض اسفاره فانكسرت يده فجعل يقول: يا يداه، وكان من أحسن الناس صوتاً، فاستوسقت الابل وطاب لها السير، فاتخذه العرب حُداء برجز الشعر وجعلوا كلامه أول الحداء، فمن قول

---

(١) انظر لحد خاطر، العادات والتقاليد اللبنانية، مرجع مذكور سابقاً جـ ١ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ . وانيس فريحة، القرية اللبنانية...، مرجع مذكور سابقاً ص ١٨٠ - ١٨٥ ، وفريدريك معتوق، التقاليد والعادات... مرجع مذكور سابقاً، ص ٤٨ - ٦٣ . واميل بديع يعقوب، الاغاني الشعبية اللبنانية، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان ١٩٨٧ ص ٨٠ - ٩٩ ، ويوسف موسى خنشت، طرائف الامس غرائب اليوم، مرجع مذكور سابقاً، ص ٨٣ - ٨٥ .

الحادي: يا هاديا يا هاديا ويا يداه يا يداه»[1]. وبعد الحداء عُرف غناء شبيه به اسمه «النشيد»، وغناء اسمه «التغيير» الذي هو ترديد الصوت. وكانت أناشيد الحداء تُنظم باللغة الفصحى، وأكثرها على بحر مجزوء الرجز، وأقلها على بحر الهزج. وكان الخليفة أبو جعفر المنصور يرتاح له أكثر من الرصد والبايات.

من المرجح أن يكون الحداء بصيغته المألوفة في المناطق اللبنانية من موروثات المعنيين الذين أتوا به إلى الشوف في الربع الأول من القرن الثاني عشر. وقد تحول في هذه المناطق من الفصحى إلى العامية منذ قرون عديدة. وهو يختلف عن غيره من الأغاني الشعبية بأنه لا يمكن أن يُغنى الا جماعياً بينما تُغنى هي افرادياً وجماعياً، وبعضها يغنى افرادياً فقط. وفيما ينطق منشد سائر الأغاني باسمه غالباً، ينطق منشد الحداء باسم الممدوح أو الممدوحين وباسم جماعته وقومه، أي ان الحداء أناشيد بلغة «المخاطَب» و«نحن».

يُنشَد الحداء في الحروب والأعراس والأعياد والمهرجانات وسائر احتفالات القوم وتجمعاتهم المفرحة. وأناشيده المسماة «حدّيوات» أغاني فخر وحماسة، شعبية وجماعية، تصف الأفراد والجماعات وتمدحهم، وتهنئهم بنجاحاتهم ومناسباتهم المفرحة، وتعبّر عن الشعور ازاءهم، وتشيد بصفاتهم وبعظمة تاريخهم وأمجادهم وصنائعهم وبطولات قادتهم ومآثر رموزهم. وهي اضافة إلى ذلك تعبير بالغناء عن موقف وخطاب سياسي.

حداء حربي قديم:

نحنا عزاز بحالنا	بالحرب صعب منالنا
من بيت قيس سيوفنا	ومن بيت معن رجالنا

حداء جماعة منتصرة:

بيرق حمانا معتلي	بالنصر فوق جبالنا
بيورّثوها المرجله	من جيالنا لجيالنا

حداء لعروسين:

طبل الفرح رجّ وضرب	والكون عميرقص طرب
ويا فرحة الـ ما مثلها	عند الأجانب والعرب

❖❖❖

(١) المسعودي، مروج الذهب، مصدر مذكور سابقاً، جـ ٤ ص ١٣٣ .

العـــــريــس الله حـــــارســــو تــاج الــشـــهـــامـــه لابــســو
والــكــون عــمّـــا يــآنـســـو وعـــروســـتـــو بـنــت الــنـســب

التراويد

الترويدة، جمعها تراويد، هي الأغنية التي تُنشد للروّدة. والروّدة أو الروّيدة هي في لغة العرب الشابة الحسنة الجميلة، وهي على العموم الفتاة البكر التي يقل عمرها عن عشرين سنة. والعروس هي احدى الروّيدات التي تستأثر بالقسم الأوفر من أغاني العرس وزغاريده. وما يوجه إلى العروس في فلسطين من ذلك يخاطبها بـ «الروّيدة».

التراويد أناشيد جماعية بعضها شجي حزين مثل الفراقيات، وبعضها حماسي، وبعضها وصفي. وقد وصل الينا من تراويد المعنيين عشرون ونيّف ترويدة. وكان القيسيون واليمنيون ينشدون التراويد في الأعراس، وأمام زعمائهم، وعند التأهب للحرب، اثنين اثنين، بصوت ممدود عال، وينهونها بتحية خاصة لمدوحيهم (الأعيان والعرسان).

والتحية عند القيسيين هي لفظة «هوبر» أو «يا لهوبر» و«الهوباره» وتلفظ «الهوبارا». ومن معاني الهوبر الفهد والسوسن الذي كان شعارهم المرسوم على رايتهم. وفي لفظها تشبيه للذي يهتفون له بالفهد والسوسن. والتحية عند اليمنيين هي لفظة «يا لمعروف» أو «يا» التي هي اختصار لـ «يا المعروف». والمعروف فضيلة من الفضائل التي يفتخر بها الدروز، ويعتبرون أنفسهم أنهم أهلها «آل المعروف»، فبات هذا لقبهم المحبب اليهم، وأحد اسمائهم «بنو معروف»، وتحية اليمنيين منهم.

الزم اليمنيون القيسيين، عندما استقووا عليهم في أواخر القرن السابع عشر، بترك كلمة «هوبر»، وقول كلمة «يا»[1]. لكن القيسيين عادوا إلى استعمال شعارهم بعد استعادة امارتهم في الشوف وضعف اليمنيين. واستمرت التراويد من بعد القيسيين، وبات يُطلق على الضجيج باشعارهم اسم «الهوبرة»، ومنها اشتق فعل «هَوْبَرَ». الا ان الناس تركوا لفظة «هوبر» واستعملوا بدلاً منها لفظتي «لعيون» و«محبة» بحيث يقولون مثلاً للعريس أو للمدوح: «لعيون العريس أو لفلان ـ محبة بالعريس أو بفلان». والقلائل استعملوا لفظة «بارو».

كان الناس يحيون الأعراس بالتراويد، لذا قيل: «الفرح ترويدة والعزاء تعديدة». وكان القادمون لتهنئة العريس ينشدون التراويد وينهونها بعراضة، أي باطلاق زخات من

(١) لبنان. مباحث علمية واجتماعية، مصدر مذكور سابقاً، جـ ١ ص ١٧٥ .

رصاص الاسلحة الشائعة التي تختلف من عصر إلى آخر (غدّارات، طبنجات، مسدسات، بنادق). والعراضة تتناسب مع أهمية الموضوع، وأهمية من تُعمل لأجله، لذا يتراوح عددها وكثافتها تبعاً لأهمية العريس والممدوح والمناسبة. وقد استُعملت التراويد المتوارثة من المغنيين للدعوة إلى الأعراس ولفك المحزونين لحدادهم والسماح بمباشرة الأعراس بمظاهرها المفرحة[1].

ترويدة حربية:

قلعة بعلبك بعون الله خذناها ... بالهوج والموج وكثر الرجاجيد[2]

❖ ❖ ❖

كم راس قطعنا وكم جثة رميناها ... بالهوج والموج وضرب السيف خضناها

ترويدة للعريس:

يا رب سلم لنا عريسنا ... ويعيش كما يعيش الحمام في روس البراج

ترويدة للعروس:

مكحولة العين لو رخّت سوالفها ... تحكم بأمرا ومن يقدر يخالفها

ترويدة للعرس:

ياما صبرنا وذقنا الصبر ... والحمد لله على جبر الخواطر

❖ ❖ ❖

هل الهلال على العريان يرتحلو

الحوربة

الحوربة أو التحورب لفظتان مشتقتان من كلمة «الحرب»، ومعناهما انشاد نشيد الحرب الذي يُسمى «حوروبة». والحوروبة في الأصل ترويدة حماسية كان المقاتلون ينشدونها عند التأهب للقتال، فتؤجج الحماسة في صدورهم بطريقة انشادها، وبما تتضمنه من عبارات الفخر بهم وبقومهم وأعيانهم. ثم أصبحت تُنشد في الأعراس والمآتم، وتُستعمل في الأعراس كالترويدة طريقة لفك حداد المحزونين. وهي في الأعراس كما في المهرجانات والاستعدادات للحرب حماسية ومفرحة، وفي المآتم شجية ومحزنة.

---

(١) للمزيد من المعلومات انظر كتابنا، عادات الزواج... مرجع مذكور سابقاً، ص ١٠٠ .

(٢) الرجاجيد: كلمة على الارجح من فعل ارجد بمعنى ارعد، والمقصود بها الضجة القوية كالرعد، التي يحدثها القوم.

بعد ان استقرت الأوضاع الأمنية نسبياً منذ الستينات في القرن التاسع عشر، وقلت الحروب عند اللبنانيين حتى كادت تنعدم لفترات طويلة، لم يعد هناك مجال لحوروبات الحرب، واقتصرت الحوربة على مدح أعيان القوم وأفاضلهم وأكارمهم في الاجتماعات الحاشدة، وعلى مدح العرسان. كما اقتصرت أيضاً على المآتم مع ملازمة الطابع الحربي لها، الذي اكتسبته عند نشأتها أناشيد فخر وحماسة تُقال عند التأهب للحرب. وتبعاً لذلك صارت حوروبات الحرب تُنشَد في مناسبات غير حربية.

الحوروبة بيتان من الشعر بأربعة مقاطع، نادراً ما تتجاوزهما. ومن الملاحظ انه لم يتم التقيد دائماً، في نظمها، بالوزن والقافية؛ اذ ان قافية البيت الثاني تختلف أحياناً عن قافية البيت الأول، ووزن عجز البيت يختلف عن وزن صدره. ويعوّض منشد الحوروبة عن اختلال الوزن بمد الصوت واللحن وبأسلوب الانشاد.

تُنشَد الحوروبات بصوت ممدود والاكف على الآذان. وينشدها المحورب في المآتم واقفاً عند رأس الميت، أو إلى جانب النداب، وتنتهي بالندب، أو بالتعديد، أو بقول: «الله يرحمه». وتُنشَد الحوروبات في الأعراس والمهرجانات من قبل محورب أو أكثر. فالعريس الذي يقف اشبيناه إلى جانبيه حاملاً كلٌ منهما سيفاً، يقف مقابله محورب، أو يقف مقابله محوربان يقابلهما محوربان آخران، فيحورب الأولان جزءاً من الحوروبة، ويكملها الآخران، ويختتمها الجميع بالضجيج.

بعض الحوروبات الحماسية يبتدىء بكلمة «هاي». وجميعها تنتهي بالضجيج بها ممدودة، وبإطلاق نار يغزر ويطول بحسب مكانة الممدوح، وهذا يسمى «عراضة». وينتهي المقطع الأول والثالث غالباً باحدى هاتين العبارتين: «يا هو ـ عافاه الله يا هو». وتلفظ «يا هو» مكررة، أو تلفظ لمرة واحدة ممدودة، ومنهم من يلفظها «ياواو» ممدودة. وعبارة «يا هو» تعني يا هؤلاء الناس. وهي تُستعمل في العديد من مجالات النداءات الأخرى مثل النداء الذي يُقال في القرى التي يتناوب أهلها الاستفادة من مياه الري كبلدة عماطور في الشوف التي يستفيد أهلها من مياه نبع العريش، فيقولون: «مين رد المي يا هو». وعبارة «عافاه الله» تعني دعاء إلى الله ان يعافي الممدوح. ومن الحوروبات ما يتضمن عبارة «حق الله» بدلاً من عبارة «عافاه الله» ومعناها «قسماً بالله».

تتميز معظم حوروبات الأعراس بأن مقطعها الأول يبتدىء بعبارة «حمرا من الخيل»، ومقطعها الثالث يبتدىء بعباة «خيّالها العريس». فمع ان هناك من الخيول الأصيلة ما هي شقراء وزرقاء ودهماء وكحلاء وغبراء، فإن الناس كانوا يذكرون الحمراء فقط في حوروباتهم، ويشيدون بجمالها وسرعتها وأصالتها، ويشيدون بالعريس الذي

هو خيّالها، والذي يكيد الأعادي، ويقهر الشجعان، ويفرّق الجموع بسيفه. لذا يمكن القول ان الحوروبة هي من أفضل أناشيد الفخر التي تُقال للعريس في مجتمع يمجّد القوة ويتصف بالطابع الحربي.

حوروبة لأحد أعيان القوم وأكارمهم:

الدار ما هو لنا عافاه الله ياهو	الدار لفلان يا اللي بناها
دار المجد والكرم عافاه الله يا هو	وهوَ بسيفو حماها

حوروبة أخرى:

يا دار يا أم اللواوين حق الله يا هو	يخسى الذي بدّو يبيعك
وان كان يوم حراب حق الله يا هو	اللي عصاك يطيعك

حوروبات للعريس:

حمرا من الخيل عافاه الله يا هو	اسرع من الريح ما في خيول تسبقها
خيالها العريس عافاه الله يا هو	عنتر بساح الوغى حمّال بيرقها

❖❖❖

حمرا من الخيل عافاه الله يا هو	ما في أصيله بالميدان تلحقها
خيّالها العريس عافاه الله يا هو	ان سل سيفو على الاعدا فرّقها

❖❖❖

حمرا من الخيل عافاه الله يا هو	برشامها حرير أحمر
خيّالها العريس عافاه الله يا هو	يشبه الأمير عنتر

❖❖❖

حمرا من الخيل عافاه الله يا هو	تسبق ريح الشمالي
خيّالها العريس عافاه الله يا هو	يشبه أبو زيد الهلالي

❖❖❖

حمرا من الخيل عافاه الله يا هو	وجلالها من قطيفه
خيّالها العريس عافاه الله يا هو	يشبه الزناتي خليفه

❖❖❖

حمرا من الخيل عافاه الله يا هو		شعرا على طولا
مسلوبة الذيل عافاه الله يا هو		لتحت العراقيبي

❖❖❖

حمرا من الخيل عافاه الله يا هو		مقصوصة المعارف
مجدولة الذيل عافاه الله يا هو		لحد الخلاخيل

❖❖❖

عريسنا عافاه الله يا هو		يا زينة كل المحاضر
أمّو جابتو بليلة القدر يا هو		حتى النبي كان حاضر

❖❖❖

عريسنا نجمة الصبح يا هو		يا شمس تشرق على كل وادي
أمّو جابتو بليلة القدر يا هو		حتى يكيد الاعادي

❖❖❖

من يقحم السور عافاه الله يا هو		والسور حمتو رجالو
ولـ يبغض العريس عافاه الله يا هو		يموت وتتيتّم عيالو

❖❖❖

لا تقحم السور عافاه الله يا هو		والسور حاميتو رجالو
ولـ يقحم السور عافاه الله يا هو		شباب العريس بتيتّم عيالو

❖❖❖

ان كان بدك عيون السود تملكها		اضرب بسيفك على رقاب الرجاجيل[1]

المناظرات الزجلية

الزجل في اللغة «رفع الصوت الطرب». ومن معانيه اللعب والجلبة ورفع الصوت، وخُصّ به التطريب. والزجل المقصود هنا هو الشعر العامي الذي تُنظم به الأغاني والأناشيد الشعبية. ولأوزانه تسميات مختلفة عن أوزان الشعر الفصيح ما عدا البحر السريع. ومنهم من أعادها إلى الأصول السريانية، ومنهم من خطّأ ذلك واعتبرها متطابقة في معظم الأحيان مع أوزان الشعر العربي الفصيح[2]. وأنواع الزجل كثيرة منها:

(١) الرجاجيل: تصغير كلمة رجال.

(١) انظر مقالة بعنوان «أوزان الزجل اللبناني» لجورج زكي الحاج في مجلة «الحداثة» عدد ٧ - ٨ ص ٢١٩ .

١ ـ المعنّى: ومن أنواعه المعنى العادي الذي يتألف من مطلع ودور، والمعنى القصيد، والمعنى الجناس. وقد ارتبط شعر الزجل به في البداية، كما ارتبط بكلمة «قول». فكانوا يسمّون ناظم الشعر العامي «قوّال» أو «قوّال معنى».

٢ ـ القرّادي: والقرادي ثلاثة عشر نوعاً هي: العادي، والمخمس المردود، والمحبوك، والمطبق، والمغصوب، والمرصود، وكرج الحجل، وطرق النمل، والمرصّع، والمهمل، والمنقط، والقلاّب، والمجزّم.

٣ ـ الموشح

٤ ـ القصيد

٥ ـ الميجانا والعتابا: اصل الميجانا من كلمة «ماجنة» أي مستهترة وعابثة. وهي متلازمة مع العتابا. ومن هنا القول: ابدأ بالميجانا وانتهِ بالعتابا. «اكسر ميجانا وكفّن عتابا».

٦ ـ أبو الزلف

٧ ـ الشروقي

٨ ـ الموّال المأخوذ عن مصر (الموال المصري)، والموال المأخوذ بعده عن العراق (الموال البغدادي).

٩ ـ الحوربة

١٠ ـ الحداء

١١ ـ الزغردة

١٢ ـ الطقاطيق الشعبية: هي في الأصل أغاني النساء، ثم غدت أغاني الرجال أيضاً، وبعضها اغانٍ ظرفية يشيع لوقت ثم يبطل. وهي أكثر من ان تُعَدّ وتحصى مثل الهوّارة، وعلى دلعونا، وعَ العميّم، وعَ الروزانا، وياغزيّل، وياحنيّنه، واوف مشعل، وبنت الشلبيّه، وبرهوم يا برهوم، وزين الظريف، وما يلوم القلب ما يلوم. الا ان بعض هذه الأغاني يشهد عودة اليه أو إلى أغانٍ على وزنه حتى بات من الأغاني الشهيرة مثل الدلعونا والهوّارة.

١٣ ـ العدّيات أو العدّيوات: هي أناشيد يصف بها القوّالون حوادث زمانهم، ومجريات تاريخهم، والقضايا المستغربة، والقصص الطريفة، بأسلوب شعري شيّق يسهّل حفظها، مثل القصائد التي تتناول العداوة التقليدية بين الحماة والكنّة.

يُطلق على ناظمي الزجل اسماء عديدة هي شعراء الزجل والزجّالون والقوّالون. والاسم الأخير كان الاسم الشائع أكثر من غيره ويُلفظ «القوّاله». منهم الاميون الذين يجهلون أوزان الشعر وتفعيلاته وينظمونه «على السليقة». ومنهم فحول الشعراء، واكثرهم من جبل لبنان، الذين نظموا القصائد الجميلة والبليغة وابتدهوا الكثير منها في المناظرات الزجلية. ومنهم أيضاً صفّافو القوافي المعروفون بـ «قوالي العفشيكة». وكل قصيدة ينظمها القوّال تسمى «القوّيلة».

كان في كل قرية شاعر زجل ينطق باسمها شعراً، اسمه «قوّال الضيعة». وإذا وجد فيها أكثر من قوّال فاشعرهم هو المقدم على الجميع. وقوّال الضيعة هو أحد رموزها وشخصياتها المرموقة مع أنه ربما كان اسكافياً أو مزارعاً أو راعي ماعز. ودوره يشبه إلى حد ما الدور الذي أخذه شاعر القبيلة عند العرب في الماضي؛ اذ هو من ينظم الحوروبات والحدّيوات والندبات والمراثي وقصائد المدح والتهاني للزعماء وقصائد الهجاء للاعداء، ويخوض باسم القرية غمار المحاورات والمناظرات الزجلية التي كانت على العموم محصورة بين ابناء المحلة أو المنطقة بسبب صعوبة المواصلات.

واوقات قول الزجل كثيرة، وهي تشمل كل مناسبة فيها جمع حاشد مثل العرس والولادة والختان والعمادة والمآتم والأعياد والسهرات والنزهات والاستقبالات والحفلات المقامة في قصور المقاطعجيين الذين كانوا يخصون مادحيهم بالرضى والهدايا وبكؤوس الشرابات. ومما يروى في هذا المجال ان أحد قوّالي قرية شرتون في قضاء عاليه انشد في احدى الحفلات المقامة عند شيخ من آل عبد الملك في بتاتر ما يلي: «شرتون بتكيد العدا يوم التي»، وأعاد ذلك مرات عديدة عن قصد وكأن عقله قد دقر، فقال الشيخ: «شو هالقول العفشيكة». وحين اكمل القوّال البيت الشعري قال الشيخ: «صبّوا له شرابات». أما البيت، فهو:

شرتون بتكيد العدا يوم التي   بيكون ابن عبد الملك قيدومها

كانت دعوة القرية لحضور عرس في القرية الأخرى تشمل قوّالها، فيذهب مع وفدها. وكان، على العموم، يخصّ بالدعوة عند عدم دعوتها. وفي هذه الحال له حق متعارف عليه هو أخذ مجموعة من شباب قريته ليشكل بعضهم فرقة «الردّادة» التي تردّ وراءه. فيأخذون معهم رأس غنم أو ماعز يسوقونه أمامهم، ويهدونه إلى العريس، فيُذبح ويُصنع منه الشواء والكبة اللذان يقدمان للمدعوين إلى حفلة العرس مع المشروب المحلي «العرق». وكانوا يصلون إلى بيت العريس بالحوربة والحداء.

ينقسم القوّالون في كل حفلة زجلية يحيونها في أية مناسبة إلى فرقتين يترأس كل منهما قوّال واحد، وتضم غالباً قوّالين أدنى منه شأناً، أو يتتلمذون على يده، يكون لهم مداخلات متوافقة مع ما قاله أو معاكسة له. يبدأ القوّالون الحفلة بقول المعنّى والقرّادي متوجهين أولاً إلى صاحب المناسبة بالتحية (العريس، المقاطعجي،الوجيه، والد الطفل المعمّد أو المختون)، ثم يتطرقون إلى مدح أهله وعشيرته وقريته ووجوه القوم الحاضرين وبعض الرؤساء الروحيين والزمنيين، ولا سيما من كانوا على الميل والحزب، او ما كان يُسمّى «الغرضية».

وبعد قصائد المدح والتهنئة التي تشكل جزءاً من المناظرة والمحاورة بين «القوّالة»، ينتقلون إلى المناظرة في باب الفخر وفي موضوعات معينة بحيث يتخذ كل قوّال واحداً منها مثل المفاضلة بين السمراء والبيضاء، والجميلة والأصيلة، والعلم والمال، والسيف والقلم، والكرم والشجاعة. ولا يفوتهم إن يلقوا الأحاجي والالغاز طالبين حلها والاجابة عن اسئلتهم. أما الردّادة، فيردون وراءهم لازمة القصيدة. ويصاحب الجميعَ ايقاعُ الدربكة والدفوف وأنغام الشبابة، وسط تصفيق الحاضرين وتشجيعهم وثنائهم على من أبدع في القول، وضحكهم على كل ردة هجاء لطيفة وناجحة، ووسط جو من الفرح يغمر قلوب الجميع، الا في الأحوال التي تطغى فيها أسباب التوتر والنزاعات بين القرى أو الفئات بسبب تحزب كل منها لقوّالها ومباهاتها القرية أو الفئة الأخرى به، وعدم تقبلها هزيمته، أو بسبب رواسب من العداء كامنةٍ في القلوب، أو بسبب الخوض في المناظرات ذات المواضيع السياسية الحساسة.

مثل عن القرّادي في مدح عريس في مزرعة الشوف في الثلاثينات من هذا القرن:

هَـ الـليلـه المافي منـها	والعريس مـزيّـنـها
لو بينزل ليـها جبريل	بيعصى وما بيطلع منها

مثل عن القرّادي في مدح قرية دير بابا من نظم الشاعر محمد أبو خزام:

السبع ان عـرّج عن غابو	كل العالم بتهابو
وبدير بابا ان مر السبع	السبع بيركع ع ركابو

مثل عن المعنّى من مناظرة زجلية جرت في عرس أحد مشايخ آل تقي الدين في بعقلين بين مؤيدين لآل جنبلاط، زعماء الغرضية الجنبلاطية، وزعيمهم آنذاك نسيب باشا جنبلاط، وشعراء مؤيدين لمنافسيهم آل نكد الذين كانوا يناصرون في معظم الأحيان الغرضية اليزبكية، وزعيمهم آنذاك قاسم بك أبو نكد. قال الشاعر المؤيد لآل نكد:

بعدا القضيه معلّقه وما زالها | خيول الوقيعه محرجمه بمجالها
ولو رف ظل جناح قاسم بونكد | فوق المعاصر تكتكتلو حجالها

وقال الشاعر المؤيد لال جنبلاط واسمه شديد من مزرعة النهر في قضاء عاليه، وهو معروف باسم «شديد المزرعة»، بعد ان شق عليه إغفال الشعراء الحاضرين لدور آل جنبلاط وانكارهم لأفضالهم:

لا بد ما كاس الصفا يصفى لها | ويخوض مهرك يا نسيب مجالها
دار البناها بشير عمود السما | عيبٌ عليكم تنكرون فضالها

الزغاريد

الزغاريد رفيقة الأفراح، ولا سيما الأعراس، منذ القدم. مفردها زغرودة، وهي في اللغة «ترديد الهدير في الحلق، وتسمى في العامية في عكار «الهنهونة» وجمعها «هناهين». وتسمى في سائر المناطق اللبنانية «زلغوطة» جمعها «زلاغيط». ولعل تسميتها الأخيرة مشتقة من كلمة «لغط» التي هي، بحسب ما جاء في معجم «لسان العرب»، الصوت والضجة التي لا يفهم معناها. وتسمى في فلسطين «المهاهاة».

الزغرودة عبارة عن بيتين من الشعر الشعبي يبدأ صدر كل منهما وعجزه باحدى هذه اللفظات: «آها ـ آهي ـ ايها ـ اويها». وجميعها لمخاطبة القوم وتنبيههم، وربما هي تحريف للفظة «اي ها». وتنتهي الزغرودة بما يلي: لو لو لو لي، او لي لي لي لي، أو تنتهي بهدير ينتج من ضرب اللسان بالحلق، مما أعطى هذه الأنشودة القصيرة اسمها «الزغرودة». ولفظتا «اويها» و«لي» تضفيان عليها جمالاً بما فيهما من موسيقى لاشتمال الاولى على الفين وواو وياء، أي على أحرف المد، مما يسمح بمد اللحن، ولترديد الثانية بتنغيم جميل.

من الزغاريد ما هو مستقيم الوزن، وجميل الألفاظ، وعميق المعنى. ومنها ما هو مختل الوزن، وما لا ينطبق وزن صدر البيت فيه على عجزه. ومنها ما هو ركيك المعنى. الا ان المزغردة يمكن أن تعوّض عن اختلال الوزن بمد الصوت وتقصيره، فهي تمدّه باطالة الحركات، وتقصّره بحذفها أو تقصيرها. وعلى كلٍّ فان جمال الزغرودة يرتبط بالمناسبة وبمن توجه اليه، وينبع من براعة المزغردة في الانشاد، وجرأتها، ووقفتها، وتناغم حركات يدها مع الكلمات، ورخامة صوتها.

الحوربة والحداء للرجال، والزغردة للنساء. وكانت في السابق للنساء المتزوجات

فقط، بينما هي اليوم لهن وللفتيات أيضاً. وأسباب انحصارها في المتزوجات عائدة إلى خفر الفتيات وحيائهن، وعدم السماح لهن بالظهور أمام الرجال، ولكون الزغاريد تحتوي على مديح واطراء للرجال لا يليق بهن بحسب الأعراف. ويشارك بعض الشباب والفتيان النساء في الزغردة وفي قول لو لو لو لي. وازدادت هذه المشاركة في الفترة الأخيرة.

الزغرودة شعر وجداني يتضمن المدح والهجاء والفخر والغزل والوصف والمفاضلة بين أمرين. وهي تُنشد للعروسين ولوالديهما واخوتهما وأقاربهما، وللقوم، وللوجيه، وللزعيم السياسي، وللرئيس الروحي، وللغائب العائد، ولصاحب المناسبة المفرحة كالناجح في وظيفة أو شهادة، والمحتفل بذكرى ولادته، أو ببناء داره، وللمهنئين عند قدومهم، وللمدعوين عند تناول الطعام. وتتضمن الزغرودة الواحدة غالباً وصفاً ومديحاً وافتخاراً لعدة افرقاء. فمنها ما يتضمن مدحاً للعروسين ولوالديهما وأهلهما وقومهما. والتي يصح قولها لوالد العريس وللوجيه في العرس يصح انشادها لمطلق ممدوح في أية مناسبة أخرى. وقد أُعجب الشاعر الياس أبو شبكة بأعراس القرية، فاستوحى منها ونظم زغاريد باللغة الفصحى هذه احداها:

من ثوبك الياسمين من جيدك المرمر	أنفاسك الناردين والمسك والعنبر
هبّت على العاشقين في روضة الوادي	وعطّرت حلمهم في مهدها الاخضر

وفي ما يلي زغاريد كان بعضها ولا يزال، يُنشد في الشوف، ومنها ما هو مشترك مع سائر المناطق؛ لان الزغرودة الحلوة، كما وردت الاشارة اليه عند الحديث عن الغناء، تنتقل من منطقة إلى أخرى، وبعض الزغاريد مشترك بين المناطق اللبنانية والمناطق المجاورة.

للعروس:

ياعروس قومي تخدّري وامشي	ومن بيت بيّك لبيت عزّك[1] ما يخسك شي
وجيبو جمال العرب تنحمّل الفرشي	هي بنت الاكابر بلا خدّام ما بتمشي

للعريس القصير:

عيّروني بقصرك قلت عود التبر	والخصر خصر الغزال والعنق شامخ شبر
قولوا لأهل الذكا قولوا لأهل الخبر	القلم بيجمع الدني ولو كان طولو فتر[2]

---

(١) عز المراة: ديارها. وعزّ ديار المراة: زوجها.

(٢) كان آل سيفا يعيّرون كنّتهم ابنة الامير فخر الدين المعني الثاني بقصر قامة والدها، فأجابهم فخرالدين بالبيتين المذكورين اعلاه. وقد تناقلهما الناس وحولتها النسوة الى زغرودة.

للعروسين:

أهلا وسهلا يااللي عابره عَ الدار قامه عليّه بايدك نقشة الغرّار
طلبت من ربي الواحد القهار يطول عمر عزك وتكوني حاجة الادهار

لأول كنّة:

أهلا وسهلا أول كنّة الـ طلّت مقرونة السعد عَ ديار الـ لنا حلّت
شعرا سلاسل ذهب وعيونها حلوين مثل الشمس تضوي. مثل القمر هلّت

للمهنئين في العرس:

أهلا وسهلا فيكن يا الزرتونا اخضرت الارض لمن آنستونا
تجوزوا بنينكن وبناتكن ونزوركن بالفرح مثل ما زرتونا

للضيوف:

أهلا وسهلا فيكن يا ضيوف عزاز انتو على قلوبنا أغلى من الالماز
أغلى من البن، أغلى من طيور الباز وأغلى من الذهب لو كان صاحبو ممتاز

❖❖❖

أهلا وسهلا فيكن يا ضيوف أهلا وسهلا ولو كنتو الوف الوف
انا لو عارفتكن جايين لكنت ذبحتلكن مية خروف

للقوم:

أهل (الفلانية) يا سباع الاسودِ لكن عادات أباً عن جدودِ
لكن عادات في كيد الاعادي تبدلو لن عزّن بليالي السودِ

❖❖❖

رجالنا هوبرت نسواننا غنّت راياتنا البيض من فوق الجبل طلّت
والي مرقت عَ هالجمع وما سمّت تعيش بشقا وين ماراحت وحلّت

❖❖❖

طلع البدر من بين العقارب وقال لسهيل بالك لا تحارب
ورطلنا معمول عَ رطل الحرير ورطل الغير عَ رطل الجزر

ولنا لطشات زي العقارب

للوجيه:

يا فـــلان مين قـــدّك ومين ندّك — يا جسر بولاد ما عمرو حدا هدّك
تعصر عدوك عصر الزيت ببدّك[1] — رزقتك من الله وما هييش من عبدك

❖❖❖

يا (الفـلانيـة) يا نمو الشـجـر — يا ناقلين المي من تحت الحـجـر
سـألت من كبيركن ومشيركن — كبيركن (بو فلان) عَ المقعد حضر

❖❖❖

يا بو فــــلان يا ملّولة الوادي — ياخيمة العز انتصبت للبلاد
انت قيدوم لرجال النخيّه — بيوم الحرب بتكيد الاعادي

❖❖❖

يا بو فــــلان يا ملّولة الوادي — الك نهرين فوق النهر وادي
الك معاصر طول الليل تقطر زيت — كـفك هالسخي رجّ البلاد

❖❖❖

حارة بوفلان عَ الهندام رافعها — يا قهوة البن والسكر مطيلعها
انت ابن النسب والجود ياعيني — وعادات بيك وجدك انت تابعها

لغائب عاد:

أهلا وسهلا يا اللي كنت غايب جيت — يا عز الحبايب ما يعلى عليك نقيض
وان غبت نكّدت عيشي وان حضرت يطيب — حاشاك يا سبع من بين الرجال تغيب

للمسافر:

الحمد حولك والنبي ابراهيم يقرا لك — والشيخ مسافر يكون خلفك وقداًمك
وسورة تبارك ويوسف الصدّيق — والخضر اخضر يكنلك في الطريق رفيق

للأولاد:

ابني وحيد يخلّي كل وحداني — يشفق على ميمتو هالرافع الشان

---

(١) البدّ: نسيج من الشعر يُستعمل في صناعة زيت الزيتون.

يشفق على ميمتو ويغمّض عيونا ويخلف عليها خلاف حب رمّان

❖❖❖

حوّطتكن بياسمين يا زهر البساتين
يا مصحف زغيّر على ركاب السلاطين

❖❖❖

انا ان غنيت يلبقلي الغناني انا الـ غنيت عَ سلامة رجالي
انا الـ غنيت ولادي فوق راسي كلّن مثل بوزيد الهلالي

الباب الثاني:

النوائب والأحزان

الفصل الأول:

الموت ومراحل المأتم الأولى

تمهيد

دورة الحياة ولادة، فعيش يطول أو يقصر من مراحله الزواج، فممات، والبعض يضيف اليها مرحلة ما بعد الموت. ولولا الفرح ساعة الولادة ما كان الحزن ساعة الموت. وللموت أسباب كثيرة، وهو، مهما تنوعت الأسباب، واحد. انه نهاية حتمية للعمر المحدود، واسلام للروح الى الله واندراج إلى رحمته، وسكون للجسد بعد حياة هناء وسعادة ورخاء، أو حياة بؤس وفقر وشقاء، حياة عادية لا يترك صاحبها أي أثر على رمالها، أو حياة مثمرة بالعطاء يحيا صاحبها بعد مماته بإنجازاته وجليل أعماله ومآتيه في خدمة مجتمعه وقومه ووطنه وفي خدمة الانسانية.

منذ ان وجد الانسان لازمه الخوف من الموت، فاستجار بالطقوس الحركية الكلامية ليسكّن خوفه ويوجد الأمان لنفسه. ولازمه الحرص على جثة الميت، فعمد إلى الحفاظ عليها ودفنها، أو التخلص منها والاسراع في تلفها.

وفيما آمن المصريون بالحياة الثانية بعد الموت، فكان ذلك سبب الحرص الكبير على الجثة وتحنيطها، وسبب بناء اضخم المقابر وإحدى عجائب الدنيا السبع (الاهرام)، وفيما آمنوا بالحساب بعد الموت، اعتبرت شعوب بلاد ما بين النهرين القديمة ان حياة الانسان تنتهي بوفاته، وان مصير الروح غامض، وان الروح بعد مغادرتها للجسد تتيه في الاجواء ناقمة على الاحياء، محاولة الايقاع بهم، ولذلك بنوا المقابر العادية. وعبثاً حاول جلجامش، ملك اوروك، التفتيش عن الخلود، وتوصل أخيراً إلى الاقتناع بأن مصير البشر هو الموت، وان الخلود للآلهة، وان البشر يمكن ان يخلّدوا بأعمالهم

فقط[1]. واعتقد الفينيقيون ان الروح حين تخرج من الجسد لا تعود إليه وان ظلت على علاقة به وتقيم إلى جانبه، وان قبر الانسان هو بيته الأزلي، لذا وضعوا إلى جانب الميت بعض المقتنيات الثمينة. وقد نُقش على أحد النواويس الحجرية في صور، التي تعود إلى العهد الروماني: «تشجع فالخلود ليس للبشر».

نشأ إلى جانب واجب الحرص على الجثة واجبان آخران، أولهما تكريم الميت، وتزويده بزاد روحاني من المعتقدات الدينية، وتزويده عند بعض الشعوب الوثنية بجزء مما كان يملك ومما كان يستعمله في حياته. وثانيهما تعزية أهله ومواساتهم بمصابهم فيه. وبات الناس يقيمون للموتى المآتم الحافلة بالنياح، وينقلونهم إلى مثواهم الأخير بندب النساء والأناشيد الدينية والزمنية المحزنة.

أخذت الأديان السماوية، اليهودية والنصرانية والاسلام، بعض عادات المعتقدات الوثنية بعد ان هذّبتها. وأوجدت طقوساً وعادات أخرى تتلاءم مع تعاليمها ومناحيها. وتطورت معتقدات بعض الناس، وبخاصة في القرن العشرين، إلى المادية والعلمنة اللتين لهما تأثيرهما في إحداث ترتيبات ومراسم جديدة.

ان أي انسان مؤمن حقاً، من أتباع الأديان السماوية، يجد الأمان في ايمانه بالله وفي الرضى والتسليم لأحكامه، وفيما قُدِّر له من خير وشر، أكثر مما يجده في أية طقوسية مهما كان نوعها، ولا سيما إذا كانت هذه الطقوس من رواسب الوثنية. وان أي انسان عقلاني واقعي يجد الأمان في عقلانيته وواقعيته. وكلما قوي ايمان الانسان بالله، وبمعتقده، ورجح صفاء عقلانيته على هياج عواطفه، ووضوح واقعيته على سواد أوهامه، قويت شجاعته في مواجهة الموت كما في مواجهة سائر النوائب، وضعفت طقوسية الطقوس عنده.

تضمنت تعاليم الأديان السماوية وعقائدها حساباً سماوياً للأموات على ما فعلوا في حياتهم. فمن عمل خيراً دخل في رحمة الله وجنته. ومن عمل شراً تعرض لسوء الحساب وللعقاب في الآخرة، وكان من المعذبين في نار جهنم. وهذا ما جعل الناس يعملون لآخرتهم كما يعملون لدنياهم.

واعتبرت الأديان السماوية جسد الانسان، بعد اسلام الروح لله، لا قيمة له، وان دفنه الضروري في قبر هو فقط من قبيل الحرص عليه من العبث، وحجبه عن النظر،

(١) انظر ملحمة جلجامش، ترجمة فراس السواح، دار الكلمة للنشر، بيروت، لبنان ١٩٨٣ . وفي ص ١٣٥ يرد مايلي: «إلى اين تمضي ياجلجامش؟ الحياة التي تبحث عنها لن تجدها. فالالهة، لما خلقت البشر، جعلت الموت لهم نصيباً، وحبست في ايديها الحياة».

والحفاظ على الصحة العامة. كما اعتبر الاسلام ان خير القبور الدوارس. الا ان هناك ضرورة أيضاً للاهتمام بجسد الميت بناءً على مفاهيم دينية، ومن قبيل تكريم صاحبه في مماته بعد ان كان مكرّماً في حياته. فللميت حقوق على أهله ومجتمعه هي غسله وتكفينه والصلاة عليه وحمل جنازته ودفنه والصلاة عن روحه، كما له الحق عليهم بالاسراع بقضاء ديونه، وتنفيذ وصيته.

عادات المآتم في لبنان ذات طابع عربي وطابع اسلامي ومسيحي اضافة إلى رواسب من الوثنية، وبقايا من حضارات الشعوب التي توطنت المناطق اللبنانية. انها مجموعة المراسم الدينية المحددة في الشرائع التي تؤدى عند الاحتضار وفي يوم المأتم وبعده وأيام التذكارات، ومجموعة الوقائع ومظاهر تكريم الميت وتعزية أهله، الناشئة من المفاهيم الاجتماعية الموروثة من السلف والمصطلح عليها، التي تنتج مجموعة من الوقائع الثقافية الممثلة بمصطلحات التعزية والمواساة، وعبارات الادعية والمناداة والتعديد والحكم، وأناشيد الندب والحوربة والنياح، والأناشيد الدينية.

المتطلع إلى عادات المآتم من منظار عقلاني فقط يحكم على بعضها بأنه رجعي، ويستهزىء به. والمتطلع اليها من زاوية الايمان الديني الصرف يحكم على بعضها أيضاً بأنه وثني، أو مخالف للتعاليم الدينية على الاقل؛ لأن فيه رواسب من الوثنية ومن طقوسها مثل الندب واطالة فترة الحداد. الا ان غير العقلاني، والمخالف للدين، كان، ولا يزال، يوجد الامان لضعيفي الايمان، فيعينهم عند انسحاقهم في مواجهة جبروت الموت وقسوته.

من عادات المآتم ما هو مختلف باختلاف المناطق، وما هو مختلف بين قريتين متجاورتين بسبب السبق إلى عادة جديدة أو السبق إلى التخلي عن عادة قديمة مثلاً، وما هو مختلف باختلاف الطبقات والموتى بين أعيان وعامة، ورجال دين ورجال دنيا، وذكور وأناث، وكبار وصغار، وبارزين وعاديين، وما هو مختلف باختلاف الأديان والمذاهب مثل المراسم الدينية. الا انه هناك تشابه في مضمون بعض المراسم الدينية والعادات المتصلة بالعقيدة. وعلى سبيل المثال تتفق جميع الطوائف على ضرورة اعطاء زاد روحي للمحتضر قبل اسلامه الروح، والصلاة على روحه، والدعاء الى الله أن يرحمه، لكن بآيات دينية وعبارات مختلفة. كما انها تتفق على توجيه رأسه نحو قبلته الدينية التي هي عند المسلمين اتجاه مكة المكرمة، وعند النصارى الشرق.

الموت هو مفارقة الروح للجسد. والروح لطيف يسري في الجسد مسرى الماء في العود الأخضر. وإذ يفنى الجسد تبقى الروح خالدة. والموت جسر بين الدنيا والآخرة.انه اندراج للإنسان بالوفاة إلى رحمة الله، وانتقال من الدار الفانية (الحياة) إلى دار البقاء (الآخرة) التي هي دار النعيم في الأديان السماوية. وقد خلق الله الموت والحياة ليقهر عباده وليبلوهم وليختبرهم ايهم أحسن عملاً، «الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور»[1].

يجلُّ الناس أمر الموت، ويخافونه، ويعظّمون مناسبته، ويتقيدون بالآداب والقواعد التي وُضعت له، ولا سيما في اثناء حمل الجنازة والمشي بها واداء المراسم الدينية، ولا يسمحون بمخالفتها. والموت في نظرهم حق، وسنّة الله في خلقه، وعودة للنفس إلى باريها، وكأس لا بد من شربه، وقدر لا بد من نفاذه، ونهاية طبيعية للأجل المحتوم. قال الله تعالى: «ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»[2]. فالموت يحصل إذاً في الساعة المقدّرة من الله مهما كان من علامات السلامة وتدابير الحيطة. لذا من التعابير الشائعة ما يلي: «هوهن المكتوبين ما بيزيدوا ساعة ولا بينقصوا ساعة ـ ابن تسعة ما بيموت ابن عشرة وابن عشرة ما بيموت ابن تسعة».

ويرى المسلمون الموحدون الدروز في الموت ابدال قميص بقميص؛ لأن الروح، بحسب عقيدة التقمص التي يؤمنون بها، تنتقل من جسد انسان متوفى الى جسد انسان مولود، أي تنتقل من قميص الى قميص. وهذا أحد أسباب شجاعتهم التي اشتهروا بها؛ لأن الروح عندهم أهم من الجسد، والحياة مستمرة بها بعد فنائه. كما ان هذا يحتم عليهم عدم خشية الموت وعدم الحزن فيه وعدم الفرح عند الولادة.

الموت عبرة للناس؛ لأن الله قهرهم به وساوى بينهم فيه. وعليهم أن يضعوه نصب أعينهم ليتقوا الله ويعبدوه، ويتمسكوا بأهداب الدين، ويتحلوا بالفضائل، ويتوبوا عن المعاصي، ويصلحوا أوضاعهم، ويكثروا من الأعمال الصالحة، ويكبحوا جماح شهواتهم وأهوائهم ومطامعهم وجبروتهم، ويوفّوا ما عليهم من موجبات وديون، ليحظوا برضى الله ورحمته، وليكون لهم نصيب بالجنة. ومن أجل الاعتبار من الموت استحب المسلمون ذكره، فلقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «اكثروا ذكر هاذم اللذات»[3]. كما استحبوا الوقفة في المآتم، وزيارة الرجال للقبور.

---

(١) سورة الملك، الآية ٢ .
(٢) سورة الأعراف، الآية ٣٤ .
(٣) الهاذم: القاطع.

والموت اختبار من الله للإنسان، وحكم من أحكامه التي عليه ان يرضى بها. ورضاه به، وتقبله بشكل طبيعي، وصبره عليه، فضائل تقرّبه من الله وتزيده أجراً. وكل خروج عن المألوف في مظاهر الحزن، وتقاليد المآتم، اعتراض على حكم الله. وبناءً على ذلك ينهى رجال الدين عن كثير من التعابير التي تقال في المآتم، وعن غلبة العاطفة على العقل والدين، وعن كثير من الأعمال والمظاهر التي هي بدعة زمنية وانحراف عن المفاهيم الدينية، ويدعون إلى الرضى والتسليم بحكم الموت، وإلى حصر ترتيبات المآتم ومظاهرها في حدودها الدنيا التي هي فقط نعي الميت لمعارفه، وجبر خاطر أهله بالتعزية والمواساة، واتمام المراسم الدينية.

وبما ان الموت أمر حاصل عاجلاً أم آجلاً، ومتوقع في أية لحظة؛ لأنه، لسرعة حصوله، «أقرب من البياض إلى السواد في العين - ما في غايب أقرب منه»، وبما ان مراسمه وترتيباته تتم في يوم مشهود وفي حشد من الناس، وترتب نفقات معينة، وبما ان من العادات الاحسان عن روح الموتى، كان الناس يحتاطون للموت بتخصيص مبلغ من المال يخبئونه في بيوتهم، او يودعونه عند أحد الاقارب والاصدقاء، كما كان الدروز يسرعون في كتابة الوصية؛ «لأن الوصية لا تقطع الأجل»، وذلك كي يوزعوا ثرواتهم بحسب ما يشاؤون، وكي يورثوا من يشاؤون.

ومع الايمان بكل ما سبق فإن الموت أمر مكروه؛ لأنه غربة أبدية، وانسلاخ قسري ونهائي للناس بعضهم عن بعض. فهو يكسر الخاطر وينغّص الحياة بفراق الأحباب، ويخرب البيوت العامرة، ويشقي العائلات السعيدة، ويختطف الأطفال وهم في عمر الزهور، والفتيان في ريعان الصبا، والشباب في ربيع شبابهم، والعاملين لأهلهم ولمجتمعهم في قمة عطائهم، والأعيان والحكام والقادة في أوج عزهم ونفوذهم. واحد التعابير الشعبية التي يقولها الناس في المآتم في مجال تمني بعد الموت عنهم «ان شاء الله ما منشوف عليكم مكروه». فالموت في نظرهم «كره» مقابل العرس الذي هو «فرح». وهو ملقّب بـ «سليمى» التي دأبها افناء الناس، وتنغيص حياتهم، وتسبيب التعاسة والشقاء لهم، ويقترن بـ «عزرائيل».

إذاً يكره الناس الموت، ويحبّون الحياة، ويتمنون طول أعمارهم باستثناء بعض المعذبين والمقهورين واليائسين. وتمني الموت غير جائز شرعاً الا إذا أصبح الانسان عبئاً على الآخرين، وغدت وفاته خيراً له ولهم. وقد قال الرسول ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضرر نزل به. فإن كان لا بد متمنياً الموت فليقل: اللهم احيني ما كانت الحياة

خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»[1]. وفُسّر ذلك بالتعبير الشعبي التالي في مجال دعاء انسان لآخر: «ان شاء الله تعيش كلما الحياة تليق لك». ومن يتمنون الموت لمن لا تليق له الحياة يقولون: «الله يفرّج له - الله يعمل له صالحه».

وكما تبدو الحياة غبطة وأنساً ونوراً، يبدو الموت كآبة ووحشة وظلمة. ومقابل القبول بالاحياء والأنس بهم، هناك الرفض لهم حين يموتون؛ لأنه لا أمل بإعادة الحياة لهم، ولا نفع من جثتهم الهامدة، بل هناك العذاب والألم من رؤيتهم والضرر الصحي من بقاء جثتهم. وأكثر من هذا يتحول الموتى مع متروكاتهم ومدافنهم إلى مصدر للخوف في الحلم واليقظة، ومبعث للخطر، مما أدى إلى نشوء مفاهيم وعادات معينة من شأنها كما يتوهم البعض إبعاد خطرهم. وفي هذا أحد الأدلة على ضعف الايمان عند بعض الناس، أو عدم وجوده، وجهل الكثيرين وتعلقهم بالأوهام، وبقاء رواسب الوثنية والحضارات القديمة في مفاهيمهم.

والموت عدو للإنسان لا يُغلب. وهو نقيض الحياة، وفي صراع مستمر معها. وبما أنه كذلك، يلجأ الانسان إلى وسائل مخالفة للتعاليم الدينية، يستعين بها على مواجهته وتحديه، منها الأناشيد الحماسية، والموسيقى والرقص، واللعب بالسيف والترس، واطلاق النيران، وحمل البيارق. فهذه المظاهر الزمنية، اضافة الى كونها وسائل لتكريم الموتى، واستعادة بعض ما كانوا يقومون به في حياتهم، اظهار للقوى واستنفار لها لساعة القتال مع الموت، وللثبات في مواجهته وتحديه، في اللحظات التي لا يستسلم الانسان له، أو يتظاهر انه لا يستسلم بسهولة.

الاحتضار

يُطلق على ساعة فراق الانسان للحياة تعابير عديدة هي: الاحتضار، وساعة الموت، وساعة النزع، وساعة طلوع الروح.

ينقسم الناس عند مواجهة الموت بين مقبلين عليه بإيمان وشجاعة، ومتهربين منه خائفين منهارين. ومنهم من يخشاه. ومنهم من يخشى عذابه فقط. ومنهم من يتحمل عذابه مستقويا بإيمانه على الضعف الموجود في كل نفس بشرية، متوخياً الاجر.

كل انسان يدعو إلى ربه أن يهوّن عليه الاحتضار، وان يخفف عنه شدته، وان يموت عزيزاً موفور الكرامة. والمسلم يقول الحديث النبوي الشريف: «اللهم اعني على غمرات

---

(١) لفظ الترمذي ولفظ الصحيحين (متفق عليه).

الموت وسكرات الموت»[1]. والمسلمون يعمدون لتهوين ساعة الموت على المحتضر إلى تلاوة آيات القرآن الكريم. ومتدينوهم يؤمنون بأن في معاناتهم في الاحتضار أجراً لهم، وتخفيف ذنوب عنهم إذا كانوا راضين مسلّمين بحكم الله. والنصراني يدعو إلى الله أن يمنحه «موتة هيّنة، وقربانة ليّنة»، وان يميته «ورأسه على فراشه، وسبعة صلبان فوق رأسه».

وموت الفجأة تخفيف ورفق بالمرء، لكنه بالمقابل صدمة لأهله، وهو يحول أحياناً دون وفاء المرء بموجباته الدينية والدنيوية. وقد استعاذ به الرسول ﷺ. وروي عن ابن مسعود وعائشة: «ان موت الفجأة راحة للمؤمن وأخذة غضب للكافر».

هناك مراسم معينة وتزويد للمحتضر بما هو ضروري لملاقاة وجه ربه وهو على دينه. فعند المسلمين يُستحب له أن يأمل بالعفو والمغفرة والرحمة من الله، والله غفور رحيم. ويجب أن ينطق بالشهادة لقول الرسول ﷺ: «من كان آخر كلامه لا اله إلا الله دخل الجنة»[2]. وفي حال تعذر النطق عليه، يُلقن لفظ الشهادة مرة أو ثلاث مرات على الاكثر. وعند الشيعة يُلقن بالاضافة إلى الشهادتين، والاقرار بالنبي ﷺ، الاقرار بالائمة[3]. وإذا كان المحتضر الدرزي، الذي لا يزال في وعيه، بدون وصية، يستوضحه الحاضرون عن رغبته في كيفية توزيع ارثه، ويكتبون وصيته ويقرأونها على مسمعه.

ومن المراسم المتبعة عند المسلمين ادارة وجه المحتضر نحو القبلة إذا لم يشق عليه ذلك، وإلاّ يترك مستلقياً على ظهره وقدماه لجهة القبلة ورأسه مرفوع على مخدة لاستقبالها بحيث لو جلس كان وجهه تجاهها. ويجب قراءة سورة الفاتحة وسورة يس إذا حضر. وسورة يس هي الغالبة؛ لأن فيها اشارات إلى الموت، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «ما من ميت يموت فتُقرأ عنده يس إلاّ هوّن الله عليه»[4]. واستحسن بعض متأخري الحنفية والشافعية قراءة سورة الرعد مع يس لقول جابر: «انها تهوّن على المحتضر خروج روحه».

ويُستدعى الكاهن عند النصارى ليمشح المحتضر «المشحة الأخيرة»، أي المسحة الأخيرة، ويعرّفه، ويتلو صلاة المنازعين المسماة «طلبة المنازعين» لمعاونته على الرحيل، فيمسحه بالزيت المقدّس راسماً شارة الصليب على وجهه، ويرش الماء المبارك حول

(١) روته عائشة واخرجه الترمذي.
(٢) رواه احمد وابو داود.
(٣) السيد علي الحسيني السبستاني، منهاج الصالحين: العبادات ج ١، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م، ص ٩٥.
(٤) رواه ابو داود وابن ماجه واحمد.

فراشه، ويطلب اليه الندامة على آثامه واخطائه إذا كان واعياً، ويعطيه قربانة، وهي برشانة معتبرة جسد المسيح، تالياً ومن معه في الغرفة صلاة الايمان وصلاة الغفران، كما يمنحه الحلّة الأخيرة عند اسلامه الروح. ويحرص النصارى على تعميد من لم يعمّد قبل الموت ليواجه الرب وهو على الديانة النصرانية.

وعند كبار السن معرفة بقرب ساعة الموت بناءً على التجارب الكثيرة، ولها عندهم علامات عديدة، «فحال السلامة له علامة» بحسب أحد التعابير الشعبية. لذا يعمد الرجال من أهل المحتضر إلى إعلام المتغيبين من الاقرباء، وتعمد النساء من أهله إلى ترتيب البيت، وتخبئة الحلي والأسلحة والمقتنيات الثمينة في صناديق أو خزائن تُقفَل، أو ايداعها في بيوت الجيران، خوفاً من أن تمتد اليها أيادي السارقين الذين ينتهزون فرصة انشغال أهل الميت بالحزن عن مراقبة الناس ومعرفة مايجري في بيتهم الذي تُعرض فيه الجثة حتى الدفن في أكثر الأحيان. وتنصرف سائر النساء الحاضرات إلى تسلية النساء من أهل الميت ومساعدتهن في تجهيز ثياب الميت وتسخين الماء لغسله. ومن يبكي من الرجال والنساء في غرفة المحتضر يبكي بصمت متجنباً تعذيبه.

كان الناس يتأكدون من اسلام المحتضر الروح بوسائل مختلفة منها توقف نبض القلب، وبرودة اليد، واغماضة العينين، واصفرار لون الوجه. ومنها وضع مرآة أمام فم المحتضر حتى إذا لم يظهر عليها أثر لبخار الماء أيقنوا أنه أسلم الروح. والذي يتأكد من الوفاة يقول للموجودين: «تبقى حياتكم» أو «العوض بسلامتكم».

الصرخة

بعد التأكد من اسلام المحتضر الروح يتحول البكاء الصامت إلى ضجيج وعويل. وهذا يسمى «الصرخة على الميت»[1]. وتلفظ اختصاراً «الصرخة». والبعض، وهم قلائل، يسمونها «الضجة». ومن مصطلحات المآتم تعبير «طلّعوا الصرخة» ويُعنى به الصراخ المقرون بالبكاء والعويل، الذي يعقب مباشرة اسلام الروح. ويرافق ذلك عند البعض لطم النساء خدودهن، وضرب صدورهن، وشق أثوابهن، بحسب عادة العبرانيين وقدماء المصريين وأهل الجاهلية، وحل شعورهن وقطع خصلات منها ورميها على الجثة، وتخديش وجوههن بالأظافر.

ولما كان أحداث الصرخة أو «تطليع الصرخة» اعلاناً لنبأ الوفاة واشهاره، وتمهيداً

(١) اسم الصرخة على الميت في المدن «دَب ولي». واصل «دَب» ضب، وهي في اللغة بمعنى صاح وتكلم. و«دَب ولي» هي الصراخ على الميت عند طلوع روحه بلفظة «ياويلي». انظر احمد ابو سعد، قاموس المصطلحات والتعابير الشعبية، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٧، ص ٢٤٠ .

لـ «تدوير العزاء»، فمن العادات تأخيره إلى حين مجيء الاقارب اللزم من بيوتهم وحقولهم، وفي هذه الحال يُغسل الميت ويجهّز قبل إحداث الصرخة. ومن العادات ترك السراج، الموقد في غرفة المحتضر بعد اسلامه الروح، مشعلاً إلى أن ينطفىء بفراغ الزيت منه.

اتخذت بعض القرى من الصرخة وسيلة إعلام بنبأ الوفاة. وظلت هذه العادة متبعة في عترين (احدى قرى الشوف) حتى أواسط القرن العشرين؛ إذ كان أهل الميت يحدثون الضجة فوق رأس الميت ويتابعونها في مكان مواجه، ثم يعيدون فعل ذلك بالطريقة نفسها في صباح اليوم التالي.

ان سماع الصرخة الصادرة من بيت أو حي، وقرع الجرس عند النصارى دقات حزن مثلثة تعقب كلاً منها وقفة، يدلان بالقرينة على شخص المتوفى في مجتمع القرية القليل العدد، الذي تتجاور بيوته وتتلاصق، والذي يعرف أفراده جميع حالات المرض والولادة والفرح والسفر فيه.

كل من يعلم بالوفاة يعبّر عن حزنه على الميت بعبارات عديدة، وبعضهم يقول: «الله يرحمه». ويعبّر المسلم عن ايمانه بالله وبحتمية الموت بالقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون». ويرسم النصراني شارة الصليب.

مهما كان الوقت متأخراً في الليل، والطقس بارداً وممطراً وعاصفاً ومثلجاً، يسرع سامعو الصرخة إلى بيت المتوفى، فيعمدون مع من حضر ساعة النزع من الاقارب والجيران إلى إبعاد الرجال من غرفته إلى غرفة أخرى، أو إلى الدار، ليُصار إلى غسله وتجهيزه، والمباشرة بالخطوات اللازمة لإقامة مأتمه.

ان حزن الموت أهم الأحزان. وقد سمى النبى ﷺ العام الذي توفي فيه عمه أبو طالب وزوجته خديجة، رضي الله عنهما، «عام الحزن». وحزن الموت الذي هو من صميم النفس البشرية قد يكون هادئاً وقوراً، أو ضجيجاً وانفعالاً لاواعياً يذهبان برهبة الموت ووقار المناسبة. ومظاهره وأساليب التعبير عنه وتنفيس احتقانه في الصدور متعددة، وبعضها يختلف من شعب إلى شعب، ومن منطقة إلى أخرى، كما أنها تختلف ضمن المجتمع الواحد باختلاف الموتى واختلاف المصابين. الا ان البكاء يبقى الأسلوب المشترك بين بني البشر؛ لأنه اسلوب طبيعي كما يبقى السواد شعاراً عاماً للحزن.

البكاء أهم سبل التخفيف من وقع المصيبة. وكثرته وقلته مرتبطتان بكبرها وصغرها، وبرجاحة عقل المصاب، وقوة ايمانه، ومدى قدرته على ضبط مشاعره، ولا

سيما إذا كان في مركز مرموق يفرض عليه الرصانة والوقار. فبينما تجود العيون بالدمع على فراق الشباب، يُنهى عن البكاء على المعمّرين وعلى من كان الموت خيراً لهم، ويُعتبر عند البعض حراماً. والبكاء متنفس للمرء، يشفي ولا يجدي كما جاء في رثاء ابن الرومي لابنه الأوسط. ولولاه لاختنق الناس من الحزن، فالدمع صابون الاحزان والهموم.

والبكاء جائز دينياً بدون الصراخ والنوح والضجة، فالرسول ﷺ بكى أصحابه، ودمعت عيناه على ابنه ابراهيم وهو يجود بنفسه، وقال: «ان العين تدمع، والقلب يحزن. ولن نقول الا ما يرضي ربنا. وإنا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون»[1]. وأجاز البكاء، لكنه نهى عن الصوت. فالله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب باللسان.

ان معظم أهل الدين من جميع الطوائف، بناءً على ايمانهم بالله، واعتبارهم ان الموت حق وان سلوكهم يجب ان ينسجم مع التعاليم الدينية، يحزنون بصمت عند فقدان أحد أهلهم وأحبائهم، ويعزّون أنفسهم بأنفسهم بما يرتلون من آيات دينية، ويصبرون، وينصحون غيرهم بالصبر ويرددون على مسامعهم الحكم والمواعظ. والصبر على قضاء الله مأجور. والجزع منه مأثوم. والصابرون على المصائب، والراضون بأحكام الله وبما قدِّر لهم، مقدَّرون من الجميع، مأجورون من الله.

أشهر أعلام الصبر على المصائب أيوب عليه السلام. ومن أعلام الصبر أيضاً الأمير السيد عبدالله التنوخي قدس الله سره الذي فقد ابنه الوحيد عبد الخالق في يوم عرسه. ومع هذا لم يجزع، بل اعتبر أن الله استرد وديعته وردد في نفسه قول الله تعالى: «لنبلونكم بشيء من الخوف والجزع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون»[2]. ولم يُعلم مدعويه بالأمر الا بعد أن انتهوا من تناول الطعام. ثم أخذ يلقي عليهم المواعظ التي تنهى عن الحزن وتوصي بالصبر والرضى والتسليم لأحكام الله[3].

وإذا كان هذا شأن الرسل والأنبياء والأولياء والتقاة في المصائب، فإن الأمر مختلف مع سواهم من بني البشر، ولا سيما ضعيفي الايمان، وابناء المجتمعات الحافلة بالعادات والمظاهر التي تضاعف الحزن وتستدر البكاء الصاخب عند طلوع أرواح الاحبة والاعزاء، وعند وداعهم الوداع الأخير.

(١) ابني قدامه، المغني والشرح الكبير، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م جـ ٢ ص ٤١٠ .
(٢) سورة البقرة، الاية ١٥٥ و١٥٦ .
(٣) للمزيد من المعلومات انظر فؤاد ابو زكي، الامير السيد عبدالله التنوخي. سيرته. ادبه، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص ٢٢٦-٢٣١ .

غسل الميت

غسل الميت عند المسلمين والمسيحيين أول حقوقه على أهله ومجتمعه، وأولى مراحل تجهيزه. وهو ضرورةٌ الغرض منها التطهر من الناحيتين: الصحية والروحية، واظهاره نظيفاً، وإزالة كل ما يمكن أن يسبب الروائح المزعجة لناقليه، وللمجتمعين حوله في حال عرض جثته. ومن فوائد غسل الميت أيضاً تأكيد الوفاة، وكان منها قيامه مقام التقرير الطبي للتثبت من أن الميت مات ميتة طبيعية، أو كان لموته أسباب أخرى.

وغسل الميت، في رأي جمهور علماء المسلمين، فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن جميع المكلفين. وله أجر من الله، فقد قال الرسول ﷺ: «من غسل ميتاً فأدى الامانة ولم يغشِ عليه ما يكون منه عند ذلك، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[١].

لغسل الميت أصول وقواعد محددة في الشرع الاسلامي؛ إذ هناك تحديد للأولى بالغسل ولكيفية الغسل[٢]. فالرجل يغسل الرجل، والمرأة تغسل المرأة. وأحق الناس بغسل الميت أولاهم بالصلاة عليه. وأحق الناس بغسل الرجل وصيه ثم أبوه ثم جده ثم الاقرب فالأقرب من عصابةٍ ثم ذوو ارحامه. وأحق الناس بغسل المرأة وصيها ثم الاقرب فالأقرب من نسائها،، أي أمها فبناتها فأخواتها.

ويجوز لكل من الزوجين، في رأي جمهور العلماء، غسل الآخر بعد الموت بدليل ما روت عائشة رضي الله عنها عن الرسول ﷺ أنه قال لها: «ما ضرّك لو مت قبلي فغسلتك وكفنتك ثم صليت عليك ودفنتك»[٣]. وقد غسل الامام علي فاطمة رضي الله عنهما. وأوصى أبو بكر الصدّيق زوجته اسماء أن تغسله فغسلته. لكن الفقهاء اتفقوا على جواز غسل المرأة لزوجها، واختلفوا في غسل الرجل لزوجته، فأجازه الجمهور ولم يجزه الاحناف. ومن العادات عندنا الا يغسل الزوج الزوجة، وان تغسل الزوجة الزوج تمشياً مع الأحناف بسبب المفاهيم والعادات والتقاليد.

يُغسل جميع موتى المسلمين باستثناء الشهيد غير الجنب الذي يُكفّن بثيابه الصالحة للكفن لأن الدماء طهّرته، وباستثناء من يستحيل غسلهم أو يتعذر، فإنهم ييمّمون. وييمّم الميت أيضاً عند عدم وجود الماء. والتيمّم هو مسح الغاسل وجه الميت من الصعيد ويديه بضربتين.

---

(١) رواه احمد.

(٢) انظر المغني والشرح الكبير، مصدر مذكور سابقاً، جـ ٢ ص ٣٠١ ـ ٣٣٤ . والسبستاني، منهاج الصالحين، مصدر مذكور سابقاً، جـ ١ ص ٩٦ ـ ١٠٥ . والسيد ابو القاسم الموسوي الخوئي، منهاج الصالحين، جـ ١ دار البلاغة، بيروت، لبنان ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م، ص ٧٣ ـ ٧٧ .

(٣) رواه احمد.

يقوم بغسل الميت بعد الأهل الثقات والامناء الصالحون عملاً بقول الرسول ﷺ: «ليلي الميت أقربكم ان كان يعلم، فإن لم يكن يعلم فمن ترون عنده حظاً من ورع وأمانة»[1]. ويحضر الغسل فقط من تدعو الحاجة إلى حضوره. ولا يجوز الدخول إلى مكان الجثة الا لطاهر من الرجال والنساء، فلا يليها الا المأمونون الصالحون، ولا يُتكلم في حضرة الجثة بكلام لا يرضي الله، لأن ملائكة الله تؤمن على كلام الحاضرين. وإذا لمس أحد الميت قبل الغسل يجب على اللامس أن يغتسل.

يتولى غسلَ الميت إذاً غاسل ثقة عارف بأحكام الغسل، وعليه أن يكون أميناً ويغضّ مع من حضر الغسل النظر ويستر ما يطّلع عليه من عيوب الميت عملاً بقول الرسول ﷺ: «من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[2]. ولا يجوز للغاسل عند الحنابلة أخذ الاجرة إذ عليه أن يغسل مجاناً كسباً للأجر، ويجوز أخذه الاجرة عند غيرهم كالحنفية، لذا يُعطى الغاسلون هدايا من أهل الميت حسنة عن روحه لا أجرة لهم.

أحق الناس إذاً بغسل الميت أهله وذوو أرحامه الاقرب فالأقرب شرط أن يكونوا عالمين بما يحتاج إليه. والرجال يغسلون الرجال، والنساء تغسل النساء. لكن وقع المصاب على أهل الميت يربكهم ويضعف عزائمهم، فكان يساعدهم في الغسل عند السنّة والشيعة، أو يتولاه عنهم، كبار في السن وثقات خبيرون، يندفعون اليه ابتغاء للأجر ومن قبيل التعاطف الاجتماعي. أما اليوم، فيتولى الغسل أناس مختصون لا يأخذ بعضهم أجراً، وإنما يعطيهم أهل الميت الهدايا من قبيل الحسنة عن روحه، بينما لا يزال يقوم بالغسل عند الدروز أهل الميت وأقرباؤه.

يوضع الميت في غرفة مستورة، أو في موضع خال من الناس، ويُمدَّد على سرير أو لوح خشبي، ويغطى بقطعة قماش لستر عورته. ويوضع تحته مشمع. وتُليَّن مفاصله بأن يردّ ساعده إلى عضده ثم يمد، ويردّ ساقه إلى فخذه وفخذه إلى بطنه. وتُليّن أصابعه. ثم يُغسل بخرقة بالماء الساخن المعطر بالسدر[3]، ثم بالماء المعطر بالكافور، ثم بالماء القراح. وإذا تعذر السدر والكافور فبالماء القراح. وفي حال عدم وجود السدر يستعاض عنه بما يشبهه. وفي بعض قرى اقليم الخرّوب من قضاء الشوف يُستعمل ورق الزيتون بديلاً عن السدر.

يبدأ الغسل بإزالة النجاسة وبعده بالوضوء. ثم يُغسل سائر الجسم، ويزاد عدد

---

(١) رواه احمد.

(٢) متفق عليه.

(٣) السدر: ورق النبق، وهو نبات يعطي كالصابون رغوة عند مزجه بالماء.

مرات الغسل بحسب الحاجة بناءً على قول الرسول ﷺ للنساء اللواتي غسلن ابنته: «اغسلنها ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك ان رأيتن بماء وسدر، واجعلن في الأخيرة كافوراً أو شيئاً من كافور»[١].

كان الأموات يُغسلون في البيوت التي هي على العموم مكان الاحتضار. الا ان بعض الشيعة «كانوا يغسلون الجثة على القبر لئلا تتنجس بمس أحد لها»[٢]. أما اليوم، فالغسل في العديد من الأماكن صار عند السنّة في غرف خاصة في الجوامع، وعند الشيعة في غرف خاصة في الحسينيات. وبما أن تكفين الميت يعقب غسله مباشرة، والصلاة عليه تلي التكفين بدون تأخر، يُترك بثيابه التي مات فيها، ويرجأ غسله إلى اليوم التالي في حال الاضطرار إلى تبييت الجثة، وعدم الدفن في اليوم الذي حصلت فيه الوفاة. وفي هذه الحال تطيّب الجثة من حين إلى آخر، ويوضع الثلج عليها لحفظها، كما تُستعمل الادوية لهذا الغرض.

ان غسل الميت عند الدروز كان، ولا يزال، يحصل في بيته الا إذا حصلت الوفاة في مكان غيره كالمستشفى مثلا. وكانوا يقومون بالغسل بحسب الطريقة الاسلامية بكل تفاصيلها[٣]. أما اليوم، فهم يركّزون على الجوهر من الغسل الذي أمر به الشرع الاسلامي والذي لا بد منه لتطهير الميت وتطييبه. ويحصل الغسل بعد حصول الوفاة في جميع الاحوال سواء إذا كان الدفن سيتم في يوم الوفاة أو سيؤجل إلى اليوم التالي. ويقوم بغسل النساء نساء أهلهن وأقاربهن، وبغسل الابناء أمهاتهم، وبغسل الرجال زوجاتهم بمساعدة نساء كبيرات ثقات من ذوي المروءة كسباً للأجر وبدافع التعاطف الاجتماعي.

الغسل عند النصارى ليس ضرورياً للمعمّد؛ لأن العماد يكون قد طهّره. لذا يغسلون غير المعمّد، ويكتفون بمسح جسم المعمّد بمنشفة. فالمعمّد عندهم يشبه عند المسلمين الشهيد الذي لا يُغسل لأن الدماء طهرته. وتغسل النساء نساء أهلهن وأقاربهن. ويقوم بغسل الأزواج زوجاتهم، وبغسل الابناء أمهاتهم، بمساعدة كبيرات ثقات من الأقارب يندفعن إلى ذلك كسباً للأجر ومن قبيل التعاطف الاجتماعي. والمرأة النصرانية التي لا تزال عندها امكانية الولادة تتجنب عند البعض غسل الميت مجانبة أن تدخل روحه أو جزء منه اليها، فيسبب ذلك ضرراً لها ولذريتها الكامنة في احشائها. أما مكان الغسل، فهو بيت الميت الا إذا حصلت الوفاة في مكان غيره كالمستشفى.

---

(١) رواه الجماعة.

(٢) لبنان. مباحث علمية واجتماعية، وردت الاشارة اليه، جـ ١ ص ١٨٣ .

(٣) ورد في درة التاج وسلّم المعراج في ذكر تاريخ الامير جمال الدين عبدالله التنوخي من تاليف سليمان بن حسين بن سليمان بن نصر ان الامير عبدالله، المعروف بالأمير السيد، المتوفى سنة ٨٨٤ هـ ١٤٧٩م، «وضعوه في مغتسله وقام الغسال فيه فروضه وتم منه مفروضه». انظر ص ٥٨ .

تكفين الميت وعرض الجثة

يكفن الميتَ على العموم غاسلوه. ويُسرع في تكفينه حفظاً له من التغيير، فتُسد منافذ الجسم بالقماش أو بالقطن، وتُغمض العينان، ويُربط الفك الاسفل بالفك الأعلى بواسطة منديل كي يظلا مشدودين فلا ينتفخ الفم. وتُمدد اليدان بموازاة الخاصرتين؛ لأن وضعهما على الصدر غير جائز، وهو من عمل الكفار في رأي المسلمين.

يُستحب عند المسلمين تكفين الرجل في ثلاث لفائف بيض، فقد روت عائشة ان الرسول ﷺ «كُفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية[1] جدد يمانية ليس فيها قميص ولا عمامة أُدرج فيها أدراجاً»[2]. ويربط ابن الميت الكفن فوق رأسه فيما يربط أحد الاهل والاقارب الحاضرين كفن الاعزب ومن ليس عنده أولاد. ومن هنا دعاء الآباء أن يجعل الله ابناءهم عقدة أكفانهم. وتُكفن المرأة في خمسة أثواب لزيادة الستر. وتكفين الرجل والمرأة على هذه الصورة يستر الجسم كله.

أبسط الأكفان، وأجدرها بتحقيق المساواة بين الناس، الخام الأبيض غير المغسل، على ان يتجمر ويبخر ويطيب، عملاً بقول الرسول ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم»[3]. وبينما يجوز الحرير للمرأة لا يجوز للرجل عملاً بقول الرسول ﷺ عن الحرير والذهب: «أُحل الذهب والحرير للأناث من أمتي وحُرّم على ذكورها». الا ان الأكفان باتت اليوم عند الكثيرين تختلف قماشاً ولوناً تبعاً للمركز والثروة والجاه.

كان الدروز يكفنون موتاهم بأبسط الأكفان، لكنهم زادوا مع الزمن على الأكفان البسيطة انطلاقاً من جواز ذلك؛ اذ من الجائز للرجل زيادة قميص على الكفن وعمامة تحتها عند الشافعي ومالك وأحمد، وازار ورداء وقميص عند أبي حنيفة. ومن الجائز زيادة ازار وخمار وقميص ولفافتين للمرأة[4]. وقد تطور ذلك عند الدروز إلى الباس الميت الزمني ثيابه التي كان يلبسها في حياته في اطار اظهاره بالجميل والغالي من الثياب.

أما شيوخ العقل والاتقياء والتقيات، وكبار السن المتدينون والمتدينات، من الدروز، فكانوا، ولا يزالون إلى اليوم، يكفنون بثوب ابيض حتى أخمص القدمين رمزاً إلى

---

(١) سحولية: نسبة الى قرية سحول في اليمن.

(٢) رواه الجماعة.

(٣) رواه الخمسة الا النسائي وصححه الترمذي.

(٤) انظر عن جواز الزيادة على الكفن، المغني والشرح الكبير، مصدر مذكور سابقاً، جـ ٢ ص ٣٣٩ . والشيخ محمد سليم جلال الدين، رسالة احكام الجنائز، المطبعة العصرية، صيدا. لبنان (لا تاريخ) ص ٢١ .

الطهارة، ويُلبس الرجال الصاية البيضاء. وتوضع العمامة التي كان يلبسها رجل الدين في حياته على رأسه؛ لأن للعمامة أشكالاً مختلفة بحسب تقوى رجل الدين وتضلعه في الأمور الدينية. وتوضع المناديل الكبيرة الثقيلة البيضاء على رؤوس النساء. والمنديل الثقيل دليل على التدين الزائد.

ومما ساهم في الباس الأموات الزمنيين الدروز ثيابهم التي كانوا يلبسونها في حياتهم، بدلاً من الأكفان، إطالة عرض الجثة بعد الغسل، وإطالة مدة المأتم، واتخاذ الجميل والغالي من الثياب مظهراً يدل على تكريم الميت كسائر المظاهر الزمنية.

يكفن النصارى رجال الدين بثيابهم. فهم يلبسون البطاركة والأساقفة الحلة الحبرية، والكاهن بذلة التقديس الكهنوتية، والراهب الكاهن مدرعة أو بطراشيلا، والراهب الأخ ثيابه العادية. ويوضع على رأس البطاركة والأساقفة التاج، وفي أصبعهم الخاتم، وإلى جانبهم عصا الرعاية، وفي يمناهم الصليب ليقبّله المشاهدون.

يشترك الدروز والنصارى في عدة عادات في تكفين الميت الزمني وفي عرض الجثة. فبالإضافة إلى الباس الميت الزمني ثيابه التي كان يلبسها في حياته، يوضع على رأسه غطاءه الذي هو الطربوش للرجال، والمنديل وما شابه للنساء.

كان الرجال والنساء الزمنيون من الدروز والنصارى يخصصون لهم ولأولادهم بذلة اسمها «بذلة الموت». وفي حال عدم إفراد بذلة خاصة، كانوا يلبسون الميت البذلة السوداء، أو الداكنة اللون التي تُلبس في المآتم. أما بذلة الشاب والشابة، والخطيب والخطيبة، والعريس والعروس، فهي ثياب العرس الزاهية، فهم كما يعددونهم «عرسان المقابر».

وبالإضافة إلى الثياب الزاهية كان يُخص الشباب والشابات والفتيان والفتيات والأطفال بوضع زهرة في الفم، وزهور على الصدر. ويُصبغ وجه الشابة أو العروس، ويُصفف شعرها، وتُكحل عيناها، ويسوّى حاجباها، وتُحمّر شفتاها، وتُلبس الحلي، أي أنها تُجمَّل كالعروس في مرحلة البرزة. وكان يؤتى بالحلاق ليحلق للرجل أو للشاب إذا كان حليقاً، ويرتب شعره.

تُعرض الجثة عند النصارى والدروز بعد الغسل والتكفين، وتُعرض عند السنّة والشيعة قبلهما في حال الاضطرار إلى تأخير الدفن. ويسجّى الميت ممدود اليدين، وقد يسجّى مكشوف اليدين للدلالة على أنه لا يرافقه من حطام هذه الدنيا الفانية سوى كفنه وأعماله. ويدار وجه المسلم إلى القبلة، ووجه النصراني إلى الشرق.

يسجّى الميت على سرير أو نعش في مكان يسمح بالتجمع حوله، ومرور المشيعين أمامه ومشاهدته إذا كان من أكابر القوم. وكان كل من البطريرك والاسقف والكاهن يُجلس على كرسي يسمى «الصمدة»، لكن هذه الطريقة بطلت، وهو يسجى في الكنيسة. ويوضع تحت جسد الميت شرشف أبيض يجب أن يكون في بعض الأوساط جديداً، أو مخصصاً لمناسبة الموت، كما يجب الا يلامس جسد أي انسان حي مخافة أن يصيبه ضرر. ويوضع أحياناً ثقل على البطن كي لا ينتفخ في حال اطالة مدة المأتم. وتطيَّب الجثة من حين إلى آخر، ويوضع عليها الثلج في الأيام الحارة.

يوضع في يد الرجل السني والشيعي سبحة للدلالة على العبادة. ويوضع في يد الرجل الزمني الدرزي والنصراني سبحة كمظهر من مظاهر الجاه. ويوضع احياناً إلى جانب الرجل الزمني سلاحه الذي كان يستعمله (سيف - خنجر - قرابينة - مسدس - بندقية). وهذا من مظاهر المجتمع الحربي الذي يفتخر باقتناء السلاح وبالقدرة على استعماله، وبالفروسية.

وإذا كان من الضروري أن يرافق الميتَ كفنه، أو بعض ثيابه لستر جسمه، وإذا كان من العادات تزيين النساء الزمنيات بالحلي، ووضع السبحة في يد الرجل، والسلاح إلى جانبه، الا ان أياً من هذه المقتنيات لا يرافقه إلى المقبرة، بل يعاد إلى أهله قبل الدفن. ومرافقة أي منها له، عدا عن كونها خسارة، هي حرام.

نقل الميت

عند حصول الوفاة في البرية، أو في احدى المزارع - وما أكثر البيوت المنتشرة في خراج القرية، المقامة في البساتين وحقول الزيتون والتوت بسبب اعتماد السكان على الزراعة في الماضي - وعند حصول الوفاة بسبب حادث أو جريمة، فإن وصول النبأ إلى أحد أهل القرية كافٍ لإعلام جميع سكانها؛ إذ يعمّ بالتواتر والصياح، وإطلاق النار، ومناداة الصائح أو المنادي. يهب الرجال والشباب والفتيان لإحضار الجثمان، وينقلونه على محمل بشكل سلّم، هو عبارة عن عمدين مربوط بعضهما ببعض بقطع أغصان صغيرة. وقليلاً ما كان يُنقل على دابة، وبموكب صغير، ويحصل هذا في الحالات التي تتطلب السرعة والتي لا يُعلم فيها أهل القرية.

وعند حصول الوفاة في غير مسقط الرأس، تنتقل قلة من أهل القرية للمشاركة في نقل الجثمان، ويلاقيه سائر أهلها من الرجال ومعهم البيرق والنوبة أحياناً إلى أول القرية، أو إلى مسافة بعيدة عنها. وتلاقيه النساء إلى أول القرية. فيُحمل على الراحات

إذا كان شاباً أو وجيهاً وسط ندب الرجال وندب النساء وإطلاق النار. ويتقدم رجال الدين موكب الجنازة وهم يرتلون الآيات والتسابيح الدينية. وقد توسع مدى مشاركة أهل القرية في نقل الجثمان بتطور شبكة المواصلات ووسائل النقل، وبحلول السيارة مكان العربة التي كانت تنقله، حتى بات موكب الجنازة يضم أحياناً أكثر من مئة سيارة، بل مئات السيارات.

من العادات في الماضي أن يقدم أهل كل قرية يمر فيها موكب الجنازة التعازي لأهل الميت، ويحملون الميت لمسافة تطول أو تقصر تبعاً لأهميته. وإذا كانت الجنازة لأحد الأعيان والبارزين، فإنهم يلاقون الموكب إلى أول قريتهم وأمامهم بيرقهم، فيحملون التابوت على الراحات وسط الندب والحوربة وإطلاق النيران، ولا يتركونه الا في آخر القرية، أو في آخر خراجها، بعد الحاح أهل الميت، وينضم بعضهم إلى الموكب. وتبعاً لذلك يكبر موكب الجنازة بانضمام ابناء القرى التي يمر فيها اليه. ولا يزال الكثير من القرى يحمل جنازة الميت البارز عند مرورها فيه، من أول القرية إلى آخرها، أو على الأقل في ساحة القرية، من قبيل احترام الموت، وكسب الأجر، وإظهار التعاطف مع المصابين.

الشلاح

الشلاح هو ما يمثّل الميت ويرمز إليه، ويشكّل صورة عنه وتجسيداً حسياً له. وللفظته تفسيران: إما انها سريانية مشتقة من اللفظة السريانية «شَلَح الثياب»، أو أنها تحريف لكلمة «شُلَّح» بمعنى السيوف الحداد بحسب ما جاء في لسان العرب الذي قال عنها أيضاً أنها غير عربية صحيحة. ومن بين التفسيرين نرجّح أن لفظة «الشلاح» سريانية الأصل لسببين، أولهما ان الشلاح له علاقة بالثياب أكثر مما له علاقة بالسيف كما سنرى، ومن الثياب المشلح وهو عباءة واسعة لا أكمام لها. وثانيهما ان من مصطلحات المآتم «فك الشلاح»، أي نزع الثياب السود والتوقف عن تقبل التعازي.

أُستعمل الشلاح في الماضي، وقبل أن يبطل، في أوساط النصارى والدروز. ولم يُستعمل على الارجح في أوساط السنّة والشيعة؛ لأن من عاداتهم التعجيل في الدفن، والاكتفاء بتلاوة الآيات القرآنية عند التجمع في بيت الميت بعد الدفن وفي التذكارات، والاقتصار على صلاة الغائب في حال حصول الوفاة في الغربة.

للشلاح شكلان، أولهما، وهو البسيط، الرمز إلى الميت بوضع بذلته كاملةً على نعش أو سرير يسمى «الصمدة». وثانيهما تشخيص الميت بالباس بذلته الكاملة لهيكل

يمثله، ويظهر كامل الجسم (الرأس والصدر والأطراف)، يُصنع من خشب، أو يُسوّى من مساند ووسائد وكتل من الأقمشة والمنسوجات. ويُوضع على رأس الهيكل غطاء رأس الميت (العمامة ـ الطربوش). ويدجج بالسلاح، أو يوضع أحد الاسلحة التي كان يستعملها إلى جانبه (سيف ـ خنجر ـ قرابينة ـ فرد ـ بارودة).

كان الشلاح يُستعمل في أحوال أربع: أولها مآتم الذين يتعذر جلب جثتهم مثل قتلى المعارك البعيدة، والذين توفوا في بلاد الاغتراب. وثانيها مآتم الذين يتعذر عرض جثتهم مثل موتى الاوبئة، والذين قُتلوا في ظروف صعبة وحرجة. وثالثها المآتم الحاشدة للعظماء، التي كانت تستمر بعد الدفن. ورابعها التذكارات التي كانت تقام للموتى وأهمها «الثالث» و«الاسبوع» و«الاربعين».

الشلاح اذاً هو بديل عن جثة الميت. وفيه وفيما يفعله معتمدوه نوع من التمثيل والمسرحة. فالبكاء على رأس الميت بحسب التعبير الشعبي، وبما أن الميت غيرموجود يُمثل بتشخيصه أو بلباسه وبما كان يستعمله من الاسلحة. وتتجمع النساء حول الشلاح، وكأنه الميت، يبكين ويندبن. وفي بعض الأوساط يتجمع الرجال حوله، ويبكون ويندبون، ويأخذونه إلى المدفن. وإذا كان شلاحاً لأمير، أو لغيره من الفعاليات المهمة، يطوفون به وسط الندب، وتفجع النساء، في انحاء القرية.

وفي هذا المجال يذكر هنري غيز الذي عاش في جبل لبنان وبيروت في النصف الأول من القرن التاسع عشر، عن عادات امراء جبل لبنان، ما يلي: «وفي أوقات الاستراحة من الندب والعويل تُمثل بعض مشاهد من حياة الفقيد. كانوا يلبسون شخصاً من خشب أجمل ثياب الأمير، ويدججونه بالسلاح من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، فيحضر هذه الحفلات وقد حفّ به عدد غفير من رجاله، يستعرض، إذا جاز لي هذا التعبير، جميع رجاله مسلحين، فيمرون أمامه اثنين اثنين، تتبعهم جياده، مجهزة بعدتها، وقد جُللت سروجها بقطع سوداء من القماش. ثم يحملون هذا الشخص على محمل، ويطوفون به جميع انحاء القرية، إما ليشهد قتالاً أو سباق خيل، وفي أكثر الأحيان ليحضر الولائم وتناول المرطبات، وخصوصاً القهوة التي لا يستغنى عنها. ان جميع هذه المشاهد كان يرافقها تفجع وصراخ حاد تتبارى فيه النساء. ان هذه المآتم التي كانت تكلف الاسر مبالغ باهظة قد أدت إلى خراب العائلات.

«أدرك ذلك الأمير بشير فألغى هذه التقاليد بعد موت أخيه (حسن) منذ حوالى ثلاثين سنة تقريباً، ولم يبق لها من أثر إلا عند آل الخازن الذين يتحدرون، حسب ما

يقولون، من أصل شريف جداً. وهناك امراء آخرون، لا يمتّون إلى الأمير الكبير بصلة قربى، لا يزالون يرعون أيضاً هذه العادة القديمة»[1].

إذاً كان انفاق المبالغ الباهظة، الذي أدى إلى خراب بعض العائلات، هو السبب الأساسي في ابطال الأمير بشير صنع الشلاح في نظر هنري غيز. الا أنه هناك في رأينا سبب آخر، أهم مما ذكره، هو ان الأمير حاول ابطال عادات عديدة في الأفراح والمآتم غير عادة صنع الشلاح والطواف به، ضمن خطته الرامية إلى اضعاف المقاطعجيين الذين كانوا يتخذون من الأفراح والمآتم مناسبات لإظهار الابهة والعظمة.

ومن الندبات التي ترد فيها لفظة «الشلاح» الندبة التالية:

شـيّلوا المحـمل وشـيلوا	ولقـحـوا فـوقـو شـلاحي
بمحـارم سـود لوحـوا	وانـدبـوا زيـن المـلاح

بطلت عند الامراء وسائر الأعيان عادة صنع الشلاح كوسيلة من وسائل تكريم الموتى في مآتمهم، وبخاصة في تذكاراتهم. وبطلت عند الاكثرية كوسيلة من وسائل تمثيل الميت قبل الخمسينات من القرن العشرين. ومما ساهم في ابطالها كوسيلة تمثيل هو توافر الرسوم للموتى، التي توضع على الصمدة ويطاف بها. والذين ما زالوا يعتمدون الشلاح يعتمدونه فقط عند تعذر جلب الجثة، وفي مآتم من ماتوا في الغربة كما في بعض قرى وادي التيم التي تسميه «تزيين المعتم». ولا تزال بلدة نيحا في الشوف الأعلى تعتمد اسمه فقط، وتطلقه على يوم تقبل التعازي في من ماتوا في الغربة.

وبما ان صنع الشلاح كان مقترناً بتقبل التعازي في التذكارات، فإن الانتهاء منه في الاسبوع، أو الاربعين، مقترن بتوقف التعازي، فيقال في هذه الحالة «فك الشلاح»، أي انتهاء أهل الميت من تقبل التعازي.

النعي

النعي هو اعلام الناس بالوفاة. ويُطلق عليه لفظة «النعوة»، وعلى الموجه اليهم لفظتا «المنعيين» و«المناعي». وهو ضرورة لا بد منها ليعلم عارفو الميت بموته من أجل أن يشاركوا في تكريمه ودفنه وتعزية أهله به. وقد عالجه الاسلام كسواه من شؤون الناس. ومما يروى عن الرسول ﷺ أنه نهى عن ارسال المنادي ينادي في الناس ان فلاناً قد

(1) Henri Guys, Beyrouth et le liban, Dar Lahad Khater, Byrouth, Liban 1985 Tome second P 115 - 116.

مات ليشهدوا جنازته. واستحب هذا جماعة من أهل العلم، كما استحب كثيرون منهم أن يعلم بالميت اخوانه ومعارفه وذوو الفضل من غير نداء، معتبرين أن الطواف في المجالس لنعي الموتى هو من فعل الجاهلية. ورخّص بعضهم بالنعي اعتماداً على نعي الرسول ﷺ للنجاشي، وعلى قوله في الذي دُفن ليلاً: «الا اذنتموني»، وعلى قوله: «لا يموت فيكم أحد الا اذنتموني به»[1].

وبناءً على ذلك يمكن القول ان نعي الميت إلى اخوانه ومعارفه وذوي الفضل، من دون مبالغة، واجب عند المسلمين. وقد استحبه العلماء ليكون لعارفي الميت أجر المشاركة في تجهيزه والصلاة عليه ودفنه. وإلى جانب كونه دعوة إلى مناسبة لكسب الأجر، تحول الى ضرورة اجتماعية لتسهيل وتنظيم مشاركة الناس بعضهم بعضاً في الضرّاء كما في السّراء، وجاز تعميمه بالنداء تسهيلاً لمهمة القائم به، واختصاراً للوقت.

لم يكن هناك على الغالب نعي بين أهل القرية المقيمين فيها؛ إذ ينتقل خبر الوفاة بسرعة مذهلة بالتواتر من بيت إلى بيت، ومن حي إلى آخر، مع الاشارة إلى أن صرخة الموت كافية في أكثر الأحيان لتعميم نبأ الموت، اضافة إلى دقات الجرس المتقطعة عند النصارى، المعروفة بـ «دقات الحزن» التي تدق في أي وقت باستثناء الليل، والتي توحي بمدتها وعدد الأجراس المشتركة فيها بمنزلة الميت وعمره. وليست هذه الامور مزمنة، بل اننا لا نزال نعايشها في قرانا وان بنسبة أقل، وعلى نطاق أضيق.

وما سبق قوله لا يعني ان إعلام أهل قرية المتوفى بواسطة المناداة، كما يحصل اليوم، كان معدوماً في الماضي، فلقد كان المؤذن في جبل عامل مثلاً ينادي من على المئذنة، والمنادي أو الناطور ينادي من على ربوة أو سطح بيت مشرف، بأعلى صوته قائلاً: «سبحان الحي الدائم. على الاجر. انتقل إلى رحمة ربه المرحوم فلان أو المرحومة فلانة»[2]. وكان المنادي في بعض بلدات وادي التيم يعلن خبر الوفاة من على سطح عالٍ قائلاً: «ياسامعين الصوت، صلوا عَ النبي. أوّلكم محمد وثانيكم علي. وثالثكم فاطمة بنت النبي. فلان عطاكم عمره، أو فلانة عطتكم عمرها. ان شاء الله بسلامة أعماركم».

كان تقرير أمر نعي الميت من الأعيان لغير قريته يعود إلى أهل بيته وبعض أفراد عشيرته دون اشراك القرية به؛ لأن الأعيان لا يشتركون في «الحمل» أو «الحملان»، أي لا يحملون الطعام إلى بيوت أهل الموتى، ولا يرضون بصنع أحد الطعام عنهم، بل يعدون

(١) المغني والشرح الكبير، مصدر مذكور سابقاً جـ ٢ ص ٤٣٢ .
(٢) علي الزين، العادات والتقاليد... مرجع مذكور سابقاً، ص ١٤٩ .

الطعام في مآتمهم في قصورهم لهم وللمعزين. وكانوا يدعون سائر الأعيان خطياً، ويدعون العامة شفهياً.

أما عند العامة، فكان تقرير أمر النعي شورى بين أهل القرية، أي بحسب ما يقولون «تباصر»؛ إذ «يتباصرون» في الأمر، أي يتشاورون. وهذا عائد إلى مشاركتهم في «الحمل»، فكان واجب اعداد الأكل عن أهل الفقيد للمنعيين، يرتّب لهم حق المشاركة في اتخاذ قرار النعي من أجل معرفة المنعيين وعددهم. وتقرير أمر النعي بالشورى عائد أيضاً إلى قوة الترابط الاجتماعي فيما بين القرويين، الذي يظهر أيضاً في أمور اجتماعية أخرى مثل الخطبة والزواج.

وكما لا يجوز تزويج أية امرأة إلى الغربة، هكذا لا يجوز نعي أي كان. وهذان الأمران من العادات الجارية عند بعض الفئات، وخصوصاً عند الدروز الذين ما كانوا يزوّجون إلى الغربة الا المرأة المؤهلة «بفتح عين» عشيرتها، أو قريتها؛ لأنها بمثابة السفيرة لهما في القرية الأخرى، وما كانوا ينعون الا الوجيه والمؤازر الذي «يفتح عين» عشيرته أو قريته. والعرف السائد هو من لا يكبّره عمله، لا يكبّره أحد، ولا تكبّره النعوة مهما وُسّعت.

وفي حين كانت نعوة العامة تشمل بعض القرى المسماة «المحلة» أو «الجيرة» التي بينها تبادل نعوات مسمى «مسك واجب»، كانت نعوة الأعيان والرؤساء الروحيين تشمل منطقتهم بكاملها ومناطق أخرى. وعلى سبيل المثال ان نعوات الشوفيين الموسعة كانت تشمل ما يسمى عندهم «البلاد»، وبعضها يتجاوز «البلاد». ومصطلح «البلاد» يرد كثيراً عند بعض المؤرخين الذين يقولون: «البلاد ـ عسكر البلاد ـ أهل البلاد». ويرد كثيراً في تعابير الناس مثل التعبير الشائع في المناطق التي كانت تسود فيها الغرضيات (اليزبكية والجنبلاطية والنكدية) وهو «ركن البلاد نكد وعماد ـ آل جنبلاط ركن البلاد». وكثيراً ما سمعت من المعمّرين لفظة «البلاد» في معرض حديثهم عن النعوات الموسعة، فكانوا يقولون: «عندما مات الشيخ فلان نعوا له البلاد». ومناطق «البلاد» تمتد من أقصى المتن شمالاً إلى أقصى الشوف جنوباً.

وباستثناء قلة تتمثل في نساء الأعيان والنساء التقيات، كان النعي يقتصر على الرجال فقط، ولا يشمل الأطفال. وكان الأقدمون يعملون بحسب رؤيتهم الصحيحة للنعي التي لا يشوبها الا عدم نعي النساء؛ إذ ينعون المستحق من الرجال فقط. فقد جرت العادة أن يجتمع وجوه القرية وأهل الميت واقرباؤه في بيت أحد جيران الميت الذين يعرضون خدماتهم ويفتحون بيوتهم لتجمع الناس وكتابة النعوة، فيعرب أكبر

الحاضرين عمراً، أو منزلة، عن أسف الجميع على الميت، وعن استعدادهم لتكريمه؛ لأنه من أهل الكرامات ومن رجالات المجتمع ومن الذين يستأهلون النعوة، ثم يسأل أهله عما ينوون فعله بشأن النعي، فيجيبه أكبرهم شاكراً، تاركاً للحاضرين تقرير الأمر بحسب العوائد. ومما يقوله أهل الميت لوجوه القرية ولسائر المجتمعين، من قبيل المجاملة «نحنا منستكفي فيكم».

عندها يحدد كبار الحاضرين موعد الدفن في ضوء حالة الطقس، والوقت المحتمل لبقاء الجثة، والوقت الكافي لإيصال النعوة إلى القرى ومجيء أهلها، وفي ضوء الأوضاع الأمنية التي يعجّل سؤها وسوء حالة الطقس في الدفن، وقد يلغيان الكثير من المظاهر، ويقصران المأتم على أهل القرية. كما يحدد كبار الحاضرين القرى والأعيان ومن يجب أن يُنعَوا في ضوء مكانة الفقيد ومدى علاقاته العامة. ولم يكن في الماضي البعيد حاجة لتحديد ساعة الدفن؛ إذ كان الدفن عند السنّة والشيعة يتم كما اليوم بعد صلاة الظهر أو صلاة العصر، والدفن عند الدروز يتم على العموم بين الظهر والعصر، والدفن عند النصارى يتم عند العصر أو بينه وبين الغروب.

ايصال النعوة إلى القرى يتم على الغالب ليلاً. وكان من اختصاص وجهاء القرية، وعلى نفقتهم. الا ان البعض كانوا يحمّلون أقارب الميت نفقة النعوة التي تخرج عن النطاق المتعارف عليه. وكان كل وجيه يتكفل بإيصال النعوة إلى قرية أو أكثر، ويكلف أحد ابنائه وأقاربه وأصدقائه بذلك، فالمشاركة الفعلية في تقرير أمر النعي ترتّب التزاماً أدبياً على الوجهاء بتعميمه. ولا تزال هذه النخوة ملحوظة إلى اليوم في القرى حيث نجد الكثيرين من اقرباء الميت وأصدقائه يتكفلون بالنعي وبنفقاته من قبيل صنع الجميل وكسب الأجر، أو من قبيل المعاملة بالمثل ورد الجميل.

كان النعي في زمن جهل اكثرية الناس القراءة والكتابة اعلاماً شفوياً، صيغته هي التالية: «البقية بحياتكم أو تبقى حياتكم. مات فلان. الدفن اليوم كذا. يبقى لكم طول العمر».

بعد ذلك غدا النعي رسائل قصيرة مكتوبة اعتمدها أولاً الأعيان، لكنهم كانوا يخطئون في كتابة بعض كلماتها. وعلى سبيل المثال يكتبون هذه الكلمات: «بفرط الأسف ـ الأسف ـ الأسفون» على الشكل التالي: «بفرت الاسف ـ الاسيف ـ الاسيفون». وحين اعتمد العامة الرسائل جاءت موجزة تدل على جهل أساليب القراءة والكتابة آنذاك. ويورد لحد خاطر النموذج التالي لنعوة قديمة: «اخواننا. وبعده مات نوفل وتعو»[1]. ثم أصبحت النعوة رسائل

---

(١) لحد خاطر، العادات والتقاليد... مرجع مذكور سابقاً، جـ ١ ص ٤١٠.

مكتوبة تحدد موعد الدفن ومكانه، وتتضمن العبارات الدينية، وتُختتم بذكر العشيرة أو القرية الناعية. وكان بعض القرويين من النصارى يعمدون إلى تمزيق زاوية ورقة النعوة لإبعاد الشؤم، وكي لا تكون هذه الورقة مقدمة لورقات نعوات أخرى قريبة. وهذا نص للنعوة كان معتمداً في الشوف قبل اعتماد النماذج المطبوعة، نورده على سبيل المثال:

إنا لله وإنا إليه راجعون

بمزيد الأسى ننعي اليكم وفاة (يذكر هنا اسم المتوفى مسبوقاً بكلمة «فقيدنا» أو «عميدنا» أو «الشيخ» أو «المأسوف على شبابه») المنتقل إلى رحمته تعالى يوم كذا. يصلى على جثمانه الطاهر الساعة كذا من يوم كذا في مسقط رأسه كذا.

الاسفون: آل كذا

أو

عموم قرية كذا

ان هذا النص يتضمن خطأ لغوياً هو نعي الوفاة لا نعي الفقيد. وهذا الخطأ لا يزال مستمراً في قرى الشوف حتى اليوم سواء عند كتابة النعاوي أم عند تعميمها بواسطة مكبرات الصوت. وإيراد كلمة «وفاة» بعد كلمة «ننعي» مقبول عند الكثيرين. وهُم يصرون على استعمالها لتأكيد الوفاة.

أما كاتب النعوات، فكان الرجل الذي يحسن القراءة والكتابة، ويختص لخطه الجميل أو الواضح بكتابة الحجج والوصايا وعقود الزواج، ثم أصبح يكتبها غُيرٌ متطوعون. وتوصل النعوة الخطية، كما كانت توصل النعوة الشفوية، إلى وجهاء القرى وشيوخ الصلح والمخاتير، وإلى الكهنة عند النصارى. وهولاء يعممونها بواسطة المنادي أو المؤذن أو الناطور، أو باعلامهم وجهاء الاحياء والعشائر. وحين كان للمقاطعجيين ولشيوخ بعض القرى نفوذ مطلق على العامة، كان ايصال النعي اليهم معتبراً نعياً لقراهم.

كان في معظم القرى شخص اسمه «المنادي» أو «الحوّاط» يدعو الناس إلى القتال، وإلى الفزعة لنجدة المستغيث، ويعلمهم بضياع الحيوانات والمقتنيات، وينقل اليهم الأخبار، ويعمِّم عليهم النعوات. وكان يُعطى أجراً على ذلك، أو يُعفى من الضريبة في العهد العثماني في بعض القرى. وقد حلّ مكانه في الفترة الاخيرة ناطور القرية، ثم مكبّر الصوت (الميكروفون).

ينادي المنادي من على سطح بيت عال، او تلة مشرفة على بيوت القرية، قائلاً عند المسلمين: «ياسامعين الصوت. صلوا على النبي. الحاضر يعلم الغايب. فلان من ضيعة

كذا عطاكم عمره. الدفن اليوم كذا. البقية بحياتكم». وكانت المناداة عند بعض المسلمين تشتمل بعد عبارتي «ياسامعين الصوت. صلوا على النبي» على العبارات التالية: «أولكم محمد وتاليكم علي. وثالثكم فاطمة بنت النبي». وكان الحوّاط في بلدة شحيم في اقليم الخرّوب من قضاء الشوف ينادي النعوة في احدى الساحات، ثم يدور على الاحياء منادياً أمام كل بيت: «الفرض. الفرض» بمد حرف الفاء من كلمة الفرض. فيسأله السامعون: من الميت؟ فيقول لهم اسمه وموعد الدفن ومكانه. وهكذا كان يفعل عند موت أحد ابناء شحيم؛ لأن هذه البلدة كبيرة ومقسمة إلى احياء. وكان المؤذن في بعض القرى يعمّم النعوات من على مئذنة الجامع.

اعتمد النصارى الاسلوب المذكور أعلاه في المناداة، فكان المنادي في قراهم يقول: «ياسامعين الصوت. صلوا عَ المسيح[1] يفداكم فلان، عطاكم عمره» أو «بسلامة راسكم، مات فلان في بلدة كذا. الدفن في يوم كذا». كما كان الكاهن يعلم الرعية بالنعوة في اثناء قدّاس الأحد أو العيد إذا كانت قد وصلته يوم السبت، أو صباح يوم الأحد والعيد.

تطور النعي

كبرت القرى في المساحة وعدد السكان. وتطورت العلاقات الاجتماعية. وتحوّل معظم الريفيين من الزراعة إلى التجارة والصناعة، والأعمال والمهن الحرة، والوظائف. وزادت المناعي، وتطورت في المجالين التاليين: اعلام سكان مسقط رأس المتوفى بموته، وإعلام القرى والبلدات الأخرى.

اعتمد أكثر البلدات والقرى مكبّرات الصوت الثابتة والمتجولة. كما أن بعض المدن كطرابلس تعتمد اليوم مكبر الصوت المتجول. ويتم تركيز مكبرات الصوت في الجوامع. ويذيع الشيخ أو المؤذن أو خادم الجامع نبأ الوفاة. ويلي ذلك تلاوة آيات قرآنية. وكمثل عما يُذاع نورد ما يقوله الشيخ في عكار، وهو «يا عباد الله. وحّدوا الله. أخوكم فلان انتقل إلى رحمة الله ويطلب منكم السماح». ويتم تركيز مكبر الصوت أيضاً في القرى في مباني البلديات والنوادي والجمعيات، أو في بيوت اعضائها وأعضاء الهيئات الاختيارية. ويتكفل أحد اعضاء هذه المؤسسات أو أحد موظفيها بإذاعة نبأ الوفاة من مكبر الصوت.

ولا يُستعمل مكبر الصوت لإعلام أهل القرية بوفاة أحدهم الا في بعض القرى، كما يُستعمل في بعضها الآخر إذا كان الدفن سيتم في اليوم نفسه الذي تحصل فيه

(١) شاكر الخوري، مجمع المسرّات، دار لحد خاطر، بيروت، لبنان ١٩٨٥، ص ١٨ .

الوفاة. ويقال في قرى الشوف مايلي: «انا لله وإنا اليه راجعون. انتقل إلى رحمته تعالى فلان. الدفن ساعة كذا من يوم كذا. رحمه الله».

أما بالنسبة إلى نعي الميت للقرى، فقد تحول من حق للجماعة الكبيرة، التي هي العشيرة أو القرية، إلى حق للجماعة الصغيرة، التي هي أهل الفقيد وبعض أقاربه اللزم، وإلى حق فردي عند الكثيرين، ولا سيما عند من سبقوا إلى اقتباس العادات الغربية والتطبع بالثقافة المدينية، أي أنه تحول من أمر شورى إلى قرار يتخذ في دائرة ضيقة، وإلى رغبة فردية. وقد ساعد على ذلك بطلان عادة «الحمل»، أي اعداد الطعام من قبل أهل القرية للمنعيين؛ إذ لم يعد هناك حاجة إلى ذلك بسبب تطور المواصلات التي اختصرت المسافات، وارتباط المنعيين بأعمالهم ووظائفهم ومهنهم التي تضطرهم إلى الانصراف من المأتم بعد التعزية أو بعد الدفن.

هذا التحول أدى إلى اساءة استعمال حق النعي عند بعض الناس كما عند الدروز على سبيل المثال؛ إذ يعمد أحد أهل الميت وأقاربه إلى النعي بينما الميت لا يستحق ذلك، أو يعمد إلى التوسع في النعوة بينما يجب قصرها على المعارف في قرى محددة. وبعض موسعي النعوات مغمورون في قراهم، مقصّرون في واجباتهم ازاء الآخرين وغير مؤازرين. الا انهم يستفيدون من بقاء صيغة النعوة على شكلها القديم، أي توجيهها باسم العشيرة أو القرية، مما يجعل فئة كبيرة تحضر المآتم؛ لأنها لا تزال تلبي الدعوة اكراماً للأحياء عند جهلها الاموات، وإكراماً لمن تعرف من ابناء عشيرة المتوفى وقريته. كانت النعوة توجه باسم العشيرة أو القرية بعد مشاورة وجوههما، واليوم يُستغل اسمهما، فتوجه النعوة به بدون استشارة أحد.

ومع هذا التوسع غير المنطقي في نعي الرجال، الذي ظل مستمراً في اثناء الحوادث اللبنانية بالرغم من مخاطره الناتجة من تنقل الناس في اثناء القصف والاشتباكات، ظل عند البعض إحجام غير منطقي، واختصار غير مبرر في نعي النساء المستحقات. وهذا أحد وجوه تفضيل الرجل على المرأة، واحد مظاهر غبن النساء.

لذا تُطرح اليوم، وبخاصة عند الدروز، مسألة تقييم هذا الواقع الاجتماعي، والعمل على وضع حلول تلغي السيئات الناجمة عن سوء استعمال حق النعي، وعن استغلال اسم القرية والعشيرة بغية تكثيف حضور المشيعين، وتبقي على حسنات التعاطف الاجتماعي. والحلول في نظر الكثيرين هي في وجوب الاهتمام بأمور الحياة أكثر من الاهتمام بأمور الموت، وضرورة العودة إلى الاصول بنعي المستحق، ولمعارفه فقط، والمساواة الكاملة للمرأة بالرجل في النعي، والاقتصار على نعي معارف الميت، وتضييق

دائرة النعي واختصاره؛ لأن من لا يكبّره عمله وأهله وأبناء قريته، لا تكبّره النعوة الواسعة. والساعون لتضييق دائرة النعي في أوساط الدروز يذكّرون بالشيخ الفاضل، رضي الله عنه، الذي أوصى بعدم نعيه وبحرث الأرض التي يُدفن فيها.

باتت النعوة اليوم نماذج مطبوعة[1] تعبأ بإضافة اسم الميت وتاريخ الوفاة والدفن، أو أوراقاً تطبع في المطبعة في حينه. وهذه وتلك تتضمن آيات دينية ملائمة للمناسبة، تختلف من طائفة إلى أخرى. وهي تحدد اسم الميت، وتاريخ الوفاة ومكانها، وموعد الصلاة ومكانها، وبعضها يحدد أيام تقبل التعازي. منها ما يوجَّه باسم العشيرة أو القرية، ومنها الحديث الذي يوجّه باسماء ابناء الفقيد وأخوته واخواته وأصهاره ـ باستثناء ذكر الأناث عند المسلمين ـ وباسم المؤسسة أو الهيئة أو النقابة أو الحزب، أو التجمع الذي ينتمي اليه، رسمياً كان أم خاصاً، وباسم الفعاليات السياسية والروحية أحياناً. ومن وسائل تعميم النعوة اليوم الصحيفة والراديو والتلفزيون والتلفون ومكبر الصوت والصاق النعوة على جدران الأبنية الدينية والرسمية، والمؤسسات والشوارع.

التعاطف مع أهل الميت ومساعدتهم

من ميزات مجتمع القرية العونة، والتعاطف الاجتماعي، والمشاركة في السراء والضراء بين أهلها على اختلاف عشائرهم ومذاهبهم وانتماءاتهم السياسية، أو غرضياتهم. ونسبة هذه الميزات في الماضي أكبر بكثير مما هي اليوم. ويظهر التعاطف الاجتماعي في مناسبة الموت أكثر من أي مناسبة اجتماعية أخرى، حتى ان الضغائن والأحقاد تزول، والنزاعات، إذا لم تسوَّ وتعالج نهائياً، فهي تجمّد احتراماً للموت، ولكي يظهر الجميع بمظهر لائق أمام القرى المنعية. كما ان التعاطف يتفاوت في المآتم بتفاوت أوضاع الموتى وأهميتهم.

كان جميع أهل القرية يعتبرون أنفسهم مصابين كأهل الميت، وليس عليهم فقط تعزيتهم، بل الوقوف إلى جانبهم ومساعدتهم أيضاً. وقد نشأ من مصطلح «المحل» الذي يعني مكان اقامة المأتم مصطلح «أهل المحل» الذي يعني جميع ابناء القرية. ويُطلق على أهل المحل أيضاً اسمان آخران هما «المحلّيّة» و«أهل الحريبة». والتعبير الأخير يعني أهل الخسارة والمصيبة؛ لأن موت انسان في القرية ما كان يعتبر خسارة لأهله وأقربائه وعشيرته فقط، بل كان يعتبر خسارة للقرية كلها.

ان اعتبار جميع أهل القرية المأتم مأتمهم، والخسارة خسارتهم، واعتبار أنفسهم

---

(١) بدىء، على سبيل المثال، باستعمال نماذج النعي المطبوعة، في بلدتي مزرعة الشوف، في عام ١٩٨٢ .

أهل المحل، بمن في ذلك الذين لا تزاور بينهم وبين أهل الميت ولا علاقات ودية، هو، بالإضافة إلى كونه من وجوه التعاطف الاجتماعي، أحد مظاهر النزعة المناطقية الضيعوية، والنزعة العشائرية، اللتين تحدّدان غالباً التراتبية في الحضور إلى المأتم والانصراف والوقوف إلى جانب أهل الميت لتقبل التعازي.

كان الأقارب والجيران والأصدقاء يحضرون ساعة النزع من أجل توديع الميت ومساعدة أهله في غسله وتكفينه، ومساعدتهم في اعداد البيت، وإيصال الخبر إلى الغائبين من الأقارب. وكان على عاتق أهل القرية تقرير النعوة وكتابتها وتوزيعها، وحمل الميت إلى حيث تُعرض جثته، واحضار النعش والتابوت، وجلب الكراسي، وجلب الخيم (الستارات) ونصبها، وحفر القبر، وبناء اللحد، وتدوير العزاء، وإعداد الطعام عن أهل الميت للمعزين من سائر القرى، واستضافة المعزين، وإعداد الطعام لأهل الميت، وتقبل التعازي معهم، والخدمة في المأتم، التي هي دعوة المعزين للجلوس وللاستراحة في البيوت، وجلب الماء من العيون وسقي المشيعين، وحمل الميت إلى المقبرة ودفنه.

وكان يُدعى إلى القيام ببعض الأعمال، فيقال مثلاً: «تفضلوا إلى كتابة النعوة - تفضلوا إلى حفر القبر». والقصد من هذه الدعوة اتمام الأعمال الأساسية بشكل جماعي وتعاوني، وتجنب أي تفرد بها يؤدي إلى اللوم، وافساح المجال أمام من يرغب للمشاركة فيها باعتبارها واجباً فيه أجر من الله.

لقد كان أهل القرية يقفلون المحال، وينقطعون عن الأعمال مهما بلغت أهميتها وضرورتها، ويتواجدون إلى جانب أهل الميت من حين حصول الوفاة إلى حين حصول الدفن، ويعودون لتعزيتهم بعد الدفن. ومعظمهم لا يكتفون بلبس الثياب السود التي هي مع الثياب ذات الألوان الداكنة لباس الجميع في المآتم، بل يعصبون الجباه بعصب سود رمزاً إلى الحزن.

وإذا كان هناك اعباء ملقاة على أهل القرية، فإن هناك اعباء على أهل الفقيد تتمثل في دفع ثمن تابوته، ووفاء ديونه، والاحسان عن روحه. وهناك، بالإضافة اليها، دفع مبلغ من المال عند النصارى للكهنة الذين يقومون بالمراسم الدينية، اسمه «الجزو»، واعداد أهل الفقيد الضيافة والطعام للمعزين في بعض الأوساط النصرانية والسنية والشيعية.

ومن هنا، ومن باب التعاطف الاجتماعي والتعاون، يُقدَّم إلى أهل الميت هدية، كما في سائر المناسبات الاجتماعية كالمرض والولادة والسكن في بيت جديد والخطبة والزواج، هي مبلغ من المال لإنفاقه على متطلبات المأتم. كما يقدم اليهم مساعدة عينية

تشمل الذبيحة والارز والسمن والحبوب والبن لإعداد الطعام والضيافة للمعزين. والمساعدة المالية والعينية لأهل الميت تسمى «نقطة الموت»، وتتم على صعيد افرادي، وأحياناً على صعيد جماعي، بصمت وسرية تامة.

يعرض اقرباء الميت واصدقاؤه المال على أهله. ومنهم من يضعه في جيوبهم لارغامهم على أخذه عند الممانعة. ويدفع بعضهم أحياناً ثمن التابوت. وما يُدفع هو وفاء لفضل سابق، أو تسليف يُعاد إلى أصحابه كما في بعض أوساط النصارى الذين يقدمون المساعدة المالية مع لائحة بالمتبرعين ليعيد أهل الميت إلى كل متبرع ما دفعه عند موت أحد أهله. والدافع إلى تقديم هذه اللائحة في أوساط النصارى هو كثرة نفقات الموت، أو ما يسمى «الطلعة» التي غالباً ما يعجز انسان واحد عن تحملها ويسهل حملها من قبل المجموع.

وكان بعض المحسنين يتبرع بمبلغ إلى أهل الميت الفقراء لشراء التابوت، أو يشتري التابوت عنهم. وقد لجأت بعض الجمعيات واللجان الخيرية إلى تحمل نفقات المآتم عن الفقراء، ومساعدتهم بمبلغ اضافي إذا كان الميت المعيل الوحيد لهم.

ان جميع وجوه تعاطف أهل القرية مع أهل الفقيد، ومشاركتهم في مصابهم، ومساعداتهم، هي تعزيةٌ ومواساةٌ لهم، وتخفيفٌ للحمل الثقيل الذي قد ينوء به كاهلهم. وما يعجز المرء عن تحمله وحده يخف حمله على الجميع؛ لأن الحمل على أكتاف الأجاويد[1] خفيف بحسب أحد التعابير الشعبية. كما يخف بتعزية الآخرين ومساعدتهم له. والانسان «لا يموت لوحده» و«ما من أحد فوق رأسه خيمة» و«كاس الموت على جميع الناس» بحسب التعابير الشعبية. وما يعطيه المرء يعود اليه.

ضعف التعاطف الاجتماعي في المآتم كما في غيرها من المناسبات الاجتماعية. وضاقت، بسبب التطور وتعدل المفاهيم، دائرة أهل المحل، وباتت تشمل لزمن قريب عشيرة الميت بدلاً من جميع عشائر القرية، ثم صارت تشمل عند قسم كبير أقارب الميت اللزم. الا انه في الوقت الذي ضعفت فيه مشاركة أهل القرية لأهل الميت في مصابهم، قويت، أو نشأت مشاركة أخرى لهم هي مشاركة الجهة السياسية أو النقابية أو الحزبية التي ينتمي اليها الميت أو اقرباؤه.

ومما يجدر ذكره ان مجال مساعدة اهل الميت ضاق عن الماضي بسبب طغيان الفردية والذاتية، وتحسن الدخل، وارتفاع مستوى المعيشة، وازدياد القدرة على

---

(١) الأجاويد: رجال الدين الدروز. مفردها جويّد تصغير كلمة «جيد».

الاستغناء عن مساعدات الآخرين. وصار من وجوه «نقطة الموت» وتكريم الميت تقديم الأكاليل من الأفراد والجمعيات واللجان والمنظمات والأحزاب والنقابات والمؤسسات.

الا أن المسلمين اعتبروا تقديم الأكاليل بدعة، ورأوا في الاحسان بثمنها على نية الموتى خيراً من وضعها على القبور وهدر أثمانها، وبعض النصارى فضلوا عليها الاحسان بثمنها لمشروع خيري مثل بناء كنيسة، فصار أحد الاشخاص يجلس أمام مدخل الكنيسة وراء طاولة ليسجل على لائحة اسماء المتبرعين عن روح الميت عوضاً عن الأكاليل. وما يتبرع به هولاء يلقونه في الصينية الموضوعة على الطاولة.

الفصل الثاني:

تدوير العزاء

المأتم

المأتم في اللغة «كل مجتمع من رجال أو نساء في حزن أو فرح. وبعضهم خصَّ به اجتماع النساء للموت»[1]. ثم صار في عرف الناس اجتماع القوم رجالاً ونساءً في حزن. انه احتفال تكريمي للميت في مكان وزمان معينين تُقدَّم فيه التعزية، وتتخلله مراسم دينية ومظاهر زمنية متعارف عليها.

للمأتم اسماء أخرى هي «العزاء»، أي تقديم العزاء لذوي الفقيد، ويلفظ «العزى». و«الاجر» على اعتبار ان في حضوره وتقديم التعازي أجراً من الله. و«يوم الدفن» بسبب اقامة جميع المظاهر الزمنية والمراسم الدينية المعتادة، ودفن الميت فيه. واسم حضوره «الواجب»؛ لأنه أهم واجب يؤدى عند الناس. و«الفرض»؛ لأنه واجب مفروض بموجب الشرع والمفاهيم والعادات تفوق أهميته سائر الواجبات الاجتماعية، اتخذ في الماضي أهمية وتعظيما أكثر من اليوم.

ان مسقط رأس المرء هو المكان الأول لإقامة مأتمه ولدفنه. الا أنه قد يُقام له مأتم آخر في مكان وفاته سواء دفن فيه أم لم يدفن. فالمهاجر يقام له مأتم في بلد اغترابه إذا كان له فيه اقرباء وأصدقاء ومعارف؛ لأن في هذا تكريماً له وإتاحة الفرصة لتقديم التعازي به. ويقام له مأتم آخر في مسقط رأسه عندما تُنقل جثته اليه. وفي حال عدم نقلها يُقام له مأتم لتقبل التعازي وللصلاة عن روحه.

ومن العادات اجتماع الأهل والأقارب والاصدقاء والمعارف لتعزية أهل الفقيد في

---

(١) انظر معجم لسان العرب.

الايام الواقعة بين العلم بنبأ الوفاة ونقل الجثة من المهجر. وإذا توفيت امرأة متزوجة إلى قرية أخرى بعيدة، من عادات البعض، كما عند الدروز، أن يقيم لها أهلها موقفاً لتقبل التعازي، بعد اقامة مأتم لها في قرية زوجها، يشارك فيه سكان القرية.

اسم المكان الذي يقام فيه المأتم «المحل». وقد اقترنت لفظة «المحل» في أذهان الناس بالمأتم؛ اذ صارت حين تلفظ تعنيه. وهو على العموم مكان ملائم لعرض الجثة، وتجمع النساء حولها، وتجمع الرجال في مكان قريب لتقبل التعازي والقيام بالمظاهر الزمنية المعتادة.

كان بيت الميت المكان المألوف لإقامة المأتم لعدم وجود البديل عنه في أكثرية القرى، ونظراً لما له من اعتبار يقضي بإقامة المناسبات فيه وأهمها العرس والمأتم. يُسجّى الميت شتاءً في أكبر غرفة، أو في العليّة[1] عند وجودها. ويُسجى صيفاً في الدار. وإذا لم يكن البيت وداره يتسعان لإقامة المأتم، يُسجّى الميت في دار قريب، أو في فسحة من الارض متسعة.

وكان مكان اقامة المأتم، بالإضافة إلى ما ذكر من أمكنة، الجامع عند السنّة والشيعة في حال الصلاة على الميت فيه. والمجلس عند الدروز، الذي اتخذ في بعض القرى مكاناً للتجمعات اضافة إلى الخلوة التي تقام فيها مآتم الاتقياء. والكنيسة عند النصارى حيث تُعرض جثة البطريرك والاسقف والكاهن. أما مكان مأتم المقاطعجي، فهو بالطبع قصره والميدان.

كان ينصب خيمٌ زرق مقبّبة بقدر ما يحتاج اليه الرجال والنساء للوقاية من الشمس صيفاً ومن المطر والثلج شتاء. وتُسمى الخيمة «ستارة» أو «شادر» أو «صيوان». وكثيراً ما توفر اشجار السنديان وسواها من عدد هذه الخيم في الصيف. وكانت المقاعد تستعار من البيوت وأماكن العبادة ليجلس عليها أهل المحل والمعزون. وقد لجأت بعض اللجان والجمعيات والصناديق الخيرية إلى صنع مقاعد خشبية يتسع كل منها لبضعة اشخاص اسمها «بنوك»، وتستعمل على سبيل الخير، ثم استبدلت بكراسي من خيزران فمن حديد فمن بلاستيك.

ومنذ بدايات المنتصف الثاني للقرن العشرين بدأ انشاء أبنية عامة واسعة لإقامة المآتم والأفراح، أغنت عن بيوت الموتى الضيقة، وعن استعارة الكراسي واستئجارها؛ إذ جهّزت بالمقاعد وبوسائل التدفئة والتبريد، وبالمطابخ والحمامات والمغاسل، وصار يجهّز

(١) العليّة: غرفة كبيرة منفردة مخصصة لاستقبال الضيوف.

الحديث منها ببراد لحفظ الجثة. واسم هذه الابنية عند النصارى «بيت الرحمة»، وعند السنّة «الخلية»، وعند الشيعة «الحسينية»، وعند الدروز «بيت العائلة» إذا كان البناء يخص عشيرة واحدة من القرية و«بيت الضيعة» إذا كان يخص القرية كلها.

وهذه البيوت وما فيها من مقاعد وكراسي وسجاد وفرش ومصابيح وثريات، وأوان تستعمل للطبخ وإعداد القهوة والشاي، وستارات لوقاية الناس من الشمس والمطر، وقف ذو منفعة عامة.

المأتم مناسبة لحساب الأموات حساباً أرضياً بشرياً، ويوم حصاد لما زرعوا. فجميع الناس، الذين ساوى بينهم الموت، يتساوون في الصلاة عليهم، وفي الدفن في مكان أمين هو المقبرة حرمةً للجثة وتجنباً للعبث بها. لكنهم يختلفون في مقدار المكافأة والتقدير؛ إذ يكافأ الخيّرون والصالحون، والعاملون لخدمة المجتمع، بحضور حاشد، وثناء جميل، ورحمة وافية، ومراثٍ صادقة. وحضور الفعاليات السياسية والدينية والاجتماعية أحد أكبر الأدلة على اكرام المتوفى وإكرام أهله. وكلما زادت كثافة حضورهم، وكثافة حضور سائر الناس، زادت كرامة الميت وأهله. ويجازى السيئون، والمقصرون في خدمة المجتمع والوطن وفي واجباتهم الاجتماعية، بحضور قليل. ويجازى السيئون، والخارجون عن مبادىء الجماعة وتقاليدها، بحضور العدد القليل الضروري من رجال الدين لإقامة الصلاة الدينية، وبعدم ترحم الناس عليهم، وتكون مآتمهم مناسبة لمرور العيوب في الذاكرة دون ذكرها احتراماً للموت.

وفي هذه الأمور المذكورة حوافز للصلاح والخير، واحد الضوابط للتقيد بسلوك الجماعة وأعرافها. ويُختصر وصف عظمة مأتم انسان بهذه العبارات «يوم عظيم - اجر كبير - طلعته كانت عظيمة». والعبارة الأخيرة مستعملة عند النصارى وتعني فيما تعني نفقات الدفن والتابوت.

ان تكريم الأموات على ما صنعوا هو القاعدة. لكن هذه القاعدة لا تُطبق دائماً؛ إذ غالباً ما يكرّم الاحياء من خلالهم، أو يختلط تكريمهم بتكريم الاحياء. ومن المفاهيم السائدة «القيمة للاحياء لا للأموات». وفي هذه الحال يغلب تكريم الاحياء على تكريم الأموات كما يحصل بالنسبة إلى الزعماء وأرباب السلطة والأغنياء وذوي العزوة الكبيرة، الذين تتحول مآتم العاديين والمغمورين منهم إلى مآتم حاشدة.

ان كبر المأتم وصغره تقررهما منزلة المتوفى ومنزلة اقاربه، وكبر أو صغر عزوته، كما تقررهما أيضاً عادات الجماعة ومفاهيمها وأنواع عملها. ان فئة لا بأس بها من الدروز لا تزال تعير اهتماماً كبيراً لما يسمى «الموازرة»، وتحضر المآتم كسباً للأجر،

واكراماً لمن يعرفونه من عشيرة المتوفى أو قريته. وهذا مما يجعل مآتم الدروز حاشدة قياساً على مآتم غيرهم. فمأتم انسان عادي منهم أهم أحياناً من مأتم انسان بارز عند سواهم. وان مآتم القرى والمجتمعات الزراعية هي على العموم أكثر حضوراً من مآتم المدن والفئات التي تعتمد على الوظائف والصناعات والمهن في تحصيل عيشها.

وكبر المأتم أو صغره تقررهما أيضاً عوامل سياسية وأمنية ومناخية. فمشاركو الميت وأهله في الغرضية والحزب والانتماء السياسي من سائر القرى، يقبلون على حضور مأتمه، فيما يقل عدد المعزين من غيرهم. وزعماء الغرضية أو الحزب يستنفرون المحازبين والأنصار لحضور مأتم أحدهم. وقد يستغلون مناسبة وفاة أو استشهاد رجل عادي من محازبيهم لإعلان موقف، أو لإظهار حجم شعبيتهم ونفوذهم. وكثيراً ما حال سوء الأوضاع الأمنية والمناخية والمنازعات دون اقامة المآتم الحاشدة للعظماء والوجهاء في أيام دفنهم، فأقيم لهم تذكارات بعدها.

ومما يلاحظ ان هناك مآتم لعاديين تفوق أحياناً مآتم من هم أهم شأناً، وأعلى وظيفةً، وأكثر مالاً، إما لكبر عزوتهم، أو لتواضعهم وكرمهم ومحبتهم للناس وطيب نيتهم وحسن تعاطيهم، أو لملاءمة الأوضاع الأمنية والسياسية والمناخية، أو لوقوع المأتم في يوم عطلة.

يتخذ ذوو الشأن والنفوذ من المآتم أحد مظاهر العظمة والجاه والابهة، ومناسبة لإظهار قيمتهم ومكانتهم وأهميتهم. وهي عند بعضهم سبيل لدغدغة الكبرياء أكثر مما هي سبيل لتكريم الأموات وتخليد ذكرهم. وبعض الناس يهملون قريبهم حياً، ويكرّمونه ميتاً، أو يكرّمونه في مأتمه وبعد مماته أكثر مما كانوا يكرّمونه في حياته؛ لأن «الحي مطموع فيه». والموت، عند الجميع، ذو حرمة كبيرة و«ستّار العيوب»، فمن يموت تموت سيئاته معه، ويصبح «زينة الرجال» ولو لم يكن كذلك.

تختلف المآتم من حيث المظاهر الزمنية باختلاف أهمية الموتى ووضعهم الاجتماعي وأعمارهم وجنسهم. والمقصود بـ «المظاهر الزمنية» المظاهر غير الدينية. فمآتم كبار رجال الدين تخلو من معظم المظاهر الزمنية التي تحفل بها مآتم غيرهم. ومآتم نساء الأعيان تشبه مآتم الرجال. ومآتم النساء والأطفال من العامة تخلو من ندب الرجال والحوربة، وكانت تخلو من المناداة. ومآتم الشباب والعرسان والأعيان تتحول إلى ما يشبه الأعراس لما يتخللها من رقص وحداء. وما يصح في مأتم لا يصح في مأتم آخر؛ إذ بينما تجود العيون بالدمع على الشباب تجود الالسن بطلب الرحمة إلى الشيوخ التقاة والمعمّرين.

وكانت المآتم تختلف في الماضي بحسب الطبقات حين كان النظام الاقطاعي سائداً؛ إذ استأثر المقاطعجيون ببعض المظاهر كواحد من امتيازاتهم مثل قلم الخيل وندب الرجال والحوربة. وحين زالت امتيازاتهم اعتمدت هذه المظاهر في مآتم العامة.

وكما تختلف المآتم من حيث المظاهر الزمنية باختلاف الموتى وطبقاتهم، تختلف أيضاً من حيث مدتها ومراسمها الدينية باختلاف الطوائف واختلاف نظراتها ومفاهيمها إلى الحياة والموت. فمدتها قبل الدفن، وعلى العموم، طويلة في أوساط النصارى، قصيرة في أوساط المسلمين باستثناء الدروز. وطول فترة المأتم يسمح بإقامة الكثير من المظاهر، كما أنه يساعد أهل الميت على استيعاب الصدمة من خلال مواساة الناس لهم.

المسلمون، بعكس النصارى، يعجلون في الصلاة على الميت ودفنه. وهم يدفنون في أي وقت الا عند طلوع الشمس وزوالها وغروبها، ولا يؤخرون الدفن الا في حالات استثنائية واضطرارية. وتُعرض الجثة لوقت قصير قبل الغسل، ولوقت أقصر بعد التكفين يتم فيهما توديع الميت من أهله وأقاربه وجيرانه وعارفيه، باستثناء الزوجين اللذين يحظر اقتراب أحدهما من الآخر بعد التكفين كي لا يفسخ الغسل. فخير الميت التعجيل في دفنه عملاً بقول الرسول ﷺ: «ثلاث يا علي لا يؤخرن: الصلاة إذا أتت، والجنازة إذا حضرت، والايّم إذا وجدت كفؤاً»[1].

كان الدروز، كسائر المسلمين، يعجلون في الدفن، ولا يزالون في جبل العرب في الجمهورية العربية السورية على هذه الطريقة. لكنهم في لبنان صاروا يطيلون عرض الجثة، ويدفنون على العموم في اليوم الذي يلي يوم الوفاة. ومن أسباب ذلك بحسب ما هو شائع في أوساطهم، وما يردد في العنعنات، استفاقة بعض من أقيم لهم مآتم، على أنهم أموات، خلال المأتم، أو عند الصلاة، أو بعد الدفن. وهذا حمل على اطالة المأتم وتأخير الدفن لكي لا تحصل مثل هذه الحالات.

ان حالات استفاقة الأموات المزعومين قليلة، بل نادرة. لذا هناك أسباب أخرى أهم هي الرغبة في تكريم الميت من خلال اطالة مأتمه، وإتاحة الفرصة أمام أهله وأقربائه وعارفيه لمشاهدته مدة أطول وتوديعه الوداع الأخير والبكاء على رأسه عملاً بالتعبير الشعبي الذي يقول «البكاء على رأس الميت»، وحفظ حق الغائبين من الأهل، وحق المدعوين من القرى لحضور المأتم، في مشاهدة الفقيد.

---

(١) اخرجه احمد وابن ماجه والحاكم وابن حيان والترمذي وغيرهم.

تدوير العزاء

تدوير العزاء هو أحد التعابير الشعبية، وأحد مصطلحات المآتم. وهو يعني احياء الاحتفال بالمأتم بمجموعة من المظاهر تميزه عن غيره من المناسبات. فيقال: «دار العزاء» أي ابتدأ المأتم، و«دوّروا العزاء» أي أحيوا المأتم، و«العزاء دائر» أي العزاء قائم. فكما يُدوَّر العرس، أي يُحيا بالصوت والدف والوليمة وحضور الناس للتهنئة والمشاركة في الفرح، هكذا يُدوَّر العزاء، أي يُحيا بالصوت والبكاء والنياح وحضور الناس للتعزية.

وكما كان شأن العريس يعظم، هكذا كان شأن الميت يعظم. وكما كانت الأعراس تستمر أكثر من يوم، وبعضها يستمر شهراً، هكذا كانت بعض المآتم تستمر إذ يبقى العزاء دائراً بعد الدفن؛ لأن أهل القرية كانوا يعودون لتعزية أهل الميت يومياً، وكان اصدقاؤه وبعض عارفيه، من خارج القرى، يعودون مرة أو أكثر، فيتجدد الندب والنياح والبكاء والعويل والتعديد عند عودة المعزين، ولا سيما في أهم التذكارات التي تقام للميت، «الثالث» و«الاسبوع» و«الاربعين».

مظاهر تدوير العزاء كثيرة. وهي مظاهر زمنية مثل النياح، وندب الرجال والنساء، والحوربة، والحداء، وإطلاق النار، والرقص، والنوبة، ورفع الرايات، والطواف بالمحمل، وقلم الخيل وعرقبتها. وإذا ما استثنينا النياح، فإن سائر المظاهر بدأت في مآتم الأعيان، ومُنع بعضها عن العامة في فترة سيادة النظام المقاطعجي الذي بدأ التحرر من امتيازاته ابتداءً من النصف الأول للقرن التاسع عشر.

وبينما يجد المؤمنون حقاً في التعزية من الله العزاء الحقيقي والجوهري، يجد سواهم في مظاهر تدوير العزاء المذكورة أعلاه تعزية أساسية لا يقل تأثيرها في نفوسهم عن تعزية المعزين ومواساتهم لهم بحضور المأتم ومشاركتهم في الحزن والثناء على فقيدهم وطلب الرحمة له. وقد صبغ الناس هذه المظاهر بصبغة التمثيل والمسرحة؛ إذ اعتادوا أن يؤدوها بحسب أصول وقواعد منظمة متوارثة مثل اداء الحوربة والندب والمناداة والتعديد والمشاهدة والرقص وترقيص التابوت وعزف النوبة.

كانت المظاهر الزمنية المذكورة، وبخاصة في حال الاجادة في تمثيلها ومسرحتها، تضفي مزيداً من أجواء الحزن، وتليّن القلوب القاسية، وتهيّج العواطف الساكنة، وتثير الأحاسيس الجامدة، وتحرّك مكامن النفوس، وتحمل على الاحساس مع أهل الميت

ومشاركتهم في حزنهم الطبيعي العفوي حتى من قبل الاباعد. ومن لا ينفجر بالبكاء ويظهرحزنه بحسب العادات المتبعة يُنتقد. وإذا لم يكن الاقارب والاصدقاء والعارفون مهيأين كأهل الميت للبكاء، عليهم مجاراتهم فيه واصطناعه وإجادة التمثيل.

ان حب الجاه والعظمة غلّب المفاهيم الاجتماعية الزمنية على التعاليم والقواعد والمفاهيم الدينية التي تقضي بالاكتفاء بالمراسم الدينية والتعزية، وحوّل مآتم ذوي النفوذ إلى احتفالات، ومآتم الشباب العازبين، ومآتم النابهين والأعيان، إلى أعراس، وقاد إلى دفن الموتى في توابيت غالية الثمن، وإلى بناء المدافن الخاصة الفخمة المزينة بالنقوش. وان ضعف النفس البشرية، ووهن الايمان، والتقيد ببعض العادات التي تهيّج العواطف، أثقلت اجواء المآتم بضجات متواصلة من البكاء والعويل والنحيب والتفجع والولولة، وأفقدت الحزن وقاره والموت رهبته.

وأكثر مظاهر الابهة والجاه والتكريم التي تقام في المآتم هي نفسها التي تقام في سائر المناسبات الاجتماعية كالعرس، والعيد، والمهرجان، والاستعداد للمعركة، والاحتفال بزيارة الكبار، واستقبال العائدين من الغربة. فاللعب بالسيف والترس والرقص والحوربة والحداء والأناشيد والنوبة وإطلاق العيارات النارية مظاهر مشتركة بين المآتم والمناسبات الاجتماعية الأخرى، لكنها في المآتم محزنة، وفي سائر المناسبات مفرحة.

ألغي بعض مظاهر تدوير العزاء، مع الأيام، أو عدِّل، بسبب عدم ملاءمته وبفضل التطور. وبعض ما تبقى يتعرض للنقد وترتفع الأصوات المطالبة بالغائه، وخصوصاً من رجال الدين الذين يعتبرونه مناقضاً للتعاليم الدينية ولمسلك السلف.

ومما تجدر الاشارة اليه ان الامير بشير الشهابي الثاني أمر بالغاء عدة عادات حين طلب إلى بعض أعيان البلاد «ابطال العوايد غير الحميدة الجارية في محلات الكره مثل سرج خيل ودوران في المحمل بشخص الميت وحمل بيارق ومناداة، وان المناعي الذي يحضروا المحل تكون زهبتهم (طعامهم) معهم حتى لا يصير اكلاف على بيت المتوفي ولا يكون استعمال عزايم»[1].

لكن محاولة الامير بشير هذه، التي تبدو في ظاهرها بادرة جيدة وخطوة اجتماعية جريئة، تخفي في باطنها خلفية سياسية ترمي إلى اضعاف المقاطعجيين من خلال الغاء مظاهر الابهة والعظمة والجاه التي تحفل بها مآتمهم، وهذا ما قصد منه الأمير.

---

(١) رسالة الامير بشير إلى بعض اعيان البلاد. من محفوظات المديرية العامة للآثار. بيروت. نشرها رياض غنام في اطروحته لنيل شهادة الدكتوراه اللبنانية في التاريخ بعنوان: «التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي»، وردت الاشارة اليها، ص ٦٦٤ .

ملازمة الميت

ملازمة الميت والسهر عليه بدأا مع انسان القطيع البشري الأول، وكان دافعه اليهما الحرص على الجثة من أذى الحيوانات قبل أن يدفنها تحت التراب، أو يضع عليها الحجارة.

وإضافة إلى عامل الحرص على الجثة من أذى الحيوانات، الذي كان الدافع إلى ملازمتها عبر الازمنة القديمة، والذي انتفى اليوم الا من أذهان القلائل[1]، هناك عوامل عديدة دفعت إلى ملازمتها؛ إذ من الطبيعي أن يتجمع أهل الميت وأقرباؤه ومحبوه وعارفوه لغسله، وتكفينه، والقاء النظرة الأخيرة عليه، وتكريمه وتدوير عزائه بمظاهر زمنية عديدة، والصلاة عليه، قبل مواراته الثرى. ولما كانت جثته تُعرض في بيته كان من الطبيعي أيضاً أن يسهروا عليه حتى الصباح بناءً على المفهوم السائد القاضي بضرورة ملازمته حتى يُدفن، وبناءً على مفهوم تونيسه عند البعض بتلاوة الآيات الدينية.

ان ملازمة الميت تطول أو تقصر تبعاً للمفاهيم الدينية والاجتماعية، وتبعاً للتعجيل في الدفن أو التأخير فيه. فهي على العموم أقصر عند السنّة والشيعة مما هي عند الدروز والنصارى؛ لأن السنّة والشيعة يعجّلون في الدفن ويدفنون غالباً في اليوم الذي تحصل فيه الوفاة؛ بينما يؤخر الدروز والنصارى الدفن إلى اليوم التالي، وكانوا يلازمون الميت ليلاً، ولا يزال هذا جارياً في معظم أوساط الدروز. وفي حال ترك النصارى للميت، تُوضع شمعة عند رأسه، وأخرى عند قدميه.

تتحلق النساء من أهل الفقيد واقربائه اللزم حول الجثة يعددنه ويبكينه، ويلوحن بالمناديل تجاهه. وتبقى نساء القرية إلى جانبهن في النهار والليل لمواساتهن وتسليتهن بالندب والتنويحات والقصائد الوجدانية والأناشيد الدينية وغير ذلك من أمور التعزية، وتحضر لهن الصديقات والجارات كؤوس الحليب والشاي والزهورات في منتصف الليل لانشغالهن بالحزن عن الاهتمام بأنفسهن وبتناول الطعام. أما الميت البارز من الروحيين، فإن المقرئين يتجمعون حول جثته ليقرأوا الآيات الدينية، وليتلوا الادعية بدلاً من الندب والنياح.

وكما تطيَّب الجثة بالعطور عند تكفينها، تطيَّب من حين إلى آخر عند اطالة

---

(١) لا يزال يسود اعتقاد في القرى المسيحية من شمال لبنان بانه ينبغي السهر على الجثة لئلا تاتي الفئران والقطط السوداء فتاكل عيونها وتشوهها. انظر مقالة فريدريك معتوق بعنوان: «التقاليد والعادات الشعبية في الاحزان» في مجلة «الحداثة» العدد ٥ - ٦ ص ١٤٨ (هامش رقم ١).

عرضها كي لايتضايق المجتمعون حولها من الرائحة. وكان المجتمعون حول بعض الجثث يتضايقون من رائحتها بسبب عدم تحملها أو بسبب المرض الخبيث أو الحادث الذي أدى إلى الوفاة. ومما كان يساعد على تحمل الجثث وعدم تسبيب الروائح الكريهة، في غياب مثل الوسائل المستعملة اليوم، نوعية الاطعمة وطبيعتها وخلوها من الفيتامينات. وهذا كان يؤدي إلى صلابة الاجسام وصفائها، حتى ان جثثاً كثيرة كان يمضي عليها عدة سنوات قبل انحلالها.

تجلس والدة الفقيد وزوجته عند رأسه، وبناته واخواته وقريباته إلى جانبيه وعند قدميه، يندبنه ويبكين عليه. وتتحلق حولهن نساء القرية ونساء القرى المنعيّة وفق أصول وآداب يقترن بعضها بالخوف من الويل والضرر عند المخالفة كعدم الفشخ وتمرير الأغراض فوق الميت مثلاً. ومن العادات في بعض الأوساط كمسلمي ريف عكار الباس النساء لأرملة الميت احدى قطع ثيابه (سترته)، أو غطاء رأسه (طربوشه)، للدلالة على أنها أصبحت المسؤولة عن البيت بعده.

السهر على الميت إلى الصباح منهك كثيراً لنساء أهله وقريباته بسبب عدم توافر المجال لهن للنوم، وتواصل بكائهن وحزنهن ليلاً ونهاراً، ومنهك أيضاً لسائر الساهرات حتى لقسم من الليل. وتزداد صعوباته ومتاعبه عند هطول الأمطار، وتساقط الثلوج، وازدياد الصقيع. وإذا كان من مبرر للسهر على الميت في ساعات الليل الأولى، فإنه لا مبرر ولا فائدة من ، سهر عليه حتى الصباح. لذا ألغي السهر إلى الصباح في أوساط كثيرة، وبدأت الأصوات ترتفع عند المستمرين في أتباعه، وجلهم من الدروز، مطالبةً بوجوب ابطاله ومجاراة التطور، أو على الأقل تحديده حتى منتصف الليل من أجل توفير الحد الادنى من الوقت لراحة نساء أهل الفقيد ونومهن.

وقد ساهم الوعي والتطور في تقصير مدة ملازمة الميت، كما ساهم فيه أيضا حصول الوفيات في المستشفيات وابقاء الجثث في براداتها، وضيق الشقق السكنية. ويعمد بعض العقلاء في أوساط الدروز انطلاقاً من ايمانهم بعدم ضرورة السهر على الميت، وإحساساً منهم مع الآخرين، إلى تأخير اعلان نبأ الوفاة عند حصولها في المساء إلى صباح اليوم التالي، ولا سيما إذا كان هناك مطر وثلج وصقيع، أو إذا كان الميت عجوزاً أو طفلاً.

إن المطالبة بابطال سهر النساء على الميت إلى الصباح لا تنطلق فقط من عدم جدواه ومن العصرنة، بل تنطلق أيضاً من تخطئة عدم المساواة بين الرجال والنساء في هذا الامر، ومن تخطئة الازدواجية في التصرفات؛ إذ كيف يصح ترك الجثة من قبل

الرجال ولا يصح من قبل النساء. وكيف يجوز نوم الرجال من أهل الفقيد وأقاربه ولا يجوز نوم نسائهم. وكيف يصح ترك الجثة من بعض النساء في مسكن المدينة وفي المستشفى، ولا يصح تركهن لها في القرية.

السهر على الميت يقتصر اليوم عند تابعيه من النصارى، وعند تابعيه من السنّة والشيعة في حالات تأخير الدفن إلى اليوم التالي، على ساعات الليل الأولى. ومعظمهم يضعون الميت في تابوت مقفل. وإذا وضع الميت الشيعي في الحسينية يسهر بعض الرجال فقط في معظم الأحيان ويتلون الآيات الدينية. وفي حين ينصرف أهل الميت إلى النوم يلازمه عند النصارى بضعة مسنين، ويلازمه عند السنّة والشيعة رجل يتلو الآيات الدينية يسمى «الونيس»، ويسمى ما يقوم به «التونيسة»، أي ايناس روح الميت بالصلاة.

والسهر الجماعي على الميت لا يزال سائداً عند الدروز في قرى كثيرة حيث تتجمع حول الميت نساؤه وقريباته مع نسبة كبيرة من نساء القرية، ويقضين معظم الليل في الندب والنياح وإنشاد الاناشيد الدينية والقصائد الوجدانية. الا أنه يلاحظ انحسار تدريجي في عدد الساهرات، واقتصارهن غالباً على الجيل القديم والمخضرم.

التعزية

هناك حالة نفسية جماعية في الفرح والحزن لها أهميتها وأبعادها عند البشر. وضرورتها في الحزن أكثر من الفرح؛ لأن حاجة الانسان الى ما يوجد له الامان عند الموت أكثر من حاجته إلى ما يوجد له الفرح في أية مناسبة. ومن يفقد عزيزاً يُصدم ويحزن ويقلق ويتوجع، وقد ينهار ويفقد صوابه، أو بحسب التعبير الشعبي «المصاب يضيع عن الصواب». لذا يصبح بحاجة إلى ما يداوي حالته الانفعالية، ويهدّىء قلقه، ويجبر خاطره المكسور، ويقوي عزمه المنهار، ويحصّن نفسه المحطّمة، ويمده بشحنة عاطفية تمكنه من تحمل الصدمة ومن متابعة حياته ومعالجة شؤونه. وكل هذه الامور يجدها في تعزيته من الله، وتعزية محبيه واصدقائه وعارفيه، ومواساتهم له، ووقوفهم إلى جانبه. وقد أُطلق على تعزية الناس له تسمية «الأخذ بالخاطر».

التعزية أهم واجب اجتماعي، واداؤها اسمه «الواجب» و«الفرض». والمأتم مناسبة لادائها جماعياً. وقد يقصّر المرء في زيارة، أو تهنئة بزواج وولادة، أو عيادة مريض، أو مواساة في حادث وخسارة، لكن عليه الا يقصّر في التعزية؛ لأن التقصير فيها أصعب بكثير من التقصير في هذه الامور. واداؤها بمبادرة من الخصم، أو استجابة لطلب الوسطاء والمصلحين، ينهي النزاعات المستعصية. وعدم ادائها يعمّق هوة التباعد، ويعقّد

النزاعات. ومن الاخصام من يقومون بها دون ان يمكثوا في المأتم ويشاركوا في الدفن واضعين أحياناً الخلاف «تحت البلاطة» بحسب التعبير الشعبي، أي مجمّدين النزاع.

التعزية من الله هي التعزية الأولى، فهو عزاء من كل مصيبة. وبقدر ما يكون الايمان به كبيراً، يكون العزاء جميلاً. وتعزية المصاب أيضاً هي بترديد الآيات الدينية. ومما يستحب قوله عند المسلمين: «انا لله وإنا إليه راجعون» عملاً بقوله تعالى: «الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة اولئك هم المهتدون»[1].

والتعزية من الناس تكون بتسلية أهل المصيبة، اقويائهم وضعفائهم، كبارهم وصغارهم، وقضاء حقوقهم، والتقرب اليهم، وجبر خاطرهم المكسور بالوقوف إلى جانبهم ومواساتهم، ومشاركتهم في مظاهر المأتم، ومساعدتهم في النفقات، ووضع البيت والمقتنيات في تصرفهم، وصنع الطعام لهم وللمعزين، وخدمة المعزين. وهناك من تضاعف حزنهم، وازداد كسر خاطرهم جرّاء عدم امكانية اقامة بعض مظاهر المأتم مثل الندب والحوربة والتعديد والثناء على الميت. وهناك من صغرت مصيبتهم وجُبر خاطرهم بمقدار اقامتها، وبمقدار تعزية الناس لهم، والثناء على ميتهم.

وفي التعزية أجر من الله. ولقد روي عن الرسول ﷺ قوله: «من عزّى مصاباً فله مثل أجره»[2]، وقوله: «ما من مؤمن يعزّي أخاه بمصيبة الا كساه الله عز وجل من حلل الكرامة يوم القيامة»[3]، وقوله: «من عزّى ثكلى كسي برداً في الجنة». وروي عنه الصلاة والسلام عليه «انه عزّى رجلاً فقال: رحمك الله وآجرك»[4]، وعزّى بآخر قائلاً: «اعظم الله اجركم وأحسن عزاءكم». ومما يستعمل في تعزية مسلم بمسلم «أعظم الله اجرك وأحسن عزاءك ورحم ميتك»، فيجاوب «اجرك عند الله عظيم».

ومن هنا تسمية المأتم بـ «الأجر» و«العزاء»، وتسمية التعزية بـ «المؤاجرة» و«الاخذ بالخاطر». فإذا أراد أحدهم أن يعبّر عن اداء واجب التعزية قال: «آجرنا». وإذا أراد تقديم سبب لاعتذاره عن تناول الطعام قال: «اجريّة». وإذا أراد أحدهم أن يحمل التابوت أو النعش عن آخر قال له: «آجر».

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٦ والآية ١٥٧ .
(٢) رواه ابن ماجه والترمذي.
(٣) رواه ابن ماجه.
(٤) رواه احمد.

لفظة «المعزين» و«المعزية»، وبتعبير آخر «المناعي»، تُطلق على أهل القرى الأخرى المنعية، الذين يفدون لتعزية أهل الميت واقربائه وأهل قريته المعروفين بـ «المحلية» و«أهل المحل» و«أهل الحريبة» الذين عليهم أن يكونوا جميعاً في استقبال المعزين؛ لأن النعوة توجَّه إلى هؤلاء باسم عموم أهل القرية.

يحضر أهل القرية إلى بيت الفقيد بدون نعي، عند سماع الصرخة أو قرع الجرس، أو عند أخذ العلم بالوفاة بأية طريقة. وفي حين تظل نساء القرية إلى جانب النساء من أهل الميت واقربائه معظم فترة ملازمتهن الجثة، يحضر الرجال إلى مكان اقامة المأتم في صباح اليوم الذي يلي يوم الوفاة على الشكل التالي: يحضر أهل الميت وأقاربه وجيرانه قبل طلوع الشمس؛ إذ كان الرجال من أهل الميت يُدعون إلى المنامة في بيوت الاقرباء أو الجيران إذا كان المأتم في بيتهم. ويبكِّر بالحضور بعدهم سائر ابناء عشيرتهم؛ إذ من غير المألوف ان يسبقهم ابناء العشائر الأخرى. ثم يأتي ابناء القرية الآخرون بحسب احيائهم وعشائرهم، ومنهم من يأتون بالندب والحوربة وإطلاق النار في مآتم الشباب والوجهاء. وعلى الوافدين، أفراداً كانوا أم جماعات، من أهل الميت واقربائه وسواهم، ان يعدِّدوا الميت ويشاهدوه. وينتظم السابقون عند وقوفهم لتقبل التعازي من اللاحقين بحسب قرابتهم للميت وأعمارهم ومنزلتهم.

ينطلق المعزون من قراهم صباحاً، وينطلقون قبل الفجر إلى المآتم البعيدة. ويأتي بعض الرجال سيراً على الاقدام فيما يأتي بعضهم الآخر ممتطياً الرواحل التي يضعون على سروجها، او جلالاتها، قطع البسط والسجّاد لتبدو مرتبة، وللمحافظة على نظافة ثيابهم. ويضعون رواحلهم في الفسحات العامة والحقول القريبة من البيوت، أو يأخذونها إلى زرائب حيوانات اصدقائهم و«حواكيرهم»[1] إذا كان في نيتهم الاكل أو المبيت عندهم. وتأتي اكثرية النساء سيراً على الاقدام منتعلات من الاحذية، ولابسات من الثياب والمناديل، عتيقها حتى لا تهترىء، أو يتسخ الجديد والحسن الذي يستعملنه بعد بلوغ القرية المقصودة. ولا يذهب من النساء إلى المآتم البعيدة الا الاقرباء. وثياب الجميع، رجالاً ونساءً، يجب أن تكون سوداء أو داكنة بحسب ما تقضي به آداب المآتم.

كان لكل قرية بيرق (راية) يتناسب كبره مع عدد سكانها وأهميتها، مطرَّز الجوانب،

---

(١) الحاكورة هي ارض تغرس بالأشجار قرب الدار وتكون احياناً مصونة.

بلون واحد أو بعدة ألوان، تُرسم عليه رسوم ذات دلالة حربية ودينية، وتُكتب آيات دينية للتبرك، يُكتفى بها أحياناً فلا يوضع أي رسم على البيرق. كما كان يُكتب اسم الجمعية أو القرية على بعض البيارق. وبيارق القرى هي البيارق المألوفة آنذاك؛ إذ لم يكن علم وطني وأعلام أحزاب الا بعد عام ١٩١٨ .

من العادات أن تتقدم البيارق مقاتلي القرى عند ذهابهم إلى المعارك، وجموعها عند حضور المناسبات وعند الاحتشاد لأمر ما؛ لأنها شعاراتها. لذا كانت وفود القرى تحمل بيارقها إلى المآتم الحاشدة التي كانت حتى النصف الاول من القرن التاسع عشر مقتصرة على الاعيان، ترافقها النوبة في حال وجودها في القرية. ويحمل البيرق رجلٌ طويل قوي البنية يُسمى «البيرقجي» أو «حمّال البيرق». وكانت أولوية تقدم البيارق بعضها على بعض محددة تبعاً لأهمية البلدات والقرى، العددية والحربية والتاريخية. وكل محاولة اخلال بها تثير النزاعات[١].

عند اكتمال الحشد في أول القرية الناعية يسير رجال الدين أولاً فالبيرقجي مركزاً سارية البيرق في وسطه، ممسكاً اياها باليمنى، أو باليسرى حين يمسك باليمنى سيفاً مسلولاً. ويليه عازفو الموسيقى، أي فرقة النوبة التي كانت موجودة في قرى كثيرة، فالنادبون، فسائر الرجال، فالفتيان، وتتبعهم النساء عن بعد. وعند اشرافهم على «المحل» يلاقيهم أهل الميت وأقاربه، فيتوقفون عن الندب، ويتقدمون مع مستقبليهم إلى حيث سجي الميت، فينادون ويعددون ويشاهدون. ثم يعودون إلى الأخذ بالخاطر، أي إلى تقديم التعازي إلى أهل الميت الذين يسبقونهم ويأخذون أماكنهم المعدة لتقبل التعازي. ويلاقي رجال الدين الدروز اخوانهم من المعزين، فيقفون صفوفاً قبالة بعضهم بعضاً، وينشد الفريقان معاً أو مناوبة عدة أبيات من قصيدة البردة للإمام الابوصيري، ويبدأ فريق المعزين بالانشاد.

وإذا كان الميت أحد الأعيان، تُستقبل القرية القادمة للتعزية بالنعش أو المحمل، فتحمله وهي تندب وتحورب، وتظل تنتقل به حتى تحضر قرية أخرى فتسلمها اياه. ويُستقبل الأعيان بنعش الموتى، لكنهم لا يحملونه، بل تحمله حاشيتهم نيابة عنهم. «وكان من العادات الفجّة المتبعة في اظهار الحزن والاسف عند زلم البكوات وذويهم (في جبل عامل) ان يشحّروا ويطلوا وجه كل قادم وقادمة من أهل القرى إلى دار المتوفى من البكوات بسائل اسود، أو نيلي، وقد يمزقون ذيول النساء ولو بالقوة والقهر، مبالغة منهم

---

(١) حصل نزاع بين اهل بعقلين واهل مزرعة الشوف في ماتم رشيد طليع في جديدة الشوف عام ١٩٢٦ حين حاول حامل بيرق مزرعة الشوف ان يتقدم حامل بيرق بعقلين.

في اصطناع الحزن والاسف، أو تمييزاً للفقيد عن بقية الناس»[1].

وكان الأعيان لا يحضرون مآتم العامة، بل يرسلون أحد رجالهم للتعزية بهم، ويرسلون إلى أهلهم خلعة الرضى، وشرشفاً خاصاً يوضع على نعشهم، إذا كانوا من خاصتهم. وبفضل التطور اضطروا إلى حضور مآتم وجهاء العامة وشبابهم المقربين اليهم، الا انهم ما كانوا يتقدمون في البدء لمصافحة أهل الميت وتعزيتهم، بل كان هؤلاء وسائر الحضور يلاقونهم ويسلمون عليهم. وكان أهل الميت وأقاربهم يزورونهم في اليوم التالي لشكرهم على الخلعة والحضور. ومع الزمن صار الاعيان يقدمون التعازي للعامة، بل صاروا يشاركون أهل الموتى النابهين في تقبل التعازي. كما جرت عادة دعوة الاعيان والوجهاء وكبار المسؤولين والموظفين إلى الوقوف إلى جانب أهل الميت اكراماً لهم بدلاً من جلوسهم مع سائر المعزين.

تقديم التعازي

يقف أهل المحل في صف يتوسطه أهل الميت وعن يمينهم ويسارهم اقرباؤهم اللزم بحسب تسلسل درجة القرابة، ووجوه عشيرتهم والعشائر الاخرى. ويقف المعزّون قبالتهم في صف مستقيم أو هلالي يتصدره كبيرهم فالوجوه بحسب منزلتهم مع تقديم رجال الدين فالكبار بحسب أعمارهم.

ولأهمية الأجر تُفتتح عبارات التعزية عند الكثيرين بالعبارة التالية: عظّم الله أجركم، فيجيب أهل الميت: «أجركم عند الله عظيم» أو «شكر الله سعيكم». والمعزون السنّة والشيعة يحيّون أهل المحل أولاً بعبارة «السلام عليكم»، وبعضهم كما في خربة روحا في قضاء راشيا يقولون بعد السلام: «سلامة الدين والايمان». ويقول كبير المعزين السنّة والشيعة: رحم الله الميت وإلى روحه ثواب الفاتحة.

وكان المعزون الدروز يأخذون بالخاطر أولاً قبل اداء التحية؛ لأن الاخذ بخاطر أهل المحل مقدّم في عرفهم على اداء التحية باحدى العبارتين المعمول بهما اليوم (صباح الخير ومساء الخير). ولأهمية الاخذ بالخاطر عند الدروز جوبه تقديم التحية عليه بمعارضة قوية لم تنته فصولها نهائياً بعد في بعض القرى. وممن لا يزالون يقدّمون الاخذ بالخاطر على اداء التحية، ويعزون مشالحة، معظم دروز وادي التيم.

يخاطب المعزون أهل المحل بمصطلحات التعزية المألوفة، فيجيبهم هؤلاء بما يناسب أقوالهم. ومن طرائف الماضي تفرد قلة من الناس الريفيين بتقديم التعازي على الشكل

(١) علي الزين، العادات والتقاليد... مرجع مذكور سابقاً، ص ١٥١ .

التالي: يخفض المعزّون طرابيشهم الى الامام، ويتقدمون من أهل الفقيد خافضين رؤوسهم، ويقولون: «دنكزنا[1] وجيناكم لعظم مصابكم»، فيجيبهم أهل الفقيد: «منأمل ترفعوا دناكيزكم. ما عنّا شك بأنو اللي راح من كيسنا راح من كيسكم». وبهذا الاسلوب العفوي والبسيط يشارك المعزون اهل الفقيد في مظاهر الحزن، ويعبّرون عن شعورهم ازاءهم. وبالمقابل يتمنى اهل الفقيد على المعزين الا يجاروهم في التأثر العميق، وفي تنكيس الرؤوس وخفض العيون المعبرين عن الحزن.

ان بعض مصطلحات التعزية وأجوبتها تتشابه في جميع المناطق اللبنانية، لا بالمعاني فحسب، بل بالألفاظ مثل الالفاظ التالية: العوض بسلامتكم ـ ان شاء الله بتظلّوا بخير ـ مشاركين بالمصاب ـ عظّم الله اجركم ـ الله يرحمه. وفي ما يلي تعابير التعزية عند الدروز كنموذج، مع الاشارة إلى أنها مبنية على المفهوم الاسلامي للتعزية، وأغنى من مثيلاتها عند سائر اللبنانيين لاتصاف الدروز بكثرة اللياقات والمجاملات، ولتركيزهم على مبدأ جبر الخاطر.

يقول أهل الفقيد:

خاطرنا عنكن (عندكم)[2]. فيرد أهل الميت:

ـ سلّم خاطركم، أو تبقى حياتكم، أو البقية بحياتكم.

عظّم الله أجركم.

ـ أجركم عند الله عظيم.

عزّ علينا أو بالعزّة علينا.

ـ سلِّم من تعزّ، أو يخلّي من تعزّوا، أو يعزّينا بسلامتكم.

ان شاء الله تظلّوا بخير.

ـ العوض بسلامتكم.

ما كان منا (نريد) كسر خاطركم.

ـ الله لا يكسر لكم خاطر.

هادسين[3].

---

(١) كلمة «دنكز» تلفظ احياناً «دنكس» وهي تحريف لكلمة «دنقس» بمعنى نظر بخفض العين.

(٢) ان ميم الذكور في هذه الكلمة وفي كلمات التعزية الواردة بعدها وفي معظم التعابير الشعبية تلفظ نون النسوة.

(٣) هادس وهداس وتهدّسَ، والمصدر تهدّس، الفاظ عامية فيها أفضل الدلالة على مشاركة المصابين في مصابهم، والتعبير عن الشعور والتعزية ازاءهم. اصلها من كلمة هجس وهاجس. وقد حرفت الى «هادس» لإن لفظ «الدال» اسهل من لفظ «الجيم». وهجس الشيء في صدره هجساً اي خطر بباله. والهاجس هو ما يهجس في الضمائر اي يخطر بها ويدور فيها من الأحاديث والأفكار.

ـ يجعل هداسكم بالخير.

مشاركين بالمصاب، أو مشاركين بالخسارة.

ـ متأكد على غيرتكم، أو ما عنا (عندنا) شك بغيرتكم.

يا اسفنا على الفقيد.

ـ ما تتأسفوا على غالي.

الفقيد خسارة كبيرة.

ـ الله يخلّيلنا اياكم، او الله لا يشوّفكم مكروه.

نحن خسرنا مثلكم.

ـ انتو (أنتم) بتتآجروا فيه.

مصابكم مصاب الجميع.

ـ بمشاركتكم بيهون المصاب.

سنّة الله في خلقه.

ـ سنّة الله على الراس والعين.

الاجر سنّة والمصاب واحد.

ـ الله لا يشوّفنا علكيم ضيم.

الله يرحمه ويبقيكم.

ـ تعيشوا وترتحموا.

صبّحكم بالخير، او مسّيكم بالخير يا مشايخ.

ـ صبّحكم، او مسّيكم بالخير.

وليس من الضروري ان تقال جميع المصطلحات المذكورة، بل يُكتفى ببعضها. الا ان أوائلها ضرورية، وضروري أيضاً قول دعاء «الله يرحمه» ولا سيما للميت من رجال الدين الذين يعتبرون الدعاء شهادة به كما سنرى في الحديث عن الرحمة، وللميت الزمني الفاضل والوجيه. ومن غير المألوف تبادل أي من عبارات السؤال عن الصحة والأعمال والأهل كما يحصل في اللقاءات العادية تهيباً للمناسبة وتمييزها بالوقار والرصانة أكثر من سائر المناسبات.

ويعقب هذا شهادات بالفقيد من قبل عارفيه هي بمثابة تأبين موجز له يشير إلى

صفاته ومآثره، ويبدأ أحياناً بمقدمة بليغة مثل «موت الأعيان من تعس الزمان»، و«هو (الله) يمون ولا يمان عليه، الزرع زرعه والحصاد عليه». فيجيب أهل الفقيد: «الله يديم مثاكم بالخير».

وإذا قدّم أحدهم التعازي باسم انسان لم يحضر بسبب المرض، أو بسبب آخر قاهر، اجابه أهل الميت: «يعزينا بسلامتو وطول عمرو».

كان يُكتفى في الماضي، عند البعض، بتقديم التعازي مطارحة أو مشالحة[1]. وصار من المألوف مع الايام تقديمها من الجميع مع المصافحة؛ إذ يصافح المعزون مستقبليهم فرداً فرداً، ويعانقون أهل الميت واقرباءه. أما في المآتم الكبيرة الحاشدة، فيكتفى بالمرور أمام المستقبلين، وتعزيتهم بوضع الايدي على الصدور دون المصافحة والمعانقة اختصاراً للوقت، وافساحاً في المجال للآخرين بتأدية واجب التعزية.

وينفرد رجال الدين الدروز بعادة تقبيل ايادي بعضهم بعضاً بحسب طريقتهم المعهودة في السلام في كل لقاء. لكنهم في المآتم الحاشدة يكتفون بالتعزية عن بعد والقول للجميع: «حمل ثقله عنكم» والقول لإخوانهم: «حمل ثقله عن تقبيل اياديكم». وقد نادى مؤخراً ألو الرأي من دروز لبنان بالاقتداء بدروز جبل العرب في الجمهورية العربية السورية الذين يقدمون التعازي مطارحة قائلين: «شوف الوجوه سلام».

أما النساء، فكن يصلن بالندب أو التعديد. وإذا لم يصلن بالندب، كن يباشرن به بعد تقديم التعازي، ويتم ذلك أحياناً بندبة استئذان من الحاضرات. وكان تقديمهن التعازي يتم بالتلويح بالأيدي، الحاملات المناديل، عن بعد قبل ان يصبح حالياً بالمصافحة والمعانقة. ومعظم عبارات التعزية هي عبارات أسى وتحسر وتفجع بعكس عبارات تعزية الرجال التي يغلب عليها الحكم.

كان أهل الميت من رجال ونساء، ومن يقف معهم، يتقبلون التعازي يوم المأتم وبعده وهم وقوف بخلاف ما يحصل اليوم في بعض الأوساط، وبخاصة في أوساط النساء، حيث يتقبلون التعازي وهم جلوس،. فمقابل تحمل المعزين لمتاعب الحضور الذي قد يكون من أمكنة بعيدة، يتحمل أهل الميت مع حزنهم وانهاكهم عبء النهوض من مقاعدهم لاستقبال المعزين وتقبل تعزيتهم، ففي ذلك تقدير لهم واحترام.

وكانت معظم أمكنة الاستقبالات تضيق عن استيعاب المعزين. وبسبب هذا، وبناءً

---

(١) المطارحة هي طرح الناس التحية للآخرين من مطارحهم. والمشالحة هي انحناؤهم امام الآخرين الى الامام ووضع اليد اليمنى على الصدر.

على واجب دعوة أهل القرية للمعزين للاستراحة وتناول الطعام، كان معظم المعزين يستقرون لبعض الوقت في بيوت الاصدقاء والعارفين والوجهاء، وبخاصة البيوت القريبة من مكان اقامة المأتم.

المشاهدة

مشاهدة الميت مألوفة عند جميع البشر، في الحاضر كما في الماضي، وجائزة في جميع الشرائع، وضرورية، ولو لمرة واحدة، لإلقاء آخر نظرة عليه. لهذا يلجأ من لم يتيسر له ذلك من الدروز والنصارى، قبل وضع الميت في القبر، إلى فتح التابوت لمشاهدته.

الجائز عند المسلمين تقبيل الميت، ومشاهدة الرجال للمتوفين من الرجال، وللمتوفيات من اقاربهم، ومشاهدة النساء للمتوفيات من النساء، وللمتوفين من اقاربهن. أما الزوج والزوجة، فيعتبر الموت فاسخاً لزواجهما. وقد روت عائشة ان الرسول ﷺ شاهد عثمان بن مظعون وقبّله، وانها رأت الدموع تسيل على وجهه[١]، كما روت ان أبا بكر يمّم الرسول ﷺ وهو مسجّى ببرد حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبّله[٢].

والعادات المتبعة عند السنّة والشيعة في الماضي والحاضر، توديع الميت وتقبيله قبل الغسل. أما الغائب، فيجوز له توديعه بعد الغسل. ومتى غُسل الميت وكفّن، يُصلّى عليه، ويُنقل الى المقبرة لدفنه. وإذا حضر آنئذ غائب، يمكنه ان يشاهده عند الدفن.

ان مشاهدة الميت لمدة طويلة متيسرة عند ارجاء الدفن إلى اليوم التالي ليوم الوفاة، وهي متيسرة على العموم عند النصارى والدروز الذين يطيلون عرض الجثة. فالنساء في هذه الحال كن يلازمن الميت من حين حصول الوفاة حتى موعد الدفن. والرجال كانوا يشاهدونه مرات عديدة في اطار عادة متوارثة لها أصولها وقواعدها عُرفت باسم «المشاهدة»، وتلازم معها عادتان لهما أصولهما وقواعدهما أيضاً هما «المناداة» و«التعديد».

كان على الرجال من أهل الميت واقربائه ان يشاهدوه عند إحداث صرخة الموت وعند مجيء المعزين، وكان عليهم ان يشاهدوه في فترات متقطعة تخلو من المعزين ولا تتجاوز الفواصل بينها نصف ساعة، وان يشاهدوه في الصباح الباكر عند عودتهم إلى المحل. وكان على كل قادم منهم ان يشاهده برفقتهم جميعاً. ولم تقتصر المشاهدة عليهم

---

(١) رواه احمد وابن ماجه والترمذي وصححه.
(٢) رواه احمد والبخاري والنسائي.

فقط، بل شملت كل وافد للتعزية لأول مرة من قريتهم، وكل الوفود القادمة للتعزية من سائر القرى عند وصولها.

وارتفاع صوت في الخارج بالمناداة يوحي لأهل الفقيد ان هناك وافداً أو وافدين للتعزية، إذا لم يكن هؤلاء على مرأى منهم، فيلاقونهم ويسير الجميع متدافعين بالمناكب، معددين صفات الميت وأعماله، يضرب بعضهم كفاً على آخر، ماسحين دموعهم بالمناديل التي يحملون. ويقبّل بعضهم الميت. ويحيطون به جميعاً من كل الجهات أو معظمها بعد ابتعاد النساء عنه ومن بينهن نساء أهله واقربائه اللواتي يزداد نياحهن وبكاؤهن. والبكاء لا يتفاعل ولا يأخذ مداه الا بالتعديد والمشاهدة وتفاعل حزن المرء مع حزن الآخرين. الا ان المشاهدين ما كانوا فقط أهل الميت واقرباءه وأصدقاءه ومحبيه، بل هم أيضاً معظم المعزين والمعزيات. لذا فإن منهم من يعدد ويبكي بكاءً صادقاً، وهؤلاء هم الاكثرية. ومنهم من يردد الالفاظ ويتباكى. ومنهم من لا يستطيع التعبير عن حزنه. ومنهم من يجيد التمثيل في التعديد والبكاء.

وبعد بضع دقائق من التعديد والبكاء، وبعد انشاد حوروبة فوق رأس الميت أحياناً، يعود المشاهدون مع انخفاض أصواتهم في التعديد شيئاً فشيئاً، ومع انخفاض «نهنهة»[1] ذوي الفقيد الذين تتداعى قواهم وتنحني رؤوسهم وصدورهم، فيتأبط الاصدقاء أذرعهم ويعينونهم. ويسبق أهل الفقيد لأخذ أمكنتهم من أجل تقبل التعازي من الوافدين الجدد.

أما مشاهدة الاموات من كبار رجال الدين، فهي تخلو على العموم من المناداة والتعديد والتفجع والبكاء. وبما ان تقبيل الميت غير مستحب عند النصارى والدروز، يقبّل المشاهدون النصارى الصليب المعلق على صدر البطريرك والاسقف، ويقبّل المشاهدون الدروز المصحف الكريم الموضوع على صدر شيخ العقل والتقي.

ضاقت اليوم دائرة المشاهدة فباتت تقتصر على أهل الفقيد، وأقربائه اللزم وأصدقائه الذين قليلاً ما يشاهدون أكثر من مرة. وخفت المظاهر المرافقة لها مثل البكاء والعويل والتعديد، فيما بطلت المناداة كمدخل لها وللتعديد.

المناداة

المناداة مدخل لتعديد الميت عند قدوم الرجال من أهله وأقاربه والمعزين لمشاهدته، وعند قدومهم لنقله إلى حيث يُصلّى عليه ليصار إلى دفنه. وقبل وصولهم إلى حيث سجي ينادي كبير أهله، أو كبير المعزين، بصوت شجي جهوري عبارات ثلاثاً مقفاة

---

(١) النهنهة هي البكاء المتقطع.

تصف الميت وتمتدحه، يقف عند نهاية كل منها قليلاً، ويختتم العبارات بكلمة تنبىء عن عمر الميت ومنزلته ودرجة قرابته له، مثل «ياسِيّدي» لرجل الدين الدرزي المشهود له بالتقوى والزهد. ومناداة رجال الدين الدروز الاتقياء ضرورية وتقليد متّبع منذ القدم؛ لأنها شهادة من اخوانهم بهم تعطيهم لقب «السيّد». وزمانها هو المأتم ووقت المشاهدة، ووسيلتها هي المناداة والتعديد. ومن الكلمات ايضاً «يا بيي» للكاهن المسيحي، و«يا عمي» لكبير السن، و«يا خويي» و«يا خيي» للأخ وللقريب الكبير، و«يا هنيّي» و«يا ولدي» للفتى، و«يا ستي» للشيخة الدرزية الفاضلة، و«يا خويتي» للمرأة الكبيرة، و«يا بنيتي» للفتاة.

عمّت المناداة مآتم الأعيان، كما أنها عمّت معظم مآتم العامة ابتداءً بمآتم الشباب والنابهين، واعتُمدت فيها العبارات المقالة في مآتم الأعيان. ومن أقدم عبارات المناداة مناداة في الامير السيد عبدالله التنوخي قدس الله سره هي: «ياميزان العدل وصاحب المحل الاعلى، ماتت الحقوق وجاءت المظالم. فمن بعدك يخلص المظلوم من الظالم»[1]. فلقد اشتهر الامير السيد باحقاقه الحق، وإنصافه المظلومين، ووقوفه في وجه من انحرفوا من أقاربه الامراء التوخيين.

وفي ما يلي نماذج من المناداة كانت شائعة في أوساط النصارى والدروز، وهي تختلف تبعاً لاختلاف الاموات ومنزلاتهم ومستوياتهم:

- لسيد القوم: الدهر خوّان، وموت الأعيان من تعس الزمان. يا سِيّدي - طير الغاب علّى، وسبع الربع ولّى، ويا خيبة أملنا، يا سِيّدي.

- للشيخ الدرزي الفاضل والتقي، يا كامل الشمايل، وبي الارامل، وشيخ الافاضل. يا سِيّدي.

- للرجل العادي المتقدم في العمر: لا منّا بدا، ولا علينا اعتدى، والحكم لسيد الهدى. يا عمي.

- للشاب النابه: طير الباز علّى، وسبع الغاب ولّى، وهذا حكم الله. يا بنيي - يا قمر نيسان، وزينة الشبان، وبيضة القبان. يا بنيي.

- للشاب العادي: يا مليح الخصال، وحميد الفعال، وترباية الدلال. يا بنيي - بكّيت العيان، وقرّحت الجفان[2]، وحزنك هدهد الاركان. يا بنيي.

---

(١) يوسف ابراهيم يزبك، ولي من لبنان، سيرة العارف بالله الامير السيد جمال الدين عبدالله التنوخي قدس الله سره لبنان ،الطبعة الثالثة ١٩٦٠ ص ٩٢ .

(٢) العيان: الأعيان. والجفان: الاجفان.

ـ للشيخة الدرزية الفاضلة والتقية: يا أخت الرجال، ومليحة الخصال، وزينة الكمّال. يا ستي.

ـ للمرأة المتقدمة في العمر: يا أخت الرجال، وأم العيال، ومليحة الخصال. يا خويتي.

ـ للفتاة: يا زينة الابكار، وبهجة الانظار، وريحانة الأفكار. يا بنيتي.

ـ مناداة تصح لمعظم الموتى الرجال: يا صباح الشوم، صبّحتنا اليوم. اليوم ولا كل يوم. يا ...[(١)].

ان هذا الاسلوب من المناداة بطل تدريجاً حتى اختفى اليوم كلياً. ومن بقاياه التي لا زالت تستعمل من كبار السن في بعض المآتم القروية، وبخاصة عند الدروز، عبارات تقال احداها قبل البدء بالتعديد. مثل «حكم باري وعدل جاري يا ... ـ حكم الحاكم العادل يا ... ـ لا حيلة الا بأحكام الله يا ... ـ العين بصيرة واليد قصيرة يا ... ـ صح الصحيح وانقطع الرجا يا ...».

التعديد

التعديد، في لغة العرب، احصاء الشيء. والتعديد، في تقاليد المآتم ومصطلحاتها، ذكر صفات الميت وأعماله مقرونة بعبارات التحسر عليه. وهو يحصل عند مشاهدة الميت لدى قدوم المعزين والمعزيات للتعزية، وعند أخذ الميت للصلاة عليه ودفنه. وكان تعديد الرجال يعقب المناداة. وهو على كل حال نوع من المناداة.

عبارات التعديد إما متوارثة ومألوفة، وإما من ايحاء المناسبة وفيض الخاطر ونتاج العاطفة الصادقة والأسى. ومنها ما هو مشترك بين الرجال والنساء. وقد تكون أوصافاً منطبقة على الميت، أو وصفاً له مبالغاً فيه. بعضها ساذج عفوي، وبعضها الآخر، وهو على العموم من المتوارث والمألوف، جميلٌ ومقفى، فيه بلاغة وبيان، ويزداد جماله بحسن ادائه مثل: «يا سبع هدّار، وركن الديار ـ يا طاعم الجوعان، وكاسي العريان».

بعض الأموات لا يجوز تعديدهم لعلو مركزهم الديني، ولأن مهابة الموقف تفرض السكون التام وعدم رفع الصوت وعدم اعتماد المظاهر الزمنية. ومن يجوز لهم ذلك يختلف تعديدهم باختلاف شخص الميت من رجل إلى امرأة، ومن معمّر إلى طفل، ومن رجل دنيا إلى رجل دين، ومن انسان بارز إلى انسان عادي. ويختلف باختلاف أشخاص المعدّدين.

---

(١) من احدى الطرائف ان احدهم نادى ميتاً من غير عشيرته فاخطأ ولم يلفظ حرف «لا»، من جملة «اليوم ولا كل يوم»، فقال: «اليوم وكل يوم»، فعلق رجال القرية على هذا الخطأ بالقول: «فلان يريد ان يفني هذه العشيرة».

كل عبارة تعديد تبتدىء بحرف النداء «يا»، وتنتهي أيضاً به مع ذكر اسم الميت أو كنيته، أو مع لفظ نوع قرابته للمعدد مثل «بيي» و«خيي» و«خويّي»[1] و«عمي» و«خالي» و«جدي» و«خويتي»[2] و«بنيتي»[3] و«ميمتي»[4] و«ستي» و«عمتي» و«خالتي»، بالإضافة إلى كلمات أخرى مثل «سندي» و«حبيبي» و«روحي» و«حشاشة روحي» و«حشاشة كبدي».
وهذه نماذج من عبارات التعديد:

ـ للتقي: كامل الشمايل ـ تقي نقي ـ قارىء دارس.

ـ للكريم والوجيه: صاحب البيت الواسع ـ برمكي ـ حاتم طي ـ كريم سخي نخي ـ قاضي بخشيش، فكاك المشاكل ـ طاعم الجوعان، وكاسي العريان ـ مودع الامانات ـ برج عالي وانهدم ـ منصب ـ كريم اليد، كريم الاخلاق ـ بيّ اليتامى، وملبّس العرايا ـ عميل الخير والحسنات.

ـ للرجل والشاب الشجاع: بطل سبع بين الرجال ـ سبع مسلسل ـ سبع هدّار ، وركن الديار ـ سجيع (شجاع) ـ عنتر ـ أبو زيد الهلالي ـ كسّار الاعادي ـ زينة الشباب ـ قيدوم الرجال ـ حيف عَ الشباب ـ حيف باطل ـ باطل عَ الرجال ـ نسر شايب الراس ـ صقر ـ صاحب مروّة[5] الغزيرة ـ سريع الندهة.

ـ للمتزوج حديثاً وللخاطب: عريس المقابر ـ عريس البلي ـ عريس بلا عروس ـ زينة الشباب ـ شب محسّر.

ـ للفتى: شمعة وانطفا ضوّا (ضوؤها) ـ زهرة وانقطفت.

ـ للفتاة: صبية الحلا ـ ست الحسن ـ ست الملاح، وكوكب الصباح.

ـ للتقية: كاملة الشمايل ومليحة الفضايل. تقيّة نقيّة ـ مبيّضة الشاش ورافعة الراس ـ ثقيلة المنديل.

ـ للقائمة بواجباتها الدينية: صايمة ومصليّة.

ـ للمرأة الفاضلة والمحترمة: بنت العيال وأخت الرجال ـ مليحة الخصايل وحرة الشمايل ـ أم الشباب ـ جوهرة غالية ـ درة ثمينة.

ـ للوالد والوالدة: ياما فضلك علي ـ خسارتنا الكبيرة ـ يا ذلنا وتعتيرنا من بعدك.

---

(١) خويي: تصغير اخ.
(٢) خويتي: تصغير اخت.
(٣) بنيتي: تصغير ابنة.
(٤) ميمتي: الام.
(٥) مروة: المروءة.

- للابن: قرّة عيني وحشاشة كبدي - عمود ظهري وانحنى - جسر بيتي وانقطع.

- للأخ: خسارتنا الكبيرة - خسارة اللي ما بتتعوّض - حنون رهوف - قلة الحناين من بعدك - انسنا وونسنا - يا شوقنا اليك ولطلاتك.

- للعزيز الذي يوثق به: مشكى ضيمي ومودع سري.

- لمربي اخوته واخواته بعد موت أبيه: مربّي اليتامى وملبّس العرايا.

- للمعتاش وللمعمّر بيته من عمله: تعبان عَ رزق الحلال - معمّر ومثمّر - مقنّي ومجنّي - عمّرت وما سكنت.

- لمن يكون موته غير متوقع: خبرك المرعب - بعدا (بعدها) بكّيرة - بكّرت علينا.

- لمن يكون موته متوقعاً: حال السلامة له علامة.

- لأي رجل: حيف[1] - باطل[2] - حين[3] - يا غيبة الدهر عنا.

الندب

الندب، في لغة العرب، تعداد محاسن الميت، ودعاؤه بحسن الثناء. قد يترافق مع البكاء، الا أنه ليس من الضرورة ان يُقيّد به إذ غالباً ما يحصل بدونه. وهو، في تقاليد المآتم ومصطلحاتها في المناطق اللبنانية، الأناشيد التي ينشدها نادب أو نادبة وترد وراءهما جماعة دون مشاركة أهل الميت. انه ظاهرة زمنية. وقد عرفه الانسان منذ القدم، ولازم المآتم في العهود الوثنية كما عند الفينيقيين الذين كانوا يشيّعون موتاهم إلى المدافن على نياح الندّابات والأناشيد المحزنة المرافقة بأصوات القرن وأنغام الناي. ولازم المآتم بعد انتشار الأديان السماوية، وكان أهم طريقة لتذويب أحزان من تغلب العاطفة عندهم على العقل والايمان بحيث لُقّب بـ «صابون الأحزان».

والندب، والنياح، والجزع على الميت بضرب الصدور وشق الجيوب ونثر الشعور، والدعاء بالويل والثبور، أمور محرّمة في الاسلام. وبالرغم من هذا التحريم، ومن استمرار تأكيد المشايخ والائمة عليه عبر العصور، عرفت أوساط المسلمين في المقاطعات اللبنانية الندب بنسبة من القوة والازدهار تتراوح تبعاً للنشاط أو للركود الديني، ولتقيد الناس بالمفاهيم الدينية. وممن حرّم النياح والمناداة، عند الدروز، الامير السيد جمال الدين عبدالله التنوخي قدس الله سره، المتوفى سنة ٨٨٤ هـ ١٤٧٩ م.

---

(١) حيف: الجور والظلم.
(٢) باطل: نقيض الحق، وتعني الضياع والخسارة والهدر.
(٣) حين: الهلاك والمحنة.

ومما جاء عنه أنه «أمر بقطع المناداة على الأموات في الاعزية، وأمر في النساء بقطع النواح، وأوصى بالا يقام مناداة ونوح في مأتمه»[1]. لكن النوح الذي ضعف في عهد الامير السيد، ازدهر بعد ذلك في أوساط الدروز «فاشتهروا بالندب»[2].

ان تاريخ نشوء الندب بصيغته المعروفة، أي انشاد الأناشيد الحزينة بشكل جماعي، مجهول. ومن المرجح أنه نشأ عند الدروز قبل سواهم من سكان المقاطعات اللبنانية بفضل تطور في المفاهيم والعادات انطلاقاً من تكريم الأموات من الاعيان وتكريم أهلهم من خلالهم. وربما كان تطوراً للمناداة التي هي عبارات مقفاة في مدح الميت ودعائه بحسن الثناء، أو على الارجح تطوراً للحداء. فكما ينشد الرجال بشكل جماعي الاناشيد الحماسية المسماة «الحداء» في المناسبات المفرحة من قبيل الافتخار والمدح والتكريم، هكذا ينشدون، ومن القبيل نفسه، الاناشيد المحزنة المسماة «الندب» في المآتم. وقد نشأ الندب ندباً رجالياً، وبعد ذلك اقتدى النساء بالرجال فندبن.

بدأ الندب في مآتم الاعيان. ثم عمّ وشمل مآتم العامة، وغدا أهم مظاهر «تدوير عزاء» الزمنيين، بل انه كان يستمر بعد يوم الدفن ويشمل التذكارات. فطالما الندب مسموع، ولا سيما ندب النساء، طالما العزاء دائر.

كان يُندب لجميع الموتى الزمنيين ولبعض رجال الدين، باستثناء الخاملي الذكر والسيئي السيرة، وبعض القتلى الذين لم يثأر لهم، والذين قتلوا في ظروف ضعف جماعتهم، فهؤلاء ما كان الرجال يندبون لهم. وما كان يُندب للبطريرك والاسقف والكاهن القانوني، بل يُندب للكاهن المتزوج. وما كان يُندب لرجل الدين المسلم التقي أو البارز. وفي الوقت الذي ما كان يندب لشيخ العقل والتقي الدرزي، كان يُندب لبعض رجال الدين الدروز سواهما، وهذا عائد إلى الأسباب التالية: تفشي ظاهرة الندب في أوساط الدروز، واعتمادهم الندب أحد المظاهر الأساسية لتكريم الميت، وكثرة رجال الدين عندهم بحيث كانوا يشكلون نصف المجتمع أحياناً أو أكثر، وجمع الكثيرين من رجال الدين بين المركز الديني والمركز السياسي، وبين الزعامة والجودة[3].

اشتهر الدروز إذاً بالندب، وتلاهم النصارى، أكثر من سائر الفئات اللبنانية بسبب اعتمادهم له أحد اهم مظاهر تكريم الميت. وقد وفّرت اطالة عرض الجثة، وإطالة المأتم، عند الفريقين، المزيد من الوقت لإنشاده، وآلت إلى ضخامة انتاجه في مناطقهم

(١) درة التاج وسلم المعراج، وردت الاشارة اليه، ص ٥٦ .

(٢) احمد ابو سعد، قاموس المصطلحات... مرجع مذكور سابقاً، ص ١٧١ . والكاتب يذكر اشتهار طائفة الدروز بالندب ولا يذكر سواهم.

(٣) الجودة: وتلفظ بفتح الجيم، ومعناها تسلم الديانة.

عموماً، وفي جبل لبنان خصوصاً. وبالرغم من قصر فترة عرض الجثة عند السنّة والشيعة، اعتمدوا، ولا سيما في الارياف، ندب الرجال وندب النساء في المآتم، واعتمدوهما في بعض التذكارات.

يغلب على ندب الرجال طابع الرجولة والحماسة، وعلى ندب النساء طابع الشجو وعذوبة الالفاظ ورقتها، باستثناء بعض ما ينشدنه للشباب والابطال والأعيان، الذي يغلب عليه الطابع الحربي والحماسي. وجمال الندب ليس في مبناه ومعناه بقدر ما هو في ادائه وتلحينه ومسرحته. فهو لوحة فولكلورية جمالها في تنوعها وغناها، ومشاركة القوم الجماعية، ومرافقة النوبة والرقص بالسيف والترس لندب الرجال. وهذا ما جعل السياسي والأديب سعيد تقي الدين يقول: «أحب ان أسمع الندب في مأتمي».

ندب الرجال: يندب الرجال للأعيان ونسائهم، ولمعظم الموتى الزمنيين. يشكل رجال القرية سربة (مجموعة) أو أكثر، معظمها من الشبان والفتيان، يتصدرها ندّابان على الأقل من ندّابي القرية الذي يملكون أصواتاً جهورية، ويتناوبان على الندب. بعض الندابين شعراء يندبون ما يعدونه أو يرتجلونه، وبعضهم الآخر يندب ما استظهره أو كتبه مما جادت به قرائح الشعراء الذين كثيرا ما يرافقون سربة قريتهم عند الندب لتزويد الندابين بالندبات ولارتجال الندبات التي تلائم الأوضاع المستجدة، اضافة إلى ضرورة حضورهم مع وفد القرية لإداء واجب التعزية. وقد جرت العادة ان يندب ابناء كل قرية في سربتها الا إذا كانت في فترة استراحة تسمح لبعض أفرادها ان يندبوا في سرب أخرى.

يندب أهل القرية عند قدومهم وفوداً عشائرية للتعزية بفقيد من عشيرة أخرى، ويندبون طوال فترة المأتم باستثناء الليل، وباستثناء ساعات الصباح الاولى والأوقات التي تندب فيها سرب القرى الاخرى. ويندب المعزون من القرى الاخرى عند القدوم للأخذ بالخاطر. فحين يصلون بالقرب من «المحل» يحوربون ثم يندبون. فينقطع أهل المحل، أو سربة القرية التي سبقتهم، عن الندب ليفسحوا لهم مجاله الا في مآتم الأعيان حيث تندب عدة سرب، قد تتجاوز العشرة، في وقت واحد. وكان «أهل المحل» يلاقون الاعيان بالنعش اكراماً لهم فتحمله الوفود القادمة معهم، وتسير به وهي تندب إلى حيث كان موضوعاً. وقد وصف تشارلز تشرشل، الذي عاش في جبل لبنان في أواخر المنتصف الأول للقرن التاسع عشر، الندب قائلاً: «ان النادبين في مآتم زعماء الدروز يسيرون سرباً سرباً وهم يرتلون الاغاني والأشعار»[1].

---

(١) تشارلز تشرشل، جبل لبنان. عشر سنوات اقامة ١٨٤٢ ـ ١٨٥٢، ترجمة فندي الشعار، دار المروج، بيروت، لبنان ١٩٨٥، ص ٣٣.

يسير النادبون بخطى وئيدة جيئة وذهاباً، سرباً ذاهبة، وسرباً راجعة. ومع كل سربة أحد أقارب الميت. ويسيرون على السطوح المتصل بعضها ببعض، أو في الساحة، أو الفسحة التي تُعرض الجثة بالقرب منها، أو في ميدان المقاطعجي، وراء بيرق قريتهم، ووراء لاعبي السيف والترس، والنوبة. ويتخلل ندبهم حوروبات. ويحضرون من وقت إلى آخر إلى حيث تُعرض الجثة. وقد يسيرون في طرقات القرية الرئيسة يرافقهم النعش. وهذا السير في طرقات القرية لا يزال يحصل في بعض القرى حيث يُحمل التابوت وفيه الجثة يوم المأتم، ويحمل التابوت الفارغ في التذكارات.

ينشد الندّاب وقوفاً، ويردّ وراءه الردّادة وهم سائرون في معظم الأحيان. يقف النداب باتجاه أهل الفقيد أو القوم، أو باتجاه الردّادة، وينشد مطلع الندبة، فيعيده الردّادة مرة واحدة، ثم اللازمة، فيعيدها الردّادة مرة واحدة أيضاً بعده، ثم المقاطع أو الأدوار التي يتألف كل منها من أربعة مصاريع، فيعيد الردّادة بعده المصراع الثاني من كل مقطع مرتين[1]، وبعد المصراع الرابع يعودون الى اللازمة، فيقولونها مرة واحدة، وهكذا دواليك.

ولما كان الموت سبب الأحزان والمصائب، كثيراً ما يستهل النداب النادبون الندب بتوجيه اللوم والعتاب والتساؤل والتعجب اليه، ويخاطبونه باسم «سليمى». وتتردد عندهم كذلك عبارات الأسى والتأسف التالية مقرونة بحرف النداء «يا» أو بدونه: «حيف ـ باطل ـ حين». وهذه نماذج من الندب:

يا سليمى فنيتيها	الخلق عن بكرة أبيها
كلما باض الدهر بيضه	بتسرعي وبتكسريها
كلما باض الدهر بيضه[2]	بتعملي للناس غيضه
خليت هَـ الارض بيضا	تفضلي واستعمليها

❖❖❖

يا ربوع الشرق جينا	شو جرالك خبّرينا
ماد فيك عرش كسرى	او تزعزع طور سينا

❖❖❖

ضيعة الـ خسرت علمها	شاركوها في المها

(١) طريقة الندب اليوم هي عند البعض ان يعيد الردادة اللازمة فقط.
(٢) البيضة دلالة على رجل فذ يعز نظيره.

ندب النساء: كما كان في كل قرية مجموعة من الندّابين، كان فيها أيضاً مجموعة من الندّابات اللواتي يتصفن بالجرأة وقوة الشخصية، ويمتلكن صوتاً جهورياً. وكانت اقدرهن تدعى إلى القرى الأخرى لتندب فيها، فيُدفع لها أجرة أو تُعطى هدية. وكانت القديرات تُدعى إلى مآتم الأعيان لكي يظل الندب، وبعدة مجموعات، مستمراً فيها بالندبات الجميلة والألحان الشجية، وتعطى أيضاً أجرة على ذلك. وتحفظ النّدابات الندبات المتوارثة، ومنهن من يدوّنها على دفاتر، ويزودهن من يقرضون الشعر بالمزيد منها الذي يصلح للمناسبة، مع العلم ان بعضهن شاعرات ينظمن الندبات، وقد يبتدهنها أحياناً.

يبدأ ندب نساء القرية من قبل اللواتي يتجمعن بعد صرخة الموت وإتمام تجهيز الميت. ويحصل في اثناء نقله من بيته، أو من أول القرية عند وفاته خارجها، إلى مكان عرض جثته. ويتواصل طوال فترة المأتم. ولا ينقطع الا عند مشاهدة الرجال، وفي فترات قليلة من الاستراحة تكون مجالاً لتعديد النساء، وبين منتصف الليل والصباح سواء عند من يتركن الجثة للنوم،أو من يلازمنها، حيث ينفسح المجال انئذ لإنشاد التويحات والأناشيد الدينية كما عند الدروز. وتتوقف نساء القرية عن الندب عند وصول نساء القرى الأخرى نادبات. وهؤلاء يتبعن عادة اسلوب الاستئذان كما في الندبة التالية:

افـتح لنا السـيّـار والبـوّابه	مـا كنش[1] بدّي جـيـتكن ندآبه
مـا كنش بدي جـيتكن غيـر بالفـرح	انتـو قـرايبنا وعـز حـبـابي

تتناوب الندّابات الحاضرات على الندب فيندبن للميت، ولأموات قريته والقرى المنعية، وللأموات الأعيان، فيصبح المأتم مناسبة لتجديد مآتم هؤلاء لبعض الوقت، فتتذكرهم النساء من أهلهن واقربائهن، ويبكين عليهم وينحن. وقد يرافق الندب كما في جبل عامل تصفيق منسجم معه، ورقص هادىء وتلويح بالمناديل. وتندب مجموعة فقط وراء ندّابة واحدة، باستثناء مآتم الأعيان حيث تندب عدة مجموعات في وقت واحد كما تندب فيها عدة سرب من الرجال.

وطريقة انشاد ندب النساء تختلف قليلاً عن طريقة انشاد ندب الرجال؛ إذ تندب النساء حول الجثة وقوفاً على الغالب، وتنشد الندابة مطلع الندبة والمقاطع، وترد الردّادة بعدها كل بيت تنشده او البيت الاول، مع الاشارة الى ان بعض الندبات يتألف

(١) ماكنشك: ماكان.

من بيتين فقط. وهذه ندبة نسائية على وزن ندب الرجال:

عـيلتك عـيله قـويّه	رجـالهـا يا برمكيّـه
يمرق الجـوعـان ياكل	من كـفـوفك هَـ السـخـيّـه
يمرق العـريان يلبس	من طقـوم المخـمليّـه
يمرق الخـيّـال يركب	عَ الخـيـول العـربيّـه

ندبة للأمير فؤاد ارسلان الذي توفي في ١٧ آذار ١٩٣٠ :

يا ميـر فـؤاد ويا بحر طوفاني	ويا مـهـرتك تورد على الليطاني
ويا مهرتك ترعى الخزام على الندى	ويا قـهـوتك مـا دقّـهـا سلطاني

ابطال الندب

بطل ندب الرجال في أكثر القرى. وبات يقتصر في بعض الأوساط، التي لا زالت تعتمده، على مآتم الشباب والأعيان وأصحاب النفوذ. وتحول في الكثير من المآتم من ندابي القرى إلى شعراء الزجل الذين يتقاضون مبالغ من المال تتراوح تبعاً لشهرتهم.

من أسباب أبطال ندب الرجال تعميمه على الاكثرية الساحقة من مآتم الرجال بمن في ذلك الذين لا يستحقونه، مما أدى إلى انقسام في القرى حول هذه الناحية، وإلى إبطال عادات أخرى مثل حمل البيرق وعزف النوبة. وعلى سبيل المثال نذكر ان آل عبد الصمد في عماطور (احدى بلدات الشوف) أرادوا الندب للجميع، فيما آثر آل أبو شقرا الاستمرار في الندب لمن يستحقون فقط. فكان هذا التباين في الرأي سبباً في إبطال الندب في البلدة؛ إذ بطل عند آل أبو شقرا أولاً، ثم عند آل عبد الصمد، فتوقف حمل البيرق، وتوقفت النوبة.

ومن أسباب إبطال ندب الرجال المغالاة فيه؛ إذ كان بعض الموتى يوصفون بما لا يستحقون، فيوصف البخيل بالكرم، والجبان بالشجاعة، والعادي بسيد القوم. ومن الاسباب أيضاً إحجام بعض الشعراء عن نظم الندبات، وإحجام بعض الندابين (الردادة) عن الانشاد، بسبب تعميم الندب على الجميع. ومنها أيضاً النزاعات التي كانت تنشب بين الندابين (الردادة) بسبب التنافس على السير في رأس السرية أو وسطها؛ إذ كان الكثيرون يأبون السير في آخرها. يضاف إلى ذلك النزاعات التي كانت تنشب بين السرب حول الترتيب والأولوية.

بعد هذا التراجع الملحوظ لندب الرجال، وبعد ان بطل في أكثرية الأماكن تباعاً،

نشهد اليوم عودة اليه بفضل شعراء الزجل الذين يُدعون للندب في المآتم، ولرثاء الموتى، مقابل أجرة تصل عند المشهورين منهم إلى أكثر من مليوني ليرة. أما الردادة، فهم شباب القرية. وأسباب تلك العودة تكمن في الاتجاه القوي عند الناس للعودة إلى التراث، والندب جانب منه، كما تكمن في رغبتهم في تكريم موتاهم البارزين والشباب والشهداء. واقتصر الندب مؤخراً على سربة واحدة تندب عند مكبر الصوت، وتروح وتجيء في ساحة المأتم نادبة حيناً أمام أهل الميت من الرجال، وحيناً آخر أمامَ الميت.

وبطل ندب النساء، في الكثير من الأوساط التي كانت تعتمده، بعد ندب الرجال، بسبب التطور، وإحجام الأجيال الفتيّة عن الندب وعن الرد وراء الندّابات. وبات يقتصر في أشد الأوساط حفاظاً عليه (الدروز) على الرعيل القديم والمخضرم من النساء. ومما ساهم في ابطاله عند الدروز تحريم مشايخهم الدينيين له في الخمسينات من القرن العشرين بعد ان ساد لزمن طويل واعتمد في مآتم بعض رجال الدين أنفسهم.

حلّت الأناشيد الدينية وسماع تلاوة الآيات الدينية مكان الندب في القرى التي ألغته. وصارت هذه الاناشيد تأخذ معظم وقت المأتم في القرى التي لم تلغِ الندب بعد. وبعض القرى التي لا تزال تعتمده تُحضر منشدة مختصة بمدح الانبياء والأولياء، أو ندابة مختصة بالندب الزمني، بسبب خلوها ممن يقوم بهذه المهمة على الوجه المطلوب[1].

الحورية

الحورية في الاصل انشاد نشيد الحرب الحماسي المسمّى «حوروبة». ثم اعتُمدت في الأعراس والمآتم فصار الناس يحوربون فيهما. وأناشيدها في الأعراس مفرحة وحماسية، وفي المآتم محزنة.

تُنشَد الحوروبات في مآتم الرجال الزمنيين فقط، وأكثر ما تنشَد قبل الندب لافتتاحه، وخلاله كفواصل بين الندبات، وعند رأس الميت. يقف المحورب إلى جانب حامل البيرق، ويضع يده على خده، وينشد بصوت شجي ممدود حوروبة وينهيها بقول «الله يرحمه»، فيبدأ الندب أو يواصَل. ويقف محوربان عند المشاهدة عند رأس الميت: واحد عن يمينه، وآخر عن يساره، فينشد كل منهما حوروبة بحسب طريقة الانشاد المذكورة.

(١) للمزيد من المعلومات عن الندب ونماذجه، انظر مقالتنا بعنوان «تراث الموحدين الدروز. عادات وتقاليد» في مجلة الضحى، عدد نيسان ١٩٩٣، ص ٦١ - ٦٤ .

وبعد انتهاء الثاني يبدأ التعديد، أو يقال: «الله يرحمه». وهذه نماذج من الحوروبات:

يا جــفت مــالكش[1] نقــال خلّي الثــريا فــريده
يا حــيف عَ الســبع يا حــيف يسكن بلاد البــعــيــده

❖❖❖

الرمح عــيّــر الســيف والظعــون[2] صــبّح مــســافــر
ومـــا بــرك الا جــمــلــنـا

❖❖❖

لا تقلمــوا الخــيل خلّوا الخــيل مطلوقــا ولا تغــربّوا الشــمس خلّوا الشــمس بشروقــا
مــا غــاب بعــدو البطل جــوّال بالســاحــات وبعــدا عَ ذكــرو العــدا بتــعــود مــســحــوقــا

النياح

إذا كـان الحـزن الصـامت، والبكاء دون الصـراخ ودون رفع الصـوت، حـال المؤمنين المتمسكين بأهداب الدين وأصحاب العزائم القوية الذين لا يقولون ولا يفعلون الا ما يرضي الله وما لا يعد اعتراضاً على مشيئته، فإنه ليس حال سواهم ازاء جميع حالات الموت، وبخاصة أولئك الذين تحرق جمرة الحزن قلوبهم كالأم التي تتمنى أن تكون هي الميتة بدلاً من ابنها، والتي تنوح عليه واصفة اياه بأنه حشاشة[3] الروح وحشاشة الكبد.

النياح والنواح والتنويح والنياحة والمناحة ألفاظ ذات معنى واحد هو رفع الصوت الشجي بالبكاء. والنياح في مصطلحات المآتم أناشيد وجدانية تصف الميت وتمتدحه وتصوّر الأسى والحزن عليه والفراغ الذي تركه، تنشدها احدى نساء الميت وقريباته بصوت شجي دون ان تشاركها النساء الحاضرات أو ترد وراءها. وقد تنشدها أحياناً، وبالطريقة نفسها، احدى النساء التي تمتلك صوتاً جميلاً. فالنياح هو للنساء فيما الحوربة والمناداة للرجال. وهذا النوع من النياح لم يكن معروفاً في المقاطعات اللبنانية في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد بدليل احدى الروايات التي تقول عن استقدام نوّاحات من الشام في تلك الفترة.

يحصل النياح في مآتم الزمنيين لا في مآتم رجال الدين، الا في حالات استثنائية. وزمانه هو في اثناء توقف الندب، وبخاصة في اثناء الليل. وأناشيده تُنظم بالعامية،

(١) مالكش: ليس لك.
(٢) الظعون: البعير يُحمل عليه.
(٣) الحشاشة: روح القلب ورمق حياة النفس.

وتُسمى «تنويحات»، وتسمى أيضاً «فراقيات» إذا كانت أبياتاً من العتابا. ومعظم ما يُنشد هو من النوع الأول، وأقله من النوع الثاني.

تنويحة نساء عامة:

تأكتب اليكم كتابه عَ ورق باقي[1] ... ومن كثر شوقي اليكم ضاقت خلاقي

اول سطر يا شوقي اليكم ... وثاني سطر ما مَر[2] الفراق

❖❖❖

تأكتب اليكم كتابه عَ ورق بشلي[3] ... ايدي تكتب ودمعي عَ الورق يشلي

وان كان يا(فلان) ما بتذكر العشره ... نهر المرق[4] بيناتنا لسبدً مايجري

❖❖❖

تأكتب اليكم كتابه عَ ورق ما تمَ ... والقلب عَ غيابكم يانغصتي ماتم[5]

وان كان جمعنا وجمعكم ما عاد يلتم ... تاظل ابكي لتجري السواقي دم

❖❖❖

تأكتب اليكم كتابه والقلب عَ نار ... ودمعات تنزل عَ خدي من عيوني غزار

بوجودكم كان السعد عَ بيتنا لافي ... وبغيابكم يا حسرتي عتّمت هـ الدار

الأناشيد الدينية

ليست أوقات المآتم كلها ندباً ونياحاً، بل كثيراً ما يتخللها آيات دينية، او تحلُّ مكانها في مآتم رجال الدين. وبالإضافة إلى ذلك هناك أناشيد دينية عند جميع الطوائف تأخذ وقتاً أطول في مآتم الروحيين من مآتم الزمنيين. من هذه الأناشيد مثلاً قصيدة نهج البردة عند المسلمين التي كان رجال الدين الدروز يستقبلون بها اخوانهم المعزين، فيما يستقبل الزمنيون بالحداء الزمنيين المعزين القادمين بالحداء أيضاً.

ومن الأناشيد الدينية أيضاً أناشيد النساء المجتمعات حول الميت، وهي تحصل بديلاً عن الندب، أو في اثناء توقفه، وبخاصة في الليل. بعض هذه الأناشيد باللغة الفصحى، وبعضها الآخر بالعامية. وهي عبارة عن حكم ومواعظ وابتهالات وتسابيح وأدعية.

(١) باقي: نوع من البقول تأكله الحيوانات.
(٢) ما مر: ما امرّ.
(٣) بشلي: نوع من البقول ياكل الانسانُ حبه.
(٤) المرق: الذي مرق، اي الذي مرّ.
(٥) ماتم: ماتم.

انشودة دينية نسائية عند السنّة:

الـلّـه... الـلّـه   لا الـه الا الله

الـلّـه ... الـلّـه   يا محمد يا نبينا

❖❖❖

دليل الروح وصل بيَ   الى مكة الحجازيّه

متى عيني تراك يا أحمد   أبا القاسم شفع بيَ

محمد زين وذكرو زين   محمد يا كحيل العين

ومما ينشد عند الدروز من أناشيد دينية القصيدة التالية[1]:

يا من يخبّرني عن جيرة رحلوا   أين استقاموا وأي الارض قد نزلوا

وأي أرض أرادوا يسكنون بها   وأي ربع بها من ربعنا بدلوا

يا جيرة أورثوا قلبي الهموم وقد   كسيت ثوباً لنا بفراقهم غزلوا

يا من رموا بسهام البين افئدتي   يا من بهجرانهم للقلب قد شغلوا

غبتم فغاب الهنا والعز بعدكم   وغاب رشدي وعقلي مسّه الخبل

يا حسرتاه عليكم آه يا أسفي   واحيلتي خاب مني فيكم الامل

ما كان احسن أيامي بجيرتكم   والسعد خادمنا والعز مكتمل

ما كان أطيب أوقاتي بقربكم   والوقت صافٍ لنا والهم منعزل

ما كان أجملنا والدار تجمعنا   والصفو متصل والهم منفصل

كيف المعاش وما التدبير بعدكم   كيف احتمالي وكيف الرأي والعمل

وقد كسيت الضنى من فرط وحشتكم   حتى برت هيكلي الاسقام والعلل

تالله من يوم غبتم عن دياركم   لا زال دمعي على الخدين ينهمل

يا حسرتي هل نرى الأحباب قد رجعوا   الى الديار التي منها قد ارتحلوا

وتأنس الدار فيهم بعد وحشتها   ويحضر الأنس فيها اذ بها نزلوا

هيهات هذا محال ان يصير لنا   وليس من حولنا ذا الحال يحتمل

مني سلام على الأحباب ما طلعت   شمس النهار وما الاوداق تنهمل

(١) القصيدة هي للشيخ علي فارس رضي الله عنه (١١٢٠ - ١١٦٧ هـ ١٧٠٨ - ١٧٥٤ م) من مواليد يركا احدى قرى الجليل في فلسطين. وبها يتوجه شوقاً إلى الله والائمة.

الرقص والحداء في مآتم الأعيان والشباب

كانت مآتم الأعيان، والبارزين الذين بكّروا في الرحيل، والخاطبين والعرسان، والشباب النابهين، والأبطال الشهداء، تتحول إلى ما يشبه المهرجانات والأعراس؛ إذ لا يُكتفى بمظاهر تدوير العزاء المألوفة كالندب والحوربة والمناداة والتعديد، بل يُعمد أيضاً إلى الحداء والزغردة والرقص وعزف النوبة، وهي مظاهر لا تزال ملحوظة إلى اليوم.

يرقص الرجال في مكان تجمعهم على أنغام الحداء وعزف النوبة، ويرقصون حول فرس الميت الشاب المقلومة عند اركابه عليها. وترقص النساء حول الجثة باستثناء نساء الدروز اللواتي لا يقمن بأي نوع من الرقص في المآتم. ويرقص الرجال والنساء عند نقل الجثمان إلى مسقط الرأس، أو إلى المكان الذي سيُعرض فيه.

وإذا كان الشاب خاطباً، أو في سن الزواج، يتحول مأتمه إلى عرس يرتفع فيه الحداء، وتضج عواصف الزغاريد، الميت فيه العريس، والنعش أو التابوت عروسه. وممن يرقص حوله والدته واخواته، ويرقصن بحركات مؤثرة وبشعور منثورة والدموع تسيل على خدودهن، مما يضاعف الحزن والأسى عند المشاهدين.

يُرقص بأحد الأدوات التي كان يستعملها الميت، ولا سيما بأحد اسلحته. ورقص النساء بالسيف كان متبعاً عند النصارى، ومتبعاً عند الشيعة في جبل عامل حيث ترقص امرأتان داخل الحلقة بمواجهة بعضهما بعضاً، بدلاً من التلويح بثياب الميت. ويُرقص بصورة الميت. وحين يبدأ الرقص بصورته يحضر أهل القرية، كما عند نصارى شمال لبنان، صور موتاهم الشباب والمشهورين، الذين توفوا منذ زمن ليس ببعيد، ويرقصون بها، فيصبح المأتم الجاري تذكاراً لهم.

ويُرقّص التابوت أو النعش في مآتم الأعيان والوجهاء والفرسان والشباب وسائر النافذين والبارزين في مجتمعهم. وهذه عادة نشأت على الارجح عند النصارى وانتقلت الى بعض مساكنيهم. ويرقّص الرجال التابوت على شكل دائري، أو بهزه من الامام إلى الوراء. وفي هذه الحركات استعادة لرقص الميت ودورانه في أرض المعركة، وفيها أيضاً تحدٍ للموت والخوف.

والرقص البارز في المآتم الرقص بالسيف والترس الذي هو أحد طوابع المجتمع الحربي. وهو في الأصل تمثيل لمبارزة بين فارسين بالسيف تحول إلى لعبة لها مبادئها وقواعدها، اسمها «لعب السيف والترس» أو «لعب الحكم». وكان الرقص بالسيف يؤدى أيضاً في اثناء الذهاب إلى المعارك، وفي الاحتفالات والأعراس والاجتماعات الحاشدة.

الا انه يجري في المآتم بدون حكم، ويتم بتؤدة وهدوء، وبما يبعث على التأثر، ولا ينادى فيه كما في سائر المناسبات بـ «الصحايف». وهو يجري عند نقل الجثمان، وعند قدوم المعزين، وأمام سرب الندب حيث يتقدمهم الراقصون بالسيف. وأفضل اداءاته، وأبلغها تأثيراً، تلك التي يقوم بها الراقصون متوسطين عازفي النوبة والنادبين، موازنين حركاتهم مع الحان هؤلاء وأنغام أولئك.

حداء أنشد بطريقة مؤثرة، ورُقص عليه بالسيف والترس، في مأتم علي جنبلاط في المختارة، من نظم شاكر نعمان أبو شقرا:

مين كان جدّو بشير والبيك السعيد	**نفـــديه بالأرواح تَ يسلم علي**

حداء أهل بعقلين في مأتم نديم يوسف حماده، الذي توفي عازباً، عند اركابه فرسه المقلومة وسط الزغردة:

عنتـــر علي بظهـــر الفـــرس	**يا ست عـــــبلـه[1] زلغطـي**

حداء أنشد بطريقة حماسية، ورُقص عليه، في مأتم أديب البعيني في مزرعة الشوف:

يا زينة الشبّـان يا سبع الرجـال	**لولا يمينك ما أخذنا الاستقلال[2]**

حداء أنشد عند تشييع أحد الشهداء:

البـيـعـيش يقـضي عَ العـدا	**البـيـمـوت الله يرحـمـو**

اطلاق النار

اطلاق النار من مظاهر المجتمع المصطبغ بالطابع الحربي، وإحدى وسائل تعبيره عن الفرح والابتهاج والحماسة والحزن، وخلقها في آن. وهو من عاداتنا في الماضي، ومن عاداتنا في الحاضر التي لا تزال ظاهرة عند معظم الفئات. كما أنه من وسائل تكريم الأموات على الصعيدين الشعبي والرسمي كإطلاق احدى وعشرين طلقة عند دفن رجال الدولة البارزين. وقد اعتُمد لتكريم رؤساء الدول وعظمائها عند استقبالهم في الدول الاخرى.

ان اطلاق النيران هو في مآتم الأعيان والوجهاء والشباب تكريم لهم، وتعبير عن

(١) عبله: والدة المتوفى نديم يوسف حماده.

(٢) اشارة إلى تسلم اديب لقيادة الحرس الوطني الميدانية في حكومة بشامون وبطولته في اثناء التصدي للفرنسيين الذين حاولوا اقتحام بشامون واعتقال الحكومة الوطنية، وذلك في تشرين الثاني ١٩٤٣ .

الحزن عليهم وعن الغضب من الموت والتحدي له. وهو كذلك عند البعض في مآتم القتلى، بالاضافة إلى التعبير عن الاستنكار لقتلهم، والتهديد للجاني والخصم بأخذ الثأر، بينما بعض الأوساط العشائرية لا تطلق النيران في مآتم القتلى، ولا تطلقها الا بعد الأخذ بالثأر.

كان بعض رجال القرية يطلقون النار عند وصولهم إلى المأتم المقام في قريتهم، وعند مباشرتهم الحداء. وكانت وفود المعزّين من سائر القرى تضم في صفوفها عدداً كبيراً من حاملي الغدّارات والمسدسات والبنادق الحربية، وتصل إلى المأتم بالحداء وإطلاق النار.

من عادات الماضي أن يتخلل فترات الندب عراضة، أو أكثر. والعراضة هي وقوف مجموعة من المسلحين صفاً، أو صفين متقابلين، واطلاقهم العيارات النارية دفعة واحدة. أما العراضة الكبرى، فكانت تحصل عند الدفن. وعدد المرات التي تحصل فيها العراضة وغزارة نيرانها مرتبطان بمنزلة الميت، وبالمناسبة التي حصل فيها موته، وبالظروف الامنية والسياسية. وكانت العراضة تحصل بانتظام عفوي دون ارباك المعزّين، ودون الاخلال بقواعد الآداب المتبعة عند الصلاة. وكان الأعيان يقدّمون للمسلحين كميات من البارود أو الرصاص للقيام بالعراضات في مآتمهم، ويعوّضون عليهم في نهاية المأتم ما استهلكوه من ذخيرتهم الخاصة.

كانت السلطة تجرّد الاهلين من السلاح من حين إلى آخر، وتمنع حمله واستعماله في المناسبات، فتنجح في بعض المناطق أو تنجح نسبياً، وتفشل في مناطق أخرى. وقد أصدرت أوامر كثيرة تمنع اطلاق النار منها أمر الامير بشير الشهابي الثاني في المنتصف الاول للقرن التاسع عشر، وأمر والي صيدا سنة ١٨٤٩، ومنها أوامر كثيرة تمنع حمل السلاح وإطلاق النيران والصيد ابتداءً من عهد المتصرفية، مروراً بعهد الانتداب الفرنسي، وانتهاء بعهد الاستقلال. الا ان هذه الأوامر ما كانت دائماً تنفّذ بصرامة، وما كانت تتغلغل إلى أعماق المناطق الجبلية والنائية والمتصفة بقوة العصبية العشائرية.

وبعد ان تراجعت عادة اطلاق النار بعض الشيء بفضل الوعي والتطور واشتداد ساعد السلطة وسيادة فترات السلام والهدوء، عادت إلى الظهور بشدة أكثر من ذي قبل في الحوادث اللبنانية الأخيرة ابتداءً من سنة ١٩٧٥ بسبب كثرة الاسلحة على مختلف أنواعها بين أيادي الاهلين، ولا سيما بين أيادي عناصر الميليشيات، وبسبب اضطراب حبل الأمن وانهيار الدولة وتوقف عمل القوات الامنية.

لم يعد يُكتفى خلال الحوادث اللبنانية بإطلاق العدد المألوف من العيارات النارية

عند تشييع القتلى المعتبرين شهداء الأحزاب والحركات والمنظمات والتنظيمات المسلحة، بل تعدى ذلك إلى اطلاق النار من مختلف الاسلحة بما في ذلك بعض الاسلحة الثقيلة. ويبدأ هذا مع بداية المأتم، ويغزر عند الدفن. وكثيراً ما رأيناه يؤخر بكثافته وطول مدته مباشرة رجال الدين بالصلاة على الميت، ويمس قداسة الصلاة التي يجب ان يسود قيامها واجراءها السكون التام مما كان يؤدي إلى اضعاف حضور رجال الدين، وانصراف الكثيرين منهم ومن المشيعين قبل انتهاء المأتم.

ان اطلاق العيارات النارية تعبير خاطىء عن الفرح والحزن بالإضافة إلى أخطاره المحتملة. وكثيراً ما حوّل الفرح إلى حزن، والعرس إلى مأتم، والمأتم إلى مأتمين. انه لا يرتبط بالمفاهيم والعادات وبمدى الوعي والتطور فقط، بل يرتبط أيضاً بالمناخ السياسي والأمني والاستقرار، وكثرة السلاح بيد الأهالي وقلته، وبمدى قدرة الدولة على فرض سلطتها وتطبيق القوانين. لذا نشهد اليوم تراجعاً فيه مع طوي صفحة الأحداث، وجمع السلاح وحصر حمله واستعماله وملاحقة حامليه، ومع الوعي والتطور، على أمل أن ينتفي اعتماده على الصعيد الشعبي كمظهر من مظاهر تكريم الميت، والتعبير عن الحزن، والتعبير عن الفرح، ويصبح من ذكريات الماضي.

عرقبة الخيل

لفظة «عرقبة» مشتقة من العرقوب الذي هو، في لغة العرب، «ملتقى الوظيفين والساقين من مآخرهما من العصب». وجملة «عرقب الفرس» تعني: قطع العصب من عرقها وتركها تموت.

تعود جذور عرقبة الخيل وقلمها إلى الجاهلية، «فقد كانت العرب تعقل إلى جانب قبر الميت، إذا دفن، ناقة، وتجعل عليه برذعة، أوحشية، يسمونها البلية، وقد ضربوا بذلك أمثالهم، وذكره خطباؤهم في خطبهم، فقالوا: البلايا على الولايا»[1]. وكان العرب في الجاهلية أيضاً يعقرون عند قبر الرجل الجواد ناقة أو بقرة أو شاة ويقولون: نجازيه على فعله؛ لأنه كان يعقر من ماشيته ويطعم الضيوف. ونحن نعقرها عند قبره حتى يأكل منها الطير والسباع، فيكون مطعماً بعد مماته كما كان مطعماً في حياته. ومنهم من ذهب إلى أن عقر راحلة الميت عند قبره يحشره في القيامة راكباً، ومن لم يُعقر عند قبره حشر راجلاً.

نهى الاسلام عن عقر المواشي عند قبر الأموات، فقال الرسول ﷺ: «لا عقر في

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، مصدر مذكور سابقاً، جـ ٣ ص ١٤١ .

الاسلام»[1]. بيد ان العرقبة التي هي من فعل الجاهلية لم تبطل كلياً، بل استمرت عند المسلمين في المناطق اللبنانية كما عند النصارى، فكان أهل الميت من الأعيان والفرسان والشباب النابهين يعرقبون فرسه، فيربطون أحد قوادمها، او يربطون يديها، ويتركونها بدون استخدام حتى تموت. وهم يفعلون ذلك تكريماً له من ناحية، وتجنباً لأن يركب أحد غيره فرسه من ناحية أخرى. فالخيل في الماضي رمز إلى العز بميزاتها وفوائدها واقترانها بالثروة والمجد والجاه. ومن هنا التعبير الشعبي التالي: «الخيل عز». وقد تحول فن ركوب الخيل (الفروسية) عند العرب إلى سلوك مثالي للرجال يتمثل بمجموعة من الفضائل هي البطولة والاقدام والشجاعة والتضحية والمعروف والكرم والاباء والشهامة، وتحول عند الاوروبيين في القرون الوسطى إلى نظام اخلاقي.

لا تزال عرقبة الخيل ظاهرة من مظاهر مآتم الأعيان البارزين في المجتمعات العشائرية، وان تكن ظاهرة قليلة الحدوث، فابناء هذه المجتمعات، كما في بعلبك والهرمل وعكار، لا يزالون يربون الخيل ويتقنون الفروسية. وآخر من عُرقبت له الخيل، على حد علمنا، الوزير والنائب ماجد صبري حماده المتوفى في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٩٤ في ريعان شبابه، وهو من أسرة اشتهرت بالفروسية وبتربية الخيل، وكان فارساً يهوى ركوب الخيل.

لقد رُبطت فرس ماجد حماده بسلسلة من حديد بشكل يسمح لها بالحركة، وتُركت بدون سرج. ومن الأعراف عند آل حماده ترك الفرس المعرقبة على هذه الحال حتى تموت، والامتناع عن امتطائها. واذا ركبها احد من آل حماده يُلزم بالزواج من زوجة المتوفى اذا رضي بذلك ورضيت الزوجة. واذا لم يرضَ احدهما بالزواج يُنفى راكب الفرس. كما ينفى حكماً من يركبها من غير آل حماده.

قلم الخيل

عُرفت عادة عرقبة الخيل عند نخبة الأعيان. ونشأت إلى جانبها، أو بديلاً عنها، عند معظم الأعيان عادة قلم الخيل. ولفظة «قلّم» مشتقة من فعل قَلَمَ بمعنى قلّم أي قطع، فيقال عن الضعيف: «مقلوم الظفر». وجاء في الحديث ان الرسول ﷺ اجتاز بنسوة فقال: اظنكن مقلّمات، أي ليس عليكن حافظ، والحافظ هو الزوج. والمرأة المقلّمة هي الايّم، والكتيبة المقلّمة هي الشاكية السلاح، والخيل المقلّمة هي التي فقدت فرسانها. وقلّم الخيل يُعرف باسم آخر أكثر شيوعاً عند الناس هو سرج الخيل، أو تسريج الخيل.

---

(١) رواه احمد وابو داود.

وقلْم الخيل في المآتم هو اظهارها بمظهر المتأثرة الحزينة على موت فرسانها. وهو يُستعمل عند موت علية القوم وأبطالهم في اطار تكريمهم واستعادة صور من حياتهم في مآتمهم وتذكاراتهم؛ إذ كان يُرقص بسيف الميت منهم، ويوضع إلى جانبه أحد اسلحته، ويُقلم جواده أو عدة جياد للدلالة على عزه ومجده وفروسيته وفضائله، ولكي تشارك الخيل الموصوفة بـ «العز» في الحزن والتأثر عليه.

جاء في كتاب «لبنان. مباحث علمية واجتماعية» ما يلي: «يجوز قلم الخيل لشيخ العقل عند الدروز، ولا يجوز لرؤساء الدين والكهنة عند النصارى»[1]. وهذا الجواز عند الدروز هو من قبيل تكريم شيخ العقل وإظهار الحزن وإعلان الحداد عليه، بحسب العادات المتبعة آنذاك.

إن الامير السيد وبعض شيوخ العقل كانوا من الأعيان. وهنا يختلط تكريمهم بقلم الخيل لهم كشيوخ عقل مع تكريمهم كشيوخ زمنيين. واننا نرجح تكريم شيخ العقل، أياً كان نسبه، بقلم الخيل له. ومما يرجّح ذلك ان الشيعة في جبل عامل كانوا يقلمون الخيل للعلماء النابهين، ويضعون عليها البستهم «ويضعون العمامة على قربوس السرج وإلى جانبها مصحف مغلق ومعلق بازاء العمامة»[2]. ومن المرجح أيضاً ابطال عادة قلم الخيل لشيوخ العقل قبل ابطالها عند الأعيان الزمنيين، لأنها لا تتلاءم مع ورعهم وتقواهم ومبادىء الدين.

يتراوح عدد الجياد التي تُقلم بين واحد وستة بحسب منزلة الميت. وكان يتم ذلك بلجمها، وبوضع بعض أجمل ملابس الميت وأسلحته على سروجها المغطاة بقماش أسود، وكثيراً ما يوضع على سرجها سيفان متقاطعان إذا لم يمتطها سوّاسها حاملاً كل منهم سيفاً مسلولاً. وكان قلم الخيل يستمر عند البعض اربعين يوماً.

وتقاد الجياد من قبل سواسها، أو بعض حاشية الميت، الذين يأخذون المقود بيسراهم، ويمسكون السيوف بيمناهم. ويقف على جانبي كل جواد رجلان بيد كل منهما سيف مسلول فوق ظهر الجواد. ويطارَد الجواد ويضرَب، ويطاف به حول البيت، أو على جوانب الساحة. ومنهم من يشرك الخيل المقلّمة في التأثر والبكاء، فيكحل عيونها بالفلفل فترسل الدمع، وتمد اعناقها بشكل يوحي وكأنها حزينة تبكي. ومن وجوه قلم الخيل اركاب الميت على فرسه وسط الندب والحوربة، أو وسط الحداء والزغردة.

من العادات ملاقاة أهل المحل للأعيان، عند قدومهم للتعزية، بالجياد المقلومة

(١) لبنان. مباحث علمية...، مصدر مذكور سابقاً، جـ ١ ص ١٨٣.
(٢) علي الزين، العادات والتقاليد...، مرجع مذكور سابقاً، ص ١٥١.

وبالمحمل ليسلموها لهم احتراماً وتقديراً. وكان عدم تسليم الجياد المقلمة للسير بها، والمحمل لحمل الميت، اساءة إلى الأعيان الوافدين للتعزية تؤدي إلى النزاعات. وهذا ما حصل في مأتم الامير موسى منصور الشهابي في الحدث سنة ١٨٠٧ حين رفض أحد حاشية الامراء الشهابيين تسليم أحد الافراس المقلومة إلى مرافقي الامراء الارسلانيين، فأدى هذا إلى نزاع بين رجال الامراء الارسلانيين ورجال الامراء الشهابيين تطور إلى نزاع بين الامراء أنفسهم(١).

ان مشاهدة الخيول الملجومة، والموشحة بالسواد، والمتأثرة الباكية، وإلى جانبها السيوف المسلولة والرماح المتكية، تثير قرائح المحوربين والنادبين الذين يسيرون وراءها، فيبتدهون في وصفها الحوروبات والندبات المؤثرة، أو يعدّونها مسبقاً. وهذه احدى الندبات الجميلة التي تصوّر قلم الخيل تصويراً رائعاً.

السيف يشكي الرمح متكي ... المهر يبكي عَ غيابك

بعد أبطال عادة قلم الخيل بقي مدلولها حياً في أذهان الناس والتعابير الشعبية؛ اذ يقال: «فلان لن يقلموا له الخيل»، أي لن يلقى تكريم العظماء، ولن يأخذ زيادة عما يستأهل من تكريم عادي.

---

(٢) انظر عن هذا النزاع طنّوس الشدياق، كتاب اخبار الأعيان في جبل لبنان، تحقيق الدكتور فؤاد افرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٠، جـ ٢ ص ٣٨٥.

الفصل الثالث:

التشييع. الصلاة على الجنازة. الدفن

نقل الميت للصلاة عليه ودفنه

يُنقل الميت، عند السنّة والشيعة، الى حيث يُصلى عليه، بعد غسله وتكفينه. ويدعو غاسلوه ومكفنوه أهله لتوديعه الوداع الاخير. ويُنقل عند النصارى والدروز بعد عرض جثته وتدوير عزائه. وأولى الناس بوضعه في النعش أو التابوت غاسلوه وأقاربه. وأولى الناس بوضع المرأة فيهما محرمها، ومن كان يحل له النظر اليها في حياتها. الا ان رجال الدين لا يفعلون ذلك.

وبعد ان أُعتمد التابوت لنقل الميت، واعتمده النصارى والدروز لدفن الميت فيه، نشأ مصطلح جديد من مصطلحات المآتم هو «التوبتة». و«التوبتة» لفظة عامية محدثة مشتقة من كلمة «التابوت». وقد اشتقت من هذه الكلمة أيضاً كلمة عامية أخرى هي فعل «توبت» فيُقال: «توبتوا الميت»، أي وضعوه في التابوت لنقله الى حيث يُصلى عليه ويُدفن. وتقول الأم لابنها: «ان شاء الله تتوبتني»، أي ان شاء الله تقبرني.

كان يصادف وجود قسم من المعزين في البيوت عند حلول موعد الصلاة والدفن لتناول الطعام، أو للاستراحة بسبب عدم وجود مكان واسع يتسع لجميع المشيعين كما هو الحال اليوم، لذا كان من الضروري اعلامهم بعزم أهل المحل على الدفن، فيدور عدة اشخاص على البيوت، ويعلمونهم بالقول: «بدهم يقيموا على الدفن» أو «عزموا على الدفن» أو «تفضلوا على الدفن». وكان جائزاً، ولا يزال، تأخير موعد الصلاة والدفن إذا قضت الضرورة بذلك كانتظار وصول أحد اهل الفقيد من مكان بعيد أو من المهجر.

بعد إعلام النساء، بعزم الرجال على القدوم الى التوبتة، يتوقف ندبهن. ويسير أهل الميت في طليعة الناس، كبيرهم أولاً فالأقربون بالتسلسل، كما يسير معهم عميد

العشيرة أو الفخذ، ويتبعهم سائر أهل المحل مع قسم من المعزين، فينادون ويعددون، ويحيطون بالجثة من كل الجهات بعد ان تبتعد عنها النساء باكيات مولولات.

وبما ان لحظة الوداع الأخيرة هي الاصعب في المشاهدات، فإن الضجة التي ترافقها هي الأقوى بين ضجات المشاهدات بما في ذلك صرخة الموت؛ لأن محدثيها أكثر بكثير من محدثي هذه الصرخة. ومما يحصل فيها ممانعة نساء أهل الميت ثم ممانعة رجالهم عن الابتعاد عن الميت والتوقف عن الانكباب عليه، وممانعتهم في افساح المجال لوضعه في النعش أو التابوت.

وكثيراً ما يضرب أهل الميت التابوت أو النعش محاولين تحطيمه وكأنهم يحاولون بذلك ضرب القدر وتحدي الموت، وكثيراً أيضاً ما يحولون دون تحرك النعش أو التابوت بعد وضع الميت فيه، وبعضهم يقع مغمياً عليه من الحزن والانفعال والاعياء. وفي هذه المرحلة التي يبلغ فيها التأثر مداه تغلب الصرخات والتوجعات والآهات والبكاء المتقطع والأنين المتواصل ولفظ اسم الميت وكلمات «ياعمي وياخيي» الخ... على عبارات التعديد. وبعد جهد جهيد يتمكن الحاضرون من إبعاد أهل الفقيد وأقربائه وهم يشددون عزائمهم المنهارة، ويتأبطون أذرعهم لمساعدتهم على حفظ توازنهم وعدم الوقوع.

هذه المظاهر المرافقة للتوبتة، والمذكورة أعلاه، لم تزل حاضرة في معظم مآتم القرى، وان بنسبة أخف من الماضي، مع تعديل في صيغة المناداة والتعديد.

ويشق النعش أو التابوت طريقه بصعوبة الى الخارج، وتلحق به بعض النساء صارخات مولولات الى مدخل الدار. ومن العادات مرور ارملة الميت الحامل حديثاً تحت النعش ـ والنصرانية تمر تحته ثلاث مرات ـ لإشعار الجميع انها حامل من زوجها منعاً للظنون السيئة في المستقبل، ولتأجيل توزيع الميراث الى حين وضع الطفل. وهذه العادة لا تزال سارية عند مسلمي ريف عكار. ومن العادات أيضاً طوي الفراش الذي سجّي عليه الميت؛ لأن في بقائه مفروشاً نذير شؤم.

ومن العادات رفع الندّابة عقيرتها بالندب، وإنشاد أحد الرجال أبياتاً محزنة من العتابا، عند شيل الميت بالنعش أو بالتابوت، وحمله على الراحات، مما يزيد التأثير في النفوس. وهذا نموذج من الندب، وآخر من العتابا، مما يقال في هذه المرحلة:

ندبة:

شيّلوك اليوم يا ابن العيال — شيّلوك اليومَ عَ زنود الرجال

شيّلوك اليوم يا ابن العرب — من سباع الغاب كنت بتنحسب

عتابا:

نزل دمــعي على خــدي وهدّو[1]	تراب اللحـد عَ المحــبــوب هدّوا[2]
الا يا حــاملين النعش هدّوا[3]	بلكي الميــتين فــيــهم رجــا

المشي بالجنازة[4]

المشي بالجنازة مصطلح عليه عند البعض باسم «التشييع»، وهو برٌّ وإكرام. لذلك يمشي بها المئات بل الآلاف ومن بينهم الشيوخ والمعمّرون، لا من قبيل تأدية الواجب الاجتماعي فحسب، بل من قبيل ابتغاء الأجر من الله. لهذا لا زلنا نرى المشاركة الكثيفة في جنائز أموات عاديين بالرغم من غزارة الأمطار وسماكة الثلوج وشدة الصقيع.

انحصر المشي بالجنازة عند المسلمين بالرجال، الا في حالات وجود النساء عند نقلها من مكان الوفاة الى مسقط الرأس، واستقبالها عند مدخل القرية، وحملها من البيوت الى أمكنة عرض الجثة واستقبال المعزين كما عند الدروز، وحملها عند النصارى من البيت الى الكنيسة للصلاة عليها. وقد جارى بعض السنّة كسنّة عكار والضنية النصارى المجاورين لهم والمساكنين في المشي بالجنازة، فكانوا يرافقونها الى الجامع حتى الستينيات من القرن العشرين. ولا ترافق نسوة جميع الطوائف الجنازة الى الدفن. وفي حال مشي النساء بالجنازة كن يسرن وراء الرجال وهن يندبن.

وعدم مشاركة النساء في المشي بالجنازة عائد الى أنه ما من مهمة لهن ليؤدينها. واختلاطهن بالرجال هتك لهن مع عجزهن عن الحمل، وقد اعتبره النبي ﷺ مأزوراً لا مأجوراً. وروي عنه قوله لنساء كن ينتظرن جنازة: «هل تغسلن؟ قلن: لا. قال: هل تحملن؟ قلن: لا. قال: هل تدلين في من يدلي؟ قلن: لا. قال: فارجعن مأزورات غير مأجورات»[5]. وعدم مشاركة النساء عند النصارى عائد الى عدم وجود داعٍ لها، وعائد أيضاً في نظر البعض الى أنها «عالم احشاء الحياة والبقاء، لا تذهب مع الرجال إلى عالم المقابر والأموات»[6].

---

(١) هدّو: آلمه واحرقه.
(٢) هدّوا: وضعوا.
(٣) هدّوا: تريثوا.
(٤) جنَزَ الشيء: ستره. والجنازة في اللغة بفتح الجيم: الميت على السرير (النعش).
(٥) رواه ابن ماجه.
(٦) انظر مقالة الاب يوسف مونّس بعنوان: «التقاليد الشعبية في الجنازات اللبنانية» في مجلة «الحداثة» العدد ٧-٨، سنة ١٩٩٥، ص ٢٠٣.

للمشي بالجنازة أصول وآداب وعادات منها تقدم رجال الدين للمشيعين، في جميع الطوائف، وتقدم العميان للمشيعين في جنائز السنّة في المدن. فعند المسيحيين يتقدم الكهنة الجنازة. وفيما يرى بعض أهل العلم من المسلمين ان المشي أمام الجنازة أفضل، يرى بعضهم الآخر ان المشي خلفها أفضل، وأنها متبوعة ولا تتبع، وهذا متبع حالياً عند معظم المسلمين، بينما كان المؤذنون عندهم يمشون أمام الجنازة ويذكرون الله. وبالنسبة الى أصحاب الرأي الأول فإن رجال الدين هم الذين يمشون أمام الجنازة على اعتبار ان أصحاب الرسول ﷺ كانوا يمشون أمامها لأنهم الشفعاء، فقد روي عنه الصلاة والسلام عليه أنه قال: «ائمتكم الشفعاء». وعلى هذا يتمشى الدروز، وبما ان رجال الدين عندهم كثيرون يسير المئات منهم أحياناً في مقدمة الجنازة.

تتقدم راية الصليب جنازة النصراني، وترافقها الموسيقى (النوبة) أحياناً. وقد ترافق الموسيقى والاعلام الكبيرة جنازات أصحاب الطرق الصوفية السنّيين، مع الاشارة الى ان ذلك مكروه كإتباع الجنازة بنار أو مجمر؛ لأن ذلك من أفعال الجاهلية. ويتقدم البيرق الكبير جنازة الشيعي في بعض القرى، وهو علم أخضر مكتوب عليه: «لا اله الا الله محمد رسول الله. لا فتى الاعلي ولا سيف الا ذو الفقار». وفي الفترة الأخيرة باتت الأعلام الزمنية، الحزبية والنقابية والرسمية، تواكب جنازات المسؤولين والفعاليات الزمنية، كما باتت نعوش المتوفين الكبار تُلف بعلم الدولة.

والصمت والخشوع ضروريان اثناء المشي بالجنازة تهيباً للموقف واحتراماً للموت وخشوعاً أمام عظمة الله الذي قهر عبيده بالموت. ومن عادات النصارى ترتيل التسابيح الدينية. وكان من عادات المسلمين رفع الصوت بالذكر وبالتسابيح الدينية، ولا يزال هذا متبعاً عند بعضهم، وبخاصة عند الدروز الذين يرتلون التسابيح الدينية. ويستحسن المسلمون عدم الجهر بالآيات الدينية، وعدم ترديد التسابيح الدينية، فمن أراد ذكر الله فليذكره في نفسه. ورفع الصوت بالذكر معتبر عند بعض علماء المسلمين بدعة، لذا تجري المحاولات حالياً لإبطاله كلياً، مع الاشارة الى أن الذكر والتسابيح الدينية أفضل من استرسال المشيعين بالأحاديث الدنيوية بصوت عال.

كان من عادات الشيعة ان يرددوا اثناء المشي بالجنازة الكلام التالي: «سبحان من تفرد بالقدرة والبقاء، وقهر عبيده بالموت والفناء، سبحان الحي الدائم»[1]. ومن العادات التي لا تزال متبعة عند السنّة، في مآتم الشباب والأعيان والأفاضل والكبار، ان يرتفع

---

(١) علي الزين، العادات والتقاليد...، مرجع مذكور سابقاً، ص ١٥٠.

صوت أحد المشيعين اثناء المشي بالجنازة قائلاً: «وحّدوه»، فيردد المشيعون: «لا آله الا الله». ويتكرر هذان القولان عدة مرات.

وإذا ما تحدث المشيعون في اثناء المشي بالجنازة فبصوت منخفض، وبفضائل الميت، وبالعبرة من الموت. ومما يقال: «هم السابقون ونحن اللاحقون ـ كلنا على هذه الطريق سائرون ـ انا لله وإنا إليه راجعون ـ ندفّن بعضنا بعضاً». لكن بعض المشيعين لا يتقيدون بالأصول وبآداب الموت، فيتحدثون بصوت عال وبمواضيع وشؤون غير ملائمة للمناسبة مما يؤدي الى استنكار الآخرين لتصرفهم.

ومن آداب الموت عدم اطلاق العيارات النارية في اثناء المشي بالجنازة للصلاة عليها، ووقوف السيارات والمارة عند مرور الجنازة، وترجل الركاب من السيارات، وتأدية العسكريين التحية، ونزع الزمنيين أغطية الرؤوس، وتوقف الحركة، واقفال أبواب المحال. فمن لم يتيسر لهم المشاركة في المشي بالجنازة في المدن والبلدات الكبيرة، أو في القرى التي تمر بها، يتيسر لهم كسب الاجر من خلال التقيد بآداب الموت والقواعد المفروضة على الناس عند مرور الجنازة أمامهم.

حمل الميت

انحصر حمل الميت عند المسلمين والنصارى بالرجال فقط؛ لأنهم أولى بذلك وأقدر من النساء. ولا يحمل أهل الميت ميتهم؛ لأنهم محزونون ولا طاقة لهم على الحمل، ويقوم بذلك غيرهم، وعلى الأخص أهل قريتهم من العشائر الأخرى على اختلاف مذاهبهم، من قبيل المشاركة والتعاطف الاجتماعي والمعاملة بالمثل، ومن أجل كسب الاجر. وفي مجال ذكر أسباب تفضيل أهل القرية على الغرباء في المنافع والخدمات واداء الواجبات يردد القرويون القول التالي: «ابن ضيعتي أبدى من غيره لأنه يحمل بنعشي وأنا أحمل بنعشه». ولا تزال عادة حمل الجنازة من قبل العشائر الأخرى واستقبالها في أول القرية عادة متبعة في بعض القرى، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر بلدة غريفة في قضاء الشوف.

يتناوب الرجال، ولا سيما الشباب والفتيان، الحمل متزاحمين على كسب الاجر وصنع المعروف. وكانوا يتباهون وينتخون ويثقّلون النعش بالحجارة للتدليل على مدى قوتهم ومقدرتهم على الحمل، ولكسب المزيد من الاجر. وفي هكذا اجواء من التنافس والمباهاة والنخوة قد لا يتاح للمرء ان يحمل، أو يتاح له الحمل مرة واحدة، فيأخذ بأحد

قـوائم النعش، مع الاشـارة الى أنه مـسـتحب عند المسلمين التربيع في حـمل الميت، أي أخذ الحامل بقوائم النعش الاربع بالتتابع.

ومما يقـوله المرء عند عـزمـه على الحـمل عن آخـر: «آجـر». ويخـاطب الحـاملون بعضـهم بعضـاً، من أجل اعـتـدال حـمل النعش أو التـابوت، بالقـول: «ارفـعوا مـن خلف ـ اخفضوا من أمام ـ امسكوا من خلف أو من أمام».

كان الميت عند الجميع يُنقل بمحمل عام اسـمه «النعش»، ويُحمل مكشوفاً الا المرأة التي يُغطى نعشها ستراً لها. ثم اعتمد النصارى والدروز التابوت لنقل الميت ودفنه فيه. لكنهم في بدايات استعماله لم يستغنوا عن المحمل العام (النعش)، وفي هذه الحال كانوا يثبّتون التابوت بالنعش بواسطة الحبال. وظل السنّة والشيعة يعتمدون النعش المكشوف، ثم النعش المقفل أو التابوت، لحمل الميت فقط، ويضعون عليه عمامة أو طربوشاً للدلالة على أن الميت رجل، وقطعة قـماش بيضـاء للدلالة على أن الميت أنثى. وصـار النعش أو التـابوت في الفترة الأخيـرة يغطى عند الأكثـرية بقماش فـاخـر ذي لون أبيض للروحيين وللأطفـال رمـزاً الـى الطهـارة، وألوان مـخـتلفـة لسـواهم، ويُربط القـمـاش بـالنعش أو بالتابوت بعصابة.

يُحـمل الأمـوات على الأكتـاف. ومن وسـائل تكريم الأعـيـان والـوجـهـاء والبـارزين وأصـحـاب النفـوذ والشـبـاب حـملهم على الايدي، وعلى الأيدي الممدودة الى أعلى فـوق الرؤوس. وتُسـمى الطريقة الأخيـرة «الحـمل على الراحـات». ومن أقـدم الاشـارات الى الحمل على الأيدي حمل الأمير السيد عبدالله التنوخي قدّس الله سره، «فقد حملوه الى نعـشـه، ودارت حـوله العـيـال، وحـمل على أكف الرجـال»[1]. ويُحـمـل المعـمـرون والأشـخـاص العـاديون والنسـاء علـى الاكتـاف. لكن الجـمـيـع يُحـملون بعـد الصـلاة على الأكتـاف؛ لأنه لا يجـوز حـمل الميت «على الراحـات» بعـد الصـلاة عليـه، وهذه القـاعـدة الدينية لا تُطبق دائماً. ويُحمل الأطفال على الأيدي. ويحملهم عند النصارى كفلاؤهم في العماد، أي عرّابوهم.

استعيض اليوم في أماكن كثيـرة عن حمل الموتى إلى المقابر «على الراحـات» وعلى الأكتاف بطريقة عصرية هي سيارة الاسعاف التي تُسمى في القرى «الصحية». وهي تنقل الموتى أيضاً من مكان الوفاة الى مسقط الرأس وإلى مكان الصلاة، وتُجهّز عند المسلمين بمسجلة ومكبّر للصوت تُتلى بواسطتهما آيات من القرآن الكريم. ومما ساهم

---

(١) يوسف ابراهيم يزبك، ولي من لبنان... وردت الاشارة اليه، ص ٩٢ .

في قبول الناس بالسيارة وانتشارها في القرى، التي لا زال أهلها يتصفون بالغيرة والحمية، الرغبة في اختصار الوقت، وتخفيف اعباء الحمل عن المشيعين، وبخاصة في الأيام الممطرة والمثلجة والعاصفة، هذه الاعباء التي تزداد تبعاً لبعد المدافن. ومما ساهم فيه أيضاً انشاء البيوت العامة والنوادي التي توفر مكاناً ملائماً لإقامة الصلاة على الميت.

ان بدء استعمال السيارة في بعض الأوساط جاء اضطراراً كما حصل في قرى من جبل لبنان اعتمدتها واحدة بعد أخرى لنقل الموتى ابان اشتداد الاضطرابات والاشتباكات المسلحة لتجنيب المشيعين مخاطر القصف. وأول من اعتمدها في الشوف للسبب المذكور بلدتا عماطور وبعقلين. وما جاء اضطراراً صار حاجة ملائمة مقبولة بفضل التطور.

الغى اعتماد «الصحية» استقبال الجنازة في بعض القرى عند مداخلها، والغى المشي بالجنازة الى المدافن؛ إذ باتت الصلاة عليها تُقام في مكان المأتم الذي هو على العموم بيت القرية أو العشيرة. وفي هذه الحال يرافق بضعة أشخاص فقط السيارة الى المدفن، ويتم تقبل التعازي في مكان المأتم. كما ان اعتماد «الصحية» حرم المشيعين أجر المشي بالجنازة وحملها، وأجر المشاركة في الدفن، اللذين لا يزال الكثيرون في المدن والقرى يحرصون على كسبهما ويتجنبون حمل الميت بالصحية. كما الغى اكرامَ الميت بحضور أهله ومشيعيه دفنه.

بيد ان اعتماد «الصحية» في القرى يلقى المعارضة في أكثر الاحيان، ولا يتم غالباً الا بعد اختلاف حاد في المواقف بين من يريدون الابقاء على القديم لكسب الاجر ولإبقاء النخوة والمروءة، وبين من يريدون التجديد واستعمال الصحية لاختصار الوقت والاعباء عن المشيعين. ان هذا الاختلاف تشهده على سبيل المثال بعض قرى الدروز. وفي اعتقادنا ان طريقة «الصحية» لنقل الموتى تطور يفرض نفسه على الجميع.

الصلاة على الجنازة عند النصارى

الصلاة على الجنازة هي مجموعة الآيات والتسابيح الدينية، والأدعية الى الله. ويختلف القائمون بها من رجال الدين في جميع الطوائف باختلاف مراكز الموتى؛ إذ يتدرجون من أعلى منصب ديني الى أدنى منصب. الا أنها هي ذاتها عند هؤلاء في كل طائفة. وهي تتم بصمت وخشوع من الحاضرين. ومظاهرها عند النصارى أكثر مما هي عند المسلمين.

الصلاة على الجنازة عند النصارى مأجورة على الميت الزمني. ويُسمى ما يدفعونه للكهنة «جزو» بمعنى جزاء، وهو حسنة لأجل الأموات. وكان الاحسان (الجزو) في الماضي اقل بكثير مما هو اليوم. فهو في القرن التاسع عشر، وعلى سبيل المثال، «لا يتجاوز القرشين، وأحياناً قرش أو نصف قرش، حسنة قداس وجناز، لأن المال كان عزيزاً، والطلعة (نفقات الدفن) لا تتجاوز الخمسين قرشاً: نفقات التابوت والاحسان للكهنة»[1].

اسم الصلاة على الجنازة عند النصارى «الجنّاز»، فيقال: «جنّز الكاهن الميت»، أي صلّى عليه. والجنّاز كلمة عامية استعمالها شائع أكثر من كلمة «الصلاة على الميت»، وهي مشتقة من كلمة «الجنازة». وهم ما كانوا في الماضي ينقلون الميت الى الكنيسة للصلاة عليه، ثم صاروا ينقلونه اليها. وعند حلول موعد الجنّاز يتقدم الكهنة الرجال المشيّعين الى حيث سُجّي الميت، فيتلون الصلاة عليه قبل وضعه في النعش أو التابوت وحمله الى الكنيسة.

يُنقل الميت الى الكنيسة على قرع الجرس دقات الحزن التي هي عبارة عن ثلاث دقات فوقفة، فثلاث دقّات فوقفة، وهكذا دواليك. ويتراوح عدد الدقات وعدد الأجراس المشتركة فيها تبعاً لأهمية الموتى. فإذا كان شأن الميت عظيماً، أو إذا كان شاباً، زاد عددها، واشتركت فيها جميع أجراس الكنيسة.

يتقدم الكاهن وراية الصليب الجنازة، ويسير الى جانبي الراية ولدان يحملان مصباحين أو شمعتين موقدتين اشارة الى ضياء الأبدية الذي يُعتقد بإشراقه على الابرار بعد الموت. ويسير وراء الكاهن والراية اعضاء الاخوية، يتوسطهم اربعة منهم يحملون شعار الاخوية، المصنوع من المخمل، المطرّز من زواياه الاربع. ويتبعهم الكهنة بحسب رتبهم يرتّلون التسابيح الدينية مثل «ارحمني يا الله كعظيم رحمتك»، فالنعش أو التابوت محمولاً على الأكتاف، ووراءه أهل الميت واقرباؤه والمشيّعون. ويسير على جانبي الموكب وفي مقدمته حملة الصلبان والأكاليل، كما يسير في موكب جنازة الشاب والرجل الزمني البارز عازفو النوبة والراقصون بالسيف والترس.

عند الوصول الى الكنيسة يوضع التابوت المفتوح أو المغلق على منصة خاصة قائمة أمام المذبح، مضاءة بشمعتين، موشّحة بالسواد. ويوضع رأس الميت نحو الشرق. وتجلس نساء أهله الى جانبيه، ويجلس رجالهن بالقرب منهن، ويجلس سائر المشيعين من الرجال والنساء على المقاعد التي تملأ الكنيسة بدون الاختلاط في الماضي. وقد كانت بعض

---

(١) الخوري اسطفان البشعلاني، تاريخ بشعلي وصليما، مطبعة فاضل وجميّل، الدورة، لبنان ١٩٤٧ ، ص ١٨٢ .

الكنائس القديمة تتضمن قسماً خاصاً بالنساء أعلى من القسم المخصص للرجال.

كان الجنّاز يستمر طوال النهار، لكن وقته اختصر مع الزمن. ويقوم به أعلى الكهنة الحاضرين رتبة. وعند الموارنة كتاب خاص للصلوات اسمه «النويسة». يتلو الكاهن بعض نصوص الانجيل، ويبدأ برسالة بولس الرسول الشهيرة الى أهل تسالونيقي الآتي نصها:

«لا نريد ايها الاخوة ان تجهلوا أمر الراقدين لئلا تحزنوا كسائر الناس الذين لا رجاء لهم. فأما ونحن نؤمن بأن يسوع قد مات ثم قام، فكذلك سينقل الله يسوع ومعه اولئك الذين ماتوا. فإننا نقول لكم عن قول الرب: اننا نحن الاحياء الباقين الى مجيء الرب لن نتقدم الأموات؛ لأن الرب نفسه، عند اعلان الامر، عند انطلاق صوت رئيس الملائكة والنفخ في بوق الله، سينزل من السماء، فيقوم أولاً الذين ماتوا في المسيح، ثم اننا نحن الاحياء الباقين سنُخطف معهم في الغمام لملاقاة المسيح في الجو، فنكون هكذا مع الرب دائماً وأبداً. فليشدد بعضكم بعضاً بهذا الكلام».

يؤبن أعلى الكهنة رتبةً الميتَ إذا كان جديراً بالتأبين فيما يقوم كاهن القرية برش الماء المقدس على تابوته. وبعد الانتهاء من الصلاة يرش الكاهن عليه من زيت قنديل الكنيسة أو الماء المبارك بشكل صليب، ويذري عليه قبضة من التراب قبل وضعه في النعش أو قبل حمل تابوته الى القبر فيما الكهنة والشمامسة يرتّلون «اذكر يا انسان انك من التراب وإلى التراب تعود».

أُلغي العديد من الطقوس الدينية المتبعة في الصلاة على الجنازة، واختصر وقتها. ومع هذا لا تزال تحفل بمظاهر كثيرة علاوة على كلفتها بالنسبة إلى أهالي الموتى. ويأمل بعض رجال الدين المسيحيين من لجنة الطقوس اعادة النظر بها؛ لأنها في نظرهم «أكثر وثنية ببعض جوانبها من أي طقس وثني آخر خاصة إذا كان هناك مجموعة من الكهنة والرهبان والاساقفة، وغابة من العصي والتيجان والصلبان والمباخر، والشمامسة والأولاد خدمة المذبح ووكلاء الاوقاف والقندلفت وموزعي ما يسمى «الجزو» أو الحسنة لأجل الأموات»[1].

الصلاة على الجنازة عند المسلمين

الصلاة على الميت غير الشهيد هي كالغسل والتجهيز والتكفين والدفن فرض كفاية على الاحياء، إذا قام به البعض ولو واحداً سقط عن الجميع. وهي لا تصح بدون وضوء. يُصلى على الجنازة عند المسلمين في أي وقت من النهار باستثناء ثلاث ساعات

(١) انظر مقالة الاب يوسف مونّس المشار اليها سابقاً، وهي بعنوان «التقاليد الشعبية في الجنازات اللبنانية»، في مجلة الحداثة، عدد ٧ ـ ٨ سنة ١٩٩٥ ، ص ٢٠٥ .

نهى الرسول ﷺ عنها هي حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع، وحين يقوم قائم الظهيرة، وحين تضيف للغروب حتى تغرب.

والصلاة على الجنازة تحصل عند السنّة والشيعة غالباً في يوم الوفاة عملاً بمبدأ التعجيل بالدفن الذي أمر به الرسول ﷺ، أي أنها تكون بعد صلاة الظهر إذا حصلت الوفاة صباحاً، وبعد صلاة العصر إذا حصلت الوفاة ظهراً، الا في الحالات التي تقتضي الدفن في غير مكان الوفاة، وفي حالات اضطرارية أخرى، حيث يصلّى على الجنازة في اليوم التالي.

كان الدروز في الماضي يعجّلون في دفن الميت كسائر المسلمين، ولا يؤجلونه الا إذا توفي بعد الظهر، وفي الأحوال الاضطرارية، لكنهم صاروا يعرضون الجثة ويطيلون عرضها ويبيّتونها على العموم الى اليوم التالي لأسباب وردت الاشارة اليها سابقاً[1]. ولم يكن عندهم في الماضي البعيد تحديد لموعد الصلاة كما يجري اليوم.

الصلاة على الجنازة في المسجد مكروهة عند أبي حنيفة ومالك، جائزة عند الشافعي واسحق وأبي ثور وداود، إذا لم يخشَ تلويثه؛ لأنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلى على جنازة في المسجد، فلا شيء له»[2]. والافضل اداء الصلاة على الميت في مصلى خارج المسجد، وهذا ما كان يجري، ولا يزال، عند معظم المسلمين؛ إذ يصلون على الجنازة في الفسحات الواقعة أمام الجوامع، وفي الفسحات الواسعة القريبة من بيوت الموتى، وفي فسحات المدافن. والصلاة على القبر لا تجوز الا على ميت دفن إلى شهر، «هذا قول أكثر أهل العلم، روي ذلك عن أبي موسى وابن عمر وعائشة رضي الله عنهم وهو مذهب الاوزاعي والشافعي»[3].

أحق الناس بالصلاة على الميت وصيه فالأمير، وغالباً ما يحل رجل الدين مكانهما. الا أنه ظل من العادات المتبعة عند السنّة والشيعة حتى اليوم تقديم قريب الميت على رجل الدين إذا كان من أهل التقى. وأهل التقى هم ذوو الأعمال والصفات الحسنة والمتدينون الذين يرتادون المسجد ويصلون. وإذا لم يكن عند قريب أهل الميت الخبرة أو الصلاح يصلي رجل الدين على الميت بعد ان يأذن له بذلك أهل الميت. ورجل الدين هو إمام القرية أو أحد ائمتها. ومن العادات المتبعة عند الدروز الصلاة على الأموات من قبل رجال دين، أو سواهم، يمتلكون صوتاً جهورياً ويجيدون الصلاة وتجويد الآيات القرآنية.

---

(١) انظر ص ٢٤٧.

(٢) رواه احمد.

(٣) المغني والشرح الكبير، مصدر مذكور سابقاً، جـ ٢ ص ٣٥٢.

فإن كان إمام الجامع المسمى «سائس المجلس» يتقن الصلاة كان هو المصلي، وإلا اعتُمد رجل غيره من رجال الدين أو من سواهم عند الضرورة.

والشهيد لا يُصلّى عليه لما روي عن النبي ﷺ أنه أمر بدفن شهداء أحد في دمائهم ولم يغسلهم ولم يصلّ عليهم. ويُصلّى على القتيل غير الشهيد. ويُصلّى على الغائب بالنية. وان لم يحضر جنازة الميت الا النساء صلين عليه. ويُصلّى على أهل الكبائر والمرجوم في الزنا وغيرهم، لكن لا يُصلّى على الغال[1] وعلى من قتل نفسه. ومن صلّى على جنازة مرة فلا تسن له اعادة الصلاة[2].

شروط صلاة الجنازة هي شروط الصلوات الأخرى التي تفرض الطهارة الحقيقية، والطهارة من الحدث الأكبر والأصغر، واستقبال القبلة. ولا يُشترط فيها الوقت كسائر الصلوات. وهي تؤدى بدون ركوع وسجود. ومن شروطها أيضاً ستر العورة. والسنّة أن يقوم بها الامام عند رأس الرجل ووسط المرأة، وهذا متّبع من أيام النبي ﷺ، ومأخوذ عنه. وقيام الامام بالصلاة عند وسط المرأة أمثل وأستر لها. وعند الحنفية يقوم بها الامام بحذاء الصدر مطلقاً للرجل والمرأة؛ لأن الصدر محل الايمان. وعند الشافعية يقف عند رأس الرجل وعند عجز الأنثى.

اشترط الرسول ﷺ لصلاته على جنازة رجل وفاء ديونه حالاً، أو تعهد وارثه أو غيره التكفل بها، حتى لا يُحبس الميت على باب الجنة. وروي عنه الصلاة والسلام عليه أنه قال: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه»[3]. وكان عليه الصلاة والسلام يقول إذا أوتي بالرجل المتوفى عليه دين: «هل ترك لدينه من وفاء. فإن حدث أنه ترك وفاء صلّى عليه وإلا قال للمسلمين: صلّوا على صاحبكم». فلما فتح الله الفتوح قام فقال: «أنا أولى المؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين وترك ديناً، علي قضاؤه. ومن ترك مالاً فلورثته»[4].

أركان الصلاة على الجنازة هي التالية:

١ ـ النية، ولا يجب تعيين الميت، ومحلها القلب.

٢ ـ التكبير.

٣ ـ السلام كغيرها من الصلوات.

---

(١) الغال: من يكتم غنيمته او بعضها لياخذها لنفسه ويختص بها.
(٢) معلومات هذه الفقرة مقتبسة عن المغني والشرح الكبير، مصدر مذكور سابقاً، جـ ٢ ص ٣٢١ ـ ٣٥٩ .
(٣) رواه احمد وابن ماجه والترمذي.
(٤) رواه ابو هريرة واخرجه البخاري.

٤ ـ قراءة الفاتحة بعد التكبيرة الاولى عند الشافعي وأحمد واسحق.
٥ ـ الصلاة على الرسول ﷺ، وصفتها كصفة الصلاة عليه في التشهيد.
٦ ـ الدعاء للميت، ويتحقق بأي دعاء مهما قل.
٧ ـ القيام بالقادر عليه.

ان كلاً من الصلاة على الجنازة عند السنّة والشيعة والدروز يشتمل على الاركان السبعة المذكورة أعلاه، وليس بينها الا فوارق قليلة منها ان عدد التكبيرات عند السنّة والدروز أربع، وعددها عند الشيعة خمس؛ لأن الشيعة يرون ان الرسول ﷺ «كان يكبر على الجنازة خمساً وإنما الخليفة عمر جمع الناس على الاربع»[1]. ولا يجوز عند السنّة النقص من التكبيرات الاربع ولا سنّ الزيادة عليها؛ لان الرسول ﷺ كبّر على النجاشي أربعاً. ومن الفوارق زيادة دعاء للمسلمين عند الشيعة بعد التكبيرة الثالثة.

ومن المراسم الدينية المتممة للصلاة على الجنازة ذكر بعض آيات دينية غير الفاتحة عند نقل الميت وعند الصلاة عليه، وذكر بعض التسابيح الدينية، ومنها مشي الامام أو الشيوخ بالجنازة، وتلقين الميت.

الصلاة على الجنازة عند السنّة

من الاصول عند السنّة المشي بالجنازة دون ترديد الآيات الدينية مما يزيد في سكون المناسبة ووقارها كي يتعظ الانسان من الموت ويتهيبه. الا ان من عاداتهم في الماضي والتي بطلت حالياً ترديد الفاتحة وإنشاد قصيدة البردة للإمام الابوصيري. وتسير الجنازة أولاً ويسير وراءها رجال الدين.

ينادي خادم المسجد أو مؤذن المسجد أو إمامه إذا كانت الصلاة في المسجد، وينادي أحد الاشخاص إذا كانت الصلاة في ساحة المدافن: ياعباد الله. أمامكم عبد مؤمن من عباد الله كان يشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله. قوموا للصلاة عليه يرحمكم الله. او يقول مقدمة ينهيها بالعبارة التالية: «امامكم رجل من أهل التوحيد. رحمه الله. سبحان الحي الذي لا يموت. الصلاة جامعة».

كان الإمام، وفي مرحلة الفتور الديني، يذكّر الناس بكيفية اداء الصلاة على الجنازة، فيقول: أيها الناس اعلموا ان صلاة الجنازة أربع تكبيرات بلا ركوع ولا سجود. ثم يقول لهم ما يجب قراءته بعد كل تكبيرة. وقد استغنى اليوم معظم الائمة عن شرح هذه التفاصيل.

---

(١) السيد امير محمد الكاظمي القزويني، الشيعة في عقائدهم واحكامهم، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م ص ١٠٨.

يباشر الإمام الصلاة فيقول بصوت منخفض: نويت أن أصلي لله تعالى صلاة الجنازة على المرحوم أو المرحومة، ويسميه أو يسميها أو يشير اليهما باصبعه او بعينه. ثم يقول: نويت، ويرفع يديه الى منكبيه ويقول: الله أكبر، ثم يضع يديه على صدره أو تحت الصرة ويقرأ الفاتحة. ثم يكبّر ويقرأ الصلاة الابراهيمية وهي «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد كما صلّيت على ابراهيم وآل ابراهيم، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم في العالمين، انك حميد مجيد». ثم يكبّر التكبيرة الثالثة ويدعو للميت بواحد أو أكثر من الادعية المأثورة التي كان الرسول ﷺ يدعو بها للأموات، وهي:

١ ـ اللهم هذا عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، انت خلقته ورزقته، وأنت أمته وأنت تحييه وأنت تعلم سره. جئناك شفعاء له فشفّعنا فيه. اللهم اننا نستجير بحبل جوارك له، انك ذو وفاء وذمة. اللهم وقه من فتنة القبر، ومن عذاب جهنم. اللهم ان كان محسناً فجازه بإحسانه، وان كان مسيئاً فتجاوز عنه. اللهم قد نزل بك وأنت خير منزول به، فقيراً الى رحمتك وأنت غني عن عذابه. اللهم ثبّت عند المسألة منطقه ولا تبتله في قبره.

٢ ـ اللهم اغفر لحينا وميتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وانثانا. اللهم من أحييته منا فاحيه على الاسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الايمان. اللهم لا تحرمنا اجره ولا تضلنا بعده.

٣ ـ اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، واكرم نزله، ووسّع مدخله، واغسله بماء وثلج وبرد، ونقّه من الخطايا كما ينقّى الثوب الابيض من الدنس، وابدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجاً خيراً من زوجه. وقه فتنة القبر وعذاب النار.

وان كان الميت صبياً جُعل مكان الاستغفار له «اللهم اجعله ذخراً لوالديه وفرطاً وأجراً وشفيعاً مجاباً. اللهم ثقّل به موازينهما، واعظم به أجورهما، واجعله في كفالة أبيه ابراهيم، والحقه بصالح سلف المؤمنين، وقه برحمتك عذاب الجحيم. اللهم اغفر لأسلافنا وافراطنا ومن سبقنا بالايمان.

ثم يكبّر الإمام التكبيرة الرابعة ويقول: اللهم لا تحرمنا اجره ولا تفتنا بعده. ثم يسلّم الى اليمين وإلى اليسار قائلاً: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله.

يصلي على الميت الإمام فقط، وفي حال تكاثر الصفوف من الممكن ان يردد وراء

الإمام مـردد «الله أكبـر» ليـعلم من وراءه ان الإمـام كبّر، أو يقـول بعـده: السـلام عليكم ورحـمة الله. ويتبع المأمومون الإمـام في كل ركن يؤديه. فـإذا كبّـر كبّـروا وراءه. وإذا قـرأ الفاتحة قرأوها سراً معه. ولا يحق لهم متابعته بدون وضوء.

وبعـد ان ينتهـي الإمـام من الصـلاة ينظـر الى المؤمنين ويقـول لهم: الى روح أمـوات المسلمين وإلى روح الفقيد الفاتحـة، فيقرأون الفاتحـة سراً. وبعـد الانتهـاء منها يقـولون: آمين، ويمسح كل منهم باليدين على الصدر أو على الوجه.

بعد ذلك يُنقل الميت الى المدفن. وبعـد دفنه وتلقـينه يلتف المشـيعـون حـول بعـضهم بعضـاً، ويقـرأون جـمـاعـة وقـوفاً، أو يقـرأون جلوسـاً، سـورة النبـأ مـرة واحـدة، ثم سـورة الاخلاص ثلاث مـرات، ثم سورة الفلق مرة واحـدة، ثم سـورة الناس مرة واحـدة، ثم سـورة الفاتحـة مرة واحدة، ثم خـواتيم سـورة البـقـرة. ثم يقـرأون مـرة واحـدة: يا أيتهـا النفس المطمـئنة ارجـعي الى ربك راضيـة مـرضيـة فـادخلي في عبـادي وادخلي في جنتي. ثم يقرأون الصلاة الابراهيمية.

وبعد الانتهاء من الصـلاة الابراهيمـية يسأل الإمام المشيعين: وهبتم ثواب مـا قـرأتم الى روح الفقيد؟ فيـجيبـه المشيعـون: وهبنا. رحمه الله، أو الله يرحمه، أو الله يسامحه. ثم يقـول الإمـام: وعلى هذه النيـة الفاتحـة. فيـقـرأ الكل سـورة الفـاتحـة سـراً. ثم يدعو الإمام للميت باثنين من الادعية المذكورة سابقـاً. ثم يعيد قـراءة الفـاتحـة على نيـة قبـول الدعاء: اللهم تقبل منا ببركة الفاتحة[1].

الصلاة على الجنازة عند الشيعة

يمشي الشيـخ أو المصلي أمام الجنازة وهو يهلّل ويكبّر ويسبّـح وحده، أو يتـاوب معه في هذه الامـور شيخ أو مصلٍّ آخـر. وفي بعض الأماكن كمـا في جون من اقليم الخـرّوب في الشوف تسيـر اليوم سيارة أمـام الجنازة وفيها مسـجلة تتلو آيات القـرآن الكريم. عند استـقـرار الجنازة في سـاحة المدافن يتـقـدم الإمـام ويقف أمـام الميت، ذكـراً أو أنثى، بين الصـدر والرأس، ويصطف المصلون وراءه. وبعـد الاعـلان التـالي ثلاث مـرات: «الصـلاة ياعباد الله» أو «الصلاة يامؤمنين»، يفتتح الإمام الصلاة على الجنازة قائلاً:

«الله أكبـر. أشـهـد ان لا اله الا الله وحـده لا شـريك لـه، الهـاً واحـداً أحـداً فـرداً صـمداً، عبـده المصطفى ورسـوله المجتبى، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهـره على الدين كله وكفى بالله شهيداً.

---

(١) ان هذه الصلاة على الجنازة متبعة في قرى وبلدات اقليم الخرّوب من قضاء الشوف.

«الله أكبر. اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صلّيت على سيدنا ابراهيم وعلى ال سيدنا ابراهيم. وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا ابراهيم وعلى آل سيدنا ابراهيم في العالمين. انك حميد مجيد. وصلّ اللهم على النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وأوليائك المتقين. وحسن اولئك رفيقاً.

«الله أكبر. اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، الاحياء منهم والأموات. تابع اللهم بيننا وبينهم بالخيرات. انك سميع قريب مجيب الدعوات. انك راحم العبرات. انك مضاعف الحسنات وماحي السيئات. انك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير. اللهم اغفر لحينا وميتنا، شاهدنا وغائبنا، كبيرنا وصغيرنا، وحرنا ومملوكنا. كذب العاذلون بالله وضلّوا ضلالا كثيراً وخسروا خسراناً مبيناً.

«الله أكبر. ان هذا المسجّى (أو المسجّاة) عبدك (أو عبدتك) نزل بك وأنت منزول به. اللهم انه مفتقر الى رحمتك ومغفرتك وأنت غني عن عذابه، مولانا رب العالمين. اللهم ان كان محسناً فزد في احسانه. وان كان مسيئاً فتجاوز اللهم عن سيئاته. اللهم لا نعلم منه الا خيراً[1] وأنت اعلم به. اللهم اجعله في عليين، واخلف على عقبه في الغابرين، وارحمنا وإياه وارحمه وإيانا. اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار. اللهم عفوك. اللهم عفوك. اللهم عفوك، وأنت العفو الغفير الرحيم.

«الله أكبر. اللهم اكرم مآبه، واجزل ثوابه، واغفر لنا وله. انك أنت الغفور الرحيم.

«السلام عليكم ورحمة الله. السلام عليكم ورحمة الله».

ثم تتلى الفاتحة من الجميع. وبعد الصلاة على الجنازة يردد الشيخ أو المصلّي: سبحانك سبحانك. يادايم غفرانك. فيردد المشيعون من ورائه: غفور رحيم حليم كريم.

وأثناء اجراء عملية الدفن يقرأ الجميع سورة النبأ مرة واحدة، ثم سورة الاخلاص ثلاث مرات، ثم سورة الفلق مرة واحدة، ثم سورة الناس مرة واحدة. وبعدها يقول الإمام: اللهم اننا نهدي ثواب بركات ما قرأناه، ونوري آيات ما تلوناه من كتابك العزيز على لسان نبيك محمد المرسل صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هدية منا واصلة شاملة متصلة بالقبول والرضوان وعفوك الشامل الامتنان الى روح وضريح أبينا آدم وأمنا حواء وإلى أرواح من تناسل وتسلسل منهما وبينهما من الانبياء والمرسلين والشهداء

---

(١) الغيت هذه الجملة مؤخراً في الصلاة على جميع الموتى في بعض الاماكن تجنباً للاحراج؛ لأن المصلي قد يعلم ان هناك شراً عند الميت لا خيراً.

والصديقين خاصة لمن كانت القراءة ههنا على اسمه وبسببه وعلى نيته، له ولأمواتنا وأموات المسلمين ثواب سورة الفاتحة. فيتلو الجميع الفاتحة سراً، وبعد الانتهاء منها يقولون: «الله يرحمه».

الصلاة على الجنازة عند الدروز

تتميز مآتم الدروز بحضور عدد كبير من رجال الدين المعروفين بـ «الاجاويد» و«العقّال» نظراً لكثرتهم في مجتمع الدروز. وكثرتهم عائدة الى السماح بتسلم الدين والتزي بزيه لمن تتوافر فيه الشروط الواجبة من الصلاح والعبادة. وهم، بمن في ذلك الغرباء عن قرية الميت، يحضرون المأتم لاداء واجب التعزية والمشاركة في اجراء المراسم الدينية دون أي بدل، متوخين كسب الاجر، حتى إنهم لا يتناولون الطعام ولا الضيافة في المأتم كي لا ينتقص هذا من أجرهم. وقد يصل عددهم الى الآلاف في مآتم التقاة منهم، فيضيفون بعمائمهم البيض المزيد من المهابة والوقار عليها.

الصلاة على الجنازة معروفة باسم «الصلوية». وهي تجوز في المكان الملائم لها، سواء في ذلك مكان عرض الجثة (المحل)، أم فسحات المدافن التي كانت معظمها تُستعمل للصلاة، ولا يزال بعضها يستعمل لهذا الغرض تطبيقاً لمبدأ استحباب اقامتها عند المسلمين في غير المسجد.

إذا كان الميت قاتلاً، أو منتحراً، أو خارجاً على مبدأ الجماعة وتقاليدها وأعرافها، لا يستحق رحمة رجال الدين، أي دعاءهم الى الله من أجله. ولا يُصلَّى على المنتحر، بل يُكتفى ببعض المراسم الدينية كقراءة الحمد. فمن يطابق على نفسه وينتحر لا يتورع عن قتل أي انسان، وعن فعل أي شيء. لذا يُعتبر في عرف رجال الدين غير مرحوم من الله.

الصلاة على الميت عند الدروز تتفق مع الصلاة عند السنّة في عدد التكبيرات التي هي أربع، وتتفق مع الصلاة عند السنّة والشيعة في سائر الشروط والأركان، الا انها تتميز بإطالة الصلاة على النبي ﷺ، وإطالة مدحه، واختصار الدعاء للميت، وكثرة التسابيح الدينية، بينما كانت في الماضي البعيد مختصرة، ويُكتفى فيها بتلاوة الفاتحة من الآيات الدينية.

كانت الصلاة تبدأ بإنشاد رجال الدين أبياتاً من قصيدة البردة. وممن كان يجيد انشادها في القرن العشرين وربما قبله، وقبل ان تبطل قراءتها تدريجاً في أواسط هذا القرن، شيوخ آل العقيلي من السمقانية في الشوف. وعدد أبياتها مائة وستون بيتاً. أما

عدد ما ينشد منها، فهو يختلف من منطقة الى منطقة، ومن مأتم الى مأتم، ومن منشدين الى منشدين. وبعد الانتهاء مما يتيسر انشاده منها، وفي اثناء نقل الميت الى المدافن للصلاة عليه، كان رجال الدين يرتلون التسبيح التالي:



سبحانك سبحانك	مولانا غفرانك
سبحانك يا قادر	سبحانك يا قاهر
سبحانك يا عظيم	سبحانك يا كريم
سبحانك يا رحمن	سبحانك يا رحيم

❖❖❖

يا ربنا صلِّ على	سيدنا فخر الامم
محمد خير الملا	وفخر عرب وعجم

❖❖❖

صلِ على محمد	وآله الاطهار
يا حسنه من فرقد	يضيء كالنهار
وصلِّ يا ربَّ على	اصحابه الابرار
ساداتنا نور الهدى	وسادة الاقطار

وباستثناء هذا التسبيح الذي استعيض عنه بتسبيح آخر، وباستثناء انشاد قصيدة البردة وتلقين الميت اللذين الغيا، فإن الصلاة على الميت اليوم لا تختلف عن الصلاة عليه في الماضي القريب الا بتعديل بعض الكلمات، وهي تتفق معها في ناحية عدم وجود نص واحد بجميع عباراته وكلماته في جميع المناطق؛ إذ ان المعتمد منها في بعض مناطق سورية ولبنان لا يزال يسهب في تمجيد الله ورسوله أكثر من النص الرسمي الذي حدده مكتب مشيخة العقل في لبنان، والذي سيرد ذكره.

تبدأ الصلاة اليوم بتجمع رجال الدين في شكل دائري عند العزم على نقل الجنازة، وعندما تصل الجنازة الى باب الدار وتطل على الجمهور، يرفع الشيخ الذي حضر «التوبة» ويرفع المشايخ أصواتهم قائلين: «لا اله الا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد. يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير». ويقرأ رجال الدين الفاتحة جهراً بعد التعوذ بالله، ثم يتقدمون الجنازة صفوفاً مهللين، إذا كانت الصلاة ستجري في مكان آخر هو عادة فسحة المدافن. ويردد الصف الأول من رجال الدين:

لا الــــــــــــــــه الا الله	لا الــــــــــــــــه الا الله
لا الــــــــــــــــه الا الله	دائــم بــاق وجــــــــــــه الله

فيرد الصف أو الصفوف التي تلي الصف الاول:

لا الــــــــــــــــه الا الله	لا الــــــــــــــــه الا الله
لا الــــــــــــــــه الا الله	مــــحـــــمــــــد رســــول الله

ويتكرر ترديد ذلك حتى وصول الجنازة الى مكان الصلاة. عندها يتوقف رجال الدين عن الذكر، وتوضع الجنازة على كرسيين، او على منصة ثابتة باتجاه ناحية الغرب، بحيث يكون رأس الميت الى جهة القبلة. وبعد الشهادة - والشهادة ليست واجبة لإقامة الصلاة - يتقدم واحد من رجال الدين يُعرف بـ «المصلّي»؛ لأنه يصلّي على الجنائز. وفي كل زمان ومكان مجموعة من «المصلّين» الذين يمتلكون صوتاً جهورياً ويجيدون الصلاة. وهم يقومون بالصلاة دون أخذ بدل مادي، وبهدف اتمام الواجب الديني، بالإضافة الى الواجب الاجتماعي، كسباً للأجر، مع العلم ان بعضهم اليوم ينقطع عن عمله أياماً كثيرة من السنة، ويضيع عليه مدخولاً هو بأمس الحاجة اليه.

ولا يشترط بالمصلّي ان يكون رجل دين، الا أنه يشترط فيه اجادة الصلاة، واعتمار عمامة أو طابية او حطة عند القيام بها[1]؛ لأنه يجوز الصلاة شرعاً من أي مسلم حتى من النساء في حال اقتصار حضور الجنازة عليهن، بشرط استيفاء شروط الصلاة.

يقف المصلّي مستقبلاً القبلة حذاء صدر الميت، ويقول: «قامت الصلاة». ثم يؤشر بسبابة يده اليمنى قائلاً: «اشهد ان لا اله الا الله»، وبسبابة يده اليسرى قائلاً «واشهد ان محمداً رسول الله». وبعد ان ينوي الصلاة يرفع يده اليمنى الى اذنه كمن يؤذن، ويقول:

«لا اله الا الله وحده لا شريك له، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

«ان الله وملائكته يصلّون على النبي. يا أيها الذين آمنوا، صلّوا عليه وسلّموا تسليما[2]. اللهم صلِّ وسلّم على أشرف الامم، سيد العرب والعجم، وإمام مكة وزمزم والمدينة والحرم. سيد الانام، ومصباح الظلام، وخاتم الانبياء والرسل الكرام، نبينا

(١) كان ناصيف طليع من جديدة الشوف زمنياً. ونظراً لاتقانه الصلاة ولصوته الجهوري الجميل كان يُطلب اليه ان يصلّي على اموات الأعيان والمسؤولين الكبار في مآتمهم الحاشدة.

(٢) يقول بعض المشايخ المتجمعين للصلاة عند ذكر كلمة النبي ﷺ: «اعزه الله»، وعند قول كلمة «تسليماً»: اللهم صلِّ وسلّم عليه، لتذكير الحاضرين بالصلاة عليه سراً لا جهراً.

محمد. اللهم زده كرماً وشرفاً ومهابة واجلالاً وتعظيماً. ورضي الله تبارك وتعالى عن ساداتنا أصحاب رسول الله أجمعين». هنا ينزل المصلّي يده ويكمل قائلاً:

«رحم الله من نظر فاعتبر، وأُمر فائتمر، وزجر فازدجر، ومثلَ هذا الحقِ المبين انتظر.

«انتذروا واعتبروا يا ألي الألباب، الحكم لله الواحد الوهّاب. معكم جنازة رجل[1] مسلم من أهل التوحيد والايمان، والحقيقة والبرهان، مندرج بالوفاة الى رحمة الله الملك الديّان، تغمده الله بالرحمة والرضوان، واسكنه فسيح الجنان. رحمه الله[2].

«الصلاة على الجنازة الحاضرة... اثابكم الله، فسبحان الدائم الباقي الحي الذي لا يموت».

هنا يتقدم أحد رجال الدين الى يمين المصلّي، بعد تسميته من رجال الدين المرموقين، ويتجاوزه قليلاً. وهو يسمى «الإمام»، ويكون على العموم شيخاً جليلاً، أو أكبر رجال الدين الحاضرين شأناً. كما تتقدم مجموعة من رجال الدين، فتقف في صف خلف المصلّي والامام[3]. ينوي الإمام الصلاة ويقول سراً: «اللهم اني نويت ان أصلّي لك فرض كفاية إماماً بجماعة مستقبلاً القبلة، وادعو لهذا الميت، فيسرها لي وتقبلها مني».

يرفع الإمام يديه محاذياً بابهاميه شحمتي اذنيه ويكبّر التكبيرة الاولى، فيصيح المصلّي مكبراً «الله أكبر». ثم ينزل الإمام يديه، ويضع اليمنى على اليسرى تحت صدره، ويقرأ الفاتحة سراً، ويكبّر التكبيرة الثانية، فيصيح المصلّي «آلله أكبر». ثم ينزل الإمام يديه ويصلّي على النبي وآله سراً، ويكبّر التكبيرة الثالثة، فيصيح المصلّي «الله أكبر». ثم ينزل الإمام يديه، ويدعو للميت سراً بما يتيسر من أنواع الدعاء وأقله «الله ارحمه»، وإذا كان طفلاً يقول: «اللهم اجعله لنا سلفاً وفرطاً وأجراً»، ويكبّر التكبيرة الرابعة، فيصيح المصلّي «الله أكبر». والمصلّي لا يقرأ، والمأمومون الواقفون خلفه وخلف الإمام لا يقرأون، بل يستمعون وينصتون؛ إذ من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة، وحظ المقتدي الانصات والاستماع؛ لأن الاستماع فرض بالنص.

---

(١) تتغير كلمة رجل الى شيخ اذا كان الميت رجل دين، والى شاب إذا كان شاباً، والى طفل إذا كان طفلاً، والى امرأة إذا كان امرأة، والى فتاة إذا كان فتاة، والى طفلة إذا كان طفلة. وبحسب ذلك تتغير النعوت والضمائر في الكلمات التي تليها.

(٢) يرد المشيعون او بعضهم عبارة «الله يرحمه» بعد قول المصلي «رحمه الله».

(٣) ان دروز وادي التيم لا زالوا يستعملون اسلوب الصلاة القديم وهو عدم وقوف مجموعة من رجال الدين خلف الامام والمصلي.

ثم ينزل الإمام يديه ويقول سراً: «اللهم لا تحرمنا اجره، ولا تفتنا بعده». ثم يسلّم محوّلاً وجهه يميناً ويساراً وهو يقول علناً بصوت خفيض: «السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله. اللهم اقبلنا وتقبّل منا بحرمة الفاتحة. ياحي. ياقيّوم». وتُقرأ الفاتحة سراً، ويُجهر في آخرها الذي هو «ولا الضالين. آمين». ثم يقرأ الإمام والمصلّي ورجال الدين علناً، بعد ان يشكلوا دائرة كبيرة، ما يلي:

«اللهم اجعلنا من خير الفريقين، من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومن الذين دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين». ثم يجوّد الجميع قارئين: «يا أيها الذين آمنوا، لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون. وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول: ربِ لولا أخرتني الى أجل قريب فاصدق واكن من الصالحين، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، والله خبير بما تعملون».

هنا يُحمل الجثمان للدفن في حين يهلل المصلون بالذكر والدعاء التاليين:

لا الــــــــــــــه الا الله — لا الــــــــــــــه الا الله
لا الــــــــــــــه الا الله — مــــحــــمــــد رســــول الله
صــلّــى الله عــلــيــــــه وســلــم

❖❖❖

هــب لــنــا مــنــك الــرضــى — واعفُ عــنــا مــــا مــــضــى
واكــــفــنــا شــــر الــقــــضــا — مــــــولانــا يــا مــــــولانــا
لا الــــــــــــــه الا الله — لا الــــــــــــــه الا الله
لا الــــــــــــــه الا الله — مــــحــــمــــد رســــول الله
صــلّــى الله عــلــيــــــه وســلــم

❖❖❖

كــلــنــا نــطــلــب رضــــــاك — مــــالــنــا مــــولــى ســــواك
قــــد دخــلــنــا فــي حــــمــــاك — لا تــخــيــبــنــا حــــاشــــاك
لا الــــــــــــــه الا الله — لا الــــــــــــــه الا الله
لا الــــــــــــــه الا الله — مــــحــــمــــد رســــول الله
صــلّــى الله عــلــيــــــه وســلــم

وبعد استقرار الجنازة بالدفن تُقرأ، بعد التعوّذ بالله، بعض سور القرآن الكريم تجويداً. ويحسن الاقتصار على السور الثلاث التالية: الفاتحة وسورة الاخلاص وسورة التكاثر. وتُكرر قراءة سورة الاخلاص ثلاث مرات مفتتحة بالبسملة، ومقرونة بمسح اليد اليمنى على الوجه تبركاً حين لفظ «هو الله أحد». ويبسمل أحد البارزين من رجال الدين، أو أحد اصحاب الصوت الجهوري، ويقرأ بعده ومعه رجال الدين جماعةً السورة.

وينهي المصلّي، أو أحد رجال الدين، الصلاة بقول ما يلي: «صدق الله العظيم، وبلّغ رسولُه النبيُ المختار الكريم. سبحان ربك، ربِ العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربِّ العالمين». وبعد الانتهاء من ذلك يقول معظم رجال الدين: «آجركم الله أجر المحسنين»[1].

بعد ذكر الصلاة على الميت عند الدروز بكل مراحلها وتفاصيلها، تجدر الاشارة الى الأمور التالية:

١ - سير رجال الدين أمام الجنازة صفوفاً ومهللين بناءً على ما روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «ائمتكم الشفعاء»، وبناء على ان أصحابه كانوا يمشون امام الجنازة لأنهم الشفعاء. وهذا كان متبعاً عند سائر المسلمين في المناطق اللبنانية.

٢ - تهليل رجال الدين في اثناء المشي بالجنازة بالتسابيح الدينية.

٣ - يقوم بالصلاة على الميت رجال الدين وحدهم، بينما يبقى الآخرون من المشيعين الزمنيين الدروز صامتين على اعتبار ان رجال الدين يغنون عن الجميع في الصلاة على الميت؛ لانها فرض كفاية يسقط عن الكل باداء البعض.

٤ - قيام إمام ومصلٍّ بالصلاة على الجنازة. إمام يأم المصلين كما عند سائر المسلمين، دوره هو الأساس من الناحية الدينية بالرغم من وقته القصير. ومصلٍّ وقته في الصلاة أطول بكثير من وقت الإمام، فهو يباشرها بالصلاة على الرسول ﷺ ومدحه، ويتخذ دور المؤذن والواعظ.

٥ - ان طلب الرحمة للميت معمول به عند جميع الطوائف، لكنه يأخذ شأناً عظيماً عند الدروز كما سنرى.

---

(١) اعتمدنا في ذكر الصلاة على الجنازة على مشاهداتنا، وعلى كتيّب اصدره مكتب مشيخة العقل في لبنان بعنوان: طقوس الموحدين. الطبعة الثالثة ١٩٦١، ص ١١ - ٢١ .

الشهادة بالميت حق له وواجب على الاحياء، وهي النطق بما فعله في حياته من خير، وما تحلى به من صفات حميدة. وقل ان يمر انسان على رمال الحياة دون ان يترك أثراً ولو بسيطاً، أو يقوم بعمل نافع لأهله أو لمجتمعه، أو تكون له صفة حسنة، أو يغلب خيره على شره. ومن يمت تمت مساوئه معه. والموت ستّار العيوب بحسب ما يقولون. ولقد قال الرسول ﷺ: «اذكروا محاسن موتاكم وكفّوا عن مساويهم».

والشهادة الحق لا تُستعار، وهي في الانسان الصالح مألوفة وفي مكانها، وفي الانسان السيء غير منطقية ومكروهة. والمبالغة في الثناء مسيئة للميت وللشاهد به معاً. وأبلغ شهادة واقعية وعملية، لا نظرية وكلامية، هي كثرة الجموع الحاضرة للمأتم بدون دوافع المصالح والمجاملات، فالمشهد يشهد. الا ان الشهادة كثيراً ما تكون بدافع المصلحة والمسايرة، وتخضع لاعتبارات اجتماعية وفئوية.

اثني عند الرسولﷺ على جنازة بخير، فقال: وجبت، أي وجبت له الجنة. وأثني على جنازة بشر، فقال: وجبت، أي وجبت له النار، ثم قال: أنتم شهداء الله في الأرض. وعن أنس ان النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة أبيات من جيرانه الادنين الا قال الله تعالى قد قبلت علمهم فيه وغفرت له ما لا يعلمون»[١].

تتدرج الشهادة بالميت عند النصارى والمسلمين في ثناء عارفيه عليه، وفي تأبينه من قبل الخطباء. وأفضل مناسبة لها هي الصلاة على جنازته والدعاء الى الله أن يرحمه. والشهادة بالميت النصراني في اثناء الصلاة على جنازته يتولاها الكاهن الذي يقيم الصلاة، وبالميت السني والشيعي يتولاها الإمام أو الشيخ الذي يصلي على الجنازة. وقد أبطل بعض مشايخ السنّة الشهادة، لأنها صارت تتأثر بالمصلحة والمجاملة. وأبطلها بعض الشيعة، لأن الدعاء للميت يتضمن الجملة التالية: «اللهم لا نعلم منه إلا خيراً».

أما الشهادة عند الدروز، فكانت، ولا تزال، تقليداً متبعاً معتبراً من مراسم المأتم، له أهمية كبيرة في تقييم الموتى من قبل المشيعين، لا من قبل المصلّي؛ إذ تقترن كرامة الميت وحسن الظن به بالنطق بها، وتزداد تبعاً لزيادة عدد الشاهدين وكبر منزلتهم. بينما يرسم السكوت عنها، إذا لم يكن ناتجاً عن جهل المشيعين أو اهمالهم لواجباتهم، علامة استفهام حول الميت، ويوحي بأنه مخطىء أو خارج في سلوكه عن مبادىء الجماعة وأعرافها وتقاليدها، ويخفض من كرامته، ويقلل من دعاء الناس لله أن يرحمه. ويعتبر

(١) رواه أحد.

البعض «ان الله ينطّق بالشهادة». ومناسبتا الشهادة الأساسيتان هما عند الصلاة على الميت أولاً، وعند تقديم التعازي ثانياً. وإولاهما أهم. ويجيب أهل الفقيد على الشاهد في المناسبة الثانية: «الله يديم مثناك بالخير».

يشهد بالمرأة الدرزية زوجها أولاً، وبالرجل اقرباؤه وجيرانه، وأكثر الناس معرفة به وتعاطياً معه. وأفضل الشهادات هي شهادات رجال الدين باخوانهم وبالآخرين، وشهادات الثقات والوجهاء. «فهنيئاً لمن يشهد به اخوانه، وهنيئاً لمن يصفو عليه خاطر اخوانه ويُختم له بالخير» بحسب التعابير السائدة. وهنيئاً لمن يكون له «نقلة على الطاعة[1] وميتة بلا عاهة ورحمة بلا جاهة».

قبل البدء بالصلاة على الميت عند الدروز يشهد به انسان أو أكثر، فيقف أمام الميت، بعيداً عنه بقليل، ويبدأ شهادته بقول احدى العبارات التالية: «بسم الله الرحمن الرحيم. الشهادة من الايمان ـ الشهادة امانة أي واجب ـ الشهادة حق، أي أنها حق للميت على الاحياء». ثم يتابع كلامه مشيداً بايجاز، وبعبارات بليغة فيها بعض وجوه البيان والبديع، بصفات الفقيد وأعماله وصنائعه التي قد يكون بعضها خافيا على المشيعين، ويختتم شهادته بالقول التالي: «نأمل من حضرات المشايخ يشملونا[2] ويشملوه بالرحمة. الله يرحمه». فيجيب أكبر رجال الدين منزلة أو سناً: «كلنا على باب كريم»، أي كلنا على باب الله الكريم ننتظر رحمته. وهذا مثل عن الشهادة عند الدروز برجل صالح:

«بسم الله الرحمن الرحيم. ياحضرات المشايخ. الشهادة من الايمان، وشهادة الحق واجبة على الانسان. الفقيد، الله يرحمو، ابن هَ الضيعة، وكلكم بتعرفوه. ونحن منعرف عنو أكثر من غيرنا؛ لأنّو جارنا، والمثل بيقول: مين أخبر بسرارك ربك وجارك. كان كريم، سخي، نخي، أمين، صادق، صاحب البيت الواسع، صاحب المروّة الغزيرة، سريع الندهة، فضّاض المشاكل، مفتاح للخير ومغلاق للشر، تعبان على رزق الحلال، عميّل الخير والحسنات. منأمل منكم تشملوه وتشملونا بالرحمة. الله يرحمو». وإذا كان الشاهد أحد رجال الدين يتوجه الى المشايخ بالقول في آخر شهادته، وقبل طلب الرحمة للميت، بالقول التالي: «نأمل منكم صفو الخاطر».

---

(١) نقلة: انتقال روح المرء من جسد انسان متوفى الى جسد انسان مولود بحسب عقيدة التقمص التي يؤمن بها الدروز. على الطاعة: طاعة الله والتدين.

(٢) تلفظ كلمة يشملونا بدون حرف «ان» الذي يجب ان يسبقها. والرحمة المطلوبة من الشاهد هي دعاء المشايخ إلى الله ان يرحم الميت؛ إذ لا يطلبون الرحمة من الله الا لمن احسنوا الظن فيه، واعتبروه مستحقاً لها.

يتوجه الناس بالدعاء الى الله في كل وقت طالبين ان يرحمهم ويحفظهم، ويسدد خطاهم، ويغفر ذنوبهم، ويبعد الأشرار عنهم، وينصرهم. وان كان الدعاء الى الله وطلب رحمته من صميم العبادة عند المؤمنين الروحانيين، ومن تعابير الصلوات الكثيرة التي يتلونها والابتهالات التي يتوجهون بها الى الله، فإنه عند الزمنيين مألوف أيضاً ووارد في الكثير من العبارات التي اعتادوا ترديدها.

ورحمة الله هي مطلب الانسان لنفسه ومطلبه للآخرين، ولا سيما لأهله ومحبيه وسواهم ممن يقدرهم ويكبر أعمالهم ومآتيهم وفضائلهم. ونظراً لأهميتها اتخذت صيغة القسم؛ اذ من عادة الكثيرين ان يقسموا برحمة اعزائهم، فيقولون مثلاً: برحمة أبي - برحمة ابني، فيكون هذا قسماً كقسمهم بالله وبشرفهم وعرضهم.

وكما يدعو الناس الى الله ان يرحمهم احياءً، وان يرحم احباءهم الاحياء، يدعون اليه ان يرحم الاموات ويغفر ذنوبهم ويدخلهم جنته. وحين يتكلمون عن الأموات، يقولون انهم انتقلوا الى رحمة الله.

ان عبارة الرحمة ومشتقاتها تتردد كثيراً في التوراة والانجيل مثل «يا ربّ في السماء رحمتك، وإلى الغيوم امانتك... اللهم ما اثمن رحمتك. ان بني آدم يعتصمون بظل جناحيك... ادمْ رحمتك لمن يعرفونك، وللقلوب المستقيمة برك»[1]. «اللهم تأملنا في رحمتك في وسط هيكلك»[2]. والكهنة والشمامسة يرتلون وهم سائرون وراء الصليب وامام الجنازة «ارحمني يا الله بحسب رحمتك. وبكثرة رأفتك امح معاصي، زدني غسلاً من اثمي، ومن خطيئتي طهرني»[3].

وعبارات: الرحمة، والله غفور، والله رحيم، تتردد في آيات القرآن الكريم «ان ربي غفور رحيم»[4]. وتكون رحمة الله للناس بادخالهم في عباده الصالحين «وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين»[5]. «وادخلناه في رحمتنا أنه من الصالحين»[6]. ومن أتى الله بقلب سليم، واستغفر واستغفر له الرسول، وجد الله غفوراً رحيماً.

ويطلب المسلمون الرحمة للميت عملاً بقول الرسول ﷺ: «إذا صليتم على الميت

(١) المزمور ٣٦ .
(٢) المزمور ٤٨ .
(٣) المزمور ٥٠ .
(٤) سورة يوسف، الآية ٥٣ .
(٥) سورة النمل، الآية ١٩ .
(٦) سورة الانبياء، الاية ٧٥ .

فاخلصوا له الدعاء»[1]. ويكفي ادنى دعاء. وأقل الادعية «اللهم اغفر له، اللهم ارحمه».

ليس على الميت المسلم دعاء مؤقت، والأولى ان يدعو لنفسه ولوالديه وللميت وللمسلمين بما روي عن الرسول ﷺ أنه إذا صلى على الجنازة قال: «اللهم اغفر لحينا وميتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وانثانا. اللهم من احييته منا فاحيه على الاسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الايمان. اللهم لا تحرمنا اجره، ولا تضلنا بعده»[2].

ومن الادعية: «اللهم انه عبدك، وابن أمتك، يشهد ان لا إله الا أنت، وحدك لا شريك لك، ويشهد ان محمداً عبدك ورسولك، أصبح فقيراً الى رحمتك، وأصبحت غنياً عن عذابه، تخلى من الدنيا وأهلها، إن كان زاكياً فزكه، وان كان خاطئاً فاغفر له، اللهم لا تحرمنا اجره ولا تضلنا بعده»[3]. وقد ورد ذكر الادعية التي أخذ معظمها من أقوال الرسول ﷺ[4].

ومن الادعية قول المؤذن أو أحد الاشخاص للناس لمباشرة الصلاة على الميت: «امامكم رجل من أهل التوحيد. رحمه الله».

الرحمة عند الدروز

يتبع الدروز اسلوب الدعاء الى الله أن يعاملهم بالسماح وان يغفر خطاياهم ويرحم الاحياء والأموات عملاً بأقوال الرسول ﷺ التي وردت الاشارة اليها، فيقولون مثلاً عند ذكر أحد الاتقياء: «رحمة الله عليه» أو «الله يرحمه». ويقولون عند ذكر الحي الصالح: «الله يرحمه حي ميت». ومن أمثالهم: «اللي ما بينرحم طيّب ما بينرحم ميت»، ويطلبون الرحمة للميت عند الصلاة عليه بالقول: «الله يرحمه». ويقول دروز جبل العرب في الجمهورية العربية السورية: «الله يرحم اللي بيستاهل».

ومع الزمن تطور مفهوم الدعاء من دعاء الى الله ان يغفر للأحياء والأموات وان يشملهم برحمته، بغض النظر عن خيرهم وشرهم، صلاحهم وسوئهم، إلى شهادة بالميت يعطيها له المصلي قبل التكبير، مبنية على حسن الظن وكأنه استحق رحمة الله بلا ريب. واصبحت الصلاة على الميت تتضمن عدة ادعية، وذلك بدعاء المصلي الى الله أكثر من مرة أن يرحمه بهذا القول: «رحمه الله»، ورد المشيعين، أو بعضهم، بعده بالقول:

---

(١) رواه ابو داود وابن ماجه.
(٢) رواه احمد والترمذي وابو داود.
(٣) رواه ابن عباس واخرجه الحاكم في المستدرك.
(٤) انظر ص ٢٩٥ - ٢٩٧.

«الله يرحمه». وهذه الرحمات بتعددها من المصلّي من ناحية، وبعدم مساواة الموتى فيها من ناحية أخرى، أصبحت أقرب الى التأبين منها الى الصلاة الروحية التي درج عليها الأقدمون، واعتمدوها صلة بين قلوبهم ومولاهم، فصلّوا على أمواتهم بذكر الآيات الدينية بدون تصنيف أو مدح أو ثناء، وكانوا يكتفون بذكر هذه الآيات.

وحين تحول الدعاء المعروف عند الدروز بـ «الرحمة». الى شهادة، تعارف رجال الدين في الماضي على قواعد له طبقوها بأمانة كلية، فخصوا المتوفى العادي الذي لا مآثر له تذكر برحمة واحدة هي «رحمة الحليب» التي تعطى للجميع، وخصّوا البارز والمحسن والكريم والوجيه والشيخ الزمني برحمتين، وخصّوا البارز في تقواه وصلاحه بعدة رحمات. ودرجوا على التعريف برجل الدين المتوفى عند حضور اخوانهم المعزين من سائر القرى، وعلى القول لهم: «الله يرحمه» لكي يطلب له هؤلاء الرحمة من الله.

وما كان الاقدمون، ولا كان المصلون منهم، فيما مضى يعطون الرحمات الا لمستحقيها، وكانوا يعطونهم من الرحمات بحسب ما يستحقون. وكانت الرحمات بالفعل شهادات فيما يظهر من أعمال الناس ومسلكهم؛ لأن الله وحده يعلم ما في السرائر والضمائر. ولا رحمة عندهم للسارق والزاني والقاتل والمنتحر والماجن والسكّير و«المتفرنج» والخارج عن عادات الدروز وتقاليدهم بزواجه من غيرهم، فكان ذلك حافزاً لعمل الصلاح والخير والتمسك بمبادىء الجماعة وتقاليدها، واحد الضوابط الاجتماعية، إذ كان يعوّل على رضى رجال الدين والرحمة الشهادة التي يعطونها للميت. ومن يموت مقطوعاً من هذه الرحمة، يعتبر منقوص القدر في الدنيا، ومحروماً في نظر البعض من رحمة الله.

لكن تحول الرحمة الشهادة، أحياناً، الى أمر استنسابي، وخضوعها لمزاج المصلين وأهوائهم وأغراضهم، ولضغط أهل الفقيد ومساوماتهم، اخرجاها عن مبدأ العدالة، وادخلاها في اطار التسييس والمصالح والمجاملات. فحاول المغفور له شيخ عقل الدروز، الشيخ محمد أبو شقرا، مع كبار رجال الدين، اعادة الرحمة الى دائرة الدعاء كما بدأت مع الاولين، واخراجها من دائرة التأبين والشهادة، واعتماد رحمة واحدة لجميع الأموات تحقيقاً للمساواة وإظهاراً للدروز بمظهر منظّم موحد، معتبرين ان التأبين وتعدد الرحمات أمر أدخله المصلّون مع تمادي الايام على الصلاة القديمة النفسية. ورأيهم هو التالي:

«الصلاة هي لغة: دعاء لله تعالى واستغفار منه، وهي شرعاً: أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير له ومختتمة بالتسليم. ولم تكن قط بمعنى المدح والثناء على الناس، أو تصنيف

الاموات في الصلاح والهدى درجات درجات. والتأبين وتعدد الرحمات في الصلاة ما هما الا وسيلة للتلاعب تبعاً للأهواء والأغراض، فيكون انقاص الرحمات أحياناً سبباً لانكسار قلوب المصابين، ويكون زيادتها بتأثير ضغط أو مساومة، أو لتبييض وجوه المصلين لدى أهل الميت، فتتسبب عن ذلك الانتقادات المرة لعدم العدل والنزاهة...

«وقد يتصور البعض ان قول: رحمه الله، والله يرحمه، هو شهادة في الميت عن فعل ماضٍ، وهذا خطأ؛ لأن السيد الامير، قدس المولى سرّه، قد بيّن ذلك في شرحه وأوضحه، وفسر قول: رحمه الله، والله يرحمه، انه طلب وسؤال للاستقبال وليس شهادة عن فعل ماض كما يتوهم البعض. ثم إذا فرض ان استجابة الخالق العظيم تحصل بنسبة تكرار الرحمة، فيكون من الاوجب تكرارها لمن كان محتاجاً اليها ممن قلت حسناتهم وكثرت سيئاتهم»[1].

لم يحظ طرح الشيخ محمد أبو شقرا بالاجماع. وسُيّس هذا الامر الديني الاجتماعي، ودخل عند البعض في اطار الغرضية (اليزبكية والجنبلاطية)، وغدا مظهراً من مظاهر الانقسام ومدخلاً اليه في الوقت نفسه، حتى انه كادت تحصل في بعض المآتم نزاعات لولا حكمة النخبة والعقلاء، وتفاديهم اياها، بسبب قول فريق بوجوب التقيد بالرحمة الواحدة، وقول فريق آخر بوجوب تعدد الرحمات والتشبث بالمتوارث، وبسبب مخالفة ما هو متفق عليه من هذين الامرين.

لا يزال موضوع الرحمة مسيّساً من البعض[2]. ومن اجل ابعاده عن الاستغلال والتجاذبات والصراعات الشخصية والفئوية، تُرك الامر للناس يصلون ويرحمون بحسب ما يريدون على أمل الاتفاق على حل نهائي موحد يسهل الوصول اليه بالعودة الى الاصول.

اننا نشهد منذ حوالى نصف قرن حتى الآن نوعين من اسلوب الدعاء للميت عند الصلاة عليه هما الدعاء الواحد، أي ما يسمى «الرحمة الواحدة» أو «الصلوية على الجديد»، والادعية العدة، أي ما يسمى «الرحمات» أو «الصلوية على القديم». ونص الرحمة الواحدة هو النص الذي وردت الاشارة اليه في الحديث عن الصلاة على الجنازة عند الدروز. اما نصوص الرحمات المتعددة، فهي كثيرة لاتحصى. وقد أورد

---

(١) طقوس الموحدين الدروز، مرجع مذكور سابقاً، ص ٦ - ٧.

(٢) حضرنا مآتم كثيرة لرجال تزوجوا من غير طائفة الدروز، وبينهم اشخاص مرموقون في المجتمع، لم يرحمهم المصلّي ورجال الدين بناءً على ما تمشى عليه السلف من عدم رحمة مثل هولاء، بينما رُحم رجل متزوج من امراتين من غير الطائفة رحمتين؛ لان ابنه سياسي بارز، ولأنه من الفئة التي تقول بتعدد الرحمات.

الشيخ اسعد العقيلي بعضاً منها فذكر ما يستحسن قوله للشيخ التقي، وللكبير، وللقاضي العادل، ولصاحب المنصب الاداري الرفيع، وللوجيه، وللشاب الاديب، وللسيدة التقية، وللسيدة الوجيهة، وللفتاة. وهذا ما يقال للشيخ التقي بعد الرحمة الاولى التي تقال للجميع، والذي يخصه بثلاث رحمات عداها:

«الصلاة على الشيخ الورع المفضال، المتحلي ببرود التقوى والكمال، والمجمّل بأحسن الصفات واكرم الخلال. رحمه الله.

«الصلاة على الزاهد العابد في الليالي والاسحار، التارك لمن بعده أحسن الآثار، المتجاوز عن الاساءات شأن الابرار. رحمه الله.

«الصلاة على الشيخ الجليل الطاهر، والبدر المنير الزاهر، الرافل بحلى الصدق والوداعة والصبر والقناعة، المرتوي من ماء الحكمة النمير، الطائع لربه القدير. رحمه الله».

وهذا ما يقال للسيدة التقية بعد الرحمة الاولى التي تقال للجميع، والذي يخصها برحمتين عداها:

«الصلاة على السيدة المصونة، والدرة المكنونة، القائمة بفروض الصلاة والعبادة، والمثابرة على أعمال الخير والاحسان، والمتوفرة على مراعاة ما أمر به الواحد الديّان. رحمها الله.

«الصلاة على النفس الطاهرة الزكية، فرع الدوحة الباسقة السنية، التي دلت أعمالها على حسن تقواها، ولم تبع دينها بدنياها، وسلكت طريق الابرار، واتبعت صراط الصالحين الاطهار. رحمها الله»[1].

التأبين

التأبين هو شهادات القوم الموجزة بالميت، والمراثي الارتجالية والمكتوبة التي تُقال في مأتمه وتذكاراته، نثراً أو شعراً، باللغة العامية أو باللغة الفصحى. كما ان بعض المعزين يثنون على الميت، ويعددون صفاته ومآثره، بعبارات موجزة عند تقديم التعازي لأهله.

نجد عند الدروز نوعاً من التأبين المختص بطلب الرحمة للميت هو «الشهادة»؛ إذ من العادات أن يشهد المعزون بالميت عند تقديم التعازي، وان يشهد به، قبل الصلاة،

---

(١) اسعد العقلبي، مجموعة الطقوس الدرزية في الزواج والموت والوصية، مطبعة الصفاء، كفرمتى، لبنان ١٩٣٥، ص ٣٢- ٣٦.

عليه، شخص أو أكثر مبيناً صلاحه وفضائله ومآثره. وكانت تتخلل الصلاة ذات الادعية المسماة «الرحمات» شهادات من المصلّي قبل طلب الرحمة له من الله. وعند سائر المسلمين شهادة بالميت من الشيخ الذي يصليه إذا كان من أصحاب البر والتقوى والفضائل. وعند النصارى تأبين للميت من الكاهن الذي يصليه، ويتولى التأبين في اثناء اجراء المراسم الدينية كاهن تختلف منزلته تبعاً لمنزلة الموتى وأهميتهم. وعلى العموم فإن رجال الدين يتخذون من الشهادة بالميت أو من تأبينه مدخلاً الى وعظ الناس، وحثهم على الصلاح والبر والعبادة، وأخذ العبرة من الموت لإصلاح أوضاعهم الدنيوية والعمل على مرضاة الله والحصول على رحمته في الآخرة.

ومن أساليب التأبين وأهمها القاء المراثي. ولم يكن في الماضي تحديد للوقت الذي يبدأ فيه، وللأشخاص المؤبنين وعددهم؛ إذ كان وقت المراثي يطول أو يقصر تبعاً لعدد المؤبنين وطول كلماتهم أو قصرها، وذلك دون حدوث الملل عند المشيّعين. لقد كان الناس في الماضي أكثر رغبة لسماع الخطب في المناسبات، وكانت المآتم مناسبات تبارٍ بين الادباء والشعراء، ومناسبات ابراز لمواهبهم في فن الخطابة وصياغة الكلمات البليغة وتقريض الشعر. أما المتطفلون على ولوج صناعة الكتابة وفن الالقاء، فهم موجودون في الماضي كما هم موجودون اليوم.

ومن الاصول تأبين الراثي للميت بنفسه الا إذا كان هناك سبب يحول دون حضوره المأتم، او كان لا يجيد الالقاء، أو يفتقر الى الصوت الجهوري، فيصح في هذه الحال ان يتلو تأبينه من يجيد الالقاء كما كان يحصل مع بعض علماء جبل عامل.

واضافة إلى تأبين الميت من قبل عارفيه، هناك تأبين له من التنظيم الذي ينتمي اليه أو الفئة المحسوب عليها كالغرضية سابقاً، والحزب والجمعية والنقابة وغير ذلك حالياً، وتأبين رسمي من ممثل الادارة أو السلطة قبل الصلاة عليه أو بعدها. وقد بدأ هذا في القرن التاسع عشر مع الأعيان وكبار الموظفين في الادارة في عهدي القائمقامية والمتصرفية، ثم تطور بعد ذلك ليشمل سائر الموظفين بعد انشاء دولة لبنان الكبير وتوسع الادارات أفقياً وعمودياً وزيادة عدد موظفيها.

كانت المراثي تقال قبل الصلاة عند المسلمين؛ لأنه من غير المستحب رثاء الميت بعدها، والمألوف هو المباشرة بالدفن بعد الانتهاء منها حالاً. والمراثي عند النصارى تقال بعد الصلاة على الميت، وتُتلى في دار الكنيسة لا في داخلها، ومهما أخذت من وقت يظل النعش أو التابوت مرفوعاً على الأكتاف، ويتناوب الشباب حمله. ويوم لم يكن هناك مكبّر للصوت كان المؤبن يقف في مكان يراه منه الجميع ويسمعونه، وكان أصحاب

الأصوات الجهورية هم سادة الرثاء وهم الذين تُسمع مراثيهم أكثر من غيرهم.

صار وقت القاء المراثي اليوم، عند الكثيرين، في اثناء تقبل التعازي. واقتصر الرثاء على المهم والضروري من الكلمات اختصاراً للوقت، وتخفيفاً من اعباء المعزين. وصار هناك عرّيف للاحتفال في أي مأتم، وكلمة لأهل الفقيد هي كلمة لعشيرته أو بلدته تتضمن اشادة به وشكراً للمعزين. ويستحسن رجال الدين الدروز عدم استعمال مكبرات الصوت في مآتم اخوانهم، وشهادات الناس فيهم على المراثي.

المراثي المعبرة الصادقة هي التي تصدر عن عارفي الميت ومحبيه، والتي تأتي شهادات حق. وأكثرها قبولاً عند الناس، وتأثيراً فيهم، القصائد التي تُقال بالعامية. وهذا النوع من الرثاء قديم؛ إذ كان شعراء الزجل يرثون أعيان القوم وأفاضلهم وشبابهم المميزين بدافع من شعور صادق، وإقراراً بحقيقة راهنة، لا طمعاً بالمال، فتأتي أبياتهم عفواً لا اصطناعاً، ويترك جمالها أبلغ الاثر في النفوس. ولقد اشار أمين نخلة الى ان مكتبة والده، رشيد نخله، ضمت مخطوطة من مائتي صفحة هي قصائد عامية نظمت في رثاء الامير قرقماز، والد الامير فخر الدين المعني الثاني[1]، وربما كان بعضها ندبات أنشدت في مأتمه.

بيد ان معظم مراثي شعراء الزجل اليوم باتت تُقال من باب الارتزاق ولقاء بدل مادي يخضع للمساومة أحياناً. وبات حضور أبرزهم من متطلبات المأتم الكبير، وخصوصاً في القرى، واحد التعابير عن ابهته وتكريم الميت. ومن لا يجدون من صفات الميت ومآثره الا القليل، يضربون على أوتار عواطف الحاضرين بالتطرق الى عائلاتهم وقراهم ومنطقتهم وتاريخهم، وإلى الأوضاع الراهنة والموضوعات المهمة، ويتحدثون عن الموت، ويضربون على أوتار عواطف أهل الميت بالتطرق الى اسمائهم وأوضاعهم وحزنهم.

الدفن

للمشاركة في تعزية أهل الميت، وفي أي مرحلة من مراحل تجهيزه، اجر من الله. والاجر الكبير هو في المشاركة بدفنه؛ إذ يفوق أجر الصلاة عليه. ولقد قال الرسول ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يصلي فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن كان له قيراطان»[2].

---

(١) انظر رشيد نخله، كتاب المنفى، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ١٩٥٦، ص ٢٧ .

(٢) متفق عليه.

بعد الانتهاء من التأبين ومن الصلاة على الجنازة يُنقل الميت إلى المدفن محمولاً على الاكتاف دون تفجع وصراخ؛ إذ لا يجوز حمله على الراحات والتفجع عليه بعد الصلاة. ويُنقل على قرع الجرس عند النصارى. ومن العادات المستحدثة نقل المسؤولين السياسين، والعسكريين على مختلف رتبهم، على اداء التحية الرسمية، ونقل المسؤولين في الاحزاب على اداء التحية الحزبية. ومن العادات القديمة اجراء عراضة كبيرة قبل ادخال الميت إلى القبر.

كان الدفن في الارض، وقبل أن يلجأ النصارى وبعض الدروز إلى اعتماد المدافن فوق الارض، هو الطريقة المعتمدة عند الجميع. وكان الاشخاص المتطوعون على سبيل الاجر يحفرون قبراً بحسب طول الميت بعرض متر وعمق ما يقارب المترين. وفي حين غدا حفر القبور في المدن مأجوراً، لا يزال في القرى عونةً وتطوعاً طلباً للأجر من الله، واظهاراً للتعاطف مع أهل الميت، أو وفاءً لفضل سابق. وبأقل من ساعة يُحفر القبر، ويُبنى اللحد، وتُجهّز «الرصايف».

وفي فصل الشتاء يُنصب شادر ليقي المتطوعين لحفر القبر المطر. ومما يساعد اليوم على اعداد القبر بسرعة اعتماد بلاطات حجرية جاهزة، أو بلاطات مصنوعة من الاسمنت.

يُنقل الميت من النعش مرفوعاً حتى الخصر الى القبر الذي أُعد له. وينزل رجل إلى الحفرة ويتناول بيديه الجثمان من رجال واقفين على حافتها ينزلونه بأيديهم أو يدلونه بالحبل. وتُنزل رجلا الميت أولاً الا إذا كان ذلك متعذراً. وأولى الناس عند المسلمين بإدخال الرجل القبر أولاهم بالصلاة عليه. وأولى الناس بإدخال المرأة قبرها محرمها ومن كان يحل له النظر اليها في حياتها، وان لم يوجدوا فكبار السن.

يوضع الميت المسلم على جنبه الايمن ووجهه إلى القبلة. وقد يضطر واضعه إلى تسنيد الجثة بحجر كي لا تنقلب الى وجهة أخرى. ويقول واضعه: «بسم الله وعلى ملة رسول الله وعلى سنّة رسول الله». ثم يحل رابطة الكفن عند رأسه ورجليه، ويكشف عن وجهه. ويوضع القطن تحت رأسه. وكانوا في الماضي يرشون الحناء على رأسه. ثم تُرصف الحجارة حوله لتمنع انهيار التراب عليه. ويُسقف القبر ببلاطة أو أكثر. ويُسدّ الفراغ بين البلاطات بحجارة صغيرة أو بأعشاب أو بالاثنين معاً لمنع تسرب التراب إلى الجثة. ويلقّن الشيخ الذي أجرى الصلاة الميت، أو يلقّنه أحد غيره، حجته الاخيرة. وهذا يسمى «تلقين الميت»، وهو من جملة المراسم الدينية. وأخيراً تُغطى الحفرة، وتُوضع فوقها الرياحين. وقد يُوضع عليها ما يدل على جنس المتوفى واسمه. ومن

العادات في بعض المناطق كما في جبل عامل «أن يبدأ باهالة التراب على الميت من ابتدأ بحفر القبر»(١).

لا يختلف دفن النصراني في الارض عن دفن المسلم الا في أمور ذات صلة بالديانة. فالميت النصراني لا يُلقّن حجة عند الدفن، ويُوضع رأسه نحو الشرق دون ادارة وجهه نحو القبلة، وتُرسم شارة الصليب عند دفنه، وقد يُوضع على قبره ما يدل على جنسه ودينه واسمه.

أما ادخال الميت إلى القبر المبني فوق الارض (الخشخاشة)، فهو يتم على الشكل التالي: يُدخل رأس الميت النصراني أولاً، وتُوضع جثته باتجاه الباب وكأنه حاضر للقيامة، ورأسه الى النور. ويُدخل الميت الدرزي ويوضع بالشعائر الاسلامية الاساسية؛ إذ يُدخل رأسه أولاً، ويُوضع الى الغرب، ويكون قد وضع عند التوبتة، أي عند وضعه في التابوت، على جنبه الايمن ليواجه القبلة، ويقول من يدخله القبر: «بسم الله، وعلى ملة رسول الله، وعلى سنّة رسول الله».

لدى الانتهاء من مواراة الميت الثرى، او ادخاله الخشخاشة، وبعد تلقينه حجته عند المسلمين، يطلب المشاركون في ذلك الرحمة له، ويطلبون للاحياء السلامة، قائلين: «الله يرحمه، سلامة روس (رؤوس) الجميع». ويشكرهم أهل الميت بالقول: «نكافيكم بالأفراح». ويحمل كل من الحاضرين حثية من التراب بيده ويرميها بالأرض، والمسلم يفعل ذلك ثلاث مرات بعد تلقين الميت. ويعاد النعشُ مقلوباً أسفله أعلاه ليوضع في مكان العبادة.

بعد اتمام الدفن، وقراءة وصية الميت، وتوزيع الحسنة عن روحه في بعض أوساط المسلمين، يقف أهل القرية في صف، أو في صفين متقابلين عند الضرورة، لتقبل التعازي. وإذا لم يتسع المكان للجميع يقف مع أهل الميت أقاربهم اللزم وأفراد عشيرتهم ووجهاء العشائر الاخرى فقط. وكان من العادات في قرى جبل عامل وقوف أهل الميت اللزم وحدهم لتقبل التعازي.

يمر المشيعون أمام أهل القرية أو أمام أهل الميت على الصورة التالية: أكابر المشيعين من الروحيين والزمنيين أولاً، ثم يليهم سائر المشيعين قرية قرية، أو عشيرة عشيرة، واحداً بعد آخر بحسب منزلاتهم وأعمارهم، ثم أهل القرية من غير عشيرة الميت، ثم الاباعد من عشيرته. وتكون تعزية الجميع على الغالب مشالحة، وبقول احدى

(١) محسن الامين، خطط جبل عامل، وردت الاشارة اليه، ص ١٤٣ .

العبارتين التاليتين: «العوض بسلامتكم ـ الله يرحمه». فيجيب أهل الميت بإحدى هذه العبارات: «ان شاء الله تظلوا بخير ـ تظلوا بخير ـ نكافئكم بالأفراح». ومن العبارات المألوفة عند المعزين المسلمين قول: «عظّم الله اجركم»، وجواب أهل الفقيد: «شكر الله سعيكم».

يمر اصدقاء الميت وعارفوه الى حيث تتجمع نساء أهل الميت لتعزيتهن. ويلازم الاقرباء أهل الميت لمواساتهم إذا لم يكن عندهم ضيوف. أما معظم ابناء عشائر القرية بمن في ذلك ابناء عشيرة الميت، فإنهم يسرعون الى بيوتهم لاستقبال ضيوفهم ومعازيمهم وتقديم الطعام لهم، وبعده يعودون الى بيت الميت لمواصلة مواساة أهله وتسليتهم والوقوف إلى جانبهم.

ومن العادات التي لا تزال سارية عند المسلمين، ولا سيما عند جميع رجال الدين ومعظم كبار السن من الزمنيين، قول كل من يلتقي بآخر بعد المشاركة في المأتم: «عظم الله أجرك»، وجواب المخاطب: «أجرك عند الله عظيم».

تلقين الميت عند المسلمين

تلقين الميت نوع من الدعاء له، وعادة مستقاة من سنّة فعلية قام بها النبي ﷺ، وتوسع بها بعض الفقهاء وجعلوا لها دعاء. فالنبي ﷺ كان يقف الى قبر الميت بعد وضع اللحد عليه، ويقول: سلوا الله التثبيت فإنه الآن يسأل. والتثبيت يعني تثبيت الميت على حجته بعد سؤال الملكين له منكر ونكير. ومن هذا انطلق بعض الفقهاء في اجتهادهم، وأتوا بهذه البدعة الحسنة المسماة «تلقين الميت».

كما روي عن أبي أمامة الباهلي ان النبي ﷺ قال: «إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقف أحدكم عند رأس قبره ثم ليقل: يا فلان ابن فلانة فإنه يسمعه ولا يجيب، ثم ليقل: يا فلان ابن فلانة الثانية فيستوي قاعداً، ثم ليقل: يا فلان ابن فلانة فإنه يقول: ارشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون، فيقول: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله وانك رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، وبالقرآن إماماً. فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول: انطلق فما يقعدنا عند هذا وقد لُقّن حجته، ويكون الله تعالى حجته دونهما. فقال رجل: يارسول الله فإن لم يعرف اسم أمه، قال: فلينسبه الى حواء»[1].

مما ورد انطلق بعض الفقهاء في اجتهادهم فاعتمدوا التلقين بينما رفضه غيرهم.

(١) المغني والشرح الكبير، مصدر مذكور سابقاً، جـ ٢ ص ٣٨١ . ايضاً الشوكاني، نيل الاوطار، وردت الاشارة اليه، جـ ٤ ص ٨٩ - ٩٠ .

فالتلقين مستحب عند الشافعية والحنابلة. وعنه ورد في «المغني والشرح الكبير» ما يلي: «فاما التلقين بعد الدفن، فلم أجد فيه عن أحد شيئاً ولا أعلم فيه للائمة قولاً سوى ما رواه الاثرم، قال: قلت لأبي عبدالله فهذا الذي يصنعون إذا دفن الميت يقف الرجل ويقول: يا فلان ابن فلان اذكر ما فارقت عليه شهادة ان لا اله الا الله، فقال: ما رأيت أحداً فعل هذا الا أهل الشام حين مات أبو المغيرة جاء انسان فقال ذاك»[1].

وما ذُكر أعلاه يفيد ان تلقين الميت معمول به في بلاد الشام فقط. وهو أمر مختلف فيه؛ إذ لا يعمل به مثلاً في المملكة العربية السعودية حيث يسيطر تيار الحركة الوهابية على اعتبار أنه لا أصل له وان الحديث الوارد عنه ضعيف، وعلى اعتبار ان التلقين للحي لا للميت.

وبناءً على ذلك اعتمد فريق من المسلمين تلقين الميت حجته بعد وضعه في القبر ووضع «الرصايف»، وقبل اهالة التراب على القبر. فيقف شخص عند رأسه ويتلو نصاً يتضمن ما روي عن النبي ﷺ. ويقوم بالتلقين عند السنّة والشيعة في لبنان، الذين لا يزالون يعتمدونه حتى اليوم، امام الجامع أو أي شخص آخر، وينهيه برمي حثيات من التراب على اللحد، وهكذا يفعل الحاضرون. وكان يقوم به عند الدروز، قبل ان يبطل في أوساطهم، المصلّي أو مطلق شخص يعرف نصه. فكما هناك مصلٍّ يصلّي على الميت، هناك ملقّن يلقّنه حجته. لكن الدروز أبطلوا تلقين الميت اختصاراً للوقت، وتخفيفاً من اعباء المشيعين، بعد ان ظل متبعاً حتى الثمانينات من القرن العشرين. وكتيب «مجموعة الطقوس الدرزية» الذي صدر سنة ١٩٣٥، أورده من بين المراسم الدينية التي تقام في المآتم.

تتفق نصوص تلقين الميت عند السنّة والشيعة والدروز في معناها، وتتفق في الكثير من عباراتها. كما تتفق على رمي ثلاث حثيات من التراب فتُرمى كل واحدة منها بعد كل جملة من الجمل الثلاث: ومنها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى. الا ان الشيعة يضيفون الى التلقين اسماء ائمتهم. وهذه نماذج من نصوص التلقين المعتمدة عند هذه الطوائف الثلاث.

نصّ التلقين عند السنّة: يقعد الملقّن عند رأس القبر ويقول: «يا عبدالله بن امة الله. اذكر ما خرجت عليه من دار الدنيا شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله، وان الجنة حق، وان النار حق، وان البعث حق، وان الساعة آتية لا ريب فيها، وان الله

---

(١) المغني والشرح الكبير، مصدر مذكور سابقاً، جـ ٢ ص ٣٨١ .

يبعث من في القبور، وانك رضيت بالله رباً، وبالاسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين اخواناً»[1].

وهذا نص آخر للتلقين معتمد عند السنّة في اقليم الخرّوب:

«يا عبدالله، وابن عبده وامته. إذا جاءك الملكان الشفوقان الرحيمان فسألاك عن ربك ونبيك وكتابك ودينك، فأجب بلسان صدق دون تلكؤ ولا تلعثم: الله ربي، والاسلام ديني، ومحمد نبيي، والقرآن الكريم كتابي، والكعبة قبلتي، والمسلمون اخواني، واني ولدت وعشت ومت على قول لا اله الا الله محمد رسول الله. منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى».

ان ما ورد أعلاه يظهر بوضوح اختلاف نص التلقين، ضمن الطائفة الاسلامية الواحدة، من منطقة الى منطقة، مع الاتفاق في المضمون والغرض الذين يرمي اليه التلقين.

نص التلقين عند الشيعة: «يا فلان ابن فلانة. (مرة واحدة) إذا أتاك الملكان الشقيقان الرفيقان، وسألاك من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فقل لهما قولاً بلا فزع ولا وجل: الله جل جلاله ربي، والاسلام ديني، ومحمد ﷺ نبيي، والقرآن كتابي، والكعبة قبلتي، وعلي إمامي، والحسن إمامي، والحسين إمامي، وعلي بن الحسين إمامي، ومحمد الباقر إمامي، وجعفر الصادق إمامي، وموسى الكاظم إمامي، وعلي الرضا إمامي، ومحمد الجواد إمامي، وعلي الهادي إمامي، والحسن العسكري إمامي، ومحمد بن الحسن صاحب العصر والزمان إمامي، هؤلاء، هؤلاء أئمتي ومصابيح الدجى توليتهم في الدنيا، وأرجو شفاعتهم في الآخرة.

«منها خلقناكم وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى. يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء. اللهم ثبته على الحق وقول الحق. انك أنت الحق القوي المتين. اللهم عفوك. اللهم عفوك. اللهم عفوك».

نص التلقين عند الدروز: «كل نفس ذائقة الموت. وانما توفون أجوركم يوم القيامة. فمن زحزح النار ودخل الجنة فقد فاز. وما الحياة الدنيا الاّ متاع الغرور. ياعبدالله يا ابن آدم وحواء امة الله، سامحك الله وعفا عنا وعنك، اذكر العهد الذي خرجت عليه من هذه الدنيا وهي شهادة لا آله الا الله وان محمداً رسول الله.

---

(١) الوجيز في الجنازة واحكامها، اعتنى بجمعه الشيخ عبد الحليم الحاج شحاذه. نشرة توجيهية. ١ ـ لا مكان للطبع وتاريخه ص ٢٠ .

«يا عبد الله اعلم ان الموت حق، وان النار حق، وان الصراط حق، وان سؤال منكر ونكير حق، وان الساعة آتية بغتة لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور. يا عبد الله إذا جاءك الملكان الشقيقان الرفيقان وهما منكر ونكير عليهما من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم، وسألاك ما دينك؟ ومن نبيك؟ وما كتابك؟ ومن اخوانك؟ وما قبلتك؟ وما فريضتك؟ فقل لهما بلا خوف ولا جزع: الكافي لي ولكما الله العظيم ربي (ثلاث مرات) والاسلام ديني، ومحمد ﷺ نبيي، والقرآن كتابي، والمسلمون والمسلمات اخوتي واخواتي، والكعبة قبلتي، والصلاة فريضتي، وأنا وأنتما على قول أشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله. لقّنك الله حجتك، وأقالك عثرتك، وبيّض صحيفتك، وآنسك في غربتك، وانزلنا واياك منزلاً مباركاً وهو خير المنزلين. فإن توليا فقل: حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم.

«هذا بلاغ للناس لينذروا به، وليعلموا انما هو اله واحد، وليذكر ألو الالباب، منها خلقناكم للأجر والاكتساب، وفيها نعيدكم للدود والتراب، ومنها نخرجكم تارة أخرى للجزاء والحساب. وأنتم أيها الحاضرون انصرفوا بالأجر والثواب، وميتكم الى رحمة الله الكريم الوهّاب»[1].

(١) مخطوطات دفاتر المصلّين والملقنين.

الفصل الرابع:

ما بعد الدفن ـ بعض العادات

التعزية بعد الدفن

عودة الاقارب والمساكنين، والاصدقاء من القرى الأخرى، مرة أو مرات إلى بيت الفقيد، واجبة لتسلية أهل الفقيد، أو بحسب التعابير الشعبية «التهدس بهم والتكسير عليهم» كي لا يبقوا وحدهم يعانون من وطأة الحزن وعذاب الفراق، فهم بحاجة للتعزية بعد الدفن كحاجتهم اليها قبله. وتتأتى التعزية من حضور الناس ومواساتهم، ومما كان يجري في اثناء تجمعهم في التذكارات وفي سواها من ندب ونياح وتعديد لصفات الميت وأعماله وما إلى ذلك من أمور.

ومع ان التعزية عند المسلمين غير جائزة شرعاً الا في الايام الثلاثة الأولى من تاريخ الوفاة، الا ان الضرورات قضت بتقبلها في غير ذلك من الأيام كالتذكارات. وبسبب التطور الذي طرأ على علاقات الناس وأوضاعهم، والتزام أكثريتهم بأعمال ووظائف، وتعدل المفاهيم، قلّت التذكارات التي كانت معتمدة لتقبل التعازي، وقلّت عودة الناس إلى بيت الميت سواء في التذكارات أم في غيرها. وباتت العودة تقتصر على الاقارب اللزم والاصدقاء، وان حصلت من غيرهم، فلمرة واحدة فقط عند الكثيرين.

وفي كل مرة يقول المعزّون في أوساط الدروز، عند الوصول: «كيف حالكم على هم خاطركم» أو «هادسين فيكم»، فيجاوبونهم: «الله لا يهم لكم خاطر ـ يجعل هداسكم بالخير». ويقول لهم المعزون عند الانصراف: «بيظل بالنا عندكم ـ ان شاء الله تكون خاتمة أحزانكم»، فيجاوبونهم على التعبير الاول: «ان شاء الله نكافيكم بالأفراح» وعلى التعبير الثاني: «أحزاننا وأحزانكم».

وأفضل تعزية في كل آن هي التعزية من الله. لذلك يردد المتدينون الآيات الدينية على

مسامع أهل الميت، كما يعمد بعض أهل الموتى الى قراءة ما يتيسر من هذه الايات كسباً للأجر، وإلى قراءة الأدعية طلباً للرحمة لميتهم. وعند الكثير من المسلمين يطغى ترتيل اجزاء القرآن على المظاهر الزمنية التي تهيج المشاعر وتزيد الحزن وتكسب الاثم.

وينفسح المجال واسعاً أمام المعزين للشهادة بالميت، والاشادة بمناقبه وصفاته، وترديد الآيات الدينية والحكم والمواعظ والأمثال. وكل كلام مأثور يصح قوله في هذه المناسبة يعزي أهل الفقيد ويواسيهم، ويثلج صدورهم، ويهدّىء نفوسهم القلقة، ويبلسم جراحهم، ويصغّر مصيبتهم. وكل شيء يخلق صغيراً ويكبر الا المصيبة فهي تخلق كبيرة، وتصغر بالتعزية والصبر وعامل الزمن.

ويتخلل كلام المعزين الكثير من النصائح لأهل الميت بأن يكونوا أكبر من المصيبة، ويهوّنون عليهم مصيبتهم بذكر مصائب غيرهم الاشد والادهى. انهم ينصحون الارملة التي ترك لها زوجها أطفالاً بأن تسد غيبته، وتهتم بهؤلاء الاطفال. وينصحون الشاب الذي ترك له والده اخوة صغاراً بأن يكون رجل البيت وعموده، وان يحل مكان أبيه؛ لأن اخوته ليس لهم الاّه. وينصحون الوالد المفجوع بشاب من شبابه بأن يتماسك ويتجلد لكي يساعد في تخفيف المصاب عن ابنائه الآخرين، فالله الذي أخذ منه شاباً معوّض عليه بمجموعة شباب. ويقولون لمن يتوقعون ان يتحلى بالصبر بأن عليه أن يكون مثالاً للآخرين فيه. ويشيدون بالمتصبر قائلين بأن لا حاجة لمن يهوّن عليه المصيبة؛ لأنه هو الذي ينصح الآخرين. وهم ينصحون جميع أهل الميت بالصبر وبالرضى والتسليم بأحكام الله. وتندرج تعابير التعزية تحت العناوين التالية:

- في العمر المحدود: هذا عمره - هذا يومه - هذه ساعته - ابن تسعة لا يموت ابن عشرة، وابن عشرة لا يموت ابن تسعة - خلصوا الزيتات - هو هن المكتوبين. ومن العبارات ما يناقض الايمان بالعمر المحدود كالدعاء التالي: «اللي خاس[1] من عمرو يزيد بأعماركم».

- في حتمية الموت: هذا حال الدنيا. اللي بيخلق بدّو يموت - كلنا غلة الموت - الموت حق - نفذ المقدّر - المقدر كائن لا يُمحى - المكتوب ما منه مهروب - الدنيا دار ممر لا دار مقر - ما في غائب أقرب منه.

- في تساوي الناس بالموت: الموت كاس على جميع الناس - الموت لا يرحم أحد - الموت لا يميز بين طفل صغير وشيخ كبير - سبحان من ساوى عبيده بالموت.

(١) خاس: نقص.

ـ في قوة الله وعجز الانسان: سبحان من قهر عبيده بالموت ـ سبحان الدائم الباقي ـ لا يدوم الا وجه الله الكريم ـ يخسى العبد ويذل ـ الانسان زواله على وجه الارض ـ غريم يابس ـ كلنا ودائع ـ الله أخذ وديعته ـ صاحب الوديعة أخذ وديعته ـ حكم سَيِّد بعبيد ـ هو يمون ولا يُمان عليه، الزرع زرعه والحصاد عليه. ويقال في هذا الصدد عند موت الاطفال: ما في شجرة هدّت ثمارها.

ـ في الرضى والتسليم بأحكام الله: الارادة لله ـ هذه مشيئة الله ـ هيك الله رايد ـ حكم الله على الراس والعين ـ شو فينا نعمل؟ علينا نرض ونسلّم ـ الرضى والتسليم نهاية العلم والتعليم ـ من جزع من قضاء الله عبر به قضاء الله وهو مأثوم، ومن صبر على قضاء الله عبر به قضاء الله وهو مأجور.

ـ في الصبر: الله يلهم الصبر ـ الله يصبّر ـ الله يقدّركم على الصبر ـ الله يفتح القبر ويدبّ الصبر ـ ما عاد ينفع الا الصبر.

ـ في الثناء على الميت: فقيدة (خسارة) كبيرة على الجميع ـ كلنا خسرنا مثلما خسرتم ـ من خلّف ما مات، والمقصود بذلك ان من يخلّف ذكراً طيباً وابناء صالحين، تستمر حياته بهما ـ تارك رصيد كبير.

ـ في العوامل التي تخفف وقع المصاب: يتهنّا أو نيّالو على هذه الموتة، وتُقال في من لم يمرض ومات موتاً سريعاً أو فجائياً ـ الحمد لله حصّل، وتُقال في كل من كان له مأتم كبير ورحمة واسعة وشهادة حسنة ـ ان شاء الله نحصّل مثلما حصّل ـ الحمد لله راح من هذه الدنيا لا انغلب ولا غلّب، وتُقال في كل معمّر لم يعجز ولم يمرض ولم يكن عبئاً على أحد ـ الحمد لله راح مجبور الخاطر، وتُقال في من زوّج ابناءه وبناته على حياته ورأى ابناءهم.

ـ في الانسان الذي توفي في ليلة مباركة أو يوم مبارك: «ان شاء الله تكون نفسه من الخير».

الصلاة عن روح الميت

كما يُصلّى على الميت ويُدعى له عند الدفن، يُصلّى عن روحه ويُدعى له بعد الدفن. فبعد دفنه عند النصارى يحضر الكاهن لوضع البخور في مكان الاحتضار، أي لإجراء «رتبة شيل البخور». ويرافقه أحياناً أقارب الميت واصدقاؤه وجيرانه، فيفعل ذلك مع صلاة عن روح الميت. ويعيد هذا في مساء اليوم الذي يلي يوم الدفن. وصلواته في هذين اليومين مع الصلاة التي يقوم بها بعد الاحتضار مباشرة تصبح ثلاثاً. والعدد

«ثلاثة» تتضمنه عادات كثيرة، وهو يرمز الى عقيدة التثليث (الأب والابن والروح القدس). وتبخير المكان، الذي له دلالة دينية، هو في اعتقاد بعض عامة الناس سبيل الى طرد الأرواح الشريرة والأشباح المخيفة.

تجري المراسم الدينية أو القداديس في كل تذكار يُقام للميت، والتذكارات كثيرة عند النصارى. كما تُقام القداديس عن أرواح الأموات الذين دُفنوا في الغربة، والذين لم يُصلَّ على جنازتهم.

تُتلى عند المسلمين الآيات القرآنية الكريمة، ويُدعى للميت. ولا يزال هذا جارياً بشكل جماعي عند السنّة والشيعة حتى نهاية التذكار المعتمد، الثالث أو الاسبوع. وهو غير متّبع عند الدروز الا في التذكار. وتُسمى الصلاة التي تُقام عن روح الميت «القراءة»، أي قراءة القرآن، وتُلفظ «القراية». وإذا شملت جميع أجزاء القرآن الثلاثين تُسمى «الختمية». وهي تحصل في بيت الميت أو على قبره. ففي كل مساء يعود أهل القرية أو معظمهم إلى بيت الفقيد لمواساة أهله فيقرأون الفاتحة وسورة النبأ وسورة الاخلاص وسورة الفلق وسورة الناس، ويتلون القرآن أحياناً أجزاء، ويقرأون «الختمية» في التذكار.

ويوصي بعض المسلمين بتلاوة القرآن الكريم عن روحهم وعلى نيتهم مدة معينة هي على الغالب ثلاثة أيام كانت، ولا تزال، عند بعض الشيعة ثلاثة أيام متتالية على قبر الميت حيث يُنصب شادر للمقرئين بأجرٍ حسنة عن روح الميت. ويسمون ذلك «تونيسة». وفيما يقرأ الرجال عند الشيعة مجلس عاشوراء اضافة الى الآيات الدينية، تكتفي النساء بقراءة مجلس عاشوراء.

ان تلاوة القرآن الكريم والادعية الى الله والصدقة والصوم والحج على نية الفقيد، أمور مستحبة ومعتمدة، لكنها غير واجبة شرعاً، وغير مفيدة للميت. ففائدتها تعود الى القائمين بها، وهي، أي هذه الامور، تدل على رغبة الكثيرين في تلاوة القرآن وسماعه، والقيام بالواجبات الدينية، وفعل الخير والصدقة.

ومن العادات عند المسلمين زيارة القبور، فيذهب أهل الميت رجالاً ونساءً إلى القبر، ويذهب معهم عدد من أهل القرية يتراوح تبعاً لأهمية الميت، لكنه لا يشمل أهل القرية كلهم. ولا يزال هذا متبعاً في بعض القرى حتى اليوم. ففي جون، وعلى سبيل المثال، لا يزال من العادات المتبعة عند الشيعة فيها ذهاب أهل الميت الى االقبر في اليوم الثاني لقراءة الفاتحة وإحراق البخور، ويسمى ذلك «فك الوحدة»، وذهابهم مع أقاربهم واصدقائهم وبعض أهل البلدة إلى القبر في اليوم الثالث لقراءة الفاتحة وبعض السور الأخرى، وذهابهم إلى القبر في الاربعين لقراءة الفاتحة.

وإذا دُفن الميت المسلم في بلاد الغربة، يُصلى عن روحه في المأتم الذي يقام له في مسقط رأسه صَلاة تُدعى «صلاة الغائب». وقد صلّى النبي ﷺ صلاة الغائب على النجاشي. ويُتلى في «صلاة الغائب» على العموم ما يُتلى في الصلاة على الجنازة من آيات قرآنية كريمة. فعند الدروز، وعلى سبيل المثال، يشكل رجال الدين حلقة، ويقرأون سورة الفاتحة وسورة الاخلاص وسورة التكاثر. والمسلمون الذين يُدفنون في الحوادث بلا صلاة، يُصلّى عن روحهم عند امكانية القيام بذلك.

التذكارات

قضى تكريم الميت، وتحديد ايام معينة لتقبل التعازي به، وتحديد موعد لانتهاء تقبل هذه التعازي، وتحديد موعد لفك الحداد عليه، اقامة تذكارات له من بينها تذكار أساسي هو تجديد للمأتم وصورة مصغرة عنه. أما مآتم الأعيان والوجهاء والشباب، فكانت تستمر بعد الدفن اسبوعاً وأكثر، وبعضها يستمر حتى «الاربعين». لذا يكون كل يوم من هذه الايام بمثابة تذكار.

التذكار مناسبة لتقبل التعازي وتلاوة الآيات الدينية عن روح الميت. ومما كان يجري فيه أيضاً، بالإضافة اليهما، الندب والنياح والتعديد والبكاء، وزيارة القبر في المساء واضاءة الشموع والسرج عليه. كما كان يجري في تذكارات اكابر القوم طواف بالشلاح ولعب بالسيف والترس والقاء للمراثي. وكان الطعام، ولا يزال، يُقدم في التذكار في بعض الاوساط النصرانية والسنية والشيعية من قبل أهل الميت.

أهم التذكارات «الثالث» و«الاسبوع» و«الاربعين». والاربعون عادة فرعونية. أما التذكار السنوي، فكان معتمداً عند النصارى للصلاة عن روح الميت. وهو اليوم معتمد عندهم وعند سواهم للموتى البارزين من أجل ذلك، ومن أجل التعبير عن تقدير الناس ووفائهم لهم.

وهناك تذكار سنوي في بلدة الكرك في البقاع، معمول به منذ زمن طويل، اسمه «خميس الاموات»، يقع في نيسان من كل سنة. ففي هذا الخميس يزور اهل الكرك قبور الاموات، ويقرأون الفاتحة، ويوزع كل منهم الحلويات عن روح ميته.

تنبع أهمية الثالث عند النصارى من أهمية العدد (ثلاثة). وتنبع أهميته عند المسلمين من استحباب تقبل التعازي في ثلاثة أيام فقط.

وتنبع أهمية الاسبوع من أهمية العدد (سبعة). فأيام الاسبوع سبعة. والسموات سبع. والبحار سبعة. وأعمدة الحكمة سبعة. وعجائب الدنيا سبع الخ...

وتتبع أهمية الاربعين من أهمية العدد (اربعين). ان الاربعين يوماً هي المدة الضرورية لإقفال الدورة الحياتية لدودة الحرير، والمدة الضرورية لنمو العديد من النباتات، ومدة نفاس المرأة، ومدة الايام الحارة في الصيف المسماة «مربعنية الصيف»، والأيام الباردة في الشتاء المسماة «مربعنية الشتاء». وكان العدد (اربعون) المدة التي يُحجر في خلالها على المسافرين قبل السماح لهم بالاختلاط بأهل البلد عند ضرورة توقي الاوبئة المعدية الفتاكة. ومن هنا تسمية محل الحجر «الكرنتينا» نسبة إلى العدد الاجنبي "Quarantaine".

تُسمى تذكارات الميت عند النصارى «النياحات»، وكانت كثيرة؛ إذ هي، بالإضافة الى تذكارات الثالث والاسبوع والاربعين، التاسع والثاني عشر والثلاثون والستون ونصف السنوي والسنوي، وجميعها محطات زمنية. وكانوا يتخذون من التذكار السنوي مناسبة لفك أهل الميت الحداد، وهم يقيمون فيه اليوم قداساً عن روح الميت تتخلله اشادة بصفاته وأعماله ومآثره إذا كان من البارزين. وجرت محاولات لاختصار التذكارات منها منع المطران غسطين البستاني لها وطلبه الاكتفاء بواحد منها.

يقدم النصارى في كل تذكار حسنة قداديس للكهنة عن روح الميت هي الرسم المعروف بـ «الجزو»، وكانوا يقدمون عن روحه أيضاً الطعام المعروف بـ «النياحة». وبعضهم يقيم قداساً في التاسع يُجرى غالباً يوم الاحد اسمه «قداس قربان» نسبة إلى القربان الذي يقدم للحضور. ويقدمون الشموع للكنيسة، والزيت لإسراج قناديلها، ومنهم من يقدم لها صورة لتعلق على أحد جدرانها يكتب عليها «عن روح الميت فلان».

من النصارى من كان يكتفي بحضور أهل القرية للتذكار، ومنهم من كان يدعو له ابناء القرى المجاورة، والمعارف من غيرها، كما يدعو كهنة الجيرة لإقامة الصلوات عن روح الميت. وكان أهل الميت يزورون القبر، ولا سيما عند الصباح، فيبكون ويندبون، ويعودون إلى البيت بالندب والبكاء.

التعزية عند المسلمين جائزة شرعاً ومستحبة في الأيام الثلاثة الأولى، ومكروهة بعدها الا إذا كان المعزي غائباً حضر. لكنهم اعتمدوا ايضاً تذكارات الثالث والاسبوع والاربعين، كما تأثر بعضهم بمساكنيهم من النصارى، فاعتمدوا التذكار السنوي لفك الحداد. وهذه التذكارات مع تقديم الطعام فيها هي في نظر العلماء «من البدع المنكرة والعادات السيئة والأمور المستحدثة»[1].

---

(١) الشيخ محمد سليم جلال الدين، رسالة أحكام الجنائز، مرجع مذكور سابقاً، ص ٣٤ .

أهم تذكارات الميت عند المسلمين في الحاضر هي الثالث والاسبوع والاربعون، والتذكاران الاولان معتمدان عند الاكثرية الساحقة. وقد خصصوا التذكار السنوي للبارزين من الزعماء السياسيين والرؤساء الروحيين. وبعض الشيعة يعتمدون الاربعين بالإضافة الى الثالث والاسبوع، لكنهم لا يقدمون الطعام الا في الاربعين. وقد ألغى معظم الدروز التذكار، وهو الاسبوع فقط عند اكثريتهم، واستعاضوا عنه بأيام معينة لتقبل التعازي، أو بمواصلة تقبل التعازي لأيام تمتد إلى اسبوع أو اسبوعين بعد الدفن، او بتقبلها يوم الاحد (العطلة الرسمية الاسبوعية). ومن أسباب هذا الالغاء تركيزهم على المأتم وعلى دعوة جميع المناعي اليه. والذين لا يزالون يقيمون التذكار يقيمونه في الاسبوع كبلدتي نيحا وبعقلين، مع الاشارة الى ان الاسبوع غير معتمد عند جميع عائلات بعقلين.

والدروز، بعكس السنّة والشيعة، لا يقدم أهل الميت منهم الطعام للحاضرين في التذكار، كما لا يقدمونه في المأتم. وفي حين اكتفى بعضهم من المراسم الدينية، في الفترة الأخيرة، بقراءة الفاتحة في التذكار، ظل السنّة والشيعة يقيمون الصلاة، ويقرأون القرآن عن روح الميت. ومن العادات عند الشيعة ان يكون مأتم الحسين جزءاً من حفل التأبين المقام للميت، أو مجلس الفاتحة المعقود له.

الحداد

الحداد أو الاحداد هو التعبير عن استمرارية الحزن لفترة معينة. وهو في اللغة «ثياب المآتم السود». ويمكن تعريفه أيضاً أنه اظهار للحزن والانصراف عن مظاهر الفرح وملذات الحياة.

يحل الحداد، عند المسلمين، للرجال على أي كان لمدة ثلاثة أيام، ويحل للمرأة على زوجها لمدة اربعة أشهر وعشرة أيام، أي في مدة عدتها، فلقد قال الله تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن اربعة أشهر وعشراً»[1]. وبناءً على هذا فإن حداد المرأة على الزوج أكثر من حداد الزوج عليها. وعلى المرأة المسلمة الحادة ان تترك الزينة والطيب، وان تلازم بيتها فلا تخرج منه الا عند الضرورة، وان تمتنع عن الزواج او اجراء العقد قبل مضي مدة العدة.

ومع ان الجمرة لا تحرق الا مكانها «الجمرة ما بتحرق الا مطرحها» بحسب التعبير

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٤ .

الشعبي، فإن التعاطف الاجتماعي يفرض المشاركة في الضراء كما في السراء. وتبعاً لذلك كان من جملة آداب المآتم وقواعدها مشاركة المحزونين في حزنهم وحدادهم لفترة معينة، وزيارتهم في يوم العيد للمواساة، وتأخير الافراح، وتخفيف او الغاء الابتهاج بالأعياد.

والحداد ملحوظ عند الزمنيين أكثر من الروحيين. ومظاهره أكثر ومدته أطول عند النصارى مما هي عند سائر الطوائف، ويليهم الدروز بسبب التأثير المتبادل الناتج من العيش المشترك في اكثرية القرى. وقد تجاوزت مدته عند الجميع الوقت الضروري الذي تتطلبه العاطفة البشرية لتأخذ حدها بسبب تعظيم أمر الموت ووضع الكثير من القواعد والآداب والعادات في مناسباته لإظهار التقدير للأموات والتعاطف بين الاحياء.

يجدد الحادون مآتم الموتى بإقامة التذكارات، ويزورون قبورهم ويبكون ويندبون، ويضيئونها بالسرج والشموع. وتزور النساء من أهل الميت وأقاربه قبره في اليوم التالي للدفن. وكان الرجال من أهل الميت وأقاربه واصدقائه الخلّص يلبسون السواد، ويكفّنون طرابيشهم وعمائمهم وكوفياتهم بغلالات سود، ويحلّون عقلهم، ويرسلون شعور رؤوسهم ولحاهم. وأكثر ما يظهر ذلك وتطول مدته عند اب الميت وابنائه واخوته. وعند موت زعيم المنطقة يشمل الحداد ابناء المنطقة كلها.

كانت النساء من أهل الميت وأقاربه يشحّرن الوجوه، ويلبسن السواد، ويضعن على الجبين عصبة سوداء، وتترك المعتادات منهن على التطيب والتزين جميع وسائلهما من كحل وتلون ولبس حلي وتصفيف شعر. وكن جميعاً يهملن غسل الوجوه والجسد والملابس، ولا ينشرن، عند اضطرارهن الى غسل الثياب بعد زمن، الا الملابس السود، والداكنة. وكان بعضهن يغتسل ويغسل الثياب في فترة ما قبل الاحتضار تحسباً لفترة الحداد. أما نساء الاسر المقاطعجية، «فكن في المنتصف الأول للقرن التاسع عشر ينزعن في حدادهن حلي الرأس والعنق، ويلبسن الثياب الزرق، عند موت الآباء والأمهات والأزواج»[1].

وكانت الارملة عند النصارى في بعض المناطق كعكار تضع محبس زوجها فوق محبسها للتأكيد على وفائها لذكراه، ومقابل ذلك كان يُحل شعر المخطوبة للدلالة على أنها أصبحت في حل من عقد الخطبة.

لا يجدّد الحادون أثاث البيت، ويهملون تزيينه المعروف ب «المرح» أي تصليح ورقة

---

(١) Henri Guys, beyrouth et le lIban, op.cit, T 2 P 116

جدرانه من الدلغان، ولا يدهنونه، بل يدهنون العتبة باللون الاسود، ولا يزينونه في الأعياد كي يمر العيد عليهم كسائر الأيام، ويقفلون النوافذ في بعض القرى حتى نهاية الاربعين.

يمتنع الحادون في بعض الأوساط عن تقديم واجب الضيافة، ويقدمون القهوة المرّة في أوساط أخرى؛ لأنها، بالإضافة إلى كونها واجباً رئيساً، دليل على مرارة العيش بينما القهوة الحلوة دليل على حلاوته بحسب الاعتقاد السائد. ويمتنعون عن صنع المآكل الطيبة، وبخاصة عن صنع الكبة والهريسة؛ لأنهما سيدتا الطعام في الولائم وما كانا يؤكلان الا في الأعياد والأفراح والمناسبات الطارئة السارة، وعند ذبح الخروف المعلّف، ولأن في دق الكبة بالمدقة في الجرن نغمة مفرحة. كما يمتنعون عن صنع الحلويات التي تصنع في الأعياد كالعك.

وما كان الحادون يفرحون بالعيد ولا «يفرقع» ابناؤهم فيه. وهم لا يضحكون، ولا يحضرون الحفلات، ولا يقومون الا بالزيارات الضرورية وواجب التعزية وعيادة المرضى وزيارة المتعرضين للحوادث والخسائر، ويمتنعون عن اجراء الخطبة وعقد الزواج.

كان الحداد ينفك عند المشاركين فيه لأهل الميت بعد مدة تطول أو تقصر تبعاً لأهمية الميت ودرجة قرابتهم له وحسن علاقتهم به، وهي على العموم تستمر الى الاربعين كحد أقصى. ففي هذا اليوم يحلق الرجال المشاركون شعورهم المرسلة، وتطوف نساء أهل الميت على نساء أهل القرية طالبات منهن خلع الثياب السود شاكرات لهن مشاركتهن، وتنشر الثياب السود المغسلة ايذاناً للنساء المشاركات في الحداد بنشر الغسيل. والبعض يشغلن راديو المحزونين ايذاناً لهم بفك الحداد.

أما حداد أهل الميت، فلم يكن له مدة واحدة تنطبق على الرجال والنساء وعلى جميع حالات الموت. ان حداد الزوجة على الزوج أكثر من حداده عليها، فموته بالنسبة اليها مؤلم جداً ولمدة طويلة، وموتها بالنسبة اليه، بحسب التعابير الشعبية، كدقة الكوع مؤلم وقتياً. وحداد الأخت على الأخ أكثر من حداده عليها أيضاً. والحداد على الشيخ والطفل أقل من الحداد على الشاب. والحداد على الفتاة أقل من الحداد على الفتى. والحداد على ابن اختاره الله من بين عدة ابناء أقل من الحداد على الابن الوحيد.

ان حداد المرأة النصرانية على الابن والزوج ينفك في التذكار السنوي. وحداد المرأة المسلمة على زوجها ينفك عند انتهاء عدتها. وحداد المقاطعجيين في جبل لبنان في المنتصف الأول للقرن التاسع عشر كان ينفك في الاربعين.

وكثيرة هي الحالات التي ينتهي فيها الحداد في غير تذكار معين أو وقت محدد.

فهو ينتهي طبيعياً عندما يأخذ حده تبعاً لمكانة الميت وعمره ووضعه، وينتهي نزولاً عند طلب الاقارب والاصدقاء، ولدى حصول مناسبة مفرحة كولادة طفل، وزواج قريب لا بد من اظهار الفرح فيه والاذن لأصحابه بالمباشرة به. وكان بعض من يجور الدهر عليهم بالوفيات المتلاحقة يفكون الحداد كي لا يكون اعتماده وإطالة مدته نذير شؤم على الاحياء الباقين.

ومقابل المراعاة لأوضاع المحزونين ومشاركتهم في حدادهم هناك مراعاة من المحزونين لأوضاع الآخرين تتمثل بالطلب اليهم ان يفرح أولادهم بالعيد و«يفرقعوا»، وبالاصرار على عدم تأخير العرس الذي تسبق الدعوة اليه الوفاة، وعلى عدم اختصار أي مظهر من مظاهر الفرح في الأعراس المنتظرة.

وعند الدروز غالباً ما كان يصر والد الميت أو أحد اخوته وابنائه على اتمام الفرح كالمعتاد عند الآخرين المشاركين له في حزنه؛ لأن للفرح موجبات وحقوقاً كما للكره موجبات وحقوق. ومن أجل هذا كان يحضر إلى بيت مشاركيه في الحداد، ويحورب حوروبة فرح تكون حلاً لهم من التزامهم الأدبي بالمشاركة، وإيذاناً بمباشرة الاحتفال بالعرس، ومدخلاً إلى الرقص والغناء والزغاريد. وكان المحزون في بعض أوساطهم كقرى الغرب في قضاء عاليه هو الذي يدعو سكان القرية إلى العرس بإنشاد ترويدة من على سطح عال بحسب الاسلوب المعتمد في الدعوة.

ضعف اليوم الحزن على الموتى. وقلت مظاهر الحداد عليهم، وقصرت مدته عند المحزونين أنفسهم، وضاقت دائرته عند الآخرين حتى باتت تشمل بعض الاقارب اللزم فقط بناءً على مفهوم يركّز على الاهتمام بشؤون الحياة أكثر من الانغماس بشجون الموت، والاقبال على الفرح الذي يجدي بدلاً من التمادي في الحزن الذي لا يعيد الأموات ويضر بالمحزونين عليهم.

وتبعاً لذلك اختفت، أو كادت تختفي، مشاركة المحزونين في حزنهم وحدادهم عند سائر أفراد عشيرة الميت وعند أهل القرية. وإذا بمظاهر الفرح من سماع راديو، ورؤية تلفزيون، وإقامة احتفال بعرس او خطبة او عيد ميلاد او نجاح في شهادة، تلي المأتم مباشرة أو تحصل في مساء يوم الدفن. وإذا بالزغاريد تنطلق من نادي القرية أو بيتها العام بعد يوم أو يومين من النياح فيه. ولا غرابة في اعتماد هذه الواقعية بسبب ازدياد السكان وتعدل طبيعة العلاقات الاجتماعية وتطور المفاهيم بفضل الوعي، الا ان التمادي في ذلك، ومن منطلق تحجر الاحساس مع الآخرين، يطعن في الصميم التعاطف الاجتماعي الذي ميّز حياة الاقدمين ولا سيما في القرى.

تحدد الشرائع وقوانين الأحوال الشخصية للطوائف في لبنان كيفية توزيع الارث. لكن الوصية ضرورية لتسهيل توزيعه، وتجنيب الورثة النزاعات التي قد تنشأ بينهم بسبب الاطماع ولتنافسهم على الجيد والثمين من الميراث ولاختلاف تقييمهم له. وهي قديمة. وضرورتها في الماضي أكثر منها اليوم؛ لأن قوانين الأحوال الشخصية التي وضعت للطوائف ابتداءً من سنة ١٩٤٨، وإنشاء المحاكم والتوسع فيها، سهّلت موضوع توزيع الارث وان يكن قد رُتّب عليه ضرائب للدولة، ومع ذلك فإن الاكثرية تعتمد الوصية اليوم.

ان الوصية تحدد ارادة المرء في توزيع تركته، أو توزيع المسموح به منها عند بعض المسلمين وهو الثلث، كما تحدد ارادته في توزيع الحسنة عن روحه. وهي ذات أهمية عند الدروز؛ لأن اجتهاداتهم المذهبية تسمح بتوزيع الارث على وارث وغير وارث وبحسب ارادة الموصي الذي يحق له التصرف بما يملك كيفما يشاء، ويحرم ويعطي من يشاء. فكل الارث عندهم ايصائي بعكس السنّة الذين لا تصح الوصية عندهم لوارث.

وقد درج الدروز على الاسراع في كتابة وصاياهم لئلا يباغت الموت أحدهم وهو غير فاعل ذلك. وفي حال غيابها يطبّقون الشرع الاسلامي، المذهب الحنفي. والدروز في اسراعهم بكتابة الوصية يطبّقون الحديث النبوي الشريف الذي يقول: «ما حق امرىء مسلم يبيت ليلتين وله شيء يريد ان يوصي فيه الا ووصيته مكتوبة عند رأسه»[1]. وقد جاء في احدى مخطوطات الدروز الدينية القديمة ما يلي: «اعلموا أيها المؤمنون العاملون انه ليس لموحد ولا ينبغي له أن يبيت ليلة دون كتابة وصيته، وعليه ان يعدها مكتوبة عند رأسه، وهي حق على كل موحد».

كانت وصية الميت تُقرأ في المكان الذي تحصل فيه الصلاة عليه، مع امكانية قراءتها عند النصارى في الماضي في البيت. «والمصطلح عليه عند الدروز ان يُتلى صكها عند القبر بعد دفن الموصي على مسمع جميع الحضور»[2]. والقصد من قراءة الوصية أمام جمهور المشيعين أو جزء منهم، هو اشهارها واشهادهم على حقوق الورثة في حال فقدان الوصية او اخفائها. كما هناك قصد آخر هو ذكر الحسنة التي يشاء المرء توزيعها عن روحه بعد مماته اضافة الى الحسنات التي وزّعها في حياته. وبعد قراءتها كانت تودع عند أخ الميت او ابنه البكر، أو أحد الاقارب اللزم والثقات، أو عند الوصي على الابناء القاصرين. وعند بدء تسجيل الوصايا، صار يُكتفى بالاشارة اليها، ثم لم يعد هناك حاجة الى ذلك.

---

(١) رواه الجماعة.

(٢) ابراهيم الاسود، ذخائر لبنان، المطبعة العثمانية، بعبدا، لبنان ١٨٩٦ ص ١٢٩ - ١٣٠.

الحسنة هي مبالغ من المال وعقارات وغلات اراضي وإيرادات ابنية توهب الى الفقراء وأمكنة العبادة والمزارات والمؤسسات الخيرية طلباً للأجر من الله واكتساباً لرحمته. وكثيرون من الناس يخصصون مبلغاً من المال للحسنة يحيّدونه في بيتهم، أو يودعونه عند من يثقون به، أو يطلبون اقتطاعه من أحد ورثتهم أو منهم جميعاً بالتساوي. وإذا لم يكن هناك وصاة، وفي حال خلو الوصاة من الحسنة، يعمد أهل الميت الى توزيع الحسنة عن روحه تقيداً بالعادات المرعية، فلهم وله أجر في ذلك اشارت اليه الأحاديث النبوية الشريفة. ومن المبادىء المهمة المسارعة في تفريق الحسنة ليتعجل الثواب للميت.

يختلف مقدار الحسنة باختلاف الفئات والمراكز والثروات، وباختلاف العصور وقيمة العملة. لقد كانت غرشاً واحداً أو بضعة غروش للجهة الموصى لها في أواخر القرن التاسع عشر بحسب ما يرد في وصايا متوسطي الحال. ومن الحسنات انشاء السبل في المدن والقرى، وبناء مؤسسات وأبنية ذات منفعة عامة، وختم القرآن، والصلاة عن روح الميت، والصيام لأجله مدة معينة. وعلى الموصى بالصلاة والصيام ان يقوم بهما، أو يكلف شيخ القرية بهما مقابل اجر. وأفضل حسنة عن روح المتوفى هي المسارعة في وفاء ديونه.

قلّ ان يخلو مأتم عند الدروز، في الماضي، دون توزيع الحسنة عن روح الميت، او دون ذكر مقدارها في الوصية. وفي حال ذكرها في وصايا الفقراء، كان الحاضرون يرفضون اقتطاعها من مال ابناء هؤلاء الفقراء الذين تحلُّ عليهم الحسنة. وكان الموصون من رجال الدين لا يحصرون الحسنة بمراكز العبادة ومزارات الاولياء والاتقياء فحسب، بل يوزعونها أيضاً على اتقياء عصرهم وعلى اقربائهم ومحبيهم واصدقائهم.

وكان يتم توزيع الحسنة المالية عند الدروز بعد قراءة الوصية التي تعقب الصلاة على الميت. ومع ان معظم الوصايا اليوم تخلو من ذكر الحسنة، فإن الجميع يوزعون الحسنة عن أرواح موتاهم. وبات توزيع الحسنة يتم قبل الدفن وعند تقبل التعازي، فتوضع الحسنات في مغلفات، وتعطى الى مطلق معزٍ من القرية أو العشيرة أو الجهة التي يتبع لها مكان العبادة أو المزار أو المؤسسة الخيرية المقصودة بالحسنة.

ان الوفاء عن الذمة خيرٌ من الصدقة. لذا درج الناس على إعلام ذويهم بديونهم كي يبادروا الى دفعها بعد موتهم مما يورثونهم. كما درج ذوو الموتى على عادة الاسراع بوفاء الديون أو التكفل بها. وبما ان وفاء الكثيرين لديون مورثيهم متعذر في يوم المأتم لانشغالهم بالحزن وتقبل التعازي، فإنهم يفعلون ذلك في أقرب فرصة ممكنة من أجل استنزال الرحمات على أمواتهم، وكثرة الأدعية لهم الى الله، ومن أجل اعتبارات تتعلق بهم وبكرامتهم وبوضعهم الاجتماعي ومعنوياتهم.

ومن العادات عند السنّة والشيعة ان يقول الامام، أو الملقّن، أو أحد أقارب الميت، عند انزال الميت الى القبر أو بعد الانتهاء من الدفن: «ياجماعة. من منكم له على فلان (الميت) دين، أو له حق، فليعلنه أو فليسامحه. والبقية بحياتكم». وفي بعض قرى اقليم الخرّوب في قضاء الشوف يقال ذلك ثلاث مرات. ومن العادات ان يسامح بعض أصحاب الحقوق، ولا سيما أصحاب الحقوق الصغيرة، احتراماً منهم للموت، ومشاركة لأهل الميت في حزنهم، وتجنباً لما يكدّر خاطرهم من أمور، وابتغاء لكسب الاجر، معتبرين مسامحتهم حسنة لوجه الله.

لكن اكثرية أهل الموتى يلتزمون بدفع الديون المعلومة ويسرعون في وفائها تبرئةً لذمتهم وطلباً للرحمة لميتهم، ويستعلمون عن الديون المجهولة، ولا يقبلون بمسامحة الآخرين لميتهم، وعلى الاخص مسامحة أصحاب الديون الكبيرة، كي لا يكون ذلك ديناً ثقيلاً علهيم وعبئاً كبيراً مدى الحياة، فيكبرون اريحية المسامحين، ويشكرونهم، ويعطونهم حقوقهم، ويلحون عليهم عند رفضهم أخذها، أو يغتنمون مناسبة لرد الجميل لهم في المستقبل.

صنع أهل الميت الطعام

الكرم وإعداد الولائم من العادات العربية الأصيلة. وقد انسحب هذا الى كل المناسبات الاجتماعية بما فيها المآتم؛ إذ اعتاد العرب على إعداد الطعام فيها منذ عهد الجاهلية، وأطلقوا عليه اسم «الوضيمة». والوضم في اللغة «كل شيء يوضع عليه اللحم، والوضيمة: نزول القوم على الآخرين، وما يستتبع ذلك من اكرام لهم».

وكان صنع أهل الميت الطعام في مأتمه نوعاً من النياحة لما فيه من التثقيل عليهم وشغلهم مع ما هم فيه من انشغال بالحزن. «وعن جرير بن عبدالله البجلي قال: كنا نعدّ

الاجتماع الى أهل الميت وصنعة الطعام بعد دفنه من النياحة»[1]. وكان أهل الجاهلية يعقرون بقرة أو شاة عند قبر الميت ليأكل منها الطير والسباع للدلالة على كرم الميت بعد مماته ككرمه في حياته.

اقترن اعداد الطعام من قبل أهل الميت، عند المسلمين والمسيحيين في لبنان، بالحسنة عن روحه، وطلب الراحة الابدية لنفسه. ودخل في الطقوس الكنسية عند بعض طوائف النصارى، وغدا له صفة دينية، وسمي «النياحة»؛ اذ من العادات ان يسلق أهل الميت في الاحد الاول بعد الدفن الحنطة ويحلّونها بالسكر ويخلطونها بالجوز واللوز والصنوبر وحب الرمان والزبيب، ويحملونها على طبق أو أكثر إلى الكنيسة ليصلّي الكاهن عليها، ومن ثم يقدمونها للناس على باب الكنيسة، فيتناول كل منهم قبضة ويدعو للميت بالرحمة. وبعض النصارى كانوا يبذرون القمح في «الثالث» على القبر لتأكل منه الطيور حسنة عن روح الميت.

ان صنع الطعام للمعزين من قبل أهل الميت حسنةً عن روحه كأن من حق العامة كما هو من حق المقاطعجيين الذين تمتعوا في ظل النظام المقاطعجي بامتيازات كثيرة منها حق اطعام شيخ القرية للغرباء واستضافتهم في بيته أو في منزول القرية الذي يشرف عليه. وبفضل الحسنة عن روح الميت تحرر العامة من أحد قيود الاقطاع، ومارسوا حقاً في المآتم احتكره المقاطعجيون في المناسبات الأخرى. وقد تطور هذا الى حق طبيعي بعد الغاء امتيازات المقاطعجيين سواء كان بصفة حسنة عن روح الميت وتكريماً له، أو بصفة اداء الواجب ازاء المعزين في المأتم وفي التذكار الأساسي؛ لأن هؤلاء يأتون من قرى أخرى قد تكون بعيدة، وهم تبعاً لذلك بحاجة الى طعام، وأحياناً بحاجة الى منامة.

يصنع الاعيان الطعام على حسابهم في المآتم والتذكارات بواسطة خدمهم، ويصنعه عامة الناس بمساعدة اقربائهم وجيرانهم واصدقائهم الذين يهدونهم الذبائح والحبوب والسمن والارز. أما الضيافة كتقديم التبغ والمرطبات والقهوة المرة، فهي حديثة، وقد بدأت أولاً عند الأعيان والأغنياء، ثم عمّت عند معظم الناس باستثناء رجال الدين الذين يرون فيها وفي تقديم الطعام بدعة. وتعاد فناجين القهوة مع قول عبارة «الله يرحمه» أو «مخلوفة بالفرح».

يذكر المؤرخ ابن سباط ان مآدب الطعام في مأتم الامير السيد، قدّس الله سره،

---

(١) رواه احمد.

المتوفى سنة ٨٨٤ هـ ١٤٧٩ م، أُعدت للغرباء عن منطقة «الغرب»، فاستُهلك من اللحم بالرطل الدمشقي «ستماية وعشرون رطلاً، ومن الدقيق طحين نحو ثلاث غراير بالكيل الدمشقي. ولم يُصرف من ذلك على أهل البلاد (الغرب)، بل صُرف على الغرباء من المعاملة»[1]. ان هذا نموذج مما كان يُعَدّ للمعزين من طعام، وقس على ذلك مآتم سائر الأعيان الذين كانت موائد بعضهم ممدودة يومياً لزائريهم، فكيف للمعزّين بموتاهم.

أُبطلت عادة صنع أهل الميت للطعام عند الدروز قبل غيرهم من الطوائف في لبنان. وقد بدأ ذلك مع الشيخ الفاضل، رضي الله عنه، في اوائل القرن السابع عشر، الذي حرّمه عندما سمع أن أهل ميت لم يجدوا ما يقدمونه من اللحم لإعداد الطعام للمعزين سوى لحم بقرة يعتاشون منها.

وقد تقيد الدروز بنهي الشيخ الفاضل، وأبطلوا صنع أهل الميت للطعام في المآتم والتذكارات. ومما ساهم في ذلك كبار رجال الدين؛ لأن منع هذه العادة موافق للتعاليم الدينية، ولأن تناول الطعام في المآتم يضيع بعض الاجر من حضورها واداء واجب التعزية، كما ساهم فيه أيضاً قوة التعاطف الاجتماعي فيما بينهم التي حولت مهمة اعداد الطعام عن عاتق أهل الميت الى عاتق أهل القرية. لكن الأعيان لم يتقيدوا بالمنع بداعي الابهة والعظمة، ولأنهم لا يقبلون بأن يصنع أحد عنهم الطعام لمناعيهم. ولم يلجأ الزمنيون من الدروز الا في الفترة الأخيرة الى تقديم القهوة والتبغ في أيام تقبل التعازي لا في يوم المأتم.

ممن عمل على إبطال صنع أهل الميت للطعام الامير بشير الشهابي الثاني الذي طلب الى بعض المشايخ إبطال عوائد في مقاطعاتهم فيها ابهة وعظمة من بينها صنع أهل الميت للطعام، والاستعاضة عن هذا وعن عزائم أهل المحل للمعزين من خارج القرى بحمل هؤلاء المعزين «زهبتهم» أي طعامهم معهم.

وبما ان هذه العادة استمرت عند مشايخ النصارى، وعند وجهائهم وأغنيائهم. كما استمر معها عند سوى هؤلاء صنع الطعام عن أهل الميت، رأى المطران غسطين البستاني، مطران الشوف وصيدا، ضرورة ابطال صنع الطعام في المآتم، فحرمه على ابناء ابرشيته، وطلب الاكتفاء بالتعزية دون تناول أي شيء، في الحرب العالمية الثانية.

كان الفقراء من السنّة والشيعة يقدمون الطعام لقراء القرآن وحافري القبر بينما يقدم اغنياؤهم الطعام لجميع المعزين. ومع ارتفاع مستوى المعيشة وتعدل المفاهيم عمت

---

(١) ابن سباط، صدق الاخبار المعروف بتاريخ ابن سباط، تحقيق عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، لبنان ١٩٩٣، جـ ٢ ص ٨٩٨ .

عادة صنع أهل الميت للطعام اكثرية الأوساط السنية والشيعية بمن في ذلك أصحاب الدخل المحدود والفقراء، فهم يصنعون الطعام في التذكار المعتمد الذي هو «الثالث» أو «الاسبوع»، ويتعمدون شمول التذكار وقت الغداء ليأكل المعزون، وما يفضل عن هؤلاء يوزع على الناس، ولا سيما على الفقراء، حسنة عن روح الميت.

لا تزال عادة صنع أهل الميت للطعام متبعة عند بعض النصارى حتى اليوم، كما لا تزال متبعة عند بعض اغنياء الدروز وأعيانهم، وعند معظم السنّة والشيعة. وهناك اتجاه قوي اليوم لابطالها، ولا سيما في أوساط رجال الدين والمثقفين. ان بعض صانعي ذلك يقومون به لا عن اقتناع، بل مجاراة للآخرين، وكي لا يتهموا بالبخل. وهناك حالات موت هي فواجع كبيرة على الأهل كموت الشباب والنابهين، وهي لثقل مصابها تشكل عائقاً كبيراً أمام أهل الميت لاعداد الطعام، اوتقديمه، في اجواء الحزن الطاغية والبكاء والانشغال بالهم الثقيل. وصنع أهل الميت للطعام يرتب نفقات كثيرة بغنى عنها، ويضطرهم الى صرف أموال هم بحاجة اليها، ويزيد خسارتهم بالميت خسارة مادية أخرى.

لجميع هذه الاسباب صار هناك اقتناع بضرورة ابطال هذه العادة عند متبعيها. وهذا ينتظر خطوة جريئة يقدم عليها أحد أهل الموتى لتكون مقدمة للالغاء، أو ينتظر تحريماً دينياً لها أو موقفاً من شيوخ الدين ازاءها أو مفاهمة عامة بشأنها بين أهل القرية. فما يقدَّم من طعام وضيافة حسنة عن روح الميت يمكن ان يقدَّم كله أو بعضه في مجالات احسان أخرى عن روحه كالتبرع لأماكن العبادة وانشاء السبل وتأسيس المشاريع الخيرية أو المساهمة فيها.

صنع الطعام عن أهل الميت

لم يعد صنع الطعام في المآتم مع مرور الزمن حسنةً عن روح الميت ومن أجل طلب الرحمة له من الله بقدر ما صار ضرورة اجتماعية بالنسبة الى الغرباء الذين يضطرون الى تناوله بعد مضي ساعات عديدة على مغادرة بيوتهم، وبعضهم مضطر الى المبيت في القرية الناعية بسبب رداءة الطقس وبعد المسافات وبدائية وسائل النقل. فالفئات التي أبطلت عادة صنع أهل الميت للطعام اتبعت عادة صنع الطعام عن أهل الميت وتقديمه للمناعي (المعزين) قبل الدفن على العموم، وصنعه لأهل الميت المنشغلين بحزنهم عن اعداد الطعام، بل عن تناوله. وسمي هذا «الحمل» او «الحملان»[1].

---

(١) معنى الحمل هو حمل اعداد الطعام عن اهل الميت لا حمل الطعام اليهم؛ لإن بعض الناس يحملون الطعام الى بيوت اهل الموتى.

غدا اعداد أهل القرية للطعام واجباً عليهم مقابل حقهم في المشاركة في قرار النعي. واستثنت بعض القرى عشيرة الميت من هذا الواجب كما استثنتها من حمل الميت، ووضعتهما على عاتق سائر العشائر. وتبعاً لذلك يضع رجال القرية في حسابهم مجيء اصدقائهم وعارفيهم، فيحتاطون لذلك باعداد ما يكفي من الطعام لهم، «وتمد السفرة» في بيوت الوجهاء مرات عديدة لأفواج الضيوف. وكانت النساء تنصرف لإعداد الخبز ليلاً، والذبيحة أو الذبائح تُعلَّق في دكاكين القرية لتأمين اللحم للمآدب ما عدا ذبائح البيوت.

ولم يكن جميع أهل القرية قادرين على صنع الطعام. وقد يكون المرء كريماً، لكن ضيق ذات اليد يمنعه عن الاستمرار في اعداد الولائم. ومع هذا فإن معظم أهل القرية كانوا يدعون لتناول الطعام عندهم (يعزمون)، وكل بحسب قدرته. والقرويون جاهزون لمثل هذه المناسبات، فمن مواشيهم وطيورهم وزيتهم ودبسهم، ومن خوابي المؤونة التي تمتلىء بالحبوب على مختلف أنواعها وبالسميد والقورما، يمكن اعداد الحد الادنى من أصناف الطعام.

كان أهل القرية يدعون المعزين بعد تقديمهم التعازي، ومنهم من يلاقي هؤلاء الى أول القرية مستبقاً غيره في دعوتهم، مستحصلاً منهم على وعد أكيد بتناول الطعام، أو المنامة عنده، أو على الاقل زيارته، ضامناً ذلك بأخذ راحلتهم الى داره، أو أخذ سترتهم التي يستغنون عنها.

وكانت دعوة المعزين لا تخلو من المنافسة بين الكرماء، ولا سيما في أوساط الدروز المشهورين بالالحاح على معازيمهم، مما كان يودي الى النزاعات بين الداعين، وإلى ارباك المدعوين، وتمزيق ثياب بعضهم جراء تجاذب القوم لهم. وكان عند النصارى عادة وضع الطعام الذي يعده أحد الوجهاء أو أحد اقارب الميت في دار الكنيسة أو في احدى الدور الواسعة.

وغالباً ما كان المعّزون يقسّمون أنفسهم بين أهل قرية الميت، ويصممون مسبقاً على الاكل أو المنامة عند شخص معين، عادلين فيما بين اصدقائهم وأقاربهم، فمرة عند هذا ومرة عند ذاك، لذا لا يقبلون دعوة أي كان. ووضع راحلة المرء أمام بيت، أو في زريبة، معناه انه سيكون ضيف صاحبهما. وبعض الناس يظلون محافظين على العهد، أمينين لذكرى الاصدقاء الموتى، حريصين على استمرارية العلاقة مع ابنائهم، فيحلون ضيوفاً في بيوت هؤلاء حتى لو كانوا صغاراً، ويتناولون الطعام وينامون كي لا يغيروا العوائد عليهم.

وكثيراً ما كان أهل القرية يتقاسمون المعزين من رجال ونساء فيما بينهم بالعدل والتراضي، وضمن اطار الاحترام المتبادل وحفظ الحقوق، فيأخذ كل منهم حصته؛ لان بيتاً واحداً أو عدة بيوت مهما اتسعت تضيق عن ايواء جميع المعزين وتُرهَق باطعامهم، ولان عدم حضور أحد إلى بيت انسان معروف يعتبر خفضاً لمنزلته. لذا كانوا يحفظ بعضهم حقوق بعضهم الآخر وحقوق الغائبين عند تقديم الدعوات، ولا يتطفلون ويطمعون إذا سبقوا في الدعوة. وإذا ما شعر أحدهم ان بيت أحد اقربائه يخلو من ضيف نائم لسبب ما، أرسل اليه بعض ضيوفه جبراً لخاطره وحفظاً لكرامة بيته.

كانت عادة صنع الطعام عن أهل الميت ظاهرة عند الدروز أكثر مما هي عند مساكنيهم نظراً لطبيعة علاقاتهم ولمفاهيمهم ونظراً لأنهم ابطلوا عادة صنع الطعام من قبل أهل الميت، مما أدى الى ارتفاع أصوات الغير والمصلحين لإبطالها، ولتعميم موقف رجال الدين منها على الآخرين. فرجال الدين بخلاف الزمنيين لا يتناولون الضيافة والطعام في المآتم، لا «خوفاً من المال الحرام» كما جاء عند لحد خاطر[1]، بل عن ايمان بمبدأ الاجر؛ لأنهم يعتبرون حضور المأتم أجراً (اجرية)، ويمتنعون عن أكل شيء فيه عند أي كان كي لا يضيع أجرهم أو ينتقص منه، ويعمدون عند الضرورة وفي المآتم البعيدة الى حمل زادهم معهم.

من جملة الاحتجاجات على عادة صنع الطعام في المآتم والمساعي لإبطالها اجتماع رجال الدين من دروز المتن الاعلى في ٤ رجب ١٣١٢ (أول كانون الثاني ١٨٩٥) الذي أوصى بالسلوك بمقتضى ارادة الله والرضوخ لأوامر اوليائه الاطهار والسادة الابرار لما ينهون عنه، وبترك عادة الأكل في المآتم «الممقوتة من الله ومن عبيده»[2]. بيد ان تحريم هذا الاجتماع لصنع الطعام وسائر المبادرات لمنعه لم يخرجا من اطار التوصيات والاحتجاجات الى اطار التنفيذ؛ لأننا شهدنا في المنتصف الثاني من القرن العشرين استمرار شيوعه عند جميع الدروز، وهو لم يبطل الا مؤخراً. واني لأذكر النقد الشديد الذي تعرض له في القرى في أوائل الستينات، تهاون البعض في دعوة المعزين الى بيوتهم.

ضعفت مع الزمن ضرورة صنع الطعام للمعزين عن أهل الميت. ورافق ضعفه التخلي شيئاً فشيئاً عن اشتراك أهل القرية في قرار النعي. ومما ساهم في ابطاله

(١) لحد خاطر، العادات والتقاليد...، مرجع مذكور سابقاً، جـ ١ ص ٤٣٦ .
(٢) انظر عن هذا الاجتماع، يوسف ابراهيم يزبك، اوراق لبنانية، دار الرائد اللبناني، الحازمية، لبنان ١٩٨٣، المجلد الثالث، ص ٦٥٨ .

تدريجاً منذ اوائل الربع الاخير من القرن العشرين ارتباط القرى بشبكة من المواصلات، وارتباط معظم الناس بأعمال ووظائف تضطرهم الى الاسراع في العودة الى قراهم ومراكز أعمالهم بعد تقديم التعازي، ونشوب الحوادث اللبنانية في سنة ١٩٧٥، وتطور العلاقات الاجتماعية والمفاهيم، وتبدل الأوضاع المعيشية. وما يولم من المآدب حالياً هو لبعض الآتين من قرى ومناطق نائية، ولا سيما للأقارب.

وإذا كان صنع أهل الميت الطعام للمعزين غير مستحب، وحمله عنهم معمولاً به في الماضي، وغير اضطراري اليوم، فإن صنعه لهم مشروع،ومعمول به في الماضي، ولا يزال متبعاً في الحاضر؛ لأن فيه اعانة لهم وجبراً لقلوبهم، ولأنهم ينشغلون بمصيبتهم وحزنهم عن اعداد الطعام لأنفسهم. وقد روي عن الرسول ﷺ قوله حين جاءه نعي جعفر: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً فإنه قد أتاهم أمر شغلهم».

من العادات عند من يعد من أهل الموتى الطعام في «الثالث» أو في «الاسبوع» صنع الاقارب والاصدقاء والجيران الاكل لهم ونقله الى بيوتهم مساء يوم الدفن. ومن العادات عند من لا يعد أهل الميت الطعام للمعزين دعوة أهل الميت الى تناول الطعام في أحد بيوت الجيران والاقارب والاصدقاء صباح يوم الدفن ومساءه وبعده ولأيام قد تبلغ اسبوعاً أو اسبوعين تبعاً لمنزلة ميتهم ولانشغالهم باستقبال المعزين، أو حمل الطعام لهم الى بيوتهم طوال هذه المدة.

وصنع الطعام لأهل الميت هو مع مساعدتهم مالياً، والاشتراك معهم في متطلبات المأتم واعبائه، نوع من المعروف وبادرة احسان او وفاء لفضل سابق، وهو أفضل تعبير عن التعاطف الاجتماعي. والهدف من دعوة أهل الميت لتناول الطعام في البيوت بالرغم من احتمال مجيء معزين في فترة غيابهم عن بيتهم هو نقلهم من اجواء الحزن والبكاء التي تسود بيتهم. ومشكلة تقبل المعزين في فترة تناول الطعام تُحل بقسمة أهل الميت الى فريقين: فريق يتناول الطعام، وفريق يمكث في البيت بانتظار المعزين. كما تحل بتقديم الطعام في فترة لا يتوقع مجيء المعزين فيها او ان احتمال مجيئهم ضعيف.

بعض الأوهام

كان الناس، لخوفهم من الموت، يتشاءمون من كل أمر يبدو لهم غير طبيعي في حالة المرض؛ لأن هذا يرمز الى موت المريض. وكان من مزاعمهم وأوهامهم أيضاً ان الميت يتحول الى مصدر للضرر والويل مما يحتم اتخاذ التدابير والاحتياطات التي تجنب ضرره المحتمل. ومن الاوهام والمزاعم ما يلي:

- اعتقاد البعض ان كسر صحن وما شابه، ونعيب البومة، وصياح الدجاجة كالديك، وعواء الكلب، غير الطبيعي، أي «العواء بالمقلوب» بحسب التعبير الشعبي، وما سوى ذلك من المظاهر الاستثنائية، المخالف بعضها للمألوف، التي تحصل في حالات المرض الشديد، نذير شؤم يتطيرون منها، ويتوقعون الموت للمريض.

- عدم غسل الميت من قبل امرأة عندها امكانية الولادة؛ لأن ذلك يدخل روحه، او جزءاً منه، اليها، فيجلب الضرر لها ولذريتها، إذا صح التعبير بكلمة «ذرية»، الكامنة في احشائها.

- تمزيق أو حرق القميص الذي كان على جسد الميت عند الوفاة؛ لأنه يحمل آثار الموت وجرثومته.

- عدم لبس ثياب الميت؛ لأن من يلبسها يلحق به.

- وضع شرشف جديد، لم يلامس جسد انسان آخر، تحت جسد الميت. واعتماد عكس ذلك يسبب خطراً على من لامس الشرشف في الماضي ومن يلامسه في المستقبل.

- طوي فراش الميت، او الشرشف الذي سجي عليه، كي لا يعود الميت وينام عليه، وكي لا يكون نذيراً لحصول وفاة قريبة اخرى. وهذا يشبه عادةً عند مسلمي حلب هي كسر اناء خزفي عند خروج نعش الميت من بيته كي لا يلحق به احد من أهله.

- تجنب الفشخ فوق الجثة، لا من قبيل احترام الموت، بل لأن من يفعل ذلك يلحق به الويل.

- عدم تمرير كأس ماء فوق الجثة؛ لأن من يشرب منها يلحق به الاذى.

- عدم تمرير غرض فوق الجثة؛ لأن في ذلك خطر امساك يد الميت باليد التي مررته، وباليد التي تسلمته.

- تجنب اضاءة شمعة من اخرى والصاقها بها لوضعها في غرفة الميت؛ لأن هذا يلصق روح الميت بأهله.

- تمزيق قميص الميت عند التوبتة، او عند الدفن، كي لا يبتلعها ويجر احد أهل بيته. وتسمير التابوت من احد اقارب المتوفى كي لا يلحق بالميت أحد أهله.

- الاعتقاد عند البعض بضرورة ادارة قدمي الميت الى الامام عند اخراجه من مكان عرضه؛ لأن ادارتها الى الوراء تجر وراءها أحد افراد بيته.

ـ تحطيم بعض اغراض الميت عند اخراجه من البيت؛ لأن في ذلك قطعاً للعلاقات معه، وتحاشياً لعودته من جديد.

ـ تكنيس المحل الذي عُرض الميت فيه، ورش البيت بالماء، لا لدافع صحي، بل لمحو اثار الميت التي اذا بقي أي منها يصيب عائلته الويل.

ـ تغيير اماكن المقاعد والأثاث كي لا يتعرف عليها الميت ويعود الى البيت، ففي عودته المزعومة خطر على المقيمين فيه، وتفويل بأخذ أحدهم. لذا يُعمد بهذه الطريقة الى تضليله كي لا يعرف بيته وفراشه وأثاثه ويعود.

ـ وقوع الميت من التابوت، او انفتاح التابوت، شر على حامليه، فكأنه دعوة اليهم للحاق به.

ـ اعتقاد بعض السذج من النصارى ان تبخير الكاهن لمكان الاحتضار يطرد الارواح الشريرة والاشباح المخيفة.

ـ اضاءة البيت بالشموع لمدة اسبوع فلا تعود روح الميت تدخله؛ لأن مكانها في الظلمة لا في النور.

ـ فتح أحد أبواب او احدى نوافذ البيت الذي تمر أمامه الجنازة ليطير الشؤم منه بسبب مرورها أمامه.

ـ حمل النعش بعد اخراج الميت منه مقلوباً، اسفله أعلاه، تجنباً لوضع ميت آخر فيه، ولأن في حمله صحيحاً خطر لحاق حامليه بالميت.

ـ التطير من فتح باب المقبرة بسبب الاعتقاد بأنه حين يُفتح لدفن انسان يُفتح لثلاثة من عشيرته، وفي بعض القرى اعتقاد بأنه يُفتح لأربعة او لسبعة، فيقولون «يربّع» او «يسبّع»، إذاً هناك اعتقاد بأن رجل الميت قد تكون «معقيلة»[1] تجر وراءها بعض افراد عائلته وأقاربه.

ـ تجنب الزيارات في المآتم وخصوصاً للمرضى كي لا يكون ذلك «تفويلاً» عليهم بالموت.

وفيما سبق دلالة على ان الانسان يصبح بعد موته، عند بعض الناس، مجموعة من المتناقضات. فهو المقبول المرفوض، المحبوب المكروه، الغالي الرخيص، القريب الغريب، الطاهر النجس، في آن، الذي يتحول الى مصدر للضرر والويل مما يحتم على أهله تجنب

---

(١) المعقيلة: عود معقوف يستعمله المزارعون.

خطر عودته، واعتماد تضليله كي لا يعرف بيته وفراشه وأثاثه ويعود، وفي عودته اليهم «تفويل» بأخذ احدهم. ولا يخاف الانسان من الميت في الرؤيا فقط، بل يخاف منه في الحلم أيضاً؛ إذ ان لظهوره في الحلم تفسيرات متشائمة، ويُخاف من قبره الموحش الكئيب الذي يصبح مسكناً للجان والارواح، ومصدراً للأفكار السوداء المزعجة.

المحمل

سمي المحمل بهذا الاسم لأنه مخصص لحمل الميت. وهو على نوعين: المعتم او النعش، والتابوت، المصنوعان من خشب.

المعتم تحريف لكلمة «مأتم»، أو لكلمة «معتِل» من فعل عتل بمعنى حمَلَ. وكلمة نعش تعني الارتفاع، ونَعَشَ معناها رفع. وأُطلق على النعش هذا الاسم لارتفاعه. وهو في الاصل شبه محفّة كان يُحمل عليها الملك إذا مرض، ثم صار سريراً للميت. فإن لم يكن على النعش ميت محمول فهو سرير بحسب ما جاء في لسان العرب. والتابوت صندوق مقفل، لفظته عبرية، باتت تُستعمل للدلالة على صدر الانسان.

اعتمد جميع اللبنانيين، في الماضي، النعش لحمل الجثة ونقلها الى القبر او نقلها من مكان الى آخر. وكانت الجثة تُثبَّت به بالحبال. وكان النعش في البداية عبارة عن ركيزتين غليظتين مثبتتين ببعض بأعواد وحبال وقماش. وقد تطور صنعه فغدا سريراً ضخماً ذا قاعدتين خشبيتين غليظتين متصلتين ببعض بمجموعة من الاخشاب القليلة العرض، تبرزان ما يقارب المتر من الامام والوراء ليُحمل بهما. له أربع قوائم، يُصنع من الخشب المتين، ويُزخرف، ويُطلى على العموم باللون الازرق، ويطيَّب بالكافور في بعض أوساط المسلمين.

كان النعش محملاً عاماً يُسجى عليه الاموات، ويُنقلون به الى المقابر حيث يُلحدون في التراب. وبعد ذلك يُعاد الى المكان المخصص له في القرية. وهذا ظاهرة مساواة بين الناس في زمن الطبقية والتفاوت الاجتماعي الحاد.

ومنذ أواسط القرن الثامن عشر بدأ النصارى يستعملون التابوت الخشبي لدفن الميت فيه. وفي هذا المجال يقول الخوري اسطفان البشعلاني: «كانوا يلحدون الميت دون تابوت في التراب، ثم صاروا يعملون له تابوت خشب يكلف «ضلطه» ثلاثين باره. وإذا زاد فلا يتجاوز ثمن الاخشاب خمسة قروش. ان تابوت الخورية انطون في أواسط القرن ١٨ كلف ثلاثين باره، وهي أول من وضعت في تابوت»[١].

---

(١) الخوري اسطفان البشعلاني، تاريخ بشعلي وصليما، وردت الاشارة اليه، ص ١٨٢ .

عمَّ استعمال التابوت عند النصارى لدفن الاموات فيه مع وضع شارة الصليب عليه. واقتدى بهم الدروز في استعماله. والبدعة عند الدروز ليست في اعتماده بديلاً عن المحمل، فهذا اليوم معتمد عند سائر المسلمين، بل في اعتماده للدفن، وفي ذلك تخلٍ عما درج عليه السلف من اللحد في التراب على الطريقة القديمة، وقد استُعملت التوابيت البيضاء لرجال الدين، والتوابيت المزخرفة ذات الالوان الزاهية للزمنيين.

ومما ساهم في تعميم استعمال التوابيت التوسعُ في بناء المدافن العامة والخاصة فوق الارض (الخشاخيش)؛ اذ لا يليق وضع الجثث مكشوفة فيها، وكان يخشى من تسرب روائح الاموات المدفونين فيها إذا دفنوا بدون توابيت. كما ساهم في تعميمها أيضا تطور المفاهيم، والرغبة في تكريم الاموات وإظهار الابهة والعظمة مما أدى الى زيادة نفقات المآتم، حتى ان بعض النصارى الميسورين كانوا يدفنون موتاهم بتوابيت في مدافن محفورة بالأرض قبل انتشار المدافن فوق الارض.

لم يُستغن عن النعش لنقل التابوت او لنقل الجثة في بدايات استعمال التابوت وبناء الخشاخيش؛ إذ كان الميت في بعض القرى يُنقل محمولاً على النعش الى فسحة المقابر ليصلّى عليه، ثم يوضع في التابوت ليدفن فيه بالمقبرة. ثم صار التابوت يُنقل محمولاًعلى النعش مثبتا به بالحبال. وبعد ذلك اسُتغني عن النعش، وصار التابوت يُستعمل للحمل والدفن معاً.

كانت التوابيت تُحضر من القصبات القريبة، او ينصرف نجار القرية الى صنع تابوت للميت اذا لم يكن عنده ما يصلح له. وكان بعض الناس يُحضرون التابوت من خارج القرية عند اشتداد المرض على مريضهم، او عند دخوله في مرحلة الاحتضار. ولم يكن هناك ضير من ان يدفن الفقراء موتاهم في تابوت مستعمل سابقاً يأخذونه من المدافن بعد «تعزيلها» أي تنظيفها. كما ان بعض الفقراء كانوا يعدون التابوت من اخشاب عادية، أو من اخشاب التوابيت القديمة المرمية الى جانب المدافن.

ومع اعتماد التابوت عند فريق من دروز لبنان لحمل الميت ودفنه فيه، ظل فريق آخر منهم يستعمل النعش لنقل التابوت؛ لأن النعش مريح للحاملين، ومسهّل لنقل الميت وعرض الجثة، ومغنٍ عن الكراسي او المنصّة التي يوضع عليها التابوت عند الصلاة على الميت. وفي حين ظل بعضهم يصنع النعش من خشب، كما أهل الباروك الذين صنعوا نعشاً خشبياً منذ سنوات، صنعه بعضهم الآخر من حديد، او من الالمينيوم الخفيف الوزن.

اننا نشهد اليوم، عند من اعتمد من الدروز التوابيت للدفن، اتجاهاً للاستغناء

عنها، وعودة الى استعمال النعوش والتوابيت للحمل فقط. فأهل الخريبة في الشوف الاعلى مثلاً يستعملون اليوم تابوتاً ونعشاً من المينيوم تُنقل فيهما جثث موتى القرية الى المدافن حيث توضع في جوارير في داخلها، ويُعاد التابوت والنعش الى بيت القرية العام. وبعض القرى صار يستعمل للغرض نفسه تابوتاً من المينيوم هو عبارة عن نعش مقفل ومحمل عام مخصص لنقل الميت. وهذه الطريقة يصح تعميمها؛ لأن فيها مساواة بين الاموات، وتوفيراً في نفقات المآتم.

ومقابل هذا التطور عند النصارى ومعظم الدروز في اعتماد التوابيت للدفن، وفي اعتماد الخشاخيش بدلاً من اللحود، ظل السنّة والشيعة في لبنان يلحدون أمواتهم في التراب، وصاروا يستعملون لنقلها النعوش المغطاة بقماش سميك، أو المغطاة، والتوابيت. وإقفال النعوش والتوابيت طريقة عصرية صحية تحفظ الجثة من المطر والريح والشمس، وتحجبها عن النظر، وتقي المشيعين ضرر رائحتها.

المدافن

حرص البشر منذ القدم على جثة الميت، فالإنسان البدائي كان يخشى عليها من عبث الوحوش والطيور، فيحضرها الى المغارة او الكهف ويحرسها ليلاً، ثم يدفنها في اليوم التالي تحت الارض، او يرصف عليها الحجارة في مكان مرتفع. ومقابل هذا الحرص عليها بدفنها، كانت بعض الشعوب تتخلص منها برميها للطيور الجارحة لكي تنهشها من قبيل الاسراع في تلفها، ودفع بلية العبث بها. وكان بعضها الآخر يتخلص منها سريعاً بحرقها ورميها في النهر، وهذا ما فعله أهل الهند الذين نشأت عندهم عادة حرق الجثث ورمي بقاياها في نهر الغانج المقدس عند مدينتهم باناريس Banaris.

أدى دفن جثث الموتى منذ أقدم الازمنة حتى اليوم الى نشوء المدافن التي تطورت شكلاً ونوعاً وحجماً وتزييناً بتطور الانسان ومعتقداته ومفاهيمه. فهي رجم من عدة حجارة، ومغاور، وكهوف، ولحود في التراب، وحفر في الصخر، ونواويس حجرية، ومدافن فوق الارض، ومدافن تضم الميت فقط، وأخرى تضمه مع مقتنياته وحاجاته المزعومة.

ان بناء المصريين القدماء للأهرام يعود الى ايمانهم بفكرة الخلود والحياة الثانية بعد الموت. لقد اعتقدوا ان الجسم تسكنه صورة مصغّرة عنه هي القرينة التي مثّلوها بذراعين مرفوعتين الى السماء وسموها « الكا»، وروح تقيم فيه اقامة الطائر مثلوها بالطائر وسموها «البا». واعتقدوا ان هذه العناصر الثلاثة يمكنها ان تحيا مجتمعة بعد

الموت مدة تطول او تقصر تبعاً للمدة التي يُحفظ فيها الجسد سليماً[1]. لذا حنّطوا اجساد الموتى، وبنوا الاهرام ليدفنوهم فيها، كما دفنوهم في مغاور الجبال وفي دهاليز حفروها في الصخور، ووضعوا الى جانبهم كل ما اعتقدوا انهم بحاجة اليه في حياتهم الثانية، وصوّروا الاطعمة على جدران المقابر معتقدين ان الصلاة من أجل الاموات تحولها الى مآكل حقيقية.

وفيما كان ايمان المصريين القدماء بالحياة الثانية بعد الموت سبباً لبناء أضخم المقابر في الدنيا (الاهرام)، يساعدهم في ذلك مقالع الحجارة الكثيرة المنتشرة في بلادهم، كان اعتقاد شعوب بلاد ما بين النهرين، القديمة، بنهاية الانسان بموته، وبعدم وجود حياة ثانية له بعد الموت، أهم أسباب عدم الاهتمام بالقبور، واعتماد اللحود البسيطة.

المدافن في لبنان احدى النواحي التي تتمظهر فيها العقائد الدينية والمفاهيم لمن توطنوه واحتلوه منذ العهود التي سادت فيها الوثنية الى العصور التي سادت فيها الاديان السماوية. فالفينيقيون اعتبروا القبر بيت الانسان الازلي، وهذا من أسباب دفن موتاهم في نواويس ووضع بعض كنوزهم معهم. والرومان والبيزنطيون دفنوا في نواويس حجرية، وفي مدافن محفورة في الصخر، ووضعوا مع الموتى بعض كنوزهم. والنصارى والمسلمون يعتبرون ان جسد الانسان لا قيمه له بعد خروج الروح، وان خير الميت دفنه. والمسلمون يعتبرون خير القبور الدوارس، لذا كانت قبورهم، ولا تزال، لحوداً ورجماً بسيطة من الحجارة، او حجارة مبنية ترتفع قليلاً عن سطح الارض، وتعلوها قبة او شاهدة[2]، فيما تطورت مؤخراً قبور النصارى ومعظم الدروز الى مدافن فوق الارض.

ومهما أُنفق عند المسلمين والنصارى على القبر ونقوشه، لا يجوز ان يضم شيئاً من مقتنيات الميت باعتبار ان ذلك حرام. فالميت يرافقه كفنه فقط. ولا يجوز تحويل قبور المسلمين الى مساجد.

يمكن التمييز بين قبر مسلم وقبر نصراني بالهلال او بالقبة البيضاء او بالشاهدة التي تعلو قبر الاول، والصليب الذي يعلو قبر الثاني، وبالقبور الحديثة فوق الارض على شكل غرف عند النصارى بخلاف المسلمين الذين لا زالوا يدفنون في لحود. وبالإضافة الى الاختلاف مؤخراً بين قبور اللبنانيين على أساس ديني، هناك الاختلاف بينها على أساس الفروق الاجتماعية والاقتصادية، وفارق الجنس، أي هناك اختلاف بين مدفن

---

(١) انظر عن ايمان المصريين بالحياة الثانية بعد الموت، ول ديورانت، قصة الحضارة، وردت الاشارة اليه، جـ ١ - ٢ ص ١٦٢ .

(٢) الشاهدة تُلفظ في العامية «شاهد».

ولي ومدفن زمني عادي، ومدفن غني ومدفن فقير، ومدفن عام ومدفن خاص، ومدفن رجل ومدفن امرأة، ومدفن حاكم وذي لقب عن مدفن شخص من العامة.

للمدفن عندنا اسماء أخرى هي «الرمس» و«المقبرة» و«القبر» و«اللحد» و«الجبّانة»[1] و«التربة»[2] و«الحظيرة»[3] و«الخشخاشة»[4] و«الحجرة»[5] و«الضريح». وللمدفن اسم آخر عند الشيعة هو «الروضة». ويُطلق على القبور التي تُزار للتبرك اسم «المزار». ومنهم من يطلق على القبر اسم «البيت الحقيقي» لاعتباره المثوى الاخير والحق والأكيد الذي يعود اليه جميع البشر ويستقرون فيه بأجسادهم.

كانت مدافن المسلمين والنصارى، في الماضي، لحوداً، أي حفراً في الارض بقدر الميت تُطمر بالتراب. وكانت معظم اللحود رجماً من الحجارة في نهايتها بلاطة توضع فوق رأس الميت، يُنقش عليها اسمه وتاريخ وفاته وما يدل على جنسه، كما يُنقش عليها ما يدل على دينه (الهلال او آية قرآنية عند المسلمين، والصليب عند النصارى). وإذا لم يكن على البلاطة ما يدل على جنس الميت، فإنها توضع فوق رأسه على شكل زاوية قائمة إذا كان الميت ذكراً، وتوضع على موزاة الجثة إذا كان الميت أنثى.

وبحسب قول الفيلسوف الشاعر أبي العلاء المعري: «رب لحد قد صار لحداً مراراً». وبحسب التعبير الشعبي: «شبر من الارض يفني أهل الارض»، فإن الكثير من اللحود صارت لحوداً لأكثر من انسان. فعندما يبلى الميت وينحل جسمه ويصير تراباً، وعند الحاجة والضرورة، يُفتح لحده لميت آخر.

بدأ النصارى ببناء الخشاخيش، والدفن فيها بدلاً من اللحود، منذ أواخر القرن الثامن عشر. وقد عمّت هذه الطريقة، وانتشرت في المناطق المسكونة بهم، كما انها انتقلت، كما سنرى، إلى معظم الدروز في القرى المختلطة، وفي غيرها من القرى. وهذا النوع من المدافن بدأ في دير القمر، مقر الامراء المعنيين والشهابيين. وهذا وصف لمقابر النصارى في هذه البلدة، نقله لنا المبشر المسيحي الرحّالة جون كارن عن الرحّالة المستشرق جون لويس بركهاردت المعروف بـ «الشيخ ابراهيم». وكلاهما زار بلاد الشام في الثلث الاول من القرن التاسع عشر. يقول بركهاردت:

«تستحق قبور المسيحيين ان تكون موضع نظر. كل عائلة لها بناء حجري نحو

---

(١) الجبّانة: الصحراء، وقد سُميت بها المقابر؛ لإنها تكون في الصحراء تسمية للشيء بموضعه.
(٢) التربة: التراب على اساس ان الانسان يُلحد في التراب، وهو من التراب وإليه يعود.
(٣) الحظيرة: ما احاط بالشيء، وهي لغوياً ما يُعمل للابل من شجر لوقايتها البرد والريح، وحظيرة القدس هي الجنة.
(٤) الخشخاشة: المدفن فوق الارض على شكل غرفة، وقد اعتمدها النصارى أولاً ثم اعتمدها معظم مساكنيهم الدروز.
(٥) الحجرة: غرفة، وهي ايضاً في اللغة حظيرة.

أربعين متراً مربعاً، تدفن فيه العائلة موتاها، وتبني على المدخل سداً بعد كل دفن. وهذا النحو من الدفن خاص بدير القمر، والارجح انه نشأ نتيجة لصعوبة احتفار القبور في هذه الارض الصخرية التي عليها يقيمون. اما الاسر المسيحية الغنية فتكون على مقابرها قبب صغيرة»[1].

إن مفهوم المسلمين الموحدين الدروز للقبور هو المفهوم الاسلامي الذي يعتبر خير القبور الدوارس، وعلى هذا تمشوا عبر تاريخهم، ولم يلجأوا الا مؤخراً الى اعتماد الخشاخيش؛ اذ، باستثناء قبور الاولياء والتقاة والأعيان، قلما نجد أثراً على لحد، حتى ان معظم اللحود درست أو غدت فسحات للصلاة على الميت. وقد أوصى أحد تقاتهم الكبار، الشيخ الفاضل، رضي الله عنه، الذي عاصر الامير فخر الدين المعني الثاني، بان يُدفن في أرض تُحرث وتُزرع. وما بنوه على قبور المكرَّمين شاهدات وقبب.

كان الدروز، كسائر المسلمين، في طريقة دفن موتاهم، ودفنهم في لحود. وقد لاحظ ذلك هنري غيز، فقال: «الطقوس الخارجية التي يمارسها الدروز تشبه تقريباً طقوس المسلمين. فهم يدفنون موتاهم على طريقتهم»[2]. وابتداءً من المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر، بدأوا ببناء الخشاخيش مقتدين بمساكنيهم النصارى، متأثرين بهم في ذلك وفي ناحية أخرى هي الدفن في التوابيت. وأول من فعل ذلك أعيانهم ووجهاؤهم وأغنياؤهم، الذين انشأوا خشاخيش خاصة، ثم بدأ عامتهم بانشاء الخشاخيش العامة[3].

أما أسباب لجوء الدروز والنصارى الى بناء الخشاخيش، فهي صعوبة الحفر في الاراضي الجبلية الصخرية التي يسكنون، وصعوبة احتفار اللحود في أوقات المطر الغزير والثلوج الكثيرة التي تتساقط في فصل الشتاء، وضيق مساحات المدافن التي كانت مخصصة لحفر اللحود، ومخصصة عند الدروز للصلاة على الميت، ورغبة ذوي النفوذ والمال والجاه في تكريم موتاهم ببناء قبور خاصة فخمة.

ان الدفن في اللحود يراعي الشروط الصحية اكثر من الدفن في الخشاخيش، وينسجم مع الايمان بأن الانسان من التراب وإلى التراب يعود. لكن الدفن في خشاخيش عامة يحل مشكلة ضيق مساحات المدافن وصعوبة الاحتفار في الارض

---

(١) جون كارن، سورية والارض المقدسة.. وردت الاشارة اليه، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) Henri Guys, Beyrouth et le Liban, op.cit, T 2 P 54.

(٣) بنيت خشخاشة عامة للدروز في بلدتي، مزرعة الشوف، الى جانب اللحود، في اوائل القرن العشرين. ثم هدمت في الستينات من هذا القرن، وبُني بدلاً عنها، وقريباً منها، ثلاث خشاخيش لثلاث عشائر.

الصخرية، ويسهّل ويسرّع عملية الدفن. ومن بين هذه الخشاخيش المئات التي تبلغ مساحة الواحدة منها أقل من عشرين متراً، وتستعمل مدافن عامة لعشائر كبيرة بحيث تكفي كل واحدة منها لدفن أموات عشيرة يزيد عددها عن ألف نسمة.

بُنيت الخشاخيش في بادىء الامر طبقة واحدة، وكانت سقوفها قناطر حجرية (عقود)، أو خشباً مغطى بالتراب، وأبوابها على العموم بلاطات حجرية. ثم تطور بناؤها فأصبحت من طبقتين: العليا لوضع التوابيت، والسفلى لوضع العظام بعد انحلال الجثث كي لا تتعرض للعبث كما كان يحصل عند وضع هذه العظام الى جانب المقابر بعد «تعزيلها» أي تنظيفها. وأصبحت سقوف الخشاخيش من اسمنت، وأبوابها من حديد وقد ظلت الأبواب صغيرة، الا انها ما عادت تخفى بالتراب.

بعد اعتماد الخشاخيش عند النصارى والدروز ظل منهم من يفضل الدفن في اللحد تجنباً للعبث بجثة الميت، وحرصاً عليها وعلى ثيابه من السارقين الذين كثرت في أواخر الثلث الاول من القرن العشرين اعتداءاتهم على المقابر، غير عابئين بحرمتها، مستسهلين فتح أبوابها الخشبية او الحجرية. لقد كان بعض هؤلاء السارقين يسرق جثث الموتى الحديثة لبيعها الى المستشفيات والاطباء من أجل اجراء الاختبارات عليها، وكان بعضهم الآخر يسرق الثياب بدافع الفقر والحاجة. لذا كان الذين يدفنون ميتهم في خشخاشة تُسد ببلاطة حجرية يسهل رفعها، أو بباب خشبي غير محكم يسهل خلعه، مضطرين الى حراسته في اثناء الليل لعدة أيام كي لا يُسرق.

المدافن خاصة وعامة. والمدفن الخاص يخص فرداً أو بيتاً سواء كان في ملك خاص ام في مشاع. والمدفن العام يخص فخذاً من عشيرة، أو يخص عشيرة أو قرية. ومن العادات في بعض القرى دفن ميت من عشيرة معينة في خشخاشة عشيرة أخرى إذا كان هناك وفيات متقاربة من العشيرة الاولى يتحتم معها عدم فتح باب خشخاشتها كي لا تتسرب منها الروائح الكريهة. وإذا كان المدفن مبنياً فوق الارض، أي خشخاشة، يُكتب على بلاطة حجرية فوق بابه اسم العشيرة وتاريخ البناء وإحدى العبارات الدينية وشعار الطائفة. وقد يتحول المدفن الخشخاشة الذي بني لإنسان الى مدفن لأفراد بيته، ثم الى مدفن لذريته الذين يشكلون مع الزمن فخذاً من عشيرة.

في الماضي كانت اللحود المحفورة في مشاعات القرى والمدن مجانية، ووقفاً على أصحابها. واليوم هي في القرى كذلك. أما في المدن، فتُشترى من البلديات، أو تؤخذ منها لأجل محدد، وفي الحالة الاولى تصبح ملكاً لأصحابها، وفي الثانية تعاد الى البلدية بعد انحلال الجثة.

كان يُخصص في بعض القرى جهة للحود الرجال، وجهة للحود النساء، كما يُخصص في بعض القرى التي تعرف التمايز الاجتماعي جهة للأعيان، وجهة لعامة الناس كما هو الحال مثلاً في كوثرية السيّاد في جبل عامل حيث مقابر الاسياد في جهة، ومقابر الآخرين في جهة ثانية. وفي القرى المختلطة تبنى مدافن كل طائفة في مكان.

اتخذ الناس المدافن بالقرب من البيوت والكنائس والجوامع والخلوات ليسهل نقل الاموات اليها، وخاصة في فصل الشتاء؛ لأنهم كانوا ينقلونهم على الأكتاف أو على الراحات. وقد آل التوسع في البناء الى ان تصبح المدافن بين البيوت أو قريبة منها جداً بحيث يُطرح موضوع نقلها مراعاة للصحة العامة وتلافياً للازعاج النفسي الذي تسببه للساكنين بقربها.

كانت مدافن الأعيان بالقرب من قصورهم، ومدافن البطاركة والأساقفة والكهنة في أنفاق تحت المعابد، أو في جدران هذه المعابد. وكانت مدافن معظم الاتقياء عند المسلمين في الأماكن التي قضوا فيها حياتهم للعبادة والزهد والتقشف، وقد تحول بعضها الى مزارات يأمها الناس للتبرك، ويوجهون لها النذور، ويقيمون فيها وفي رحابها الصلوات.

بُنيت حول فسحات المدافن العامة جدران حجرية تعلوها شبكات من حديد للحفاظ على حرمتها. ولهذا السبب أيضاً أحيطت بعض القبور الخاصة بشبكات من حديد. ولما كانت بعض فسحات المدافن مخصصة لإقامة الصلاة على الميت، بنيت فيها ستارات او شمسيات من اسمنت لوقاية المشيعين من الشمس والمطر والثلج.

أُتخذ المدفن منذ القدم احدى وسائل تكريم الأموات وإظهار ابهة الاحياء. وبالرغم من اعتبار ذلك بدعةً عند المسلمين تناقض مفهومهم الذي يعتبر ان خير القبور الدوارس، كرّموا أمواتهم من ذوي النفوذ والصلاح والتقوى والثروة ببناء الشواهد على قبورهم، وببناء القبب البيضاوية فوق قبور الحكام والأعيان والرؤساء الروحيين والاتقياء. والشاهدة هي من رخام او مرمر، تمتد من الغرب الى الشرق، تُنقش عليها آيات قرآنية مثل سورة الفاتحة وآية الكرسي، كما ينقش عليها اسم صاحب القبر وتاريخ وفاته بالتقويم الهجري، بالإضافة الى نقش البعض لكلام نثري موجز أو أبيات شعرية تشيد بصفات الميت ومآثره وتؤرخ لوفاته. ويُنقش في أعلى اللوحة الغربية للشاهدة شكل العمامة إذا كان صاحب القبر رجلاً، وتخلو من ذلك إذا كانت امرأة.

وما ينفقه النصارى في بناء المدافن هو أكثر بكثير مما ينفقه السنّة والشيعة. انهم

يبذلون الأموال الطائلة في بناء الخشاخيش العامة والخاصة. ومثلهم يفعل الدروز الذين جاروهم في بناء الخشاخيش. وقد تبلغ كلفة الواحد من بعض المدافن الخاصة ما يوازي كلفة بناء فخم للسكن. أما الخشاخيش العامة التي تخص عشيرة ما، فإن هذه العشيرة تتقاسم كلفة بنائها.

المدافن وقف يحظر التعدي عليه، ويحظر عند الكثيرين الاستفادة مما في ارضها من شجر حتى لو دُفع ثمنه[1]. وللمدافن حرمة عند الناس اذ يُكره الجلوس والمشي والنوم عليها، ونبشها، وتحطيم عظام موتاها، وتدنيسها، لذا تُحاط بسياج. ولمدافن الاولياء والاتقياء المحوّلة الى مزارات قداسة اذ تضاء بالسرج والشموع لإيفاء النذور، ويوهب لها المال حسنة عن روح الميت، وتزار للتبرك. ولمدافن الأهل كرامة إذ تضاء بالسرج والشموع لراحة أنفسهم، وتزار لتذكرهم والبكاء عليهم، ولا سيما في التذكارات والأعياد والأيام والليالي المباركة، كيوم الاحد عند النصارى، ويوم الجمعة عند السنّة والشيعة، ويوم الجمعة وليلتها عند الدروز. ويرسم النصراني شارة الصليب ويصلّي عن روح ميته.

زيارة القبور مستحبة عند المسلمين للرجال فقط من أجل تذكر الموت. وعلى الزائر ان يسلّم على أهل القبور مستقبلاً بوجهه المدفن قائلاً: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين. وان شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية»[2]. وزيارة المسلمين للقبر في اليوم التالي للدفن تسمى «فك الوحدة» أو «فك المونسة».

للمدافن في قلوب الناس رهبة اذ كان بعضهم يتوهم انها مسكونة بالأرواح والجان، ويفضل السكن بعيداً عنها، ويحاذر المرور أمامها في الليل كي لا يمسّه الجان، ويعتبر دخول حرمها ليلاً أكبر دليل على الجرأة. وفي أذهان المعمّرين روايات غريبة منها تعرض المارة أمام المقابر لصفع الجان، واصابتهم بمس من الجنو ن وبشيب الرأس. ومنها تفسير بعض حركات كانت تُسمع في حرم المقابر بأنها حركة الموتى والجان وهي في الحقيقة حركة لصوص يسرقون الأموات. ومن الأمثال العامية عن الخوف من المقابر المثل التالي الذي يوصي بضرورة الابتعاد عن المخاطر لتحقيق السلامة والطمأنينة: «لا تنم بين القبور ولا تبصر منامات وحشة».

والذين يؤمنون بالتعاويذ والسحر، أو ما يسمى «الخط» أو «الكتابة»، يروون روايات

(١) روي لي ان امرءاً ضمن في بلدته في الثلاثينات من القرن العشرين حطب سنديانة المقابر، فاحترق بيته عند اشعال الحطب في الشتاء مما زاد في تأكيد حرمة المقابر عند اهلها. وهم لا يزالون الى اليوم بمن في ذلك المحتاجون لا يأخذون الجذوع التي تكسرها العواصف ويتركونها مرمية في حرم المدافن.

(٢) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه.

كثيرة عن ادخال «الكتابة» في عظام ووضعها في جدران المقابر، ويزعمون ان المنّجمين قادرون على اكتشاف هذه «الكتابات» او «الخطوط» و«نبشها» من ثقوب جدران المقابر واشفاء المرضى نفسانياً.

تطور عادات المآتم

العلم، والثقافة، والاقتباس، والتطور التقني، وتقدم وسائل النقل، والنزوح من الريف الى المدينة، والهجرة الى الخارج، وتوسع القرى وكبرها، جميعها وسائل لتطوير المفاهيم والعادات بشكل عام، وبالتالي لتطوير عادات المآتم.

الغى الوعي الأوهام والخرافات التي كان السذّج يؤمنون بها. وألغى التطور وعدّل الكثير من العادات القديمة، وخلق عادات جديدة تتلاءم مع أوضاع الناس وواقعهم وحاجاتهم وظروفهم المعيشية والاقتصادية؛ اذ ما يلائم مجتمعاً زراعياً شبه منغلق، ويعتمد على الاكتفاء الذاتي، وتسود معظم اوساطه الأمية والجهل، وتتجاور بيوته وتتلاصق، ويعرف أفراده بعضهم بعضاً عن كثب، ويحكم التعاطف الاجتماعي علاقاته في السراء والضراء، لا يلائم مجتمع الصناعة والخدمات والمهن والوظائف والعلم والثقافة والانفتاح على المستجدات الحضارية ومتابعتها من البيوت.

لم تعد مرحلة الاحتضار، عند الكثيرين، مشهودة من جميع أهل الميت واقربائه وجيرانه بسبب ظروف العمل وبعد أمكنته، وحصول الكثير من الوفيات في المستشفيات. يضاف الى هذا ان نسبة كبيرة من الوفيات متأتية من حوادث السير وحوادث العمل، ومتأتية من السكتة القلبية التي لم تكن مجتمعات الماضي تعرف الا القليل من ميتاتها. كل هذه الامور قللت من حضور ساعة النزع، وعدّلت في طريقة إحداث ما يسمى «صرخة الموت» التي كانت تحصل عند اسلام المحتضر الروح في بيته وبين أهله واقربائه.

ان حصول الموت في غير مسقط الرأس، سواء كان في المستشفى أم في مركز العمل والاقامة، اختصر مدة المأتم عند الكثيرين؛ إذ صار الميت يُدفن بعد ساعة او ساعات من وصول جثته الى مسقط رأسه. وصار بعضهم يؤجلون نقل الجثة من المستشفى ويبقونها في برّاده لكي يوفروا على أنفسهم وعلى الآخرين السهر على الميت، الذي تسير عادته في طريق الإبطال الكلي بعد ان أبطلته فئات كثيرة.

كان التعاطف الاجتماعي أقوى، ومجالات خدمة الناس بعضهم لبعض أوفر مما هي اليوم. لقد ضعف التعاطف الاجتماعي بسبب طغيان الذاتية والفردية وتعدل

المفاهيم. وقلّت مجالات المساعدة بسبب تخصيص أمكنة عامة لإقامة المآتم، وتحسن المداخيل، وارتفاع مستوى المعيشة، وازدياد قدرة الانسان على الاستغناء عن الآخرين.

كان أهل الميت واقرباؤه وجيرانه يغسلونه في بيته، فصار يقوم بذلك الممرضات والممرضون في المستشفى إذا حصلت الوفاة فيه، ومختصون بالغسل عند السنّة والشيعة. وتحول مكان عرض الجثة واقامة المأتم وتقبل التعازي الى الأندية والبيوت العامة المختلفة الاسماء، المخصصة لتجمع الناس في مناسبات الأفراح والأحزان والأعياد والمواسم الدينية وغيرها. وقد أغنت هذه الأندية والبيوت العامة عن استعمال الخيام (الستارات) الزرق، ووفرت على أهل الميت بدل استئجار الكراسي، كما وفرت أثاثهم ومقتنياتهم التي كانت تتعرض للتحطيم وللضرر بسبب تجمع الناس في بيوتهم. ومقابل هذا التسهيل وهذا التوفير على أهل الميت يعمد هؤلاء الى التبرع للنادي أو للبيت العام بمبلغ من المال بحسب امكانياتهم حسنةً عن روح الميت.

كان النعي في القرى شورى وشأناً جماعياً، فتحول الى شأن فردي يخص أقارب الميت اللزم أو يخص ابناءه واخوته، مع الاشارة الى ان من بقايا الشأن الجماعي للنعي عند الدروز توسع أهل الفقيد بالنعي، وتوجيهه باسم العشيرة أو القرية دون أخذ رأيهما. وفيما كان ايصال النعوة يتطلب وقتاً طويلاً لنقله سيراً على الاقدام أو على ظهور الرواحل، وفيما كان يقتصر على أهل الجيرة فقط في معظم المآتم، صار يوصل ويُعمم بسرعة وبسهولة بواسطة وسائل النقل والاتصالات الحديثة (السيارة - التلفون - الراديو - التلفزيون - الصحيفة - مكبر الصوت). كما صار هناك امكانية لتوسيع نطاق النعي، وامكانية المناعي حضور المأتم ولو كانوا من مناطق بعيدة.

ان جميع ابناء القرية كانوا يوقفون أعمالهم للمشاركة في مأتم أحدهم. وكان بعضهم يوقف أعماله لحضور مآتم القرى الأخرى والبقاء الى ما بعد الدفن. ولم يكن في الماضي ضرر من وقف أعمال الناس، وإذا كان من ضرر فهو بسيط للغاية؛ لأن معظم أعمال الناس في الزراعة، ويمكن ارجاء عمل اليوم الى الغد، كما ان ابناء المرء يحلون مكانه اثناء غيابه. أما اليوم، فلم يعد بمقدور بعض ابناء القرية حضور الدفن في قريتهم، فيكتفون بالتعزية كي لا يعطلوا أعمالهم، فكيف يكون الأمر بالنسبة الى حضور مآتم سائر القرى.

ان بعض المعزين يقومون اليوم بواجب التعزية وينصرفون قبل الدفن، او يؤدون واجبهم بعد الدفن وفي الأوقات المحددة لتقبل التعازي. وقد سهّلت السيارة اداء الواجب بسرعة، وأتاحت للمرء القيام بواجبه في وقت قصير، والتوفيق بين واجبه

الاجتماعي والتزامه بالعمل والوظيفة، كما كانت العامل الأول في الغاء عادة صنع الطعام في المآتم للمعزين.

أُبطل ندب الرجال والنساء في معظم المناطق وأكثر القرى. وأبطلت الحوربة والمناداة. وأبطلت مشاهدة جميع المعزين للميت، واقتصرت على أهله واقربائه واصدقائه الخلص، وقل عددها حتى باتت مرة واحدة، وضعف بتراجعها التعديد. وأُبطل صنع الشلاح في المآتم والتذكارات. وصار قلم الخيل وعرقبتها أمراً نادراً، لا لعدم وجود الخيل فحسب، بل لتعدل المفاهيم أيضاً. وتوقف سيارة المتوفى وعدم استعمالها لمدة معينة هو من رواسب عادة عدم استعمال أغراضه ومقتنياته، ووسيلة نقله التي كانت الخيل في الماضي.

وفيما تتمسك بعض الأوساط بحمل الميت والمشي بجنازته ودفنه اكراماً له وابتغاء للأجر، يتخلى بعضها الآخر عن هذه الامور، ويعتمد بدلاً منها سيارة الاسعاف المعروفة بـ «الصحية» مع ما في ذلك من حرمان للأجر، ومن اقتصار في مواكبة الجنازة والدفن على بضعة اشخاص. وفي الوقت الذي لا يزال فيه حفر القبور، او بناء اللحود، وحمل الموتى، على عاتق أهل القرى، وبطريقة التطوع، صار حفر القبور في المدن على عاتق حفّاري القبور المأجورين، وحمل الموتى في أكثر الاحيان مأجوراً، او يقوم به موظفون في جمعيات ومؤسسات مختلفة.

ومما طاله التعديل والالغاء التذكارات والمراسم الدينية. اختصرت التذكارات مع الزمن عند جميع الطوائف، ولا سيما عند المسلمين الذين باتت تقتصر عندهم على يوم واحد هو «الثالث» او «الاسبوع»، مع العلم ان بعضهم ما عاد يقيم أي تذكار كما هو شأن معظم الدروز. اما التذكار السنوي فهو للعظماء.

واختُصر وقت الجنّاز عند النصارى باختصار الأناشيد الدينية والصلوات التي كانت تستغرق معظم النهار. وألغي انشاد قصيدة البردة عند جميع المسلمين، واختصرت كذلك التسابيح الدينية. والغي تلقين الميت عند الدروز، واكتفي بالصلاة عليه، بينما سائر المسلمين لا زالوا يعتمدون تلقين الميت، ويعتمدون أيضاً تلاوة الآيات الدينية عن روحه لمدة ثلاثة أيام.

ومن أجل توفير الوقت على المشيعين صار التأبين يحصل قبل حلول موعد الدفن؛ إذ يبدأ قبله بساعة او ساعات بحسب ما تتطلب المراثي المعدة والكلمات الملحوظة لمحبي الميت ومقدريه، وللجهات المشاركة في مأتمه.

شوهت الحداثة جمال عادات كثيرة، وأتت بعادات جديدة، ونالت من أمور جوهرية مهمة كانت من المحرمات والمقدسات كوقار مناسبة الموت وخشوعها. وخفت مظاهر الحزن وضعف معها بعض الشيء حزن القلوب. فالطبيعة التي كانت تأخذ زيادة عن حدها، صارت تقصّر عن بلوغ حدها بسبب اقبال الناس على الفرح وعلى الابتهاج بالحياة، والتطلع الى المستقبل لا الى الماضي، والاهتمام بالاحياء لا بالأموات. وقصر وقت الحداد عند أهل الميت، وما عاد يشمل سواهم، وصارت مظاهره تقتصر على عدد قليل من الامور مثل ربطة عنق او شارة سوداء للرجال، ولباس اسود للنساء. بينما كان الحداد يطول عند الجميع، وبخاصة المرأة التي كانت في بعض الأوساط لا تفك حدادها على زوجها الا في عرس احد ابنائها.

النوائب والنكبات

جبر الخاطر

من معاني الخاطر القلب والنفس والهاجس، وما يتحرك في القلب من رأي ونحوه. وحالات كسر الخاطر كثيرة؛ إذ انها كل ما يبعث على الحزن والكدر. وأكثر ما يحصل كسره في الموت والنزاعات والحروب، والأوقات التي يسود فيها الظلم والقهر والتحكم والاستبداد وتمادي الأنظمة الاستبدادية في ممارساتها التعسفية، ويضعف الضمير، وتنحط الاخلاق، وينعدم الشعور والاحساس مع الآخرين. كما يحصل أيضاً عند المرض والألم والاهمال والاعتداء على الكرامات وهضم الحقوق والإضرار الجسدي والمعنوي والمالي. ان كسر خاطر المرء، في نظر الكرام، أشد من ايلامه جسدياً، بل أشد ايلاماً من كسر رجله وأهم حتى قيل: «ألف كسرة رجل ولا كسرة خاطر».

لم يمنع انشغال شكيب وهّاب بمعارك الثورة السورية الكبرى في الجنوب اللبناني حين امتدت اليه في تشرين الثاني ١٩٢٥ عن الاهتمام بجبر خاطر ولد أخذ بندقيته في ابل السقي فتعرض لتأنيب قاسٍ من عمه. وهذا الولد المكسور الخاطر من عمه، المجبور الخاطر من شكيب وهاب الذي أعاد البندقية اليه، هو سلام الراسي الذي روى هذه الحادثة ونقل عن شكيب وهاب قوله: «الانسان يبكي من وجع ومن حزن ومن كسر الخاطر». وقوله: «ان سلطان باشا الاطرش بكى مرة واحدة في حياته حين رأى بعض رجاله في المنفى يتقاسمون رغيفاً واحداً»[1].

ان سلطان باشا الاطرش لم يبك من رؤية آلاف القتلى والجرحى في معارك الثورات التي خاضها ضد الأتراك والفرنسيين، ولم يبكِ أباه المشنوق ظلماً بيد الأتراك،

(١) سلام الراسي، جود من الموجود، منشورات نوفل، بيروت، لبنان ١٩٩١، ص ١٤٣ .

ولم يبكِ عند استشهاد أخيه في موقعة «الكفر» المظفرة ضد الفرنسيين، بل بكى من رؤية المجاهدين اللاجئين الى وادي السرحان في المملكة العربية السعودية، بعد اخفاق الثورة السورية الكبرى، محتاجين جائعين يؤمنون بعض حاجاتهم من تجارة الملح في فترة شحَّ فيها عطاء المحسنين يوم كان على العرب الا يبخلوا بالمال على من رخّصوا الدماء في سبيل القضية القومية وفي الجهاد ضد الانتداب الفرنسي من أجل الوحدة والتحرر والاستقلال. لقد بكى من كسر خاطر اخوانه المجاهدين حين رأى تسعة منهم يتقاسمون رغيفاً واحداً أشار اليه الأمير عادل ارسلان، الذي قاسم سلطان وسائر المجاهدين شظف العيش ومرارة النفي، بما يلي:

كل رغيف حوله تسعة كأنما صلّى عليه المسيح

والجبر خلاف الكسر، فيقال: جبر أو جبّر العظم بمعنى أصلح كسره، وجبر الله الفقير واليتيم، أي سد مفاقره وأغناه. ومن معاني الجبر الاحسان، فيقال جبر الرجل بمعنى أحسن اليه. ومن التعابير التي يقولها التاجر، عند بيع بضاعته المعروف في اللغة العامية بـ «نفاقها»: «الله جبر»، ويقصد بذلك ان الله ردّ عليه ما ذهب منه وعوّض عنه. ومن الادعية: «الله يجبر بخاطرك»، ومن التعابير المتداولة «أنا بخاطرك»، أي أنا برأيك، وقول المغادر والمسافر لمودعيه: «بخاطركم»، أي خلّونا في بالكم ولا يتكدر خاطركم لغيابنا. ومما يقال عن الخاطر أيضاً في مجال المكافأة: «شوفة خاطر» ويعنى بها الهدية المالية أو العينية المعروفة بـ «الحلوان» أو «الحلوينة» التي تقدم لحامل بشارة أو لمسدي خدمة. ويُقال في المأتم: «الاخذ بالخاطر»، أي جبر خاطر المحزونين، الذي كسره الموت، بالتعزية.

من واجبات الانسان عدم كسر الخاطر ومنع حصوله من جهة؛ لأن كسره يسبب الحزن، ومن جهة أخرى عليه جبره أو المساهمة في جبره عندما ينكسر؛ لأن ذلك يزيل الحزن ويخفف الالم ويبعث على الفرح. وكسر الخاطر ذنب له عقاب من الله يرافقه عذاب الضمير. وجبره عمل صالح فيه راحة للضمير وأجر عند الله.

موضوع جبر الخاطر الذي لا تهتم به اقوام كثيرة يرتدي أهمية كبيرة في مجتمعنا، فهو اسٌ لعادات وتقاليد كثيرة. فمن المصطلحات التي تقال: «جبرنا بخاطره»، أي لبيّنا دعوته واستجبنا لرغبته وأمنّا طلبه. «مات فلان مجبور الخاطر»، أي مات غير مكدر من شيء، وموفقاً في أعماله، ومرتاحاً لتزويج ابنائه على حياته ورؤية الأحفاد. «أخذنا بالخاطر»، أي قدّمنا التعازي لآل الميت.

ويستعمل رجال الدين الدروز (الاجاويد) عبارة «صفو الخاطر» التي تعني الرضى والقناعة بالقول والمسلك. فهم يتمشون على قاعدة عدم تكدير خاطر أحد، ولا يرتاح أي منهم إذا كان خاطر اخوانه المتدينين يوحي له بتقصيره وخطأه في التعاطي معهم ومع الآخرين، لذا يجهد في الحصول على صفاء خاطرهم، ولا يطمئن باله الا إذا حقق ذلك، ويقول: «بدي صفو الخاطر» أو «بدي صفا خاطركم».

يتجلى جبر الخاطر في نواح عديدة، منها تعزية أهل الميت، ومساعدة مشردي الحروب والنكبات الطبيعية، والاحساس مع الناس، والعمل على تخفيف آلامهم ومآسيهم ومصائبهم، ومساعدتهم على تخطي مشكلاتهم وأزماتهم، ووضع الحلول للنزاعات التي تشغلهم، وإزالة الهواجس التي تؤرقهم، وعيادة المرضى، والاطلالة على المتعرضين للحوادث والنوائب والخسائر واعانتهم، والاعتذار عن الاساءة، والتعويض عن الضرر، ومساعدة المتضررين، ورعاية الايتام، والاهتمام بالمعوقين وذوي العاهات والأمراض والجرحى، وتأمين شيخوخة هادئة مريحة كريمة للعجّز.

وإذا ما توسعنا في مفهوم جبر الخاطر وعدم تكديره يمكن القول انهما يشملان الاكثار من زيارة الاصدقاء والمعارف واحترام الآخرين وعدم تجاهلهم، واستشارتهم في الأمور حتى في تلك التي لا تلزم الأخذ برأيهم كما يحصل أحياناً في المجتمع القروي الذي يعتمد المجاملات واللياقات لجبر الخاطر، كما يشمل جبر خاطر الأطفال باسعادهم وتأمين حاجاتهم وتلبية الممكن من طلباتهم سواء من أهلهم أو من الآخرين، فلقد كان هناك اعتقاد ان كسر خاطر الطفل بعدم اطعامه ما يشتهي يظهر عارضاً صحياً هو «نقطة دم» في عينه.

المرض

المرض أحد عوامل الحزن، وأحد مسبّبات الموت الذي هو نهاية طبيعية وحتميّة ومقدّرة لبني البشر. وجميع المرضى يتوجعون ويتعذبون، لكن بعضهم أكثر تحملاً من بعضهم الآخر، وأكثر شجاعة في الاقبال على العلاجات وتحمل آلامها، وأكثر ايماناً بالله. والرجال الشجعان يكظمون ما يعانون، ولا يظهرون التوجع، بل يذكرون الله، ويقولون عبارات التأهيل بالزائرين بدلاً من عبارة «أخ».

قال الرسول ﷺ: «إذا مرض العبد بعث الله تعالى اليه ملكين، فقال: انظر ماذا يقول لعوّاده؟ فإن هو إذا جاءوه حمد الله وأثنى عليه، رفعا ذلك الى الله عز وجل ـ وهو أعلم ـ فيقول: لعبدي علي ان توفيته ان ادخله الجنة، وان أنا شفيته ان أبدل له لحماً

خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وان اكفّر عن سيئاته». وقال الرسول ﷺ، حين عاد مريضاً من وَعَك كان به: «ان الله يقول: هي ناري، اسلّطها على عبدي المؤمن في الدنيا، لتكون حظه من النار في الآخرة»[1].

واعتماداً على هذا المفهوم الاسلامي للمرض، ولأجر المرء من تقبله بصبر وإيمان، يعتبره المؤمنون امتحاناً لهم وتكفيراً عن ذنوبهم وإحدى وسائل كسب الاجر ونيل رحمة الله والدخول في جنته. لذا يصبرون على آلامه، ويحمدون الله عند الابتلاء به وفي جميع نواحي الضراء كما يحمدونه في الفرح وفي جميع نواحي السراء، ويتعزون بالصبر وبقراءة الآيات الدينية، ويدعون الى الله أن يشفيهم، ويتوجهون اليه بالابتهالات طالبين رحمته وتخفيف الآلام عنهم. ومما يقولونه بدلاً من عبارات التوجع: «استفقاد الله رحمة ـ كل شيء من الله مليح ـ يا الله يا بيي الحقيقي ـ عونك يا الله ـ أنت القادر القدير ـ يا رحمن ـ يا الهي أنت الشافي ـ يا الهي نجني من كربتي».

توصف الأمراض بلغة العامة بـ «العوارض»[2]. منها ما هو أمراض بسيطة تسمى «وعكات»، ومنها ما هو أمراض موجعة وخطرة ومعدية ومميتة. ومن المقولات الشعبية عن كثرتها ما يلي: «الانسان بيت العلل». و«هناك ستة وثلاثون ألف علة، منها اثنا عشر ألف علة معروفة ولها دواء، واثنا عشر ألف علة معروفة وليس لها دواء، واثنا عشر ألف علة غير معروفة وليس لها دواء». وهذه المقولة تعبر عن استحالة اكتشاف العلاجات الشافية لجميع الأمراض الموجودة، وعن أن هناك أمراضاً غير مكتشفة، وهذه وتلك دلائل على عجز الانسان عن معرفة كل شيء، وعن إزالة أسباب الموت الذي قهر الله به عباده.

لم يكن يُعرف في الماضي من الأمراض القليلة اصلاً إلاّ بعضها، ومن الطب والدواء الا المعارف البدائية والخبرات القليلة الناتجة من التجارب؛ إذ لم يكن هناك اطباء الا القلائل الذين لا يلبون الحاجة، ويعالجون بما يسمى «الوصفات العربية»، والذين لا تنطبق على اكثريتهم صفة الطبيب. وأول بعثة طبية للتخصص كانت البعثة الطبية التي أرسلها الامير بشير الشهابي الثاني سنة ١٨٢٥ الى مصر للتخصص في قصر العيني الذي أنشأه والي مصر محمد علي باشا.

إن تعبير «الله يستر الفقر بالعافية» يعبّر حالياً أصدق تعبير عن واقع الطبابة والاستشفاء في ظل تكاثر الامراض وظهور أمراض جديدة علاجاتها مستعصية أو

---

(١) اخرجه ابن ماجه.

(٢) عارض جمعها عوارض: كلمة فصحى. وفي لغة العرب يقال: «عرض له عارض من الحمى وغيرها».

مكلفـة، وتدنـي دخل الكثـيــرين من اللبنانين، وارتفـاع أجـور الاطبـاء وأثمـان الادوية. والعافية في الماضي من أهم ما يستر فقر الناس وجهلهم للمرض والدواء.

كانت العافية مكتسبة بالوراثة واشباع الطفل من حليب أمه والعمل والغذاء الصحي الطبيعي والماء الصافي والهواء النقي. يضاف الى ذلك شيوع مفاهيم صحية منها الحديث النبوي الشريف عن المعدة «ثلثها للطعام وثلثها للماء وثلثها للهواء». ومنها الحكم التالية: درهم وقاية خير من قنطار علاج ـ البرد أساس العلل ـ المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء ـ على المرء الا يأكل حتى يجوع وإذا أكل لا يشبع. ومن البراهين على عافية من صمدوا أطفالاً أمام الأمراض، وتجاوزوا قطوعات الاوبئة، اولئك المعمرون الذين لم يعرفوا الطبيب، ولا أخذوا شربة أو دواء، وماتوا وفي فمهم معظم الاسنان.

كانت بعض الأمراض تسبب الآلام المبرحة، وكان بعضها مما له علاج اليوم يسبب الموت مثل الزائدة والبروستات. وكانت الأوبئة تفتك فتكاً ذريعاً بالناس، وتفني الكثير من الاسر، مثل الطاعون والكوليرا والجدري والحمى القرمزية والحمى المالطية والزهري. ومن هنا نشأت دعوات النساء ضد الخصوم والأعداء كقولهن: الله يبعث لهم طاعون يقشّهم ـ الله يبعث لهم الهواء الأصفر (الكوليرا).

ومن الأمراض التي ابتلي بها الناس «حبة حلب» التي حملها الجيش المصري في اثناء حملة محمد علي على بلاد الشام بين سنتي ١٨٣١ و١٨٤٠، وقد بقيت مدة في بشامون فسميت «الحبة البشامونية»[١]. وقد فتك الطاعون سنتي ١٨٢٦ و١٨٢٧ بأسر كثيرة منها أسرة آل زينيّة في العبادية، التي هي من الاسر الكريمة. والأبيات التالية هي جزء من قصيدة لا تزال في الذاكرة الشعبية عند أهل العبادية:

اجـــا الطاعـــون من بيـــروت	عـــــشّش في العـــــبـــــاديَه
أخـذ فـرسـان أخـذ شجـعـان	اخــــذ شــــبـــاب بيت زينيّـــه
أول مـا أخـذ الشـيخ مـحـمـود	ديّات الســــخـــا والجـــود

معالجة الأمراض

كان دواء الاوبئة المعدية والفتاكة بعض العقاقير، وعزل المصابين في غرف خاصة، أو أخذهم الى أماكن بعيدة عن القرى. وأول تلقيح ضد الجدري حصل في عهد الامير بشير الشهابي الثاني سنة ١٨١٠ .

---

(١) لبنان. مباحث علمية... ، مصدر مذكور سابقاً، جـ ١ ص ١٨٠ .

أما معالجة الحالات المرضية الأخرى، فكانت تتم عند أصحاب الخبرة والتجربة من الشيوخ والعجائز ورعيان الماعز وعارفي «الوصفات العربية» المرتكزة على التداوي بالأعشاب، المأخوذ بعضها من كتب الطب القديمة؛ لأن الطب في اعتقاد الناس تجربة واختبار. ومن هنا المثل الذي يقول: «اسأل مجرب ولا تسأل حكيم». كما كانت تتم بالرقى والتعاويذ وبالاعتماد على العامل النفسي والايماني. ومن هنا المثل الذي يقول: «آمن بالحجر تشفَ». وكان أصحاب الخبرة الطبية يعالجون المرضى بالفراسة؛ إذ يعرفون المرض أحياناً بمجرد النظر الى المريض.

علاج أوجاع الظهر كاسات الهواء، وأوجاع البطن، مهما كان نوعها، الماء الساخن والأعشاب المغلية والتسميد والحقن بالماء الساخن، وعقرة الكلب احراق صوفة من أي كلب ووضعها على الجرح، والمصدور لبن الاتان (أنثى الحمار)، والمذعور بول الانسان أو الصلاة على التقسيم، والمحوزق، أي المصاب بالحازوقة أو الحوزوقة (الفواق) اغضابه باتهامه بما ليس فيه، وبما لم يعمل ويقل، أو بمفاجأته بخبر سيء. وعلاج الموثّب، أي من عنده عرق (شرش) الوثّاب، القبض بقوة على عرق بين كتفيه. وعلاج الرشح (الكريب) غلي التين الاسود المجفف والزهورات.

وتعالج صيبة العين بالرقوة[1]، وبسكب رصاصة في صحن ماء تظهر بحسب ما يُعتقد العائن، فيتبخر المعيون بدخان حريق شيء من آثار العائن وثيابه على تلاوة ادعية وآيات دينية. ويعالج التهاب اللوزتين بتمسيد العنق، ويحسن في هذه الحالة ان يمسّده بكر سبق له ان خنق خلداً. وتعالج ذبحة الأولاد بتمرير أحد الرعاة سكينه ثلاث مرات على عنق الولد.

وتعالج الحزازة (القوباء) بتخطيط ما حولها بالحبر في أوقات معلومة من قبل كاتب ابن كاتب. أما الكسور والرضوض وفلشة العروق، فتتم معالجتها عند رعيان الماعز والجزارين. ويتم تجبير الكسور بالقصب الممزوج مع دقيق الشعير والملفوف عليه خيوط الصوف. وللوقاية من أمراض البلد الذي يفد اليه المرء عليه أكل بصله نظراً لما للبصل من فوائد، فكانوا يقولون: «البلاد التي تصلها كل بصلها».

وتعالج العين، الملفوحة بالهواء، بالكحل الممزوج مع الثوم. وتعالج «بثرة العين» عند النصارى «بأن يشحذ المصاب بها من سبع نساء اسمهن مريم ولذلك سموها الشحّاذ،

(١) من الرقوات ما يلي: ياشافي ياكافي. ياكافي ياشافي. انا الراقي وانت الشافي. رقيتك يافلان ابن فلانة تطلع منك العين وتنزل فيك العافي (العافية).

ويطعم ما شحذه لكلب أسود»[1]. كما تعالج العين أيضاً بالكي كما سنرى.

وعلاج الجرح رماد الحطب والسجائر، والتراب، والطيّون المدقوق، والبول. وقد نشأ المثل الشعبي التالي الذي يقال في البخيل: «لا يبوّل على الاصبع المجروح». وعلاج الحرارة المرتفعة وضع قطع البطاطا او رؤوس الكوسى المقطوعة على ضمادة ولفها على الجبين، ولزقة عجين ممزوجة بخل، ولزقة سبيرتو. وعلاج الرمل والبحص ماء الاعشاب المغليّة، وعفن المعدة وارتباكها شربة الملح الانكليزي، والدود أكل بزر القطن وبلع قطع الصابون البلدي، والدمل وضع بصلة مشوية عليها لتتفجر.

من أساليب العلاج في الماضي استعمال الضمّادات، وفصد المريض في فصل الربيع أي شق احد عروقه، وتشريطه أي اسالة دمه، ووضع العلق على جسمه ليمتصّ بعض دمه. وكان الحلاقون يضعون العلق في قماقم زجاجية ليداووا به، ويقلعون الاضراس والأسنان بآلة بدائية أو بالخيط المتين. ومن الأساليب معالجة لسعة الأفعى بسقي الملسوع الحليب ليتقيأ، أو باستخراج سمها بواسطة حجر السم، او بربطها من قبل الحاوي، ومن هنا المثل الذي يقول: «علاج سم الحية الخرشة بحليب العنزة البرشة». اما علاج عقصة الزرقطة والدبور، فبقيح التين وعصير الثوم.

وآخر أساليب العلاج الكي، ويتم بتحمية قضيب حديد ووضعه على الجسم فينزّ الجرح قيحاً يعرف باسم «العمل». وقد رأينا الكثيرين يستعملون ذلك ويغطّون ثقب الكي بحبة حمص الى أن يختم الجرح. «فالكي في فقرة الرأس لوجع العيون وللجنون، وعلى الجبهة من أولها لآخرها لوجع العيون أيضاً، وفي أول الفخد تحت الركبة أو في أسفل الساق للريح ووجع المفاصل، وفي الزندين تحت الكتف لوجع العيون، وفي نقرة القفا لوجع العيون، وعلى صلب المرأة للحبل»[2]. وكانوا يستعملون الكي في الرأس ايضاً لدواء البثور والأمراض الجلدية التي تصيبه.

أما الفالج، فليس له علاج. لذا كان، ولا يزال، مضرب مثل في كل حالة لا خلاص منها «فالج لا تعالج».

وكان هناك معالجون دجّالون يتجولون في القرى، عُرفوا باسم «المغاربة» نسبة الى المغرب العربي. وهم من المغاربة الحقيقيين أو من سكان بلاد الشام الاصليين الذين قلّدوهم واحترفوا مهنتهم. وكان هؤلاء يزعمون انهم يشفون من الأمراض، و«يشيلون الخطوط» (الكتابات)، ويشفون مما ينسب اليها من أمراض نفسية بوصفاتهم الطبية

---

(١) لبنان. مباحث علمية...، مصدر مذكور سابقاً، جـ ١ ص ١٨١ .
(٢) محسن الامين، خطط جبل عامل، مرجع مذكور سابقاً، ص ١٥١ .

وبما «يعزّمون» أي بما يتلون من «عزائم» لإخراج الجان والشياطين من المرضى. وقد رأينا في طفولتنا العشرات من هؤلاء «المغاربة» الذين ظلوا يفدون الى القرى حتى اوائل النصف الثاني من القرن العشرين. ولكم حذّرنا الأهلُ منهم وأوصونا بتجنبهم قائلين: انهم يسرقون الأولاد وشريرون لا يؤمن لهم، وكنا نسمعهم ينادون «دوا للحبّة، دوا للربّة، دوا للعين».

كان الكثيرون من متعاطي مهنة الطب ومدّعيها يسببون أضرارًا بالأجساد بدون ترتيب اية مسؤولية عليهم. وقد صدر في سنة ١٨٦٨ عن مجلس ادارة جبل لبنان أول قانون يحظر على أي انسان تعاطي مهنة الطب نظراً لما أحدثه متعاطوها بغير جدارة من أضرار بأجساد المرضى، ويطلب خضوع الراغب في تعاطيها لفحص من قبل طبيب مركز المتصرفية، أو الحصول على شهادة من المعاهد الطبية الرسمية.

ومما كان الناس يعتمدونه من أساليب العلاج نذر المرضى إلى الأنبياء والأولياء والقديسين، فيمشون اليهم حفاة، ويضيئون لهم السرج والشموع والزيوت والبخور، ويأخذون الأعشاب من جدران أضرحتهم والمعابد المشادة باسمهم، والزيوت والماء وخرق القماش المباركة ببركتهم، ليداووا المرضى بها. وكان النصارى يحرقون البخور لمرضاهم ويحملون الايقونات الى غرفهم ويطوفون بهم لأحد القديسين.

وكان الناس يلجأون الى رجال الدين لرقي الامراض والجروح[1]، ولكتابة الآيات الدينية في حجب (حروزة) لتعليقها في الصدور، ووضعها في البيوت للتبرك بها وللوقاية من صيبة العين والحسد والأمراض، وبما ان الغريق «يتعلق بحبال الهواء» كما يقال، كانوا يلجأون الى العرّافة الذين يعتمدون الرقي والسحر والشعوذة والتعاويذ، والذين يزعم بعضهم بأنهم يخاطبون الأرواح والجان وأنهم خبيرون بشيل الخطوط المكتوبة لإيذاء الناس، الموضوعة في جدران البيوت والمقابر والحقول، فيحلّونها بالماء ليشربها المخطوط له، ويعطونه حرزاً لتعليقه في جسمه، أو يكتبون له صفحة من كتاب على ورقة ليحلها ويشرب محلولها. وبعض هؤلاء العرّافة يقومون بعملهم طمعاً بالأجر لا بالأجرة.

عيادة المرضى

عيادة المريض واجبة وفيها أجر من الله بالإضافة إلى كونها من صلب العلاقات الاجتماعية والتعاطف الاجتماعي. وعن علي رضي الله عنه أنه سمع الرسول ﷺ يقول: «إذا عاد المسلم أخاه مشى في خُرافة الجنة حتى يجلس، فإذا جلس غمرته الرحمة،

---

(١) يضع الراقي يده على الجرح ويرقيه من الألم والدم قائلاً ثلاث مرات: بمولاي ارقيك، وبالحق واليقين، من الحد والحديد، والحجر الملبود، والناب المدلهم الواقب الاسمر، والعِرق فلا يقطر ولا ينعر، والعين فلا تساهد ولا تسهر.

فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وان كان مساء صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح»[١]. وعن أبي هريرة ان الرسول ﷺ. قال: «من عاد مريضاً نادى مناد من السماء طبت، وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً»[٢].

محبة الأهل لأحدهم تزداد، ويقوى التعبير عنها عند المرض. وأحب الابناء الى قلب الوالدين: صغيرهم حتى يكبر، وغائبهم حتى يعود، ومريضهم حتى يشفى. فالأهل يظهرون ازاء مريضهم المزيد من المحبة والاهتمام والاعتناء بصورة لم يكن يلحظها في أوقات السلامة، فينقطعون عن أعمالهم، ويقضون أوقاتهم الى جانبه لتسليته ومساعدته، ويتناوبون على خدمته، ويمضي واحد منهم أو أكثر الليل ساهراً الى جانبه عند اشتداد مرضه، ويقدمون له أشهى المأكولات. وهذا لا يزال ملحوظاً حتى اليوم.

وأقرباء المريض وأصدقاؤه وعارفوه يزورونه أكثر من مرة دون مراعاة الوقت الملائم للزيارة. وما كانوا يتحاشون انتقال العدوى اليهم من مرض فيه خطر، أو ينقطعون عن رؤيته الا عند الضرورة القصوى. وما كان الكثيرون من عوّاده يراعون ضرورة بقائه وحيداً لأخذ المزيد من الراحة والنوم وتنشق الهواء النقي، بل يتجمعون في غرفته بعدد كبير مسببين أحياناً فوضى مزعجة له. وفي عيادة المريض تسلية له وجبر خاطر، واطمئنان لزائريه. وهي واجب يطلق عليه الناس اسم «استفقاد ـ استفقادة»[٣].

كانت الاكثرية الساحقة من المرضى تلازم البيوت في زمن انعدام المستشفيات أو قلتها. وكان معظم عوّادهم يأخذون معهم هدايا عينية من الفاكهة الطازجة والمجففة والخضار والعسل؛ لان اليد الفارغة وسخة في أي مناسبة «الايد الفاضية مجويّة». ويواسي العواد المريض وأهله، ويحاولون تهوين مصيبة المرض عنهم بالإشارة الى أن هناك أمراضاً أخطر من مرضه ومصائب أشد من مصابه، ويقولون: «من رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته».

ومما يقوله رجال الدين الدروز عند زيارة مريض منهم الكلام التالي: «ان شاء الله يكون زيادة باجرك ـ استفقاد الله رحمة» فيجيبهم: «يزيدكم من نعمته ـ ان شاء الله يكون تمحي ذنوب عنا». فالمرض بالنسبة اليهم، كما الحوادث وفقد الاحياء، مناسبة لامتحان ايمان المصاب وصبره على ما قدر الله له. وإذا كان هذا المريض في حال ميؤوس منها وآلامه كثيرة، يقولون لأهله: «الله قادر يحيي العظام وهي رميمة». وهم

---

(١) رواه احمد وابن ماجه، وللترمذي وابي داود نحوه.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه.

(٣) استفقاد واستفقادة لفظتان ماخوذتان من كلمة التفقد اي التعرف على الأحوال.

يرفضون أخذ شيء مما يقدمه أهل المريض على سبيل الضيافة؛ لأنهم جاؤوا «بنية الاستفقادة» أي بقصد الواجب وتوخي الاجر، ولأن أخذهم للضيافة يقلل من أجرهم.

بعد تقدم الطب، وازدياد عدد الاطباء والمستشفيات وانتشارهما في الأرياف، وارتفاع مستوى الدخل الفردي، وإيجاد الضمان الصحي للموظفين ثم التوسع فيه، تخلى الناس تدريجاً عن أساليب العلاج القديمة وعن المفاهيم والمعتقدات الخاطئة، وباتوا يلجأون الى الطبيب الشرعي والمختص، ويعالجون الكثير من الحالات المرضية في المستشفيات. ومن الطبيعي ان يأخذ عوّادهم معهم الهدايا الى المستشفى ومنها المستحدث مثل علب الشوكولا والحلوى، وباقات الزهور وشتلات الزهور الطبيعية والاصطناعية.

قال الرسول ﷺ: «تداووا فإن الله تعالى لم يضع داء الا وضع له دواء غير داء الهرم». ومع ان الله هو، في عرف الجميع، الذي خلق الداء وخلق الطب والدواء، لا يزال الايمان عند الاكثرية بأن الله هو الشافي لا الطبيب والدواء اللذان خلقهما الله. وإذا ما سأل الزائر: من هو الطبيب المعالج، ماذا قال، ماذا فعل؟ أجاب المريض وأهله عن هذه الاسئلة وأردفوا قائلين: «الحكيم الله تعالى».

وإذا سئل المريض وأهله عن أجور الاطباء والمستشفى وثمن الادوية وكيفية تغطية النفقات، كان من تعابير الاجابة ما يلي: «الله لا يعلّقنا بالحكومة والحكماء». وهذا أبلغ كلام يعبّر عن تذمر الناس من كثرة التكاليف والاجراءات ومن عدم توازيها الفاضح مع المداخيل المتواضعة.

وكثيراً ما يعرض الزائرون المساعدة، ويقدمون المال للمريض، فيجاوبون: «ميسّرة - من خير الله وخيركم عندنا كفاية - إذا احتجنا لا نحمل ثقلة عنكم». وإذا كان المريض فقيراً يقدم له أحد المحسنين مالاً على سبيل التبرع او القرضة، ويجمع له الأقارب والمحبون والغير مبلغاً من المال لتغطية نفقات معالجته ومصاريف عائلته، وقد يؤمنون له عملاً ملائماً له بعد ان يشفى.

وعند تعرض شخص لحادثة ما تأتي سليمة وتسمى «قطوع» يزوره الاقارب والاصدقاء والجيران ويهنئونه بالسلامة قائلين: «الحمد لله اللي قضت على خير - النية طيبة - عامل حسنات - الحسنات ترد البلاوي». وعند تعرضه لحادثة كسقطة من على شجرة ومن على ظهر جواد، وحادث سيارة، وعثرة، يزوره الناس ويقولون: «الحمد لله اللي ما هي أعظم - الحمد لله اللي قضت هيك - سلامتك» فيجيبهم: «يحمد شانكم - الله يسلمكم - الله يخلي لنا اياكم». ويردد وعوّاده في اثناء سرد ما حصل له، وكيف

حصل، العبارات التالية: «نشكر الله ـ الله لطف ـ الله كبير ـ الله يضرب باليمين ويستلقي بالشمال». وفي هذه الحالات يحسن البعض الى الفقراء. ومن وجوه الاحسان توزيع الخبز والملح.

مساعدة المتضررين والمنكوبين

يتعرض القرويون لخسائر مادية مثل حرق بيت أو تهدمه، وجرف حقل بسبب الفيضان أو الانزلاق الأرضي، ونفق حيوان بسبب مرض أو حادثة. ومعظم الذين تتهدم بيوتهم يصعب عليهم اعادة بنائها على نفقتهم. ومعظم الذين تنجرف حقولهم يصابون بنكبة كبيرة لأنها ثروتهم وجني عمرهم ومورد رزقهم الوحيد. ومعظم الذين تنفق ابقارهم يخسرون «فردة فدان» يعتاشون من الحراثة عليه، وقد لا يستطيعون شراء غيرها.

و«الرزق عواض الروح»، و«قطعه مثل قطع العنق» بحسب التعابير الشعبية. لذا من الضروري اطلالة المحبين على صاحب الخسارة ومواساته، ويسمى هذا «التهدس». ومما يقال في هذا المجال: «الله يعوّض ـ ان شاء الله يكون واصل لكم شيء وانفدى به»، أي عسى أن يكون في ما أصابكم من ضرر مادي فداءً عما كان سيصيبكم من خسارة بشرية ومكروه أعظم. ويقولون له: «اللي ما لو ما بيرحلو، أي الذي ليس عنده شيء لا يخسر ـ بالمال ولا بالعيال ـ المال بيروح وبيجي ـ اللي بيتعوض ما هو خسارة ـ الرجال جلاّبة المال ـ كل شيء من الله مليح».

ولم يكن الأمر يقتصر على المواساة و«التهدس» فقط، بل كان يقترن غالباً بمساعدة المتضرر والتعويض عليه. فالبيت المحترق يعاد سقفه بسرعة بعونة يشترك فيها الرجال والنساء وتؤمن الجسور الخشبية من الغابات وضفاف الأنهر، وتؤمن القصب والبلان والتراب وسائر ما يلزم، بالإضافة الى قطع الخشب الصغيرة التي تصنع عادة من التوت. وبيوم أو يومين يعاد بناء البيت، وتطلي النساء جدرانه بالتراب وتدهنها، ويعود صاحبه الى سكناه. كما ان الغير من اقربائه وجيرانه وأصدقائه يعوضون الضروري مما تلف من أثاث البيت وأوانيه إما تقدمة وإما تسليفاً. وكثيراً ما كان المقاطعجيون يعوّضون خسائر أتباعهم ومحازبيهم.

حين يضطر القروي الى ذبح حيوان لمرض أو كسر أو تعسر ولادة، يبادر أهل القرية الى شراء اللحم من هذا الحيوان للتعويض على القروي، ويأخذون أكثر من حاجتهم «ليجبروا» عنه، أي ليعوضوا عليه بعض خسارته ويجبروا خاطره المكسور بالكلام الذي

ينم عن تعاطفهم معه، وفي ذلك تعويض مباشر عن خسارته المادية. وإذا كان لحم الحيوان غير صالح للأكل، اشتروا منه من أجل أن «يجبروا» عن صاحبه فقط، وأطعموا اللحم للكلاب والهررة، وهذا احسان الى المتضرر بطريقة غير مباشرة لا تجرح شعوره[1]. وإذا كان الحيوان مستعملاً للحراثة كفردة فدان، أو مستعملاً للنقل ويعتاش صاحبه من استعماله في «المكاراة»، يقدم له الغير بديلاً عنه كي يتابع العمل والارتزاق، أو يجمعون له مبلغاً من المال ليشتري البديل عنه.

ان ضعف التعاطف الاجتماعي عن ذي قبل، وارتفاع مستوى المداخيل الفردية، وتعدل المفاهيم بسبب التطور، أدت مؤخراً الى انهاء « الجبر» عن صاحب الحيوان. يضاف الى ذلك تناقص حالات خسارة الحيوانات بتناقص اعدادها واعداد مالكيها الفقراء، وبنشوء المزارع الحديثة القائمة على رأسمال كبير أو متوسط. لقد أخذ الناس مع الأيام يحجمون عن شراء لحوم الحيوانات للجبر عن أصحابها المتضررين، ومن يفعلون ذلك يفعلونه مرغمين. وصار من تصيبهم خسارة من هذا النوع يؤثرون رمي الحيوان في البرية طعاماً للوحوش على تحمل وزر احسانٍ من الآخرين ومسؤولية بيع لحم قد يأكله الشارون ويضرّ بهم.

من وجوه التعاطف الاجتماعي عند اللبنانيين مساعدة المتضررين والمنكوبين من ابناء القرى أو المناطق الاخرى في وطنهم، فهم بما عرف عنهم من اريحية ومعروف يحسنون بما يقدّرهم الله عليه لمساعدة مواطنيهم في الازمات والنكبات. وخير دليل على ذلك في القرن العشرين مساعدة المتضررين من سكان طرابلس جرّاء فيضان نهر أبي علي سنة ١٩٥٤ ، والمتضررين من الزلزال الذي أصاب بعض مناطق لبنان، ولا سيما منطقة الشوف، سنة ١٩٥٦ .

وكما تمتد يد اللبنانيين لمساعدة الاقارب وأبناء العشيرة والقرية والوطن، هكذا تمتد إلى الاشقاء العرب وإلى الاخوة في الانسانية، فيساعدون المتضررين والمنكوبين منهم في الحروب والكوارث الطبيعية. ومن الأمثلة على ذلك حديثاً التبرعات المالية والمساعدات العينية التي قدمت للمتضررين من الثورات ومن الحروب العربية الاسرائيلية، وللاجئين الفلسطينيين.

تندرج المساعدات في أطر عديدة منها مساعدات الأهالي للمتضررين بطريقة مباشرة، ومساعداتهم لهم عبر الدولة والأحزاب والجمعيات واللجان والمتطوعين. وتكون

(١) شهدنا الكثير من حالات التعويض عن صاحب الحيوان بشراء لحمه. وقد ظل هذا معتمداً في بلدتي حتى الثمانينات من القرن العشرين.

أموالاً ومواد غذائية وأدوية وألبسة وحرامات وخياماً وسواها، تجمع بجولات على البيوت، أو بتعيين مراكز لجمع التبرعات والمساعدات، أو باحياء احتفالات لهذا الغرض. وقد توصل هذه المساعدات مباشرة الى المتضررين أو يحوّل بعضها إلى المصلحة العامة كإنشاء المدارس والمستوصفات ومراكز العبادة.

اجارة اللاجىء واستقبال النازح

من التعابير الشعبية التي تُقال في أصحاب الحمية والمرؤة والكرم انهم «للسيف وللضيف ولغدرات الزمان». كما يُقال هذا بصيغة النفي في من هم عكس ذلك، أي من لا نفع منهم لمجتمعهم في الحرب، ومن لا يأوون الضيف ويطعمونه ويدافعون عنه إذا كان لاجئاً، ومن لا يساعدون غيرهم عند الحاجة وفي الملمات والشدائد وأيام الضيق و«غدرات الليالي». الا ان من ينطبق عليهم التعبير الأول كثيرون بين اللبنانيين، في الحاضر كما في الماضي، لكثرة المفاهيم ذات الجذور العربية والإسلامية والمسيحية، التي تعزز صفات النخوة والكرم والمعروف.

يضطر البعض الى الهروب من وجه خصومهم وأعدائهم في فترة النزاعات والحروب، ويضطر البعض أيضاً إلى الهروب من وجه السلطة لعدم موالاتهم لها أو عصيانهم لأوامرها والثورة عليها. ويلجأ هؤلاء الهاربون الى من يقدرون على حمايتهم، وعلى منع مطارديهم من القبض عليهم أو الفتك بهم، فيجيرونهم وفقاً لعادة عربية أصيلة متوارثة لها وجوهها وحقوقها ومبادئها.

وجوه الاجارة ثلاثة. أولها الوجه، وهو أن يقول اللاجىء لمن يريد حمايته: «انا بوجهك». وثانيها «التشهيد»، وهو ان يشهّد الناس على أنه أصبح بحماية فلان. وثالثها نزوله في بيت شخص أو أرضه، أو بين أفراد عشيرة قوية. وليس للإجارة مدة محددة، فهي تنتهي بزوال السبب الذي أدى إليها، أو عند عدم مقدرة المجير على حماية ضيفه ومعرفة الضيف المستجير بذلك، عندها يترك مجيره إلى مجير آخر. وكثيراً ما أدى السكن الطويل للمستجير الى انتمائه للعشيرة التي احتمى بها فيأخذ اسمها. وكثيرة هي افخاذ العشائر المعروفة بـ «الجباب» في التعابير الشعبية، التي تعود الى أشخاص انتموا إلى هذه العشائر.

للاجارة حقوق مقدسة بحسب المفاهيم التي كانت سائدة. منها مراعاة خصم المستجير وملاحقه حرمة حمى القوم الذين لجأ اليهم المستجير؛ لأن خرق حرمة هذا الحمى والاعتداء على المستجير في داخله اعتداء على كرامة القوم أو زعيمهم. ومنها

وجوب حماية المجير للمحتمي به حتى لو اضطر الى أن يقاتل في سبيله، وان يثور على السلطة التي تلاحقه. والسبب المباشر لثورة سلطان باشا الاطرش الأولى على الفرنسيين في ٢١ تموز ١٩٢٢ هو اعتقالهم لضيفه، الثائر العاملي ادهم خنجر، الهارب من الفرنسيين الذي جاء يحتمي بدار سلطان في القريّا في جبل العرب في سورية.

لذا يفترض تقليد الاجارة أن يكون المجير قادراً على حماية المستجير به، وهذا لا يتوافر الا لأصحاب المنعة والعزة والقوة، ولم يكن أمنع من نزيل الأمير فخر الدين المعني الثاني، كما أشارت إلى ذلك المراجع. وتبعاً لذلك فإن المحتاجين الى حماية لا يقصدون أياً كان، بل يقصدون أميراً أو شيخاً أو وجيهاً أو عشيرة ذات عصبية قوية.

ضعف تقليد الاجارة مع الأيام بسبب قيام الحكم النظامي، وحلول سلطة القانون والنظام مكان الأعراف العشائرية. ومع انتفائه في الأوساط الشعبية، وعلى الصعيد العشائري، ظلت وجوهه ظاهرة في تهيب السلطة لأصحاب القرار ومراكز النفوذ، ولزعماء العصبيات القوية. وكلما قويت هيبة الدولة، واشتد ساعدها، شملت سيادتها كامل الأراضي، وأخضعت لسلطتها جميع المواطنين والمقيمين، وساد حكم القوانين والأنظمة.

من سمات تاريخ لبنان الهجرة منه وإليه، التي استمرت من العصور القديمة حتى العصور الحديثة، ولا تزال ظاهرة قوية الى اليوم. والقادمون إلى المناطق اللبنانية وجدوا فيها حمى منيعاً وقوماً يقبلون بالنزول الى جوارهم وبين ظهرانيهم، ويتعايشون معهم، مما أدى إلى نشوء مقولة «لبنان الملجأ» عند بعض المفكرين والباحثين.

وإذا استثنينا الغزاة الذين احتلوا لبنان وتركوا بقايا منهم فيه، والقبائل التي ملأت مناطقه الخالية وعمّرت قراه واستغلت أراضيه الموات، والقبائل العربية التي جاءت مع الفتح العربي ثم قدمت بعده للمثاغرة والمرابطة لصد هجمات البيزنطيين والصليبيين كالتنوخيين والمعنيين والشهابيين، إذا استثنينا هؤلاء، فإن لبنان استقبل جموعاً من النازحين والمهجّرين بسبب النزاعات والحروب، الذين هربوا من أمام أخصامهم وأعدائهم، ونزحوا اليه حيث وجدوا الأمان فيه، وبعضهم نزح إلى حمى حلفائه وأنسبائه وابناء دينه. ومن الأمثلة على هذه النزوحات قدوم النصارى من المناطق المجاورة على اثر النزاعات المذهبية وسواها، وقدوم دفعة أولى من دروز حلب بعد قضاء الدولة العثمانية على ثورة علي باشا جنبلاط سنة ١٦٠٧ ، وقدوم دفعة ثانية منهم في سنة ١٨١١ على اثر نزاعات محلية، وقدوم الارمن بعد تنكيل الاتراك بهم في الربع الأول من القرن العشرين، وقدوم الفلسطينيين بعد نكبة فلسطين سنة ١٩٤٨ وقيام دولة اسرائيل فيها.

وما ميّز استقبال اللبنانيين للوافدين اليهم قوة التعاطف، وعدم وجود التعصب ازاء الغرباء، وتحليهم بالتسامح الذي وفّر للوافدين فرص العمل والارتزاق والاندماج معهم والتأقلم والتكيف مع الواقع الجديد، ووفر لهم أيضاً اكتساب الجنسية اللبنانية كما حصل للأرمن وسواهم الذين غدوا مواطنين لبنانيين يعملون لخيرهم وخير لبنان كسائر مواطنيه.

ومن الامثلة على نزوحات اللبنانيين داخل الاراضي اللبنانية في القرن العشرين نزوح سكان ساحل الشوف وبيروت الى قرى الشوف الجبلية في اثناء القتال بين الحلفاء والفيشيين في شهر حزيران ١٩٤١، والنزوحات التي حصلت بسبب الحوادث اللبنانية بين عامي ١٩٧٥ و١٩٩٠ وبسبب اجتياحات اسرائيل واعتداءاتها المتكررة التي كان آخرها عدوان نيسان ١٩٩٦ .

ان معظم النازحين من ساحل الشوف وبيروت عام ١٩٤١ حلوا ضيوفاً في قرى الشوف الجبلية ولا سيما في بيوت الدروز، فأشادت بذلك جريدتا البشير والصفاء[١]. وان النازحين من جنوب لبنان بسبب اعتداء اسرائيل سنة ١٩٩٦ لم يسكنوا فقط في المدارس والأبنية الرسمية وفي بعض المؤسسات الخيرية، بل حل بعضهم في بيوت البلدات والقرى التي لجأوا اليها، ولم يتلقوا العون من الهيئات الدولية والدول والادارات اللبنانية والأحزاب والجمعيات فقط، بل تلقوه أيضاً من الأهالي على مختلف مذاهبهم وانتماءاتهم وفئاتهم، مما دل على أبهى صور التضامن والتعاطف، وعلى الوحدة الوطنية، وأعطى مثلاً رائعاً عن اصالة القيم والعادات اللبنانية في حين كانت اسرائيل تراهن على الانقسامات الداخلية وعلى الرواسب التي خلّفتها الحرب الأهلية اللبنانية.

وقف النزاعات الدامية

النزاعات الفردية والعامة موجودة في أي مجتمع بسبب الأطماع والمصالح والجهل والتعصب واتصاف بعض الناس بالسوء والشر والعدوان. فالصراع بين الشر والخير قائم منذ وجد الانسان، ومنذ قتل قابيل أخاه هابيل، بل هو موجود في داخل الانسان. ومجتمعنا المتصف بالتعاطف الاجتماعي والمشاركة في السرّاء والضرّاء، وبالعونات والفضائل، كان، ولا يزال، عرضة للكثير من النزاعات بما في ذلك النزاعات ذات الأسباب البسيطة، بل التافهة أحياناً، التي لا تستأهل الهمرجة، والمتاعب، وجهود الوسطاء التي تُبذل فيها.

---

(١) انظر جريدة البشير عدد ٢٧ حزيران ١٩٤١ وجريدة الصفاء عدد ٢٨ حزيران ١٩٤١ .

بالإضافة إلى النزاعات السياسية بدءاً بالخلاف على الناطور والمختار وشيخ الصلح والزعامة المحلية (زعامة القرية، زعامة العشيرة، زعامة فخذ من العشيرة)، انتهاء بصراع الغرضيات والكتل والأحزاب وسائر النزاعات التي تتخذ طابعاً فئوياً ومناطقياً، هناك نزاعات كثيرة ناتجة من تعاطي الناس بعضهم مع بعض، وتشابك علاقاتهم اليومية والمعيشية والاجتماعية والاقتصادية. جميع هذه النزاعات كانت تشغل المجتمع وتعكّر من حين إلى آخر صفاء عيشه وتسحب ذيولها ومضاعفاتها على صعد عدة. ولوقف النزاعات الدامية ولانهائها أساليب وقواعد ووجوه وعادات متوارثة هي التالية:

الفصل بين المتقاتلين: من النزاعات ما يُكتفى فيها بالتصايح وتبادل الشتائم والاهانات وعرض العضلات والمباهاة والتهديد، ومحاولات الهجوم التي يوقفها المصلحون، ومنها ما يحصل فيه عراك وتضارب بالأيدي والحجارة والعصي والخناجر والسيوف، وتبادل لإطلاق النار. وفي هذا النوع من النزاعات الدامية يقع القتلى والجرحى، وتتسلسل عمليات الفعل وردات الفعل، ويطغى الجهل وحدة طباع بعض الناس ونزقهم وعصبيتهم العشائرية والمناطقية على الطيبة والاصالة. وبعضهم يفضّل تلويث خنجره بالدماء على تلويث لسانه بالكلمات النابية والشتائم. و«الشر من شرارة - وابليس حصته كبيرة» بحسب التعبير الشعبي.

كثيراً ما كانت النزاعات الفردية البسيطة اصلاً تتحول الى نزاعات عامة دامية بين عشيرتين او قريتين لسببين رئيسين، أولهما هو ان بعض الأوضاع المهيأة للفتن والصراعات الدامية تنتظر سبباً مباشراً مهما كان نوعه حتى لو كان تافهاً كخلاف بين ولدين وتلاسن بين شخصين، وثانيهما المفهوم العشائري القاضي بالنصرة العمياء للأقارب، القائم على مبدأ «أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب». وقد ينخرط في النزاع حلفاء العشيرتين المتنازعتين من سائر القرى، الذين تجمعهم عوامل القرابة والمذهب والتحالف والغرضية والولاء السياسي. فيهب كل منهم لمساعدة حليفه، او يبدأون القتال فيما بينهم في قراهم نفسها قائلين أحياناً: «بدلاً من أن نذهب الى قرية حلفائنا ونتقاتل هناك فلنتقاتل هنا في قريتنا».

يبادر المصلحون وأرباب الحمية والنخوة والمروءة الى أرض المعركة عند سماع صياح القوم وإطلاق النار، وعند تبلغهم النبأ، فهم بمثابة رجال الأمن الذين يتدخلون فوراً، بل انهم يتدخلون بسرعة أكثر من رجال الأمن الذين قد يضطرون أحياناً إلى تلقي الأوامر من رؤسائهم بواسطة التسلسل الاداري ليسمحوا لهم بالتدخل. ومن أجل اسراع

المصلحين للقيام بدورهم قد يلجأ أحد الأشخاص الى اطلاق النار. ومن العادات أن ترسل القرية التي يقع فيها نزاع جماعي دام رسلاً إلى القرى لتساعد أهلها في فك الاشتباك ووقف اطلاق النار، فيناشدونهم بالقول التالي: «الغيرة ـ اركضوا الينا ـ يا أصحاب الحمية ساعدونا».

أول عمل يقوم به المصلحون هو الفصل بين المتقاتلين ووقف اطلاق النار، فيقفون بين جبهتيهم. وإذا كان هذا متعذراً عليهم بسبب استمرار اطلاق النار، يناشدون المتقاتلين لوقفه، ويذهب بعضهم الى فريق وبعضهم الى فريق آخر، ومنهم من يحمل الرايات البيض، ويخاطر بحياته ليستطيع تأدية مهمته في الدخول بين المتقاتلين أو في الاتصال بهم. وقد لاقى أهل الشوفين صعوبة كبيرة في الفصل بين آل أبو شقرا وآل عبد الصمد في عماطور حين وقع بينهم الشر في سنة ١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م وذهب ضحيته عشرون قتيلاً من الفريقين بسبب حرق أحدهم لتوتة بدون قصد عند حرقه عليقة. واجلى سعيد جنبلاط بني عبد الصمد الى باتر، وأجلى بني أبي شقرا إلى الخريبة، وعين مأموراً للإقامة في عماطور لمنع أحد الجالين من دخول البلدة وذلك حذراً من التقائه بأحد من العائلة الأخرى وفتك أحدهما بالآخر[1].

ان الوسطاء والمصلحين يضطرون أحياناً الى الإقامة في مكان النزاع لمنع تجدد القتال بين المتنازعين المستنفرين الواقفين على سلاحهم في مواجهة بعضهم بعضاً كما حصل بين مسلحين من آل أبي فرّاج من بعلشميه ومسلحين من آل زيدان من رويسة البلوط في اثناء الحوادث اللبنانية عندما انسحب الاحتكام الى السلاح من الصعيد العام الى صعيد الأفراد والجماعات في كل فئة من الفئات المتصارعة. لقد تدخل كبار شيوخ الدين العقال وسائر المصلحين وفصلوا بين مسلحي الفريقين ومكثوا بينهم. فلوجودهم ولوجود أمثالهم في حالات مشابهة قوة معنوية تعادل أو تضاهي القوة المسلحة المادية التي تمتلكها الفرق العسكرية المخصصة للفصل بين المتحاربين.

ومن عادات المصلحين، والحياديين من الافرقاء والمتقاتلين أو من قراهم، الاهتمام بالنساء والأطفال وحمايتهم وإبعادهم عن أتون المعركة ومراكز الخطر، ودفن القتلى، والاعتناء بالجرحى وتأمين علاجهم. وكثيراً ما كان يعارض أهل القتلى دفن قتلاهم قبل ان يأخذوا بالثأر. وهم لا يفعلون ذلك الا بعد تحقيق مأربهم أو نزولاً عند الحاح كبار القوم وجموع المعزين.

---

(١) انظر عن الشر بين آل ابو شقرا وعبد الصمد، يوسف ابو شقرا، الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية، لا مكان للطبع، طبعة ١٩٥٢، ص ٧٠ ـ ٧١.

جلاء القاتل: من العادات أن يجلو القاتل عن القرية الى قرية بعيدة في المنطقة، أو إلى منطقة أخرى، تخلو من أقارب القتيل وحلفاء عشيرته. وإذا كان القتيل من عصبية قوية يجلو مع القاتل أقاربه اللزم وأحياناً عشيرته. وقد كانت حوادث القتل من أهم أسباب النزوح الفردي والجماعي، وأسباب تناقص عدد العشيرة في القرية التي تم منها النزوح وتكوين عشائر جديدة في القرى التي تم اليها النزوح، أو تضخم العشائر التي يحتمي بها النازحون وينتسبون اليها.

وكان من العادات ان يجلو القاتل من تلقاء نفسه. وإذا لم يفعل ذلك، يجليه الحاكم عقاباً له، أو يجليه الوسطاء لإبعاده عن خصومه ولتسهيل حل النزاع. وكان من امتيازات المقاطعجيين الا يُقتل ويُضرب ويُسجن أحدهم، لكنه يُنفى ويُصادر ماله وتُتلف عقاراته من قبل الامير الحاكم. وفي حال حصول النزاع الدامي بين عشيرتين متفاوتتين في القوة والبطش تضطر أحياناً العشيرة الاضعف الى النزوح عند عدم القدرة على الأخذ بالثأر وتحمل تبعات تسلسل عملياته، وعدم الوصول إلى تسوية مشّرفة تجنبها العار والشماتة.

إن بعض القتلة كانوا مضطرين إلى الاستمرار في تجنب أهل القتيل حتى بعد تنفيذ عقوبة السجن المحكومين بها ودفع الدية وإتمام المصالحة، فلا يمرون من أمام بيت القتيل ويتجنبون الاجتماع بأهله والتعاطي معهم، وبعضهم يفضل مغادرة القرية معتمداً على عامل الزمن في ترتيب العلاقات عند غياب الصفح الكلي والتسامح النهائي وبقاء الضغائن في القلوب؛ لأن المصالحة فُرضت على أهل القتيل وكانوا مرغمين على اجرائها نزولاً عند الحاح الوسطاء والزعامات السياسية وضغطهم.

من السهل الصفح عن القاتل قضاءً وقدراً، والقاتل اضطراراً في سبيل الدفاع عن النفس وعن الكرامة، ومن الصعب الصفح عن الخصم والمعتدي. وحمل الدم في حال الاعتداء ثقيل للغاية، ولا يقوى عليه سوى كبار النفوس الذين يتعالون على الجراح ويضعون نقطة على سطر كتابة الحوادث لإنهائها، والذين نجد منهم عدداً لا بأس به سجّل بصفحه وتسامحه أروع مواقف الكرامة وأزال الخصومات وحجب الدماء.

من الامثلة التي تُروى عن ثقل حمل الدم حتى عند كبار النفوس وأصحاب المروءة الحادثة التالية التي حصلت في بعقلين: التقى قاتل في اثناء هربه بوالد القتيل فاستجار به قائلاً: «انا بوجهك». فلم يتعرض له الوالد محترماً أصول الاجارة المعتبرة آنذاك مقدسة، وقال له: «لا ترني وجهك بعد الآن». فاحترم القاتل كلامه، وتجنب أن يراه لزمن طويل. وذات يوم، وبينما كان يحمل حملاً من البلان على ظهره، التقى بوالد القتيل فجأة عند منعطف زقاق ضيق، فما كان منه، وازاء هذه المفاجأة التي لا تسمح له

بالاستدارة أو الانحراف يمنة ويسرة، الا ان ركع على الأرض مغطياً وجهه بحمل البلان احتراماً لمشاعر الوالد الجريح وتنفيذاً لرغبته. عندها تقدم منه هذا الوالد وساعده على النهوض وقبّله، وكان ذلك صلحاً نهائياً بينهما.

لا يزال جلاء القاتل، أو تحييده وانحدافه، متبعاً إلى يومنا هذا؛ لأن فيه تهيباً للموقف ومراعاة لشعور أهل القتيل وتجنباً لانتقامهم؛ إذ قد يهيجون عند رؤية غريمهم وينتقمون منه بفعل رواسب مبدأ الاخذ بالثأر التي لا تزال متأصلة في بعض النفوس، ولا سيما إذاكان القاتل قد لجأ إلى فعلته عن قصد وعن تعد، وإذا كان هناك دعاة سوء وشر يوقدون نار الفتن بالتعيير والتحريض والتهييج بأساليب شتى.

انهاء النزاعات

الوساطة: مقابل أسباب النزاعات الكثيرة ووقائعها ونتائجها التي تعكر علاقات الناس، هناك العوامل الكثيرة التي تساعد على المصالحة وعلى العودة الى العيش الهنيء المشترك وتبادل السراء والضراء والتعاون وأكل الخبز والملح. ومقابل الخشونة التي تؤدي إلى القتل لأبسط الأسباب والاعتبارات، هناك صفات الرقة والتسامح والعفو والكرم والمعروف. ومقابل دعاة الفتنة ومسببي الشر والمصطادين في الماء العكر وناصري الاقارب والحلفاء نصرة عمياء، هناك سعاة الخير والمصلحون الذين يعملون على قطع دابر الفتنة والشر، والحؤول دون تفاقم النزاع واتساع رقعته ودون تأزم الامور وتطورها الى الأسوأ، ووقف تسلسل ردات الفعل، وانهاء الخلاف من جذوره، واعطاء الحقوق المادية والمعنوية لأصحابها تبعاً للأعراف العشائرية.

يتعرض المصلحون لضربات المتخاصمين عند تدخلهم لوقف التضارب بالأيدي. ويتعرضون للأذى وللخطر، وقد يقتلون، عند تدخلهم لفضّ الاشتباكات التي تُستعمل فيها الاسلحة وتُطلق النيران. لذا قيل: «المصلح له ثلثاً القتلة». والكثير من النزاعات يستغرق حله أسابيع وأشهر، بل سنوات. لكن الساعين لانهائها يضحون بالراحة والوقت من أجل انجاح مساعيهم الخيرية، بل يدفعون أحياناً المال من جيوبهم لحل بعض النزاعات المالية ولحل بعض النزاعات الدامية كتأدية جزء من ديات القتلى وتعويضات الجرحى، فيصح فيهم قول المثل: «قاضي بخشيش ـ قاضي دفّيع». وما أكثر أمثال هؤلاء في مجتمع الامس، ولا سيما في المجتمع القروي القائم على الوجاهة، المتصف بالمروءة، وبسيادة سلطة الأعراف العشائرية فيه على سلطة القوانين، وعمل المحاكم الشعبية على عمل القضاء الرسمي حين وجد.

ان حل النزاعات هو على عاتق الوجهاء وذوي الشأن كما هو على عاتق المقاطعجيين الذين يتدخلون أيضاً خارج اقطاعاتهم لحل النزاع بين حلفائهم والآخرين. يضاف الى ذلك تدخل ولاة الأمور من الدولة الحاكمة وتدخل مسؤولي السلطة المحلية، الذين يهمهم استتباب الأمن والهدوء. وهنا تجدر الاشارة الى ان بعض المصلحين وقضاة المجتمع لا يسلمون هم أنفسهم من النزاعات فيتحولون الى افرقاء نزاع بحاجة الى من يصلح الامور فيما بينهم.

بعد تلطيف الاجواء، وتهدئة الخواطر، وإزالة أسباب الاحتكاك بين المتنازعين لمنع تجدد القتال، واجلاء القاتل او القتلة، تبدأ المساعي لعقد الصلح وانهاء النزاع جذرياً. وتقصر مدة هذه المساعي أو تطول قبل تتويجها بالنجاح تبعاً لأشخاص النزاع ومنزلة الوسطاء وحسن تعاطيهم ومعالجتهم للأمور ونوعية المشكلات. وقد يكون حل مشكلة بين قريتين أو عشيرتين يذهب ضحيتها قتلى كثيرون أهون أحياناً من انهاء حادثة قتل تحصل بين أفراد عشيرة، أو بين أفراد من أحد أفخاذها. كما ان بعض ذوي القتلى يظهرون المزيد من الممانعة والتصلب قبل ان يتنازلوا عن حقوقهم، أي قبل ان «يسفطوا»، لأخذ المزيد من الاعتبار والكرامة.

وإذ ان لكل سكّرة مفتاحاً بحسب أحد التعابير الشعبية، فإن لكل فريق من افرقاء النزاع جهة مقنعة هي أحد الوجهاء والزعماء السياسيين والروحيين. وهناك أساليب فعّالة تسرّع الحل منها الضغط الأدبي الممثل في التحريم والتجيير، والتعويض المعنوي الممثل في اللياقات والمجاملات والتشريفات وعبارات المديح والإطراء، الذي يُعطى لذوي القتلى وللخاسر الاكبر في حال تعدد القتلى من الطرفين. ولتذليل الصعوبات وتجاوز العقبات يستعين الوسطاء بمن يرونهم مؤهلين لمساعدتهم في انجاح مساعيهم، ويكررون المحاولات من غير ملل وقنوط ويأس لأن غلق باب الشر أصعب كثيراً من فتحه.

الدية: من جملة ما يبحث به الوسطاء الديّة المعروفة بـ «الجنيّة». وهي من ترتيبات اجراء الصلح وخطواته الأساسية للحصول على اسقاط الحقوق الشخصية والتنازل عن حق الأخذ بالثأر. انها التعويض المادي على أهل القتيل. وفي حال حصول تفاوت بين عددي قتلى الطرفين المتقاتلين يُقرر فرق الديات ويُعطى للفريق الخاسر. وكان الامير الحاكم في الشوف أو المقاطعجي يغرّم القاتل أو أهله أو عشيرته بمبلغ من المال، وكأن ذلك بمثابة الحق العام اليوم. وكان زعماء العشائر يدفعون ديّات القتلى عن عشائرهم، وهذا أحد مظاهر زعامتهم وأحد الموجبات المترتبة عليها.

تُؤدى الديّة عيناً ونقداً، ويحدد مقدارها تبعاً لأهمية حادثة القتل، وحال القاتل

وأهل القتيل. ويشارك اقرباء القاتل أحياناً في دفعها. فكما يوجب «حمل الدم» و«التعاهد على الدم» في المجتمع العشائري على اقرباء القتيل المشاركة في الاخذ بالثأر، يوجب على اقرباء القاتل المشاركة في دفع الديّة عند عجزه وعجز أهله عن دفعها كلها أو بعضها. والعرف العشائري كان يلزم القاتل بدفع الديّة قبل ان يصبح دفعها الزامياً بموجب القوانين.

تكون الديّة تعويضاً مادياً يُتفق عليه. وتكون أحياناً صرة من المال، أي مبلغاً من المال ملفوفاً بمنديل يحمله الوسطاء الى أهل القتيل فيأخذه هؤلاء دون أن يعرفوا مقداره. وبعض أهل القتلى يرفضون أخذ الديّة مفضلين وقفة العز والفخر والشمم والاباء عليها، معتبرين الموضوع أسمى من أن يكون تعويضاً مادياً مهما بلغ مقداره، ولا سيما إذا كانوا ميسورين وكان القاتل معسراً. وكثيرون من رافضي أخذ الديّة يتخذون قرار التنازل عنها من ذاتهم، وبوحي من اصالتهم، وبدافع من سمو أخلاقهم وابائهم، لا نزولاً عند طلب الوسطاء. وبعضهم يعتبرون البحث في الديّة اهانة لهم، ويجيبون على تطرق المصلحين اليه وعلى تقديم صرة المال لهم ان حقهم في أحد أمرين: اما دماء الغريم، وأما وقفة الكرامة، وأنهم مهما أخذوا من مال لا يعادل نقطة دم من دماء القتيل[1].

ومقابل هذه الفئة من الناس، الرافضة لأخذ الديّة، هناك فئة تقبل بها، ويساوم بعض أفرادها فيها إما بسبب الفقر وعدم وجود معيل لعائلة القتيل واعتبار الديّة تعويضاً على أهله عما كان يقدمه لهم، او بناءً على اعتبارها حقاً مكتسباً، او بدافع قصاص الجاني مادياً. وفي حالات المساومة يطلب أهل القتيل الكثير على أساس ان دمه غال كثيراً، او ليتخذوا من ذلك سبيلاً الى اكرام الوسطاء بالتنازل عن بعض حقهم. والوسطاء خبيرون بوسائل ارضاء هذا النوع من الناس ولو بالكلام واللياقات والمجاملات المعهودة للوصول الى التسوية المنشودة.

المصالحة: من النزاعات البسيطة ما ينتهي بالمعاتبة، و«المعاتبة صابون القلوب». ومنها ما ينتهي بالمصافحة وببوس اللحى اللذين يزيلان أسباب النزاع ومضاعفاته مهما كبرت، وينهيان القطيعة مهما طالت مدتها، ويعيدان العلاقات طبيعية مهما كانت متوترة. ومن النزاعات ما تنهيه مناسبات الموت والفرح وغيرها؛ إذ ان الموت يزيل الاحقاد والضغائن، ويفرض تعزية أهل الميت، ويشكل مناسبة لانهاء القطيعة إما ببادرة شخصية وإما نزولاً عند طلب الاكارم الوسطاء. وكذلك يشكل الفرح مناسبة أيضاً

---

(١) عدم اخذ الدية يسمى عند قبائل بلاد الشام «شوما» فيقال شوّموا، أي لم يأخذوا شيئاً.

لإعادة المياه الى مجاريها بين المتباعدين والمتخاصمين حين يبادر صاحب العرس الى دعوة الاشخاص الذين بينهم وبينه وقفة حال لكي يكتمل فرحه بحضورهم.

لكن معظم النزاعات الكبيرة والدامية تتطلب مبادرات ومساعي من المصلحين. ومن الأعراف اجراء المصالحات لإنهائها في اجتماع عام يصغر أو يكبر تبعاً لأهمية النزاع وعدد قتلاه، ويُسمّى اليوم «الصلح» و«المصالحة» و«الصلحة»، وكان يُسمّى «عقد الراية». والمصالحة، مهما كانت ترتيباتها واسمها، هي اتفاق نهائي يضع حداً للنزاع وتفاعلاته ولاختلال حبل أمن الجماعة وتعكير اجواء عيشها، وبشكل خاتمة لاحتمال تجدد الاحزان بتجدد عمليات الأخذ بالثأر.

يحدثنا يوسف أبو شقرا عن المصالحة بين آل أبو شقرا وآل عبد الصمد على اثر الحادثة التي حصلت بينهم في سنة ١٨٥٤ والتي وردت الاشارة اليها، فيقول: ان سعيد جنبلاط استدعى العائلتين الى المختارة فمثلوا لديه وجعل يعظهم ويوصيهم بالخير وينذرهم عاقبة الشر والعداء، وطلب اليهم التصالح والتصافح فتصافح الكهول والكهول، والشبان والشبان، وعادوا الى عماطور كأن لم يكن بالأمس شيء واجتمع عقلاؤهم في اليوم التالي في مجلس واحد لاداء فروض الصلاة سوية، وهذا من نوادر الاتفاق. وقد أُرفقت هذه المصالحة بتوقيع صك في دار سعيد جنبلاط كتبه الحاكم الشرعي محمد القاضي وذُيّل بتوقيع الموكلين عن آل أبو شقرا وآل عبد الصمد وبتوقيع مأموري قائمقام القائمقامية الدرزية، الامير أمين ارسلان، ومأموري الايالة. وأقر وكلاء العائلتين باسقاط حقوقهم وحقوق موكليهم من العائلتين وهدر دم كل من قتل وديته وارش جرحه، وهدر كل جريح يقدر الله وفاته، والاعتراف بأنه لم يبق لكل من العائلتين أي حق وأية دعوى ازاء العائلة الأخرى[1].

تم الصلح بين آل أبو شقرا وآل عبد الصمد بسرعة كما وقع الشر بينهم وعم بسرعة، فهم لا يذكرون من الحادثة الا وهم في ساحة القتال ودخان البارود فوق رؤوسهم بحسب ما صرّحوا جميعاً لهيئة محكمة قائمقامية الشوف. ومما عجّل في عقد الصلح بينهم تكافؤ القوى وسقوط عشرة قتلى من كل عائلة؛ إذ كان من المرجح ان يصعب عقد الصلح بينهم في حال التفاوت بين القتلى.

من جملة الوسائل التي كان الوسطاء، من ذوي المكانة المرموقة، يستعلمونها لانهاء النزاعات الفردية المحدودة، وتسريع حلها، ووضع حد لممانعة أهل القتيل عقد الصلح

---

(١) يوسف ابو شقرا، الحركات... وردت الاشارة اليه ص ٧٢، ٧٣، ٧٩، ١٧٩، ١٨٠ .

وتشبثهم بعدم القبول به، احضار القاتل إلى بيتهم وعلى رقبته منديل أبيض دون اعلامهم بالأمر، مستأنسين بمروءتهم، واثقين من أن وضعهم أمام الأمر الواقع سيؤدي الى النتيجة المنشودة، فيضطر أهل القتيل، الذين يجتمعون لمقابلة وفد الوسطاء من أجل التباحث ويفاجأون بوجود القاتل معهم، ان يستقبلوا القاتل مراعاة للتقاليد التي تقضي باستقبال الضيف وإكرامه حتى لو كان قاتلاً، وإكراماً للوسطاء، فيفكون المنديل عن رقبته.

ان ربط المنديل الابيض على رقبة القاتل عند الاتيان به لمصالحة أهل القتيل رمز الى السلام وطلب الصلح، وتعبير عن الرغبة في وضع النفس بتصرفهم والعنق في عهدتهم. وان فك أهل القتيل للمنديل عن رقبة القاتل اشارة الى أنهم قادرون على قطع عنقه وقادرون على العفو عنه، ورمز الى الصفح عنه وتحريره من هاجس الاقتصاص منه بموجب حق الاخذ بالثأر.

ووضع المنديل في العنق دليل التسليم، وكان يفعل هذا المغضوب عليهم عند دخولهم على الحكام الغاضبين لينالوا رضاهم والامان منهم. فالأمير يوسف الشهابي دخل على الجزار في عكا سنة ١٧٨٩ «وفي عنقه منديل التسليم فأعطاه الامان وأذن له بالحضور»[١].

أما اسلوب المصالحة الذي كان معتمداً، ولا يزال، فهو تعيين يوم للصلح برعاية زعيم المنطقة السياسي، يُدعى اليه الرؤساء الروحيون وممثلو السلطة والوجهاء وجمع من الأهالي. والقصد من هذه الدعوة الموسّعة التكريم المعنوي لأهل القتيل بالإضافة الى اشهاد الناس على انهاء النزاع. ويكون مكان الصلح أحد بيوت الوجهاء أو أحد البيوت العامة والنوادي او احدى الساحات. وبعد القاء الخطب التي تليق بالمقام، وتشيد بفضائل الجماعة ومناقبها، وتمجّد الصفح، وتكبر تضحية أهل القتيل وصفحهم وتسامحهم وسمو أخلاقهم، وتشدد على اللحمة بين أفراد المجتمع، يؤتى بالقاتل مع أهله ليصافحوا أهل القتيل، ويؤتى به أحياناً وعلى رقبته منديل ابيض مربوط. وقد يقوم الجميع بعد المصافحة بزيارة بيت القتيل. وبهذا تسوّى القضية نهائياً، وينتهي النزاع جذرياً.

ان ربط المنديل على عنق القاتل، وفكه من قبل أهل القتيل، لا يزالان متبعين الى اليوم. وقد حصلا في غريفه في ٧ كانون الأول ١٩٩٧ . القاتل والقتيل من فخذين

---

(١) تاريخ الامير حيدر الشهابي، دار الاثار بيروت، لبنان، طبعة ١٩٨٠، ص ٨٥٩ .

(جبين) من آل أبو حمدان. والحادثة تعود الى سبع سنوات، ومنذ حصولها لم تتوقف محاولات الفعاليات السياسية والدينية والاجتماعية لعقد الصلح بين الاقارب. ومع هذا، ومع نزوح القاتل وأهله من غريفه طوال هذه المدة، لم يرضَ أهل القتيل بعقد الصلح الا في أواخر عام ١٩٩٧ . وقد دعي اكراماً لهم جموع ووجوه من جبل لبنان ومن جبل العرب في الجمهورية العربية السورية، وعقد الصلح برعاية الوزير وليد جنبلاط وحضوره وحضور بعض نواب الشوف، وقضاة المذهب الدرزي. وقد جيء بأهل القاتل، وجيء بالقاتل وعلى رقبته منديل أبيض مربوط، برفقة الشيخ أبو محمد جواد ولي الدين، فصافحوا أهل القتيل، وفك أخو القتيل الاكبر المنديل عن رقبة القاتل وقال له: «نحن سامحناكِ ـ ونطلب من الله ان يسامحك»».

من أساليب المصالحة ووجوهها عقد الراية الذي كان متبعاً في أوساط العشائر ببلاد الشام لانهاء جميع حوادث القتل. وهو لا يزال متبعاً في بعض المناطق الشامية حتى اليوم. وتُعقد الراية لانهاء النزاعات الفردية والجماعية والحادثات التي يقع فيها قتلى. ويقال: «عقدنا راية» أي أجرينا صلحاً.

ان أهل جبل العرب في الجمهورية العربية السورية لا يزالون حتى اليوم يعتمدون عقد الراية لانهاء حوادث القتل فيما بنيهم، ويعتمدونه أحياناً لإنهاء حوادث القتل فيما بينهم وبين الآخرين. وقد فعلوا ذلك على سبيل المثال في الباروك، احدى بلدات الشوف، في لبنان سنة ١٩٨٠، لانهاء قضية مقتل أحد ابناء آل محمود من الباروك على يد أحد ابناء آل رضا من جبل العرب. وحضر عقد الراية الوزير وليد جنبلاط وشيخ عقل دروز لبنان الراحل محمد أبو شقرا، وشيخ عقل دروز جبل العرب حسين جربوع، وعبدالله الاطرش (النائب في المجلس النيابي السوري) الذي هو أبرز المجلين في سورية كلها في عقد الراية، وأكثر الناس خبرة بأساليبه وأصوله ابتداءً بالتوسط لحل النزاع وانتهاء بمراسم عقد الراية.

بعد نجاح الوساطة وموافقة أهل القتيل على المصالحة ، يُحدد موعد عقد الراية ومكانه. ويدعو كل من أهل القتيل وأهل القاتل اقرباءه للحضور، كما يُدعى جمع غفير للحضور أيضاً بينهم الفعاليات السياسية والروحية، وقد تشمل الدعوة عدة مناطق. فيجتمع أهل القتيل او القتلى لاستقبال المدعوين وال القاتل أو آل القتلة. وعند حضور هؤلاء يثنون على أهل القتيل ومكارم أخلاقهم وسمو صفحهم ونبل تضحيتهم.

عند اكتمال حشد القرى المدعوة يتقدم أبرز الحاضرين بالراية الى وجوه عائلة القتيل، ويُخص بذلك تكريماً له. ومن هنا نشأ التعبير الشعبي الذي يقول: «لفلان الراية

البيضاء»، أي أنه مصلح بارز. والراية هي شاشة بيضاء خالية من الكتابة والرسم موضوعة على رأس رمح أو عصا طويلة. ويسلم أحد وجوه عائلة القتيل الراية الى والد القتيل أو من ينوب عنه فيعقد ذيلها، ثم يعقدها وجوه عائلته واقربائه، فالكفلاء، فأحد أبرز الشخصيات الحاضرة الذي يكفل جميع أفراد عشيرة المقتول، الحاضرين والغائبين والذين لم يولدوا بعد، وقد يعقدها ممثل السلطة. وعقد الراية من قبل هؤلاء هو دليل أكيد وقاطع على الموافقة التامة على المصالحة وعلى ما جاء في الاتفاق لاجرائها، كما ان عاقديها والحاضرين هم شهود على ذلك.

بعد الانتهاء من عقد الراية يصيح حاملها بأعلى صوته قائلاً: «أشهد أن لا اله الا الله، وان محمداً رسول الله، ومن عفا وأصلح فاجره على الله. اشهدوا يا أهل البرية، ضيوف ومحلية، والراية البيضاء المبنيّة لآل فلان (آل الفقيد) كرم الله وجوههم»[1]. ثم يكرر القول نفسه لتكريم الوسطاء ووجوه الحاضرين وممثل السلطة. ثم يسلم الراية الى عائلة القاتل. وقد يؤتى بالقاتل ليصافح أفراد عائلة المقتول. وبهذا يسدل الستار نهائياً على آخر فصل من فصول حادثة القتل ومراحل تسويتها.

ومما تجدر الاشارة اليه هو ان عقد الراية، المتّبع حالياً في عدة مناطق من بلاد الشام لا تزال تسودها الأعراف العشائرية، يقابل فك المنديل المتبع حالياً في بعض مناطق لبنان. وكلاهما رمز الى انهاء الموضوع جذرياً، وإسقاط حق الاخذ بالثأر، أي «السفط»؛ إذ بعد عقد الراية وبعد فك المنديل، وبعد أي شكل من أشكال الصلح، لا يجوز على الاطلاق المطالبة بالحق أو الأخذ بالثأر. وكان عقد الراية يعني اسقاطاً للحق العام اضافة الى اسقاط الحق الشخصي في الفترة الاولى من نشوء السلطة النظامية وقيام الادارة محل الحكم العشائري.

المصالحات الوطنية: ان المصالحات الوطنية التي تمت في قرى العودة، بعد الحرب الاهلية الأخيرة في لبنان، مشابهة للمصالحات التي كانت تجري لإنهاء النزاعات الدامية. انها جزء من المصالحة الوطنية الشاملة في لبنان من أجل تثبيت السلم الأهلي وإعادة اللحمة والوحدة الكاملتين بين اللبنانيين. وما تحقق من هذه المصالحات كان أكثره في جبل لبنان؛ لان نسبة التهجير منه ومداه أكثر من سائر المناطق. وقد تم بعضها برعاية وزير شؤون المهجرين وليد جنبلاط، وتمت ثلاثة منها برعاية رئيس الجمهورية اللبنانية الياس الهراوي وحضوره.

---

(١) هذه العبارات مستعملة في عقد الراية في جبل العرب.

وهذه المصالحات الثلاث هي المصالحة في الباروك في ٩ ايلول ١٩٩٤، والمصالحة في معاصر الشوف في ١٥ تشرين الاول ١٩٩٥، والمصالحة في مزرعة الشوف في ٤ آب ١٩٩٦ . وقد أخذت هذه المصالحات أهمية كبيرة نظراً لفداحة المآسي وكثرة الضحايا في البلدات المذكورة. ومظاهر التكريم في هذه المصالحات وسواها هي تعويض معنوي يضاف الى التعويض المادي الممثل بالأموال المدفوعة عن القتلى والجرحى، ومن أجل اخلاء البيوت من شاغليها وإعادة بنائها واصلاحها.

ان قرار العودة هو قرار دولي اقليمي اضافة الى كونه قراراً للدولة اللبنانية من أجل اقفال ملف الحرب اللبنانية، وتوطيد دعائم السلم الأهلي، وإكمال المصالحة الوطنية. وهو لا يمكن ان يتم الا بمصالحات حقيقية بين العائدين والمقيمين تبدأ بلقاء عام تباركه السلطة ويكون حضور ممثليها وحضور الجموع الكثيرة تكريماً لهذه العودة ومباركة لها واحتفاءً بها، أو تتم بتوقيع صك مصالحة بين ممثلي العائدين وممثلي المقيمين كما جرى مؤخراً في وزارة شؤون المهجرين برعاية الوزيرين أنور الخليل ومروان حمادة.

يتجمع العائدون في ناحية، والمقيمون في ناحية أخرى. ثم يتقدم المقيمون للسلام على العائدين، وتُلقى الكلمات باسم كل من الفريقين، وتختتم بكلمة راعي الاحتفال، وتشيد الكلمات بالأصالة وبالفضائل والعادات والتقاليد اللبنانية، وتشدد على الوحدة الوطنية، وعلى ضرورة تناسي الاحقاد والضغائن، وطي صفحات الماضي البغيض، وفتح صفحة جديدة في سجل العيش الواحد.

حضر المصالحةَ في مزرعة الشوف عشرةُ آلاف نسمة. وتعانق فيها العائدون والمقيمون، الاصدقاء والجيران والأحبة ومتقاسمو الخبز والملح. وانسكبت دموع الفرح على المآقي، وشعّت الغبطة في الوجوه. وانجلت مع شمس آب المحرقة غيمة سوداء عابرة، وطويت صفحة بغيضة. وهذا مما يدل على غلبة الاصالة على افرازات الحوادث، وعلى ان العادات والتقاليد والقيم اللبنانية الجميلة التي حجب بعضها غبار الاحداث عادت الى صفائها الكامل. والذهب الجيد يعود اليه بريقه بعد مسح الغبار والشوائب عنه.

فهرس الأعلام والأماكن

فهرس الأعلام

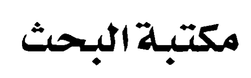
- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

فهرس الأماكن


مكتبة البحث

المصادر والمراجع بالعربية

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس.
- ابن أبي طالب، الامام علي، نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار الهدى الوطنية، بيروت، لبنان. لا تاريخ.
- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، لبنان ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م.
- ابن انس، مالك، الموطأ، دار احياء العلوم، بيروت، لبنان ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.
- ابن سباط، صدق الاخبار المعروف بتاريخ ابن سباط، تحقيق عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، لبنان ١٩٩٣.
- ابن شهر اشوب، مناقب آل أبي طالب، دار الاضواء، بيروت، لبنان ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م.
- ابن عبدالله، جمال الدين، صيام عاشوراء، دار الرسول الاكرم (ص) دار المحجة البيضاء، بيروت، لبنان ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.
- ابن قولويه، الشيخ جعفر بن محمد القمي، كامل الزيارات، دار السرور، بيروت، لبنان ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
- ابن منظور، لسان العرب.
- ابن يحيى، صالح، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي دار الشرق، بيروت، لبنان ١٩٦٧.
- ابني قدامه، الامامان موفق الدين وشمس الدين، المغني والشرح الكبير، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.

- أبو زكي، فؤاد، الامير السيد عبدالله التنوخي. سيرته وأدبه. الطبعة الاولى ١٩٩٧.
- أبو سعد، أحمد، قاموس المصطلحات والتعابير الشعبية، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان ١٩٨٧.
- أبو شقرا، يوسف، الحركات في لبنان الى عهد المتَصرفية، لا مكان للطبع، طبعة ١٩٥٢.
- اسبوع الآلام، تأليف قسم الليتورجيا وقسم العلوم الموسيقية في جامعة الروح القدس الكسليك، جونيه، لبنان ١٩٧٦.
- الاسود، ابراهيم، ذخائر لبنان، المطبعة العثمانية، بعبدا، لبنان ١٨٩٦.
- آل الفقيه، محمد جواد، ابو ذر الغفاري، دار الفنون، بيروت، لبنان ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.
- الأمين، السيد محسن، خطط جبل عامل، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ١٤٠٢ هـ ١٩٨٣ م.
  - رسالة التنزيه في أعمال الشبيه.
- البستاني، شكري، دير القمر في آخر القرن التاسع عشر، بيروت، لبنان ١٩٩٤.
- البشعلاني، الخوري اسطفان، تاريخ بشعلي وصليما، مطبعة فاضل وجميّل، الدورة، لبنان ١٩٤٧.
- البعيني، حسن، دروز سورية ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت، لبنان ١٩٩٣.
  - عادات الزواج وتقاليده في لبنان. الاصول الشرعية - القوانين التنظيمية - الخطبة والعرس. بيسان، بيروت، لبنان ١٩٩٨.
- تشرشل، تشارلز، جبل لبنان. عشر سنوات اقامة ١٨٤٢ - ١٨٥٢. ترجمة فندي الشعار، دار المروج، بيروت، لبنان ١٩٨٥.
- جلال الدين، الشيخ محمد سليم، رسالة احكام الجنائز، المطبعة العصرية، صيدا، لبنان، لا تاريخ.
- خاطر، لحد، العادات والتقاليد اللبنانية، دار لحد خاطر، بيروت، لبنان ١٩٨٥.
- الخطيب، ذكاء الحر «التراث الشعبي الديني - عاشوراء» كتاب المؤتمر الأول للثقافة الشعبية في لبنان سنة ١٩٩٣ الذي أصدرته حلقة الحوار الثقافي.
- الخوئي، السيد أبو القاسم الموسوي، منهاج الصالحين ، دار البلاغة، بيروت، لبنان ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.
- الخوري، شاكر، مجمع المسرات، دار لحد خاطر، بيروت، لبنان ١٩٨٥.
- الخوري، فؤاد، من مشارف المئة، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٨٧.
- خنشت، يوسف موسى، طرائف الأمس غرائب اليوم، دار الرائد اللبناني، الحازمية، لبنان ١٩٨٢.

- درة التاج وسلم المعراج في ذكر تاريخ الامير جمال الدين عبدالله التنوخي، تأليف سليمان بن حسين بن سليمان بن نصر، تحقيق اللجنة الثقافية في مؤسسة العرفان التوحيدية. لا مكان للطبع وتاريخه.

- الدويهي، البطريرك اسطفان، تاريخ الازمنة، نظر فيه وحققه الاباتي بطرس فهد، دار لحد خاطر، بيروت، لبنان ١٩٨٣.

- ديورانت، ول، قصة الحضارة. الهند وجيرانها، الشرق الادنى. الشرق الاقصى، الصين جـ ١ - ٢ - ٣ ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة، مصر ١٩٦٨، ١٩٧١.

- الراسي، سلام، جود من الموجود، منشورات نوفل، بيروت، لبنان ١٩٩١.

- ريحانا، العميد الركن سامي، موسوعة التراث القروي، العادات والتقاليد والطقوس، دار نوبليس ١٩٩٣.

- الزين، علي، العادات والتقاليد في العهود الاقطاعية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر ١٩٧٧.

- السبستاني، السيد علي الحسيني، منهاج الصالحين، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

- السوّاح، فراس، ملحمة جلجامش، دار الكلمة للنشر، بيروت، لبنان ١٩٨٣.

- شحاذه، الشيخ عبد الحليم الحاج، الوجيز في الجنازة وأحكامها. نشرة توجيهية - ١ -

- الشدياق، طنوس، أخبار الاعيان في جبل لبنان، تحقيق الدكتور فؤاد افرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٠.

- شمس الدين، الامام الشيخ محمد مهدي، عاشوراء(١) مجموعة محاضرات، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م.

  - واقعة كربلاء في الوجدان الشعبي، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.

- الشهابي، الامير حيدر، تاريخ الامير حيدر الشهابي، دار الاثار، بيروت، لبنان، طبعة ١٩٨٠.

- الشوكاني، الشيخ الامام محمد بن علي بن محمد، نيل الاوطار، شرح منتقى الاخبار من أحاديث سيد الاخيار، دار الجيل، بيروت، لبنان، لا تاريخ.

- الصدوق، الشيخ، عيون اخبار الرضا، مؤسسة الاعلمي، بيروت، لبنان ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.

- ضو، الاب بطرس، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، جـ ٥، لا مكان للطبع وتاريخه.

- طبّاره، شفيق، الرقص في لبنان عبر العصور، بيروت، لبنان ١٩٥٧.

- الطبري، الامام أبي جعفر بن محمد بن جرير، تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الملوك، مؤسسة الاعلمي، بيروت، لبنان، لا تاريخ.

- الطريحي، الإمام الشيخ فخر الدين، المنتخب، مؤسسة الاعلمي، بيروت، لبنان ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.
- طقوس الموحدين، كتيب صادر عن مكتب مشيخة العقل في لبنان، الطبعة الثالثة ١٩٦١.
- العاملي، السيد عبد الحسين ابراهيم، سفينة النجاة، دار المحجة البيضاء، دار الرسول الاكرم (ص) بيروت، لبنان ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م.
- عبّود، مارون، وجوه وحكايات، دار المكشوف، بيروت، لبنان ١٩٦٢.
- أحاديث القرية. أقاصيص وذكريات، دار الثقافة، دار مارون عبود، بيروت، لبنان ١٩٧٦.
- العسلي، غالب، أعمال شهر رمضان، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
- العقيلي، اسعد، مجموعة الطقوس الدرزية في الزواج والموت والوصية، مطبعة الصفاء، كفرمتى، لبنان ١٩٣٥.
- فريحة، أنيس، القرية اللبنانية. حضارة في طريق الزوال، جروس برس، طرابلس، لبنان ١٩٨٩.
- القزويني، السيد امير محمد الكاظمي، الشيعة في عقائدهم وأحكامهم، دار الزهراء، بيروت، لبنان ١٤١٣ هـ ١٩٩٣.
- قصة النبي أيوب، منشورات مكتب مشيخة العقل في لبنان، طبعة ١٩٦١.
- كارن جون، سورية والارض المقدسة وآسيا الصغرى، ترجمة رئيف خوري بعنوان «رحلة في لبنان في النصف الاول من القرن التاسع عشر»، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، بيروت، لبنان ١٩٤٨.
- كرد علي، محمد، خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م.
- لبنان. مباحث علمية واجتماعية. كتاب نشرته لجنة من الادباء بهمة اسماعيل حقي بك، متصرف جبل لبنان سنة ١٩١٨، وأعادت طبعه الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٩.
- محدثي، جواد، موسوعة عاشوراء. ترجمة خليل زامل العصامي، دار الرسول الاكرم (ص) دار المحجة البيضاء، بيروت، لبنان ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
- مخطوطات دفاتر المصلين والملقنين عند المسلمين الموحدين الدروز.
- المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب، دار الاندلس، بيروت، لبنان ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.
- المظفر، الشيخ محمد حسين، تاريخ الشيعة، دار الزهراء، بيروت، لبنان ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.
- معتوق، فريدريك، التقاليد والعادات الشعبية اللبنانية، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان ١٩٨٦.
- المقرم، عبد الرزاق الموسوي، مقتل الحسين، دار الاضواء، بيروت، لبنان ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.

- المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، دار صادر، بيروت، لبنان، لا تاريخ.

- كتاب السلوك لمعرفة درر الملوك، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م.

- مكي، محمد علي، لبنان ٦٣٥ ـ ١٥١٦ من الفتح العربي الى الفتح العثماني، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان ١٩٧٩ م.

- الموسوي، موسى، الشيعة والتصحيح. الصراع بين الشيعة والتشيع، دار الزهراء للاعلام العربي، القاهرة، مصر ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.

- ناتوت، هلال «من التراث الصيداوي» كتاب المؤتمر الاول للثقافة الشعبية في لبنان سنة ١٩٩٣ الذي أصدرته حلقة الحوار الثقافي.

- النبي أيوب عليه السلام. آداب زيارته ونبذة من سيرته. كتيب أصدره مكتب مشيخة العقل في لبنان ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.

- نخلة، رشيد، كتاب المنفى، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ١٩٥٦.

- نور الدين، السيد حسن، عاشوراء في الادب العالمي المعاصر، الدار الاسلامية، بيروت، لبنان ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.

- يزبك، يوسف ابراهيم، ولي من لبنان. سيرة العارف بأمر الله الامير السيد عبدالله التنوخي، لبنان، طبعة ١٩٦٠.

- مذكرات عن لبنان المتصرفية في عهود الباشاوات الاولين داود وفرنكو وواصه.

- يعقوب، اميل بديع، الاغاني الشعبية اللبنانية، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان ١٩٨٦.

- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، لبنان، لا تاريخ.

الاطروحات الجامعية

- غنّام، رياض، التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي لمقاطعات جبل لبنان ١٧٨٨ ـ ١٨٦١، اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه اللبنانية، مقدمة الى الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الانسانية، الفرع الاول، قسم التاريخ، بيروت ١٩٩٦.

الدوريات

- البعيني، حسن أمين «من تراث الموحدين الدروز. عادات وتقاليد» مجلة الضحى، عدد نيسان ١٩٩٣.

- الحاج، جورج زكي «اوزان الزجل اللبناني» مجلة الحداثة، عدد ٧ ـ ٨ سنة ١٩٩٥.

- سلمان، الخوري بولس «اللاهوت البدوي في شرق الاردن» مجلة المشرق، المجلد ١٨.

- معتوق، فريدريك «التقاليد والعادات الشعبية في الاحزان» مجلة الحداثة، عدد ٥ ـ ٦ سنة ١٩٩٥.

- مونس الاب يوسف «التقاليد الشعبية في الجنازات اللبنانية» مجلة الحداثة، عدد ٧ ـ ٨ سنة ١٩٩٥.

- الولي، طه «بيروت كما رآها الرحّالة الاجانب» مجلة الحداثة، عدد ١٥ ـ ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ سنة ١٩٩٦.

الصحف

البشير، السفير، الصفاء، النهار.

المصادر والمراجع بالأجنبية

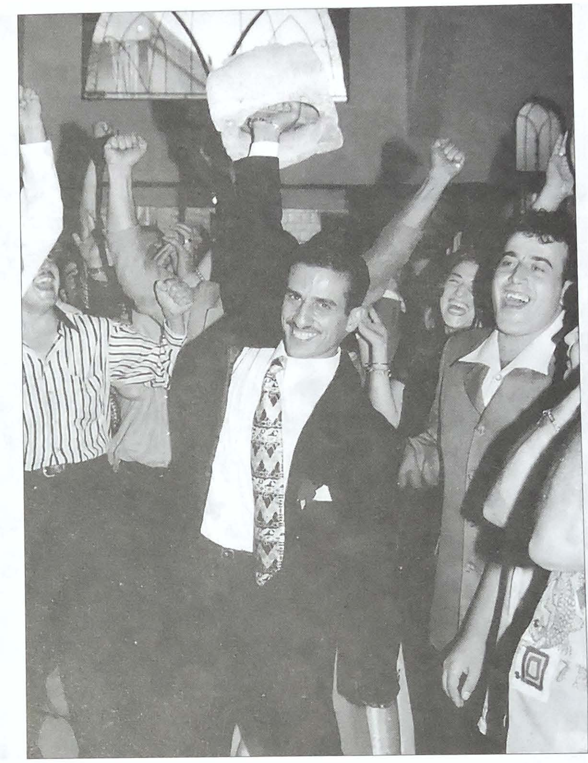
- **Henri Guys, Beyrouth et le Liban, Dar Lahad Khater, Beyrouth, Liban 1985.**

اطروحة جامعية

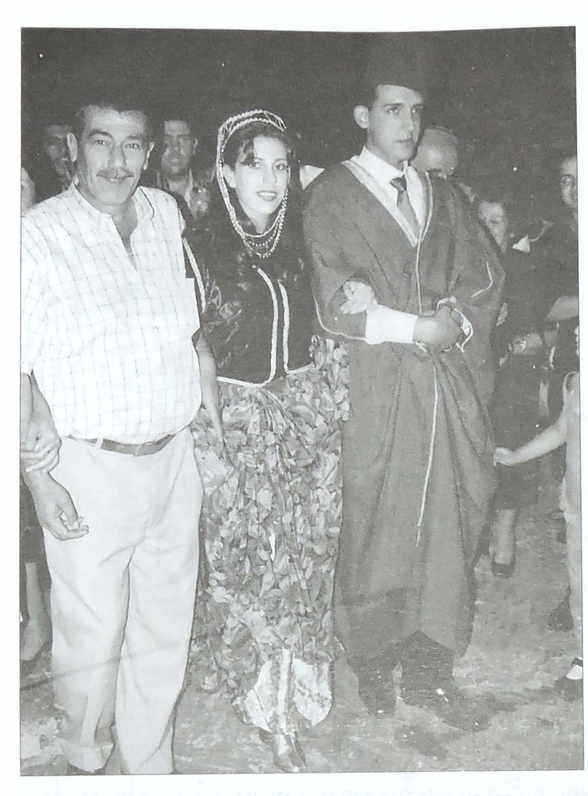
- **Arraçi, Ali Jihad, Final of Druzes Lebanon, Urbina Illinois 1971.**



زيارة مقام النبي أيوب عليه السلام. ويبدو المشايخ (الأجاويد) يستمعون الى المغفور له سماحة شيخ عقل الدروزز محمد ابو شقرا وهو يلقي خطبته في باحة المقام الوسطى.



عودة الى القيمة في أحد اعراس الشوف. العريس يرفع القيمة.



من احد اعراس الشوف، عروسان في سنة ٢٠٠٠ بالزي القديم.



شباب العريس، يتقدمهم العريس، يصلون الى بيت أهل العروس بالغناء في عرس في مزرعة الشوف سنة ١٩٩٠.



عريسان أخَوان من مزرعة الشوف محمولان على الأكتاف في ساحة بحمدون وسط حلقات الدبكة والرقص والتصفيق والغناء.



مشهد من احتفالات مدارس الليسه ناسيونال بتحرير جنوب لبنان والبقاع الغربي، في اثناء رحلتها اليهما في ٢٧ أيار ٢٠٠٠. وهذا المشهد في مدينة بنت جبيل.



راقصان من فرقة الأفراح اثناء القيام برقصة السيف والترس امام العروسين.



رقصة السيف والترس في احد اعراس الشوف.



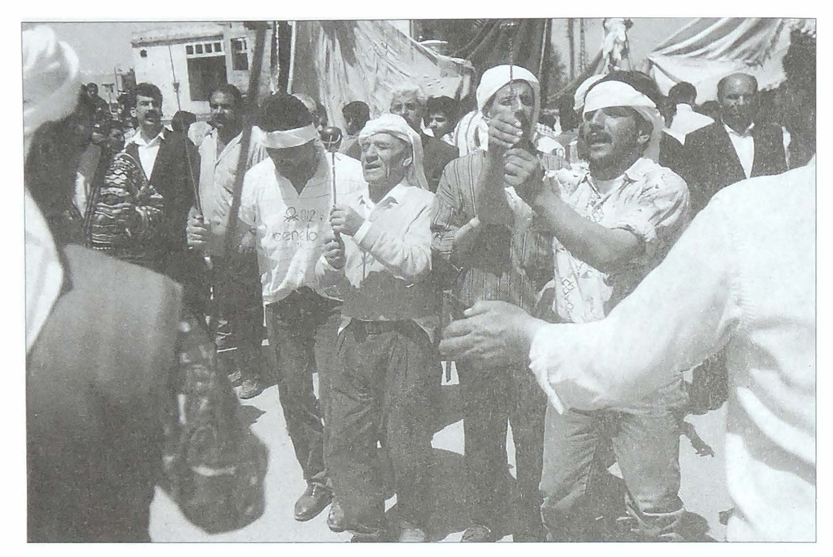
عروسان من بلدة كفرقوق في قضاء راشيا يحمل كل منهما شمعة في عرسهما سنة ١٩٩٦، على عادة اهل قرى غوطة دمشق مثل صحنايا وجرمانا، مما يدلّ على اثر الجوار والاقتباس في تطور العادات والتقاليد.



خروج نوبة بر الياس سنة ١٩٩٦ لاقامة حلقة الذكر.



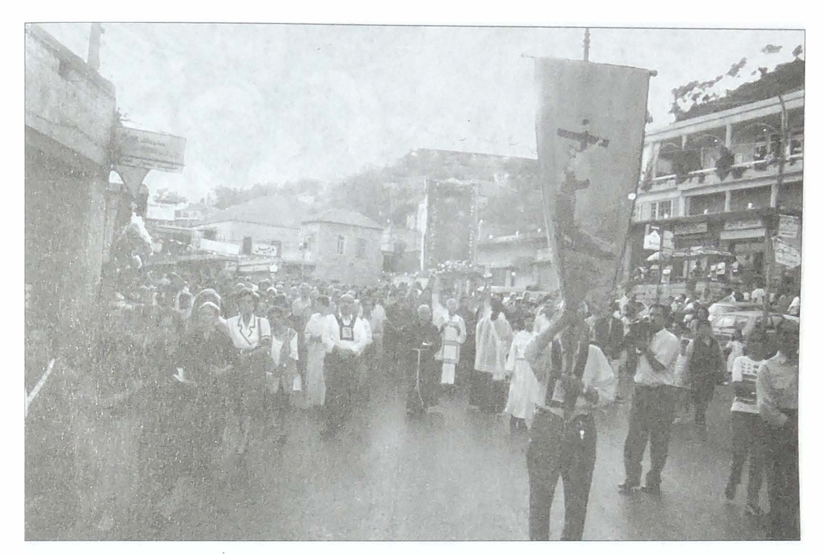
نوبة بر الياس خلال اقامة حلقة الذكر في سنة ١٩٩٦.



مشهد من حلقة الذكر في برالياس سنة ١٩٩٦.



مشهد من حلقة الذكر في مقام النبي العُزير بحسب الطريقة الرفاعية في عيد رأس السنة الهجرية ١٤٢١ - ٢٠٠٠ ميلادية.



زياح اهالي دير القمر في عيد السيدة.



مفتي البقاع الشيخ خليل الميس رافعاً الدبّوس من نوبة برالياس في مقام النبي العُزير في ذكرى رأس السنة الهجرية ١٤٢١ الموافق لخميس الأسرار ٦ نيسان ٢٠٠٠.



مشهد ابتداء المصرع (مقتل الحسين).



في خيمة النساء قبل مقتل الحسين.



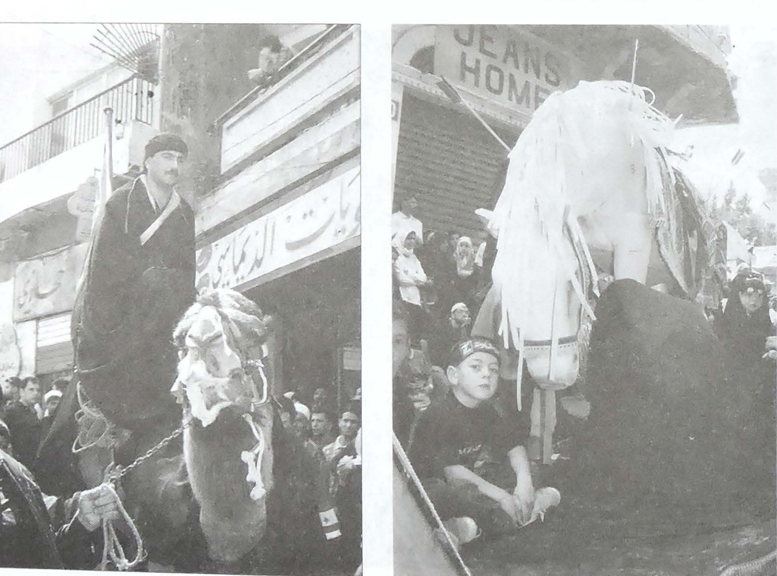
الضرب على الرؤوس بعد مقتل الحسين في ساحة النبطية.



مشهد من التطبير في مدينة النبطية خلال الاحتفال بعاشوراء.

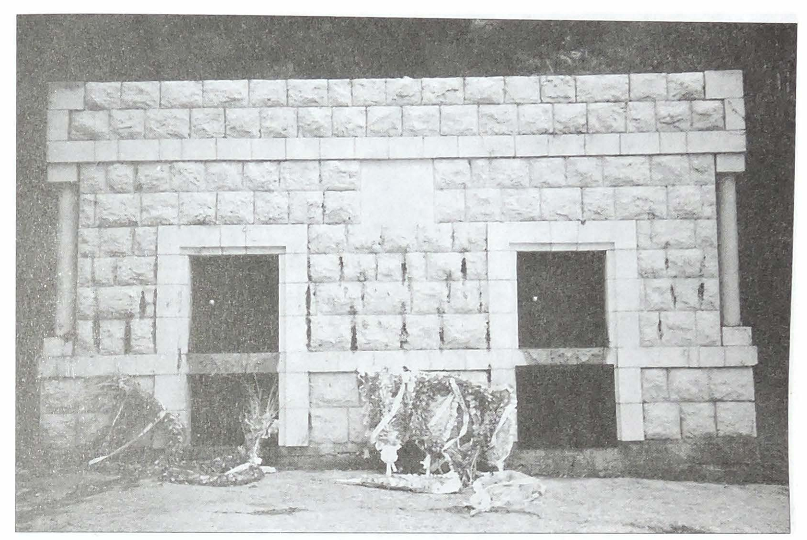


مشهد مقتل القاسم والحسين يبكيه.

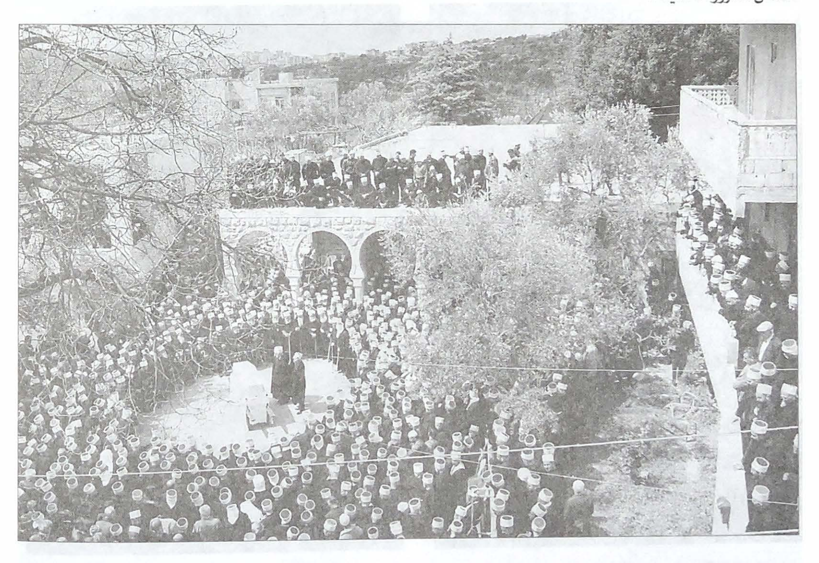


مشهد لحصان الحسين خلواً منه.

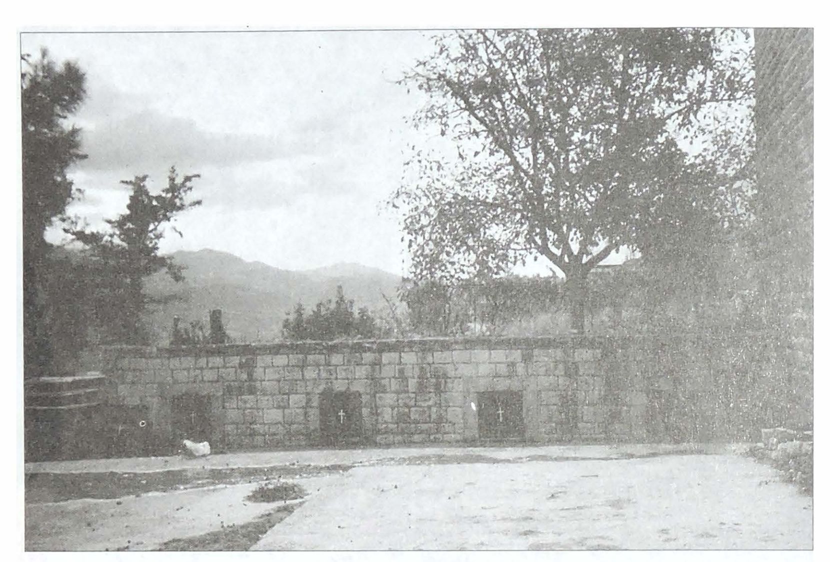
مشهد لعلي بن الحسين (زين العابدين) مكبلاً بالسلاسل.



مدفن لآل ابي كروم في مزرعة الشوف، مؤلف من طبقتين: العليا لوضع الجثث، والسفلى لوضع العظام. وهو نموذج من مدافن الدروز الحديثة.



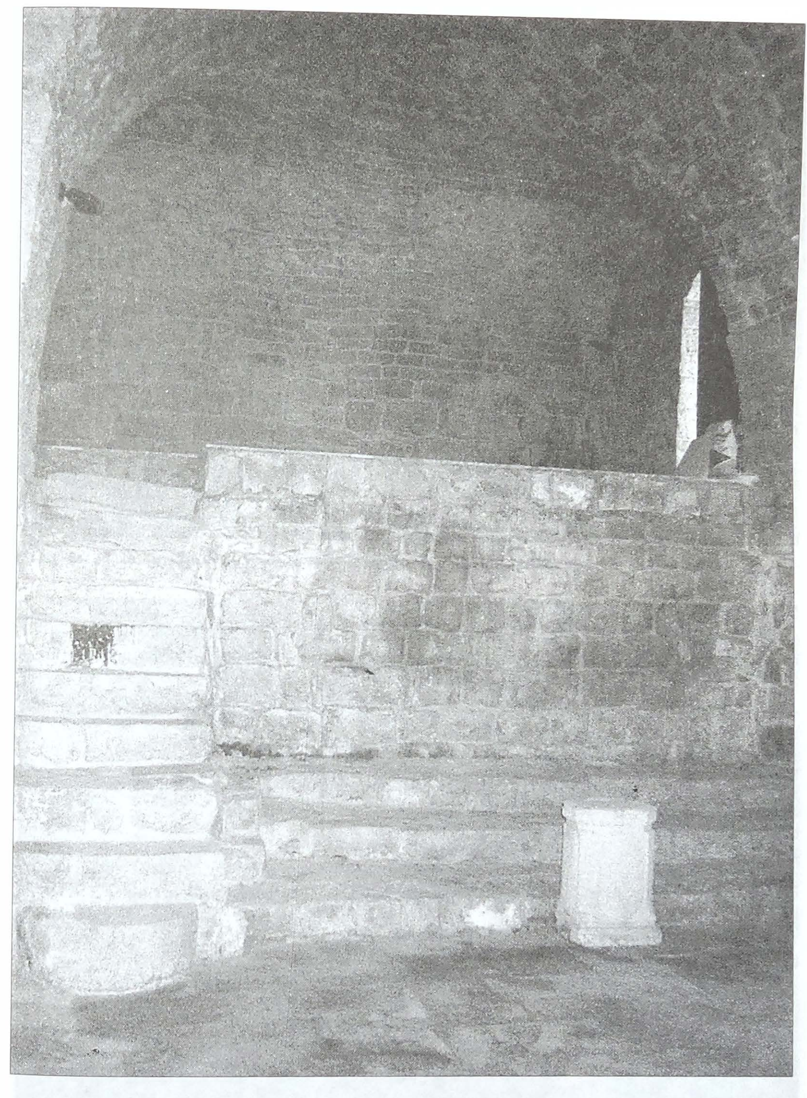
الصلاة على الميت عند الدروز.



مدافن قديمة لنصارى مزرعة الشوف من طبقة واحدة. والى اليمين منها جدار الكنيسة الملاصق لها.



سقيفة او ستارة من اسمنت في فسحة المدافن في مزرعة الشوف، تقي المشيعين الشمس والمطر، وفي وسطها منصة توضع عليها الجنازة للصلاة عليها.



كنيسة مار جرجس القديمة في مزرعة الشوف وهي مؤلفة من قسمين، أعلاهما كان مخصصاً للنساء وله مدخل خاص، وكان متصلاً بالقسم المخصص للرجال بدرج، ومفصولاً عنه بقطع هو عبارة عن شبك من خشب، بسبب عدم جواز الاختلاط بين الرجال والنساء. (تجري حالياً مديرية الآثار الإصلاحات في المكان).



مدفن الست فاخرة البعيني ١١٧٦ ـ ١٢٦٥ هـ ١٧٦٤ ـ ١٨٤٩م. بنيت فوقه شاهدة، وتحول الى مزار لأن الست فاخرة من اشهر تقيات الدروز.



القديس جرجس يصرع التنين.

هذه الدراسة هي بحث شامل ومستفيض عن العادات والتقاليد في لبنان، في الأفراح والأعياد والأحزان، يعالج مناسبات الأفراح الشخصية كالولادة والختان والعماد والخطبة والعرس، ومناسبات الأعياد والمواسم الدينية المسيحية والإسلامية، ومناسبات الحزن كالموت والمرض والخسائر والنزاعات والحروب، وما يتخللها جميعاً من مظاهر زمنية ومراسم دينية، إضافة إلى ألوان الرقص والغناء التي تُحيا بها الأفراح.

وهذه الدراسة هي ايضاً عرض مسهب، مقرون بالنقد، يتابع العادات والتقاليد في نشوئها وتطورها، وما شهدته من تعديل وإلغاء وزيادة بفضل الاقتباس والتطور والحداثة، كما يتطرق إلى ما بينها من أوجه الإختلاف الناتجة من تعدد المذاهب الدينية والفئات والمناطق، وأوجه التشابه الناتجة من وحدة التراث والعيش المشترك.